

مَشْرِح

مَهْجِ الْبَلَاغِيَّةِ

لَاِبَنِ أَبِي الْحَكَمِ دِيدٍ

مُحَرَّرٌ بِفَتْحِهِ

كَانَ الْكَتَابُ الْفَرِيدَ
بَشَادَ



شَرْح
مَهْجِ الْبِلَاغَةِ
ابن أبي الجعد

١٤ - ١٣

حقوق الطباعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م



دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

خبرية: ٧٩٤٦٦٦٦ - ٧٩٤٦٦٦٦ - ٧٩٤٦٦٦٦ - ٧٩٤٦٦٦٦

<http://www.Dar-ALamira.com>
email: info@dar-alamira.com



دار الكتاب العربي

بغداد - شارع الحسيني

تلفون: ٢١٥٤٥٦١ - ٧٩٠٤١٩٣٧٥

مكتبة الجواهر الفخيمة

مؤسسة السيد عبد الكريم الحسيني

الطبعة
تأسست سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١
مقر الإدارة - العراق

شرح

تهجد البلاغية

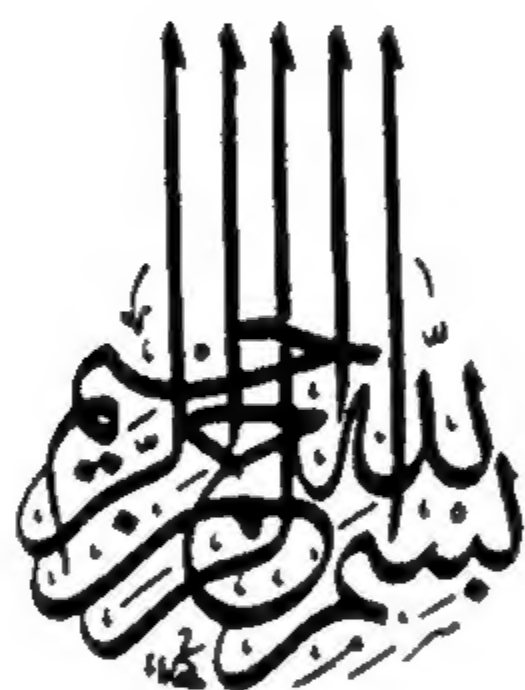
ابن أبي الحَكْدِيد

تحقيق

محمّد إبراهيم

المجلد السابع

١٣ - ١٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

٢٢٤ - ومن كلام له عليه السلام

في وصف بيعته بالخلافة، وقد تقدم مثله بالفاظ مختلفة

الأصل: وَبَسَطْتُمْ يَدَيَّ فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكُكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرْدِهَا، حَتَّى أَنْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَخَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ.

الشرح: التَّدَاكَ: الازدحام الشديد. والإِبِلِ الْهِيمِ: العطاش.

وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ: مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً، والمضارع يهْدِجُ، بالكسر، وتحامل نحوها العليل: تكلف المشي على مشقة.

وَخَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ: كشفت عن وجهها جرّساً على حضور البيعة، والكعاب: الجارية التي قد نهت ثديها، كعبت تكعب، بالضم.

قوله: «حَتَّى أَنْقَطَعَتِ النَّعْلُ وَسَقَطَ الرِّدَاءُ»، شبيه بقوله في الخطبة الشَّقَشَقِيَّة: «حَتَّى لَقِدَ وَطِئَ الْحَسَنَانُ وَشُقَّ عِظْفَايَ».

وقد تقدم ذكر بيعته عليه السلام بعد قتل عثمان وإطباق الناس عليها، وكيفية الحال فيها، وشرح شرحاً يستغني عن إعادته.

٢٢٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الوصية بالتقوى

الأصل: فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِثْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتَنَالُ الرَّغَائِبُ.

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالْدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ.

وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمرًا ناكسًا، أَوْ مَرَضًا حابسًا، أَوْ مَوْتًا خالِسًا، فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لَذَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِبَائِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَظْلُوبٍ، قَدْ أَغْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ، وَعَظَّمَتْ فِيكُمْ سَطَوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَذَوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَفْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلُمِهِ، وَأَخْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَخَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ، وَدُجُوُ إِطْبَاقِهِ، وَخُشُونَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ، وَعَفَى آثَارَكُمْ، وَعَظَلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وَرَثَتَكُمْ، يَقْسِمُونَ ثُرَاتَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَنْمَنْعِ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ.

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَالتَّأَمُّبِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غُرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا، وَأَضْبَحَتْ مَسَاكِينُهُمْ أَجْدَنًا، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا يَخْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مُنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقُضِي عَنَّاؤُهَا، وَلَا يَرْكُذُ بِلَاؤُهَا.

الشرح: عِتَقَ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «التَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا»^(١)، أَيِ كُلِّ ذَنْبٍ مُوَبَّقٍ يَمْلِكُ الشَّيْطَانُ فَاعِلُهُ وَيَسْتَحُوذُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَعْتِقُ مِنْهُ، وَتَكْفُرُ عِقَابَهُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: «وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ».

قَوْلُهُ ﷺ: «وَالْعَمَلُ يَنْفَعُ»، أَيِ اعْمَلُوا فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرُ نَافِعٍ. قَوْلُهُ ﷺ: «وَالْحَالُ هَادِئٌ»، أَيِ سَاكِنَةٌ لَيْسَ فِيهَا مَا فِي أَحْوَالِ الْمَوْقِفِ مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ الْفُطْيَةِ، نَحْوِ تَطَايُرِ الصَّحَفِ، وَنُطْقِ الْجَوَارِحِ، وَعَنَفِ السِّيَاقِ إِلَى النَّارِ. قَوْلُهُ ﷺ: «وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ»، يَعْنِي أَنَّ التَّكْلِيفَ بَاقٍ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْحَفَظَةَ تَكْتُبُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، بِخِلَافِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُ يَبْطُلُ ذَلِكَ، وَيَسْتَعْنِي عَنْ الْحَفَظَةِ لِسُقُوطِ التَّكْلِيفِ. قَوْلُهُ: «عُمَرًا نَاكِسًا»، يَعْنِي الْهَرَمَ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ»^(٢)، لِرَجُوعِ الشَّيْخِ الْهَرَمِ إِلَى مِثْلِ حَالِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ فِي ضَعْفِ الْعَقْلِ وَالْبَنِيَّةِ.

(١) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (٤٣/٣). (٢) سورة يس، الآية: ٦٨.

والموت الخالس: المختطف. والظلمات: جمع طية بالكسر، وهي منزل السفر.
والواتر: القاتل، والوثر، بالكسر: الدّخل.
وأعلقتكم حباله: جعلتكم معتقلين فيها، ويروي: «قد علقتكم» بغير همز.
وتكتفتكم غوائله: أحاطت بكم دواهيهِ ومصائبه. وأقصدتكم: أصابتكم.
والمعابل: نصال عراض، الواحدة مِعْبَلَة، بالكسر.
وعذوته، بالفتح: ظلمه. وثبوته: مصدر نَبَا السَّيف، إذا لم يؤثر في الضريبة.
ويوشك، بالكسر: يقرب. وتغشاكم: تحيط بكم.
والذواجي: الظلم، الواحدة داجية. والظلل: جمع ظلة، وهي السحاب. والاحتدام:
الاضطرام. والحنادس: الظلمات.
وإرهاقه: مصدر أرهقته، أي أعجلته، ويروي: «إرهاقه» بالزاي.
والأطباق: جمع طَبَق، وهذا من باب الاستعارة، أي تكاثف ظلماتها طبق فوق طبق.
ويروي: «وجشوبة مذاقه» بالجيم والباء، وهي غلظ الطعام.
والنجي: القوم يتناجون. والندي: القوم يجتمعون في النادي.
واحتلبوا درّتها: فازوا بمنافعها، كما يحتلب الإنسان اللبن.
وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمل.

الأصل: منها في صفة الزهاد: كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ
لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يَبْصُرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، ثَقُلَبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ
ظَهْرَانِي أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ، وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ
قُلُوبِ أَخْبَائِهِمْ.

الشرح: بين ظهراني أهل الآخرة، بفتح النون، ولا يجوز كسرهما، ويجوز «بين ظهراني أهل
الآخرة»، لو روي، والمعنى في وسطهم.

قوله عليه السلام: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها»، أي هم من أهلها في ظاهر الأمر
وفي مرأى العين وليسوا من أهلها، لأنه لا رغبة عندهم في ملاذها ونعيمها، فكانتهم خارجون
عنها.

قوله: «عملوا فيها بما يبصرون»، أي بما يروونه أصلح لهم، ويجوز أن يريد أنهم لشدة اجتهادهم قد أبصروا المال، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء، وهذا كقوله عليه السلام: «لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً».

قوله عليه السلام: «وبادروا فيها ما يحذرون»، أي سابقوه، يعني الموت. قوله عليه السلام: «تقلب أبدانهم»، هذا محمول تارة على الحقيقة، وتارة على المجاز، أما الأول فلأنهم لا يخالطون إلا أهل الدين ولا يجالسون أهل الدنيا، وأما الثاني فلأنهم لما استحقوا الشواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه، فأبدانهم تتقلب بين ظهرائي أهل الآخرة، أي بين ظهرائي قوم هم بمنزلة أهل الآخرة، لأن المستحق للشيء نظير لمن فعل به ذلك الشيء. ثم قال: هؤلاء الزهاد يرون أهل الدنيا إنما يستعظمون موت الأبدان، وهم أشد استعظاماً لموت القلوب، وقد تقدم من كلامنا في صفات الزهاد والعارفين ما فيه كفاية.

٢٢٦ - ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذي قار

وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدي في كتاب «الجمال»^(١)

الأصل: فَصَدَعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَأَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاعِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

الشرح: ذوقار: اسم موضع قريب من البصرة، وفيه كانت وقعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام.

وصدع بما أمر به، أي جهر، وأصل الصدع الشق.

ولم به: جمع. ورتق: خاط والحم.

والعداوة الواعرة: ذات الوغرة، وهي شدة الحر.

والضغائن: الأحقاد.

والقادحة في القلوب، كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النار بالمقدحة.

(١) الجمال: لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المتوفى سنة (٢٠٧هـ)،

«الأعلام» للزركلي (٣١١/٦).

٢٢٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمة، وهو من شيعة، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا، فقال عليه السلام

الأصل: إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ قِيٌّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَازَةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

الشرح: هو عبد الله بن زمة، بفتح الميم، لا كما ذكره الراوندي، وهو عبد الله بن زمة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي.

كان الأسود من المستهزئين الذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل، وابنه زمة بن الأسود، قُتل يوم بدر كافراً، وكان يدعى زاد الركب، وقُتل أخوه عقيل بن الأسود أيضاً كافراً يوم بدر، وقُتل الحارث بن زمة أيضاً يوم بدر كافراً، والأسود هو الذي سمع امرأة تبكي على بعير تضله بمكة بعد يوم بدر، فقال:

أَتُبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ وَيَمْنَعُهَا مِنَ التَّوَمِ الْهَجُودُ
وَلَا تَبْكِي عَلَى بَذْرِ وَلَكِنْ عَلَى بَذْرِ تَقَاصَّرَتِ الْجُدُودُ
أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ أَنَاسٌ وَلَوْلَا يَوْمٌ بِدَرٍ لَمْ يَسُودُوا

وكان عبد الله بن زمة شيعة لعلي عليه السلام. ومن أصحابه، ومن ولد عبد الله هذا أبو البخترى القاضي، وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زمة، قاضي الرشيد هارون بن محمد المهدي، وكان منحرفاً عن علي عليه السلام، وهو الذي أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخذه بيده فمزقه.

وقال أمية بن أبي الصلت يرثي قتلى بدر، ويذكر زمة بن الأسود:

عَيْنٌ بَكَّتْ لِنُوفَلٍ وَلِعَمْرٍو ثُمَّ لَا تَبْخَلِي عَلَى زَمَعَةَ

نوفل بن خويلد من بني أسد بن عبد العزى، ويعرف بابن العدوية، قتله علي عليه السلام، وعمرو أبو جهل بن هشام، قتله عوف بن عفراء، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود.

قوله عليه السلام: «وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ» أي ما جلبته أسيافهم وساقته إليهم، والجلب: المال المجلوب. وجناة الثمر ما يُجَنَّى منه، وهذه استعارة فصيحة.

٢٢٨ - ومن كلام له عليه السلام في أحجام اللسان عن الكلام

الأصل: أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا أَمْتَعَ، وَلَا يُمَهِّلُهُ النَّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ، وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهْدَلَتْ عُصُونُهُ.

وَأَعْلَمُوا رَجَمَكُمْ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُضْطَلِحُونَ عَلَى الْإِذْهَانِ^(١)، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آئِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَازِقٌ^(٢)، لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يَبُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرُهُمْ.

الشرح: بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ: قطعة منه، والهاء في «يسعده» ترجع إلى اللسان.

والضمير في «امتنع» يرجع إلى الإنسان، وكذلك الهاء في «لا يمهل» يرجع إلى اللسان.

والضمير في «اتسع» يرجع إلى الإنسان، وتقديره: فلا يُسْعِدُ اللِّسَانُ الْقَوْلَ إِذَا أَمْتَعَ الْإِنْسَانُ عَنْ أَنْ يَقُولَ، وَلَا يَمَهِّلُ اللِّسَانُ النَّطْقَ إِذَا اتَّسَعَ لِلْإِنْسَانِ الْقَوْلُ، والمعنى: إن اللسان آلة للإنسان، فإذا صرفه صارفت عن الكلام، لم يكن اللسان ناطقاً، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللسان بما في ضمير صاحبه.

وتنشبت عروقه، أي علفت، وروي: «انتشبت»، والرواية الأولى أدخل في صناعة الكلام، لأنها بإزاء تهذلت، والتهذل: التذلي، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراساني، فخطب بها في خطبة مشهورة من خطبه.

واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة اقتضت أن يقوله، وذلك أنه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب الناس يوماً، فصعد المنبر، فحصر ولم يستطع الكلام، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسّم ذروة المنبر، وخطب خطبة طويلة، ذكر الرضي رحمه الله منها هذه الكلمات، وروى شيخنا أبو عثمان في كتاب «البيان والتبيين»^(٣) أن عثمان صعد

(١) الإذهان: أذهن: أظهر خلاف ما أضمر. أو الإذهان: الإبقاء، اللسان، مادة (دهن).

(٢) مमाذق: غير مخلص. اللسان، مادة (مذق).

(٣) البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المعتزلي، المتوفى سنة (٢٥٥هـ). «كشف الظنون» (١/٢٦٣).

المنبر فارتج عليه فقال: «إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل، أخرج منكم إلى إمام خطيب، وستأتاكم الخطبة على وجهها». ثم نزل.

قال أبو عثمان: وروى أبو الحسن المدائني، قال: صعد ابن لعدي بن أرطاة المنبر، فلما رأى الناس حَصِر فقال: «الحمد لله الذي يُطعم هؤلاء ويسقيهم».

وصعد رَوْح بن حاتم المنبر، فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم، وصرفوا أسماعهم نحوه، قال: «نكسوا رؤوسكم، وغضّوا أبصاركم، فإنّ أول مركب صعب، فإذا يشر الله عزّ وجلّ فَتَحَ قُلُوبَ تيسر». ثم نزل.

وخطب مُضْعَب بن حَيَّان أخو مقاتل بن حَيَّان خطبة نكاح فحَصِر، فقال: «لَقِّنُوا موتاكم لا إله إلا الله»، فقالت أمّ الجارية: عَجَل الله موتك، ألهذا دعوناك!

وخطب مَرْوان بن الحَكَم فحَصِر، فقال: «اللهمّ إنا نحمّلك ونستعينك، ولا نشرك بك».

ولما حَصِر عبد الله بن عامر بن كُريز على المنبر بالبصرة - وكان خطيباً - شقّ عليه ذلك، فقال له زياد بن أبيه، وكان خليفته: أيها الأمير لا تجزّع، فلو أقمت على المنبر عامّة مَنْ ترى أصابهم أكثر ممّا أصابك. فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس: إنّ الأمير اليوم موعوك، فقبل لرجل من وجوه أمراء القبائل: قم فاصعد المنبر، فلما صعد حَصِر، فقال: الحمد لله الذي يرزق هؤلاء. وبقي ساكناً، فأنزلوه، وأصعدوا آخر من الوجوه، فلما استوى قائماً قابل بوجهه الناس، فوقعت عينه على صلّة رجل، فقال: أيها الناس، إنّ هذا الأصلع قد منعني الكلام، اللهمّ فالعن هذه الصلّة. فأنزلوه. وقالوا لوازع اليشكري: قم إلى المنبر فتكلّم، فلما صعد ورأى الناس قال: أيها الناس إني كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة، ولكن امرأتي حملتني على إتيانها، وأنا أشهدكم أنّها طالق ثلاثاً، فأنزلوه، فقال زياد لعبد الله بن عامر: كيف رأيت؟ قم الآن فاخطب الناس.

وقال سهل بن هارون: دخل قُطْرِب النحويّ على المخلوع، فقال: يا أمير المؤمنين، كانت عدّتك أرفع من جائزتك - وهو يتبسّم - فاغتاظ الفضل بن الربيع فقلت له: إنّ هذا من الحَصِر والضعف، وليس من الجلد والقوّة، أما تراه يقتلُ أصابعه ويرشّح جيئته!

ودخل معبد بن طوق العنبريّ على بعض الأمراء، فتكلّم وهو قائم فأحسن، فلما جلس تَلَهَّيْع^(١) في كلامه، فقال له: ما أظرفك قائماً، وأمّوّقك قاعداً! قال: إني إذا قُمت جَدَدْتُ، وإذا قعدت هَزَلْتُ، فقال: ما أحسن ما خرجت منها!

(١) تَلَهَّيْع: أفرط وتبلّغ. اللسان، مادة (لهع).

وكان عمرو بن الأهتم المنقري والزبرقان بن بدر عند رسول الله ﷺ، فسأل ﷺ عمرواً عن الزبرقان فقال: يا رسول الله، إنه لمانع لحوزته، مطاع في أدانيه، فقال الزبرقان: حسدني يا رسول الله! فقال عمرو: يا رسول الله، إنه لزير^(١) المروءة، ضيق العطن^(٢)، لنيم الخال. فنظر رسول الله ﷺ إلى وجه عمرو، فقال: يا رسول الله، رضيته فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى. فقال ﷺ: إن من البيان لسحراً^(٣).

وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهيمة.

وقال ابن أبي الزناد، كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعه، فكتب إليه: إنه يخيل إليّ أني لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ: أضائاً أم معزاً؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إليّ: أذكراً أم أنثى! وإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إليّ: صغيراً أم كبيراً! فإذا كتبت إليك في مظلمة، فلا تراجعني والسلام.

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهزم دور من خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعقر نخلهم، فكتب إليه: بأيهما أبداً بالدور أم بالنخل يا أمير المؤمنين؟ فكتب إليه: لو قلت لك بالنخل لكتبت إليّ بماذا أبداً؟ بالشهريز أم بالبرني! وعزله، وولى محمد بن سليمان.

وخطب عبد الله بن عامر مرة فأرتج عليه، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى، فقال: لا أجمع عليكم عيًّا ولؤماً: من أخذ شاة من الشوق فهي له وثمنها عليّ.

وخطب السّفاح أول يوم صعد فيه المنبر فأرتج عليه، فقام عمه داود بن عليّ، فقال: أيها الناس إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فيكم فعله، ولا أثر الأفعال أجدي عليكم من تشويق^(٤) المقال، وحسبكم كتاب الله علماً فيكم، وابن عم رسول الله ﷺ خليفة عليكم. قال الشاعر:

وما خير من لا ينفع الدهر عيشه وإن مات لم يحزن عليه أقاربه

(١) زير المروءة: قليلها، القاموس، مادة (زمر).

(٢) ضيق العطن: قليل المال ضيق الرجل والذراع. اللسان، مادة (عطن).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ٣٤١/٧، وأخرجه ابن سلامة في مسند ابن شهاب: رقم ٩٦٣.

(٤) شق الكلام: إذا أخرجه أحسن مخرج. اللسان، مادة (شق).

كهام على الأقصى قليل لسانه وفي بشر الأدنى حديد مخالفة
وقال أحيحة بن الجلاح:

والصمت أجمل بالفتى ما لم يكن عي يشينه
والقول ذو خطل إذا ما لم يكن لب يزينه

٢٢٩ - ومن كلام له عليه السلام عند اختلاف الناس

الأصل: روى دُعلب اليمامي عن أحمد بن قتيبة، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية، قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس:

إنما فرّق بينهم مبادئ طينهم، وذلك أنهم كانوا فلقاً من سبخ أرض وعذبها، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون، فتأم الرواء ناقص العقل، وماد القائمة قصير الهمة. وزاكي العمل قبيح المنظر، وقريب القعر بعيد السبر، ومفروغ الضريبة منكر الجليّة، وتائه القلب متفرق اللب. وطيّ اللسان حديد الجنان.

الشرح: دُعلب وأحمد وعبد الله ومالك، رجال من رجال الشيعة ومحدثيهم. وهذا الفصل عندي لا يجوز أن يحتمل على ظاهره، وما ينسارع إلى أفهام العامة منه، وذلك لأن قوله: «أنهم كانوا فلقاً من سبخ أرض وعذبها»، إما أن يريد به أن كل واحد من الناس ركب من طين، وجعل صورة بشرية طينية برأس ويطن ويدين ورجلين، ثم نفخت فيه الروح كما فعل بآدم، أو يريد به أن الطين الذي ركب من صورة آدم فقط كان مختلطاً من سبخ وعذب، فإن أريد الأول فالواقع خلافه، لأن البشر الذين نشاهدهم، والذين بلغتنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم، وإنما خلقوا من نطف آبائهم. وليس لقائل أن يقول: لعل تلك النطف اختلفت لأنها تولدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة، وذلك لأن النطفة لا تتولد من غذاء بعينه، بل من مجموع الأغذية، وتلك الأغذية لا يمكن أن تكون كلها من أرض سبخة محضة في السبخة، لأن هذا من الاتفاقات التي يعلم عدم وقوعها، كما يعلم أنه لا يجوز أن يتفق أن يكون أهل بغداد في وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلا السكباج^(١) خاصة، وأيضاً فإن الأرض السبخة، أو التي

(١) السكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل وأفاويه، معرب: المعجم الوسيط، مادة (سكج).

الغالب عليها السبخية، لا تثبت الأقوات أصلاً. وإن أريد الثاني، وهو أن يكون طين آدم ﷺ مختلطاً في جوهره، مختلفاً في طبائعه، فلم كان زيداً الأحق يتولد من الجزء السبخي وعمرو العاقل يتولد من الجزء العذبي؟ وكيف يؤثر اختلاف طين آدم من ستة آلاف سنة في أقوام يتوالدون الآن.

والذي أراه أن لكلامه ﷺ تأويلاً باطناً، وهو أن يريد به اختلاف النفوس المدبرة للأبدان، وكفى عنها بقوله: «مبادئ طينهم»، وذلك أنها لما كانت الماسكة للبدن من الانحلال، العاصمة له من تفرق العناصر، صارت كالمبدأ وكالعلة له من حيث إنها كانت علة في بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض، ولذلك إذا فارقت عند الموت افرقت العناصر، وانحلت الأجزاء، فرجع اللطيف منها إلى الهواء، والكثيف إلى الأرض.

وقوله: «كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبةا، وحزن تربة وسهلها» تفسيره أن الباري جل جلاله لما خلق النفوس، خلقها مختلفة في ماهيتها، فمنها الزكية ومنها الخبيثة، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة، ومنها القوية ومنها الضعيفة، ومنها الجريئة المقيدة، ومنها الفشلة الدليلة، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس المختلفة المتضادة.

ثم فسر ﷺ وعلل تساوي قوم في الأخلاق وتفاوت آخرين فيها، فقال: إن نفس زيد قد تكون مشابهة أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو، فإذا هما في الأخلاق متساويتان، أو متقاربتان، ونفس خالد قد تكون مضادة لنفس بكر أو قريبة من المضادة، فإذا هما في الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة.

والقول باختلاف النفوس في ماهياتها هو مذهب أفلاطون، وقد أتبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء، وقال به كثير من مشيبي النفوس من متكلمي الإسلام. وأما أرسطو وأتباعه، فإنهم لا يذهبون إلى اختلاف النفوس في ماهيتها. والقول الأول عندي أمثل.

ثم بين ﷺ اختلاف آحاد الناس، فقال: منهم من هو تام الرواء، لكنه ناقص العقل. والرواء بالهمز والمد: المنظر الجميل، ومن أمثال العرب: «ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل»^(١).

وقال الشاعر:

عقله عقل طائرٍ وهو في خلقه الجميل

وقال أبو الطيب:

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شرفٌ له إذا لم يكن في فعله والخلائق

(١) الدخل: العيب والرتبة. اللسان، مادة (دخل).

وقال الآخر:

وما ينفع الفتیان حُسنُ وجوههم
فلا يفررتك المرء راق رواقه
ومن شعر الحماسة:

لَقَوْمِي أَرْغَى لِلْعُلَا مِنْ عَصَابَةٍ
وأنتم سماء يُعجِب الناس رزها
تقطع أطناب البيوت بحاصب
فويل أمها خيلاً بهاء وشارة
ومنه أيضاً:

وكائر بسعدٍ إنَّ سعداً كثيرة
يروغك من سغدٍ بن زيد جسومها
ولا ترجُ من سغدٍ وفاء ولا نضراً
وتزهدُ فيها حين تفتلها خُبراً

قوله عليه السلام: «وماذ القامة قصير الهمة»، قريب من المعنى الأول، إلا أنه خالف بين الألفاظ، فعل الناقص بإزاء التام، والقصير بإزاء الماد. ويمكن أن يجعل المعنيان مختلفين، وذلك لأنه قد يكون الإنسان تام العقل، إلا أن همة قصيرة، وقد رأينا كثيراً من الناس كذلك، فإذاً هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأول.

قوله عليه السلام: «وزاكي العمل قبيح المنظر» يريد بذكاء أعماله حسنها وطهارتها، فيكون قد أوقع الحسن بإزاء القبيح، وهذا القسم موجود فاش بين الناس.

قوله: «وقريب القعر بعيد السُر»، أي قد يكون الإنسان قصير القامة، وهو مع ذلك داهية باقعة، والمراد بقرب قعره تقارب ما بين طرفيه، فليست بطنه بمديدة ولا مستطيلة، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدته ليياً فطناً، لا يوقف على أسرارهِ، ولا يدرك باطنه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وفي أثوابه أَسَدٌ مَزِيرٌ^(١)
ويعجُبُكَ الظَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فيخلف ظَنُّكَ الرَّجُلَ الظَّرِيرَ^(٢)

(١) المزير: الشديد القلب النافذ، القاموس، مادة (مزر).

(٢) الظرير: ذو المنظر والرّواء، القاموس، مادة (طرر).

وقيل لبعض الحكماء: ما بال القصار من الناس أدهى وأحذق؟ قال: لقرب قلوبهم من أدمغتهم.

ومن شعر الحماسة:

إلا يَكُنْ عَظِمِي طَوِيلًا فَلِئَنِّي له بالخصال الصالحات وصول
ولا خَيْرَ في حُسْنِ الجُسُومِ وطولها إذا لم تَزِنْ حَسَنَ الجُسُومِ عقول
ومن شعر الحماسة أيضاً وهو تمام اليتيم المقدم ذكرهما:

فما عَظُمَ الرجال لهم بفَخْرِ ولكن فخرهم كرم وخير
ضِعاف الطير أطولها جُسُومًا ولم تَطُلِ البِزاة ولا الضُفُور
بُفَاث الطير أكثرها فِراخًا وأم الصقر مِثْلًا نَزُور^(١)
لقد عَظُمَ البعير بغير لُبٍّ فلم يَسْتَفِنِ بالعِظَمِ البعيرُ

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «ومعروف الضريرة، منكر الجلية»، الجلية هي الخلق الذي يتكلفه الإنسان ويستجلبه، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلف الشجاعة، أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود، وهذا القسم أيضاً عام في الناس.

ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوي الأخلاق والطبع المتناسبة المتلائمة، فقال: «وتائه القلب متفرق اللب»، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادان.

ثم قال: «وطليق اللسان حديد الجنان»، وهذان الوصفان أيضاً متناسبان، وهما متضادان للوصفين قبلهما، فالأولان ذم، والآخران مدح.

٢٣٠ - ومن كلام له **عَلَيْهِ السَّلَام** قاله وهو يلي غسل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وتجهيزه

الأصل: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسْلِيًا عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْقَذْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوُونَ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا، وَالْكَمَدُ مُحَالِفًا، وَقَلَّا لَكَ! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمَلِّكَ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!

(١) نزور: قليلة الولد. القاموس، مادة (نزر).

بأبي أنت وأمي! أذكرنا عند ربك، وأجعلنا من بالك!

الشرح: بابي أنت وأمي! أي بابي أنت مفدى وأمي.

والإنباء: الإخبار، مصدر أنبا ينبىء، وروي: «والأنباء» بفتح الهمزة جمع نبأ، وهو الخبر. وأخبار السماء: الوحي.

قوله عليه السلام: «خصصت وعممت»، أي خصصت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكثرثون بما يصيبهم بعدك من المصائب، ولا بما أصابهم من قبل، وعمت هذه المصيبة أيضاً الناس، حتى استوى الخلائق كلهم فيها، فهي مصيبة خاصة بالنسبة، وعامة بالنسبة.

ومثل قوله: «حتى صرت مسلماً عمن سواك» قول الشاعر:

رُزئنا أبا عمرٍ ولا حيٍّ مثله فله درُ الحادثات بمن تغا
فإن تك قد فارقتنا وتركنا ذوي خلة ما في انسداد لها طمع
لقد جرّ نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع^(١)
وقال آخر:

أقول للموت حين نازله والموت مقدمة على البهم
أظفر بمن شئت إذ ظفرت به ما بعد يحيى للموت من ألم
ولي في هذا المعنى كتبه إلى صديق غاب عني من جملة أبيات:

وقد كنت أخشى من خطوب غوائل فلما نأى عني أمنت من الحذر
فاعجب لجسم عاش بعد حياته واعجب لنفع حاصل جرّه ضرر

وقال إسحاق بن خلف يرثي بتاً له:

أمت أميمة معموراً بها الرجم لقاً صعيد عليها الثرب مرتكم^(٢)
يا شقة النفس إن النفس والهة حرى عليك، وإن الذم منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تقدمني إلى الحمام فيبدي وجهها العدم

(١) الرزايا: المصائب. القاموس مادة (رزا).

(٢) اللقى: ما طرح على الأرض. القاموس مادة (لقى).

فَالآنَ نَمْتُ، فَلَا هُمْ يُوَرِّقُونِي تَهْدَا الْعَمِيُونَ إِذَا مَا أَوَدْتَ الْحُرْمَ
لِلْمَوْتِ عِنْدِي أَيَادٍ لَسْتُ أَكْفُرُهَا أَحْيَا سُرُوراً وَبِي مِمَّا أَتَى الْمُ

وقال آخر:

فَلَوْ أَنَّهَا إِحْدَى يَدَيَّ رَزِيئُهَا وَلَكِنْ يَدَيَّ بَانَتْ عَلَى إِثْرِهَا يَدَيَّ
فَأَلَيْتُ لَا أَسَى عَلَى إِثْرِ هَالِكِ قَدِي الْآنَ مِنْ حُزْنٍ عَلَى هَالِكِ قَدِي

وقال آخر:

أَجَارِي مَا أَزْدَادُ إِلَّا صَبَابَةٌ عَلَيْكَ، وَمَا تَزْدَادُ إِلَّا تَنَائِبًا
أَجَارِي لَوْ نَفْسٌ فَدَتِ نَفْسَ مَيِّتٍ فَدَيْتُكَ مَسْرُوراً بِنَفْسِي وَمَالِيَا
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَمْلَأَكَ حَقَبَةً فَحَالَ قَضَاءُ اللَّهِ دُونَ رَجَائِيَا
إِلَّا فَلَيْمُتُ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ مِنَ الْأَقْدَارِ كَانَ حَذَارِيَا

وقال آخر:

لَتَغْدُ الْمَنَابِيَا حَيْثُ شَاءَتْ فِائَتْهَا مُحَلَّلَةٌ بَعْدَ الْفَتَى ابْنَ عَفِيلٍ
فَتَى كَانَ مَوْلَاهُ يَحُلُّ بِنَجْوَةٍ فَحُلَّ الْمَوَالِي بَعْدَهُ بِمَسِيلٍ^(١)

قوله **غلب**: «ولكان الداء ماطلاً»، أي ماطلاً بالبرء، أي لا يجيب إلى الإقلاع.
والإبلال: الإفاقة.

لمع من سيرة الرسول ﷺ عند موته

فأما وفاة رسول الله ﷺ وما ذكره أرباب السيرة فيها قد ذكرنا طرفاً منه فيما تقدم، ونذكر
ها هنا طرفاً آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه.
قال أبو جعفر: روي أبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ، قال: أرسل إلي رسول الله ﷺ
في جوف الليل، فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي».

(١) النجوة: ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل فظنته نجاءك. اللسان، مادة (نجو).

فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم، قال: «السَّلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه! أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل عليّ، فقال: «يا أبا مويهبة إني قد أوهبت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة، فخيرت بينها وبين الجنة، فاخترت الجنة»، فقلت: بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة جميعاً، فقال: «لا يا أبا مويهبة، اخترت لقاء ربي»، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف، فبدأ بوجعه الذي قبضه الله فيه^(١).

وروى محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة، قالت: رجع رسول الله ﷺ تلك الليلة من البقيع، فوجدني وأنا أجذ صداعاً في رأسي، وأقول: وارا ساء! فقال: بل أنا وارا ساء! ثم قال: «ما ضرّك لو ميت قبلي، فقامت عليك فكفتك، وصليت عليك ودفنتك!» فقلت: والله لكأني بك - لو كان ذلك - رجعت إلى منزلي، فأعرست ببعض نسائك! فتبسم ﷺ، وتأم به وجعه، وهو مع ذلك يدور على نسائه، حتى استعز به، وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي، فأذن له، فخرج بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر، تخط قدماء في الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيته^(٢).

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: فحدثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث، فقال: أتدري من الرجل الآخر؟ قلت: لا، قال: علي بن أبي طالب، لكنها كانت لا تقدر أن تذكره بخير وهي تستطيع. قالت: ثم غمّر رسول الله ﷺ واشتد به الوجع، فقال: «أهريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم»، قالت: فأقعده في مخضب لحفصة بنت عمر، وصبنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده: «حسبكم حسبكم»^(٣). قلت: المخضب: المِرْكَن.

وروى عطاء، عن الفضل بن عباس رحمه الله: قال: جاءني رسول الله ﷺ حين بدأ به مرضه، فقال: اخرج، فخرجت إليه، فوجدته موعوكاً قد عُصِبَ رأسه، فقال: خذ بيدي، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فصّحت فيهم فاجتمعوا إليه، فقال: «أيها الناس، إني أحمد إليكم الله، إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه،

(١) ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» (٢٢٦/٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٢٥٤/٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٨٦). والطبري في «تاريخه» (٢٢٦/٢).

(٣) انظره في «تاريخ» الطبري (٢٢٦/٢) وأخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٢٥٤/٤).

ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يقل رجل: إني أخاف الشحناء من قبل رسول الله. ألا وإن الشحناء ليست من طيعتي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له، أو حللني فليقت الله وأنا طيب النفس، وقد أراني أن هذا غير مغني عني حتى أقوم فيكم به مراراً. ثم نزل فصلّى الظهر. ثم رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: إنا لا نكذب قائلًا ولا نستحلفه على يمين، فيم كانت لك عندي؟ قال: أتذكر يا رسول الله يوم مررت بك المسكين، فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم؟ قال: أعطه يا فضل، فأمرته فجلس، ثم قال: «أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل: فضوح الدنيا، فإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة». فقام رجل فقال: يا رسول الله، عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله، قال: ولم غللتها؟ قال: كنت محتاجاً إليها، قال: خذها منه يا فضل، ثم قال: «أيها الناس، من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدعو له»، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إني لكذاب، وإني لفاحش، وإني لنثوم. فقال: «اللهم ارزقه صدقاً وصلاحاً، وأذهب عنه النوم إذا أراد». ثم قام رجل، فقال: يا رسول الله، إني لكذاب، وإني لمنافق، وما شيء - أو قال: وإن من شيء - إلا وقد جئته. فقام عمر بن الخطاب فقال: فضحت نفسك أيها الرجل! فقال النبي ﷺ: «يا بن الخطاب: فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصبراً أمره إلى خير»^(١).

وروى عبد الله بن مسعود، قال: نعى إلينا نبينا وحيينا نفسه قبل موته بشهر، جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا وشدّ ودمعت عينه، وقال: مرحباً بكم! حيّاكم الله، رحمكم الله، أواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، رزقكم الله، هداكم الله، نصركم الله، سلّمكم الله، تقبلكم الله! أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني لكم منه نذير وبشير، ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢). فقلنا: يا رسول الله، فمتى أجلك؟ قال: «قد دنا الفراق، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى، والرفيق الأعلى وجنة المأوى العيش المهنأ»، قلنا: فمن يغسلك يا رسول الله؟ قال: «أهلي الأدنى فالأدنى»، قلنا: ففيم نكفّنك؟ قال: «في ثيابي هذه إن شئتم، أو في بياض مصر، أو حلة يمني»، قلنا: فمَنْ يصلي عليك؟ فقال: «إذا غسلتموني وكفّتموني فضعوني على سرير في بيتي هذا، على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي جليسي وحيبي وخليلي جبرائيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة، ثم ادخلوا علي فوجاً فوجاً، فصلوا علي

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(١) ذكره الطبري في «تاريخه» (٢/٢٢٧).

وسلموا ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجة ولا رنة، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من أهلي فأقرئوه مني السلام، ومن تابعكم بعدي على ديني فأقرئوه مني السلام، فإني أشهدكم أنني قد سلمت على من بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة. قلنا: فمن يدخل قبرك يا رسول الله؟ قال: «أهلي مع ملائكة كثيرة يروونكم ولا ترونهم»^(١).

قلت: العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة: فمن يلي أمورنا بعدك! لأن ولاية الأمر أهم من السؤال عن الدفن، وعن كيفية الصلاة عليه، وما أعلى ما أقول في هذا المقام! قال أبو جعفر الطبري: وروى سعيد بن جبير، قال: كان ابن عباس رحمه الله يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس! ثم يبكي حتى تبل دموعه الحضباء، فقلنا له: وما يوم الخميس؟ قال: يوم اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «اتنوني باللوح والدواة - أو قال: بالكتف والدواة - أكتب لكم ما لا تضلون بعدي»، فتنازعوا، فقال: «أخرجوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع»، قالوا: ما شأنه، أهجر؟ استفهموه، فذهبوا يُعيدون عليه، فقال: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه»، ثم، أوصى بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة عمدًا، أو قالها ونسيتها^(٢).

وروى أبو جعفر، عن ابن عباس. قال: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال له الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئًا. فأخذ العباس بيده، وقال: ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العاص! إني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله ﷺ فسأله فيمن يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا وصى بنا، فقال علي: أخشى أن أسأله فيمنعنا فلا يعطيناها الناس أبدًا^(٣).

وروت عائشة قالت: أغمى علي رسول الله ﷺ والدار مملوءة من النساء: أم سلمة، وميمونة، وأسماء بنت عميس، وعندنا عمه العباس بن عبد المطلب، فأجمعوا على أن يلدوه^(٤)، فقال العباس: لا ألدّه فلدّوه، فلما أفاق قال: «من صنع بي هذا؟» قالوا: عمك قال لنا: «هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض» - وأشار إلى أرض الحبشة - قال: «فلم فعلتم

(١) ذكره ابن سعيد في «الطبقات الكبرى» (٢/٢٥٦)، والطبري في «تاريخه» (٢/٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم (٣٠٥٣)،

ومسلم، كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٣٦/٧، وأخرجه البيهقي في سننه بما معناه: ٤٩/٨.

(٤) اللدود: ما يصب بالمسقط من السقي والدواء في أحد شقي القم فيمر على اللديد.

ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله، أن يكون بك ذات الجنب^(١)، فقال: «إن ذلك لداء ما كان الله ليقدفني به، لا يبقى أحد في البيت إلا لُدَّ إلا عمي». قال: فلقد لُدَّت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ عقوبة له بما صنعوا^(٢).

قال أبو جعفر: وقد وردت رواية أخرى عن عائشة، قالت: لَدُنَّا رسول الله ﷺ في مرضه، فقال: «لا تلذوني»، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: «لا يبقى أحد إلا لُدَّ غير العباس عمي فإنه لم يشهدكم».

قال أبو جعفر: والذي تولى اللدود بيده أسماء بنت عميس.

قلت: العَجَب من تناقض هذه الروايات! في إحداها أن العباس لم يشهد اللدود، فلذلك أعفاه رسول الله ﷺ من أن يُلْدَّ ولُدَّ مَنْ كان حاضراً، وفي إحداها أن العباس حضر لَدَهُ ﷺ، وفي هذه الرواية التي تتضمن حضور العباس في لَدَهُ كلام مختلف، فيها أن العباس قال: لا ألدّه، ثم قال: فلد فافاق، فقال: «مَنْ صنع بي هذا؟» قالوا: عمك، إنه قال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجنب، فكيف يقول: «لا ألدّه»، ثم يكون هو الذي أشار بأن يُلْدَّ، وقال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا!

وسألت الثقب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصري عن حديث اللدود، فقلت: ألدَّ علي بن أبي طالب ذلك اليوم؟ فقال: معاذ الله! لو كان لُدَّ لذكرت عائشة ذلك فيما تذكره وتنغاه عليه. قال: وقد كانت فاطمة حاضرة في الدار، وابناها معها، أفترأها لُدَّت أيضاً، ولَدَّ الحسن والحسين! كلا، وهذا أمر لم يكن، وإنما هو حديث ولَدَّ مَنْ ولَدَّه تقريباً إلى بعض الناس، والذي كان أن أسماء بنت عميس أشارت بأن يُلْدَّ، وقالت: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب، وكان بعلمها، وساعدتها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث، فلَدَّ رسول الله ﷺ، فلما أفاق أنكره، وسأل عنه فذكر له كلام أسماء، وموافقة ميمونة لها، فأمر أن تُلْدَّ الامرأتان لا غير، فلُدَّتا ولم يجز غير ذلك. والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر.

وروت عائشة، قالت: كثيراً ما كنت أسمع رسول الله يقول: إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره، فلما احتضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه: «بل الرفيق الأعلى»، فقلت: إذا والله لا يختارنا، وعلمت أن ذلك ما كان يقوله من قبل^(٣).

(١) ذات الجنب: قرحة تصيب الإنسان داخل جنبه. اللسان، مادة (جنب).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: كراهية التداوي باللدود (٢٢١٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦٥٧).

وروى الأرقم بن شرحبيل، قال: سألت ابن عباس رحمه الله: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، قلت: فكيف كان؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ابعثوا إلى علي فادعوه»، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعاً - هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبري في التاريخ، ولم يقل: «فبعث رسول الله ﷺ إليهما» - قال ابن عباس: فقال رسول الله ﷺ: «انصرفوا، فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم» فانصرفوا. وقيل لرسول الله: الصلاة! فقال: «مروا أبا بكر أن يصلي بالناس»، فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق فمر عمر، فقال: «مروا عمر»، فقال عمر: ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد، فتقدم أبو بكر، فوجد رسول الله ﷺ حقة، فخرج، فلما سمع أبو بكر حركته تأخر، فجذب رسول الله ﷺ ثوبه فأقامه مكانه، وقعد رسول الله ﷺ، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر^(١).

قلت: عندي في هذه الواقعة كلام، ويعترضني فيها شكوك واشتباه، إذا كان قد أراد أن يبعث إلى علي ليوصي إليه، فنفس عائشة عليه، فسألت أن يحضرا أبوها، ونفست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها، ثم حضرا ولم يطلبها، فلا شبهة أن ابنتيهما طلبتاها. هذا هو الظاهر، وقول رسول الله ﷺ وقد اجتمعوا كلهم عنده «انصرفوا فإن تكن لي حاجة بعث إليكم»، قول من عنده ضجر وغضب باطن لحضورهما، وتهمة للنساء في استدعائهما، فكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ما روي من أن عائشة قالت لما عين علي أبيها في الصلاة: إن أبي رجل رقيق، فمر عمر! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة! وهذا يؤهم صحة ما تقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر عائشة، وإن كنت لا أقول بذلك، ولا أذهب إليه إلا أن تأمل هذا الخبر ولتح مضمونه يؤهم ذلك، فلعل هذا الخبر غير صحيح^(٢).

وأيضاً ففي الخبر ما لا يجيزه أهل العدل، وهو أن يقول: «مروا أبا بكر»، ثم يقول عقيبها: «مروا عمر»، لأن هذا نسخ الشيء قبل تقضي وقت فعله^(٣).

فإن قلت: قد مضى من الزمان مقدار ما يمكن الحاضرين فيه أن يأمرؤا أبا بكر، وليس في الخبر إلا أنه أمرهم أن يأمرؤه، ويكفي في صحة ذلك مضي زمان يسير جداً يمكن فيه أن يقال: يا أبا بكر صل بالناس.

(١) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٦٤)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر (٤١٨).

(٢) مع أنه موجود في الصحيحين بل أكثر الصحاح.

(٣) بل هناك أشكال أقوى وهو أن رسول الله ﷺ بات يأخذ أوامره من أمراءه لا من جبرائيل، فمرة يقول مروا فلان ومرة فلان، فهل يراد أن يقال أن النبي كان يقول ما يقول في آخر حياته والعياذ بالله.

قلت: الإشكال ما نشأ من هذا الأمر، بل من كون أبي بكر مأموراً بالصلاة، وإن كان بواسطة، ثم نُسِخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضي وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة.

فإن قلت: لم قلت في صدر كلامك هذا: إنه أراد أن يبعث إلي علي ليوصي إليه؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له؟

قلت: لأن مخرج كلام ابن عباس هذا المخرج، ألا ترى أن الأرقم بن شرحبيل الراوي لهذا الخبر قال: سألت ابن عباس: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، فقلت: فكيف كان؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ابعثوا إلي علي فادعوه»، فسأله المرأة أن يبعث إلي أبيها، وسأله الأخرى أن يبعث إلي أبيها، فلولا أن ابن عباس فهم من قوله ﷺ: «ابعثوا إلي علي فادعوه» أنه يريد الوصية إليه، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متصلاً بسؤاله عن الوصية معنى.

وروي القاسم بن محمد بن أبي بكر، عن عائشة، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يموت وعنده قدح فيه ماء يُدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: «اللهم أعني على سكرة الموت!»^(١)

وروي عروة عن عائشة، قالت: اضطجع رسول الله ﷺ يوم موته في حجر، فدخل علي رجل من آل أبي بكر، في يده مسواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ إليه نظراً عرفت أنه يريد، فقلت له: أتحب أن أعطيك هذا المسواك؟ قال: نعم، فأخذه فمضغه حتى ألته ثم أعطيته إياه، فاستن به كأشد ما رأيت يستن بسواك قبل، ثم وضعه، ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجر، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة!» فقلت: لقد خيّرنا فاخترت والذي بعثك بالحق! وقبض رسول الله ﷺ^(٢).

قال الطبري: وقد وقع الاتفاق على أنه كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، واختلف في أي الاثنين كان؟ فقل: لليلتين خلتا من الشهر، وفي: لاثنين عشرة خلت من الشهر. واختلف في تجهيزه أي يوم كان! فقل: يوم الثلاثاء الغد من وفاته، وقيل: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة.

وقد روى الطبري ما يدل على ذلك عن زياد بن كليب، عن إبراهيم النخعي أن أبا بكر جاء

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في التشديد عند الموت (٩٧٨).

(٢) تقدم بنحوه.

بعد ثلاث إلى رسول الله ﷺ ، وقد اربد^(١) بطنه ، فكشف عن وجهه ، وقبل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمي ! طبت حياً وطبت ميتاً^(٢) !

قلت : وأنا أعجب من هذا ! هب أن أبا بكر ومن معه اشتغلوا بأمر البيعة ، فعلني بن أبي طالب والعباس وأهل البيت بماذا اشتغلوا حتى يبقى النبي ﷺ مسجى بينهم ثلاثة أيام بلياليهن لا يغسلونه ولا يمسونه !

فإن قلت : الرواية التي رواها الطبري في حديث الأيام الثلاثة ، إنما كانت قبل البيعة ، لأن لفظ الخبر عن إبراهيم ، وأنه لما قبض النبي ﷺ كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث ، ولم يجترئ أحد أن يكشف عن وجهه ﷺ حتى اربد بطنه ، فكشف عن وجهه وقبل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمي ! طبت حياً وطبت ميتاً ، ثم خرج إلى الناس ، فقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . . . الحديث بطوله .

قلت : لعمرى ، إن الرواية هكذا أوردها ، ولكنها مستحيلة ، لأن أبا بكر فارق رسول الله ﷺ وهو حي ، ومضى إلى منزله بالسُّنح في يوم الإثنين ، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ ، لأنه رآه بارئاً صالح الحال . هكذا روى الطبري في كتابه ، وبين السُّنح وبين المدينة نصف فرسخ ، بل هو طائفة من المدينة ، فكيف يبقى رسول الله ﷺ ميتاً يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر ، وبينهما غلوة ثلاثة أسهم ! وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحد منهم أن يكشف عن وجهه ، وفيهم علي بن أبي طالب وهو روحه بين جنبيه ، والعباس عمه القائم مقام أبيه ، وابنا فاطمة ، وهما كولديه ، وفيهم فاطمة بضعة منه ، أفما كان في هؤلاء من يكشف عن وجهه ، ولا من يفكر في جهازه ، ولا من يأنف له من انتفاخ بطنه واخضرارها ويتنظر بذلك حضور أبي بكر ليكشف عن وجهه !

أنا لا أصدق ذلك ، ولا يسكن قلبي إليه . والصحيح أن دخول أبي بكر إليه وكشفه عن وجهه ، وقوله ما قال ، إنما كان بعد الفراغ من البيعة ، وأنهم كانوا مشغولين بها كما ذكر في الرواية الأخرى .

وبقي الإشكال في قعود علي عليه السلام عن تجهيزه . إذا كان أولئك مشغولين بالبيعة ، فما الذي شغله هو ؟

فأقول : يغلب على ظني - إن صح ذلك - أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه ،

(١) اربد : احمر حمرة فيها سواد ، اللسان ، مادة (ربد) .

(٢) أخرجه مطولاً البخاري ، كتاب : المناقب ، باب : قول النبي ﷺ : «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٠) .

حيث فاته الأمر، واستؤثر عليه به، فأراد أن يتركه ﷺ بحاله لا يحدث في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أن الدنيا شغلتهم عن نبيهم ثلاثة أيام، حتى آل أمره إلى ما ترون، وقد كان ﷺ يتطلب الحيلة في تهجين أمر أبي بكر حيث وقع في السقيفة ما وقع بكل طريق، ويتعلق بأدنى سبب من أمور كان يعتمدها، وأقوال كان يقولها، ففعل هذا من جملة ذلك، أو لعله إن صح ذلك، فإنما تركه ﷺ بوصية منه إليه وسراً كانا يعلمانه في ذلك.

فإن قلت: فلم لا يجوز أن يقال - إن صح ذلك: إنه أخر جهازه ليجتمع رأيه ورأي المهاجرين على كيفية غسله وتكفينه، ونحو ذلك من أموره؟

قلت: لأن الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال، وهي قوله ﷺ لهم قبل موته: «يغسلني أهلي الأدنى منهم فالأدنى، وأكفن في ثيابي أو في بياض مصر أو في حلة يمنية».

قال أبو جعفر: فأما اللذين تولوا غسله فعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وحضر أوس بن خولي أحد الخزرج، فقال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله! وكان أوس من أصحاب بدر، فقال له: ادخل، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام، وصب الماء عليه أسامة وشقران، وكان علي ﷺ يغسله وقد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلّكه من ورائه، لا يفضي بيده إلى بدن رسول الله ﷺ، وكان العباس وابناه الفضل وقثم يساعدونه على قلبه من جانب إلى جانب.

قال أبو جعفر: وروى عائشة أنهم اختلفوا في غسله: هل يجرد أم لا؟ فالتقى الله عليهم السنة حتى ما منهم رجل إلا وذقنه على صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدري من هو: غسلوا النبي وعليه ثيابه. فقاموا إليه فغسلوه، وعليه قميصه فكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه.

قلت: حضرت عند محمد بن معد العلوي في داره ببغداد، وعنده حسن بن معالي الحلبي المعروف بابن الباقلاني وهما يقرآن هذا الخبر، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبري فقال محمد بن معد لحسن بن معالي: ما تراها قصدت بهذا القول؟ قال: حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غسل رسول الله ﷺ! فضحك محمد، فقال: هبها استطاعت أن تراحمه في الغسل، هل تستطيع أن تراحمه في غيره من خصائصه!

قال أبو جعفر الطبري: ثم كفن عليه الصلاة والسلام في ثلاثة أثواب: ثوبين صحرابين^(١)

(١) نسبة إلى صحار، قرية باليمن. اللسان، مادة (صحر).

وَبُرْدِ جَبْرَةٍ^(١). أَدْرَجَ فِيهَا إِدْرَاجًا، وَلُحِدَ لَهُ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْهُ وَضَعُوهُ عَلَى سَرِيرِهِ.

وَاخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ، فَقَالَ قَائِلٌ: نَدَفْنُهُ فِي مَسْجِدِهِ، وَقَالَ قَائِلٌ: نَدَفْنُهُ فِي الْبَقِيعِ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا وَدُفِنَ حَيْثُ قُبِضَ»^(٢)، فَرَفَعَ فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ، فَحَفَرَ لَهُ تَحْتَهُ.

قُلْتُ: كَيْفَ اخْتَلَفُوا فِي مَوْضِعِ دَفْنِهِ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: «فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَذَا، عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي»، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُ يُدْفَنُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ، وَهُوَ بَيْتُ عَائِشَةَ، فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْخَبَرُ غَيْرَ صَحِيحٍ، أَوْ يَكُونَ الْحَدِيثُ الَّذِي تَضَمَّنَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي مَوْضِعِ دَفْنِهِ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَوَى لَهُمْ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ يَدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ» غَيْرَ صَحِيحٍ، لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ لَا يُمْكِنُ.

وَأَيْضًا، فَهَذَا الْخَبَرُ يَنَافِي مَا وَرَدَ فِي مَوْتِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَقُلُوا مِنْ مَوْضِعِ مَوْتِهِمْ إِلَى مَوَاضِعٍ أُخَرَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْقُبُورِيُّ بَعْضَهُمْ فِي أَخْبَارِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَأَيْضًا فَلَوْ صَحَّ هَذَا الْخَبَرُ لَمْ يَكُنْ مُقْتَضِيًا إِيْجَابَ دَفْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَيْثُ قُبِضَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَمْرٍ بَلْ هُوَ إِخْبَارٌ مُحْضٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا فَهَمُّوا مِنْ مَخْرَجِ لَفْظِهِ ﷺ وَمِنْ مَقْصَدِهِ أَنَّهُ أَرَادَ الْوَصِيَّةَ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَالْأَمْرَ بِدَفْنِهِ حَيْثُ يَقْبُضُ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ فَصَلُّوا عَلَيْهِ أَرْسَالًا، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ الرِّجَالُ أَدْخَلَ النِّسَاءَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ النِّسَاءُ أَدْخَلَ الصِّبْيَانَ، ثُمَّ أَدْخَلَ الْعَبِيدَ، وَلَمْ يُؤْتِهِمْ إِمَامٌ، ثُمَّ دَفِنَ ﷺ وَسَطَ اللَّيْلِ مِنْ لَيْلَةِ الْأَرْبَعَاءِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَقَدْ رَوَتْ عُمَرَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا عَلَّمْنَا بِدَفْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا صَوْتَ الْمَسَاحِيِّ^(٣) فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ^(٤).

قُلْتُ: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْعَجَائِبِ، لِأَنَّهُ إِذَا مَاتَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَقَدْ ارْتَفَعَ الضُّحَى - كَمَا ذَكَرَ فِي الرَّوَايَةِ - وَدَفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ وَسَطَ اللَّيْلِ، فَلَمْ يَمُضْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ كَمَا وَرَدَ فِي تِلْكَ الرَّوَايَةِ.

وَأَيْضًا فَمِنْ الْعَجَبِ كَوْنُ عَائِشَةَ، وَهُوَ فِي بَيْتِهَا لَا تَعْلَمُ بِدَفْنِهِ حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتَ الْمَسَاحِيِّ،

(١) الْجَبْرَةُ وَالْحَبِيرُ: ضَرْبٌ مِنْ بُرُودِ الْيَمَنِ مِنْمَرٍ. اللَّسَانُ، مَادَّةُ (حَبْر).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ، كِتَابُ: مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ الْجَنَائِزِ، بَابُ: ذِكْرُ وَفَاتِهِ وَدَفْنِهِ (١٦٢٨).

(٣) الْمَسَاحِيُّ: جَمْعُ مَسْحَاةٍ وَهِيَ الْمَجْرُفَةُ مِنَ الْحَدِيدِ. اللَّسَانُ، مَادَّةُ (مَسَح).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ: ٦٢/٦، وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَةِ: ٤٠٩/٣.

أتراها أين كانت! وقد سألت عن هذا جماعة، فقالوا: لعلها كانت في بيت يجاور بيتها عندها نساء كما جرت عادة أهل الميت، وتكون قد اعتزلت بيتها وسكنت ذلك البيت، لأن بيتها مملوء بالرجال من أهل رسول الله ﷺ وغيرهم من الصحابة، وهذا قريب، ويحتمل أن يكون.

قال الطبري: ونزل في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام، والفضل بن عباس، وقثم أخوه، وشقران مولاهم. وقال أوس بن خولي لعلي عليه السلام: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ! فقال له: انزل، فنزل مع القوم، وأخذ شقران قطيفة كان رسول الله ﷺ يلبسها، فقذفها معه في القبر، وقال: لا يلبسها أحد بعده.

قلت: من تأمل هذه الأخبار، علم أن علياً عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل في أمر رسول الله ﷺ وجهازه، ألا ترى أن أوس بن خولي لا يخاطب أحداً من الجماعة غيره، ولا يسأل غيره في حضور الغسل والتزول في القبر! ثم انظر إلى كرم علي عليه السلام وسجاجة^(١) أخلاقه وطهارة شيمته، كيف لم يرضَ بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس، وهو رجل غريب من الأنصار، فعرف له حقه وأطلبه بما طلبه! فكم بين هذه السجية الشريفة، وبين قول من قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه! ولو كان في ذلك المقام غيره من أولي الطباع الخشنة، وأرباب الفظاظة والغلظة، وقد سأل أوس ذلك - لزجر وانتهر ورجع خائباً!

قال الطبري: وكان المغيرة بن شعبة يدعي أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ، ويقول للناس: إنني أخذت خاتمي فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي قد سقط مني، وإنما طرحته عهداً، لأمس رسول الله ﷺ، فأكون آخر الناس به عهداً.

قال الطبري: فرَوَى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: اعتمرْتُ مع علي بن أبي طالب عليه السلام في زمان عمر - أو عثمان - فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فلما فرغ من عمرته رجع وقد سكب له غسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفرٌ من أهل العراق، فقالوا: يا أبا الحسن، جئناك نسألك عن أمر نحب أن نخبرنا به! فقال: أظن المغيرة يحدثكم أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ! قالوا: أجل، عن ذا جئنا نسألك! قال: كذب! أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن العباس، كان آخرنا خروجاً من قبره.

قلت: بحق ما عاب أصحابنا رحمهم الله المغيرة وذمّوه وانتقصوه! فإنه كان على طريقة غير محمود، وأبى الله إلا أن يكون كاذباً على كل حال، لأنه إن لم يكن أحدثهم بالنبي عهداً، فقد

(١) خلق سجيح: لين سهل. اللسان، مادة (سجح).

كذب في دعواه أنه أحدثهم به عهداً، وإن كان أحدثهم به عهداً كما يزعم فقد اعترف بأنه كذب في قوله لهم: «سقط خاتمي مني»، وإنما ألقاه عهداً، وأين المغيرة ورسول الله ﷺ ليذعي القرب منه، وأنه أحدث الناس عهداً به! وقد علم الله تعالى والمسلمون أنه لولا الحدث الذي أحدث، والقوم الذين صاحبهم فقتلهم غدرًا، واتخذ أموالهم، ثم التجأ إلى رسول الله ﷺ ليعصمه لم يسلم، ولا وطىء حصا المدينة.

قال الطبري: وقد اختلف في سن رسول الله ﷺ، فالأكثر أن كان ابن ثلاث وستين سنة، وقال قوم: ابن خمس وستين سنة، وقال قوم: ابن ستين. فهذا ما ذكره الطبري في تاريخه.

وروي محمد بن حبيب في «أماليه» قال: تولى غسل النبي ﷺ عليّ عليه السلام والعباس رضي الله عنه.

وكان عليّ عليه السلام يقول بعد ذلك: ما شممت أطيب من ريحه، ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى.

قال محمد بن حبيب: فلما كشف الأزار عن وجهه بعد غسله انحنى عليه فقبله مراراً، وبكى طويلاً وقال: بأبي أنت وأمي! طبت حياً وطبت ميتاً! انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوة والأنباء وأخبار السماء! خصصت حتى صرت مسلماً عمن سواك، وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء! ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون^(١)، ولكن أتى ما لا يُدفع! أشكو إليك كمداً وإدباراً مخالفين وداء الفتنة، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم! بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك وممك!

ثم نظر إلى قذاة في عينه فلفظها بلسانه، ثم ردة الإزار على وجهه.

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباها يوم موته وبعد ذلك اليوم، وهي الفاظ معدودة مشهورة، منها: «يا أبتاه! جنة الخلد مثواه، يا أبتاه! عند ذي العرش مأواه! يا أبتاه! كان جبرائيل يغشاه! يا أبتاه لست بعد اليوم أراه!».

ومن الناس من يذكر أنها كانت تشوب هذه الندبة بنوع من التظلم والتألم لأمر يغلبها. والله أعلم بصحة ذلك.

(١) الشؤون: جمع شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين، اللسان، مادة (شأن).

والشيعة تروي أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل، ونهوها عنه، وأمروها بالتنحي عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطراف المدينة.
وأنا أستبعد ذلك، والحديث يدخله الزيادة والنقصان، ويتطرق إليه التحريف والافتعال، ولا أقول أنا في أعلام المهاجرين إلا خيراً!

٢٣١ - ومن خطبة له عليه السلام في صفة خلق بعض الحيوانات

الأصل: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، أَلَدَّالٌ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِيَائِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَّهَ لَهُ.

الَّذِي صَدَقَ فِي مِعَادِهِ، وَأَرْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَاقِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا أَضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ.

وَاحِدٌ لَا يَعْدُو، وَدَائِمٌ لَا يَأْمِدُ، وَقَائِمٌ لَا يَمُودُ. تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَانِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِظْ بِهِ بِهَا الْأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا. وَبِهَا أُمْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا.

لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ أَمْتَدَّتْ بِهِ النَّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجَسُّبًا، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجَسُّبًا، بَلْ كَبُرَ شَأْنًا، وَعَظُمَ سُلْطَانًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْقُلُجِ، وَإِبْضَاحِ الْمَنَهِجِ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَبَّةِ دَالًا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَغَرَا الْإِيمَانَ وَثِيقَةً.

الشرح: الشواهد هنا، يريد بها الحواس، وسمّاها «شواهد» إما لحضورها، شهد فلان كذا أي حضره، أو لأنها تشهد على ما تدركه وتثبت عند العقل، كما يشهد الشاهد بالشيء ويثبته عند الحاكم. والمشاهد هنا: المجالس والنوادي، يقال: حضرت مشهد بني فلان، أي

ناديهم ومجتمعهم. ثم فسر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله: «ولا تراه النواظر»، وفسر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها، فقال: «ولا تحجبه السواتر».

ثم قال: «الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده»، هذا مشكل، لأن لقائل أن يقول: إذا دل على قدمه بحدوث خلقه، فقد دخل في جملة المدلول كونه موجوداً، لأن القديم هو الموجود ولم يزل، فأى حاجة إلى أن يعود فيقول: وبحدوث خلقه على وجوده! ولمجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبي هاشم، فيقول: لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنه لا بد من محدث قديم كونه موجوداً، لأن عندهم أن الذات المعدومة قد تتصف بصفات ذاتية، وهي معدومة، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادراً حياً أن يكون موجوداً، بل لا بد من دلالة زائدة، على أن له صفة الوجود وهي والدلالة التي يذكرونها، من أن كونه قادراً عالماً تقتضي تعلقه بالمقدور والمعلوم، وكل ذات متعلقة، فإن عدمها يخرجها عن التعلق كالإرادة، فلو كان تعالى معدوماً لم يجز أن يكون متعلقاً، فحدوث الأجسام إذاً قد دل على أمرين من وجهين مختلفين:

أحدهما: أنه لا بد من صانع له، وهذا هو المعنى بقدمه.

والثاني: أن هذا الصانع له صفة، لأجلها يصح على ذاته أن تكون قادرة عالمة، وهذا هو المعنى بوجوده.

فإن قلت: أيقول أصحاب شيخكم أبي هاشم إن الذات المعدومة التي لا أول لها تسمى قديمة؟

قلت: لا، والبحث في هذا بحث في اللفظ لا في المعنى.

والمراد بقوله عليه السلام: «الدال بحدوث الأشياء على قدمه»، أي على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل، بل مجرد الذاتية لم يزل. ثم يستدل بعد ذلك بحدوث الأشياء على أن له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرد الذاتية، وتلك الصفة هي وجوده، فقد اتضح المراد الآن.

فإن قلت: فهل لهذا الكلام مساع على مذهب البغداديين؟ قلت: نعم، إذا حمل على منهج التأويل بأن يرد بقوله: «وبحدوث خلقه على وجوده»، أي على صحّة إيجاده له فيما بعد، أي إعادته بعد العدم يوم القيامة، لأنه إذا صح منه تعالى إحداثه ابتداءً صح منه إيجاده ثانياً على وجه الإعادة، لأن الماهية قابلة للوجود والعدم، والقادر قادر لذاته، فأما من روى بحدوث خلقه على وجوده، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلها. والمعنى على هذا ظاهر، لأنه تعالى دل المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم، ومذهب أكثر المتكلمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاماً وإحساناً إليهم.

قوله **عليه السلام** : «وباشتباههم على أن لا شبه له» هذا دليل صحيح، وذلك لأنه إذا ثبت أن جسماً ما محدث، ثبت أن سائر الأجسام محدثة، لأن الأجسام متماثلة، وكل ما صح على الشيء صح على مثله، وكذلك إذا ثبت أن سواداً ما أو بياضاً ما محدث، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدثة، لأن حكم الشيء حكم مثله، والسواد في معنى كونه سواداً غير مختلف، وكذلك البياض، فصارت الدلالة هكذا الذوات التي عندنا يشبه بعضها بعضاً، وهي محدثة، فلو كان الباري سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها، ولكان محدثاً لأن حكم الشيء حكم مثله، لكنه تعالى ليس بمحدث، فليس بمشابه لشيء منها، فقد صح إذا قوله **عليه السلام** : «وباشتباههم على أن لا شبه له».

قوله **عليه السلام** : «الذي صدق في ميعاده»، لا يجوز ألا يصدق، لأن الكذب قبيح عقلاً، والباري تعالى يستحيل منه من جهة الداعي والصارف أن يفعل القبيح.

قوله **عليه السلام** : «وارتفع عن ظلم عباده»، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة، وعن أمير المؤمنين **عليه السلام** أخذوه، وهو أستاذهم وشيخهم في العدل والتوحيد، فأما الأشعرية، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأن الله تعالى يظلم العباد إلا أنها تعطي المعنى في الحقيقة، لأن الله عندهم يكلف العباد ما لا يطيقونه، بل هو سبحانه عندهم لا يكلفهم إلا ما لا يطيقونه، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلفهم ما يطيقونه، وذلك لأن القدرة عندهم مع الفعل، فالقاعد غير قادر على القيام، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام، ويستحيل عندهم أن يوصف الباري تعالى بإقذار العبد القاعد على القيام، وهو مع ذلك مكلف له أن يقوم، وهذا غاية ما يكون من الظلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها.

ثم أعاد الكلام الأول في التوحيد تأكيداً، فقال: حدوث الأشياء دليل على قدمه، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته، وكونها فانية دليل على بقاءه.

فإن قلت: أما الاستدلال بحدوث الأشياء على قدمه فمعلوم، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الآخرين!

قلت: إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات في كونه موجوداً، واختلفا في أن أحدهما لا يصح منه فعل الجسم، ولا الكون، ولا الحياة، ولا الوجود المحدث - ويصح ذلك من الموجودات القديمة - دل على افتراقهما في أمر لأجله صح من القديم ذلك، وتعذر ذلك على المحدث، وذلك الأمر هو الذي يسمى من كان عليه قادراً، وينبغي أن تحمل لفظة «العجز» هنا على المفهوم اللغوي، وهو تعذر الإيجاد، لا على المفهوم الكلامي.

وأما الاستدلال الثاني، فينبغي أن يحمل الفناء هنا على المفهوم اللغوي، وهو تغير الصفات وزوالها، لا على المفهوم الكلامي، فيصير تقدير الكلام: لما كانت الأشياء التي بيننا

تتغير وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حال، وعلمنا أنّ العلة المصححة لذلك كونها محدثة، علمنا أنّه سبحانه لا يصحّ عليه التنقل والتغير لأنه ليس بمحدث.

ثم قال: «واحد لا بعدد» لأن وحدته ذاتية، وليست صفة زائدة عليه، وهذا من الأبحاث الدقيقة في علم الحكمة، وليس هذا الكتاب موضوعاً لبسط القول في أمثاله.

ثم قال: «دائم لا بآمد»، لأنه تعالى ليس بزمني ولا داخل تحت الحركة والزمان، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهي، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفيض المقدّس والأنوار الربانية.

ثم قال: «قائم لا بعمد»، لأنّه لما كان في الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمد عليه، أبان عليه تنزيهه تعالى عن المكان، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنّه متسكّر على عرشه بهذه اللفظة. ومعنى القائم ها هنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنّه المنتصب؟ بل ما تفهمه من قولك: فلان قائم بتدبير البلد، وقائم بالقسط.

ثم قال: «تلقاه الأذهان لا بمشاعرة»، أي تلقاه تلقياً عقلياً، ليس كما يتلقى الجسم الجسم بمشاعره وحواسه وجوارحه، وذلك لأن تعقل الأشياء وهو حصول صورها في العقل بريئة من المادة، والمراد بتلقيه سبحانه ها هنا تلقي صفاته، لا تلقي ذاته تعالى، لأنّ ذاته تعالى لا تصوّرهما العقول، وسيأتي إيضاح أنّ هذا مذهبه عليه السلام.

ثم قال: «وتشهد له المراني لا بمُحاضرة»، المراني: جمع مرني، وهو الشيء المدرك بالبصر، يقول: المرثيات تشهد بوجود الباري، لأنه لولا وجوده لما وُجدت، ولو لم توجد لم تكن مرثيات، وهي شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار، لأنها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها. وأما شهادتها بوجود الباري فليست بهذه الطريق، بل بما ذكرناه. والأولى أن يكون «المراني» ها هنا جمع «مرآة» بفتح الميم، من قولهم: هو حسن في مرآة عيني، يقول: إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود الباري من غير محاضرة منه للحواس.

قوله عليه السلام: «لم تُحط به الأوهام» إلى قوله عليه السلام «وإليها حاكمها»، هذا الكلام دقيق ولطيف، والأوهام ها هنا هي العقول يقول: إنه سبحانه لم تحط به العقول، أي لم تتصور كنه^(١) ذاته، ولكنه تجلّي للعقول بالعقول، وتجلّيه ها من هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبية لا غير، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته، فأما غير ذلك فلا، وذلك لأنّ البحث النظري قد دلّ على أنّنا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب، أما الإضافة فكقولنا: عالم قادر، وأما السلب فكقولنا: ليس بجسم ولا

(١) كنه الشيء: جوهره وحقيقته. اللسان، مادة (كنه).

عَرَضَ وَلَا يُرَى، فَأَمَّا حَقِيقَةُ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُخْصُوصَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ هِيَ، فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَتَصَوَّرُهَا، وَهَذَا مَذْهَبُ الْحُكَمَاءِ وَبَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا وَمِنْ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: «وَبِالْعُقُولِ امْتَنَعَ مِنَ الْعُقُولِ»، أَيُّ وَبِالْعُقُولِ وَبِالنَّظَرِ، عَلِمْنَا أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنِعُ أَنْ تَدْرِكَهُ الْعُقُولُ.

ثُمَّ قَالَ: «وَالِى الْعُقُولِ حَاكِمُ الْعُقُولِ»، أَيُّ جَعَلَ الْعُقُولَ الْمُدَّعِيَةَ أَنَّهَا أَحَاطَتْ بِهِ وَأَدْرَكَتْهُ كَالْخَصْمِ لَهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ حَاكَمَهَا إِلَى الْعُقُولِ السَّالِمَةِ الصَّحِيحَةِ النَّظَرِ، فَحَكَمَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْعُقُولِ الْمُدَّعِيَةِ لِمَا لَيْسَتْ أَهْلًا لَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَوْلَ بِالْحَيِّرَةِ فِي جَلَالِ ذَاتِ الْبَارِي وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حَدِّ مُحَدَّدٍ لَا يَتَجَاوِزُهُ الْعَقْلُ قَوْلٌ مَا زَالَ فَضْلَاءُ الْعُقَلَاءِ قَائِلِينَ بِهِ.

وَمِنْ شَعْرِي الَّذِي أَسْلَكَ فِيهِ مَسْلَكَ الْمُنَاجَاةِ عِنْدَ خَلَوَاتِي وَانْقِطَاعِي بِالْقَلْبِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ قَوْلِي:

وَاللَّهُ لَا مَوْسَى وَلَا عِيسَى	سَى الْمَسِيحُ وَلَا مُحَمَّدٌ
عَلَّمُوا وَلَا جِبْرِيلُ وَفِي	وَالِى مَحَلِّ الْقُدْسِ يَصْعَدُ
كَلًّا وَلَا النَّفْسُ الْبَاسِ	طَّةً، لَا وَلَا الْعَقْلُ الْمَجْرَدُ
مَنْ كُنْهُ ذَاتُكَ غَيْرَ أَنْ	كَ وَاحِدِي الذَّاتِ سَرْمَدٌ ^(١)
وَجَدُوا إِضَافَاتٍ وَسَلُّ	جَاءَ وَالْحَقِيقَةُ لَيْسَ تُوجَدُ
وَرَأَوْا وَجُودًا وَاجِبًا	يَفْنَى الزَّمَانَ وَلَيْسَ يَنْفَدُ
فَلْتَخَسَأَ الْحُكَمَاءُ عَنْ	جِزْمٍ لَهُ الْأَفْلَاكُ تُسْجَدُ
مَنْ أَنْتَ يَا رِشْطُو وَمَنْ	أَفْلَاطُ قَبْلَكَ يَا مَبْلُذُ
وَمَنْ ابْنُ سَيْنَا حِينَ قَرَّ	رَمَا بِنَبِيَّتْ لَهُ وَشَيْئُذُ
هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا الْفُقَرَا	ش رَأَى الشَّهَابَ وَقَدْ تَوَقَّذُ
فَدَنَا فَأَخْرَقَ نَفْسَهُ	وَلَوْ اهْتَدَى رُشْدًا لَا بُعْدُ!

وَمَا قَلَّتْ أَيْضًا فِي قُصُورِ الْعَقْلِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

فِيكَ يَا أَعْجُوبَةَ الْكَوْنِ غَدَا الْفَكْرُ كَلِيلًا

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع. اللسان، مادة (سرمد).

أنت حيّرت ذوي السُّلب ولنبئت^(١) العقولاً
كلّما أقدم فكّري فيك شبراً فرميلاً
ناكصاً^(٢) يخبط في غم ياء لا يهْدَى السَّيِّلا

ولي في هذا المعنى:

فيك يا أغلوطة الفكر تاه عقلي وانقضى عمري
سافرت فيك العقولُ فما ربحت إلا أذى السُّفر
رجعت خسري وما وقفت لا على عين ولا أثر
فلحى^(٣) الله الألى زعموا أنك المعلوم بالنظر
كذبوا إن الذي طلبوا خارج عن قوة البشر

وقلت أيضاً في المعنى:

أفنيْتُ خمسين عاماً معملاً نظري فيه، فلم أدْرِ ما آتي وما أذرُ
مَنْ كان فوق عقول القايسين فما ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظرُ

ولي أيضاً:

حبيبي أنت لا زيدٌ وعمرو وإن حيرتني وفتنت ديني
طلبتك جاهداً خمسين عاماً فلم أحصل على برد البقيين
فهل بعد الممات بك اتصال فأعلم غامض السر المصون
نوى قذفت وكم قد مات قبلي بحسرتة عليك من القرون

ومن شعري أيضاً في المعنى، وكنت أنادي به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من الناس، بصوت رفيع، وأجدح قلبي أيام كنت مالكاً أمري، مطلقاً من قيود الأهل والولد وعلاق الدنيا:

(١) البليّة: تفريق الآراء. اللسان، مادة (بلل).

(٢) الناكص: الذي أحجم ورجع عما كان عليه من الخير. اللسان، مادة (مكص).

(٣) لحى: قبح وأهلك ولعن. اللسان، مادة (لحو).

يا مُذهِشَ الألباب والفظن
أفنيثُ فيك العمر أنفقهُ
اتَّبِعِ العلماء أسألهم
وأخالط الملل التي اختلفت
وظننتُ أني بالغ غرضي
ومظهر من كل رجس هوى
فإذا الذي استكثرت منه هو الـ
فضلتُ في تيه بلا علم
ورجعت صفراً الكفت مكتنباً
أبكى وأنكت في الثرى بيدي
وأصبح يا مَنْ ليس بعرفه
يا مَنْ له عنت الوجوه وَمَنْ
آمنت يا جذر الأصم في الـ
أن ليس تدركك العيون و
والكل أنت فكيف يدركه

ومحيّر التّفوّالة اللّسين
والسمال مجاناً بلا ثمن
وأجول في الآفاق والسُّدُن
في الذين حتى عابد الوثّن
لما اجتهدت ومبرىء شجني
قلبي بذاك وغاسل درّني
جاني علي عظام المحن
وغرقت في يَم بلا سُفن
حيران ذا همّ وذا حزن
طوراً وأدعم نارة ذقني
أحد مدى الأحقاف والزّمن
قرنت له الأعناق في قرن
أعداد بل يا فتنة الفتن
أن الرّأي ذو أفن وذو غبن
بعض وأنت السرّ في العلن

ومما قلته في المعنى :

ناجيته ودعوته اكشف عن عشا
وارفع حجاباً قد سدلت ستوره
فأجابني : صه يا ضعيف فبعض ذا
أعجبنى هذا المعنى ، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت :

حبيبى أنت من دون البرايا
فنعث من الوصال بكشف حال
ألم تسمع جواب سؤال موسى
تعرض للذي حاولت يوماً
ولي في هذا المعنى أيضاً :

قد حار في النفس جميع الورى
والفكر فيها قد غدا ضائعا

وإن لم أحظ منك بما أريد
فقل ارجع فمطلبها بعيد
وليس على مكانته مزيد
فذلك الصخر واضطرم الصّعيد

وَبَرَفَنَ الْكُلَّ عَلَى مَا ادَّعَوْا وَلَيْسَ بُرْهَانُهُمْ قَاطِعًا
مَنْ جَهِلَ الصَّنْعَةَ عَجْزًا قَمَا أَجْدَرُهُ أَنْ يَجْهَلَ الصَّانِعَا

ولي أيضاً في الرد على الفلاسفة الذين عللوا حركة الفلك بأنه أراد استخراج الوضع أولاً،
ليتشبه بالعقل المجرد في كماله، وأن كل ما له بالقوة فهو خارج إلى الفعل:

تَحْيِرُ أَرْبَابُ النُّهَى وَتَعْجَبُوا مِنْ الْفَلَكِ الْأَقْصَى لِمَاذَا تَحَرَّكَا
فَقِيلَ بِطَبْعٍ كَالثَقِيلِ إِذَا هَوَى وَقِيلَ اخْتِيَارًا وَالْمُحَقِّقُ شَكَّكََا
فَرَّدَ حَدِيثُ الطَّبْعِ إِذَا كَانَ دَائِرًا وَلَيْسَ عَلَى سَنَتِ قَوِيمٍ فَيَسْلُكَا
وَقِيلَ لِمَنْ قَالَ اخْتِيَارًا فَمَا الَّذِي دَعَاهُ إِلَى أَنْ دَارَ رَكْضًا فَأَوْشَكَا
فَقَالُوا لَوْضِعَ حَادِثٍ يَسْتَجِدُّهُ يِعَاقِبُ مِنْهُ مَطْلِبًا ثُمَّ مَتَرَكَا
فَقِيلَ لَهُمْ: هَذَا الْجَنُونَ بَعِينُهُ وَلَوْ رَامَهُ مَنَّا أَمْرًا كَانَ أَغْفَكَا
وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا غَدَا لَيْسَ قَصْدُهُ سِوَى الْوَضْعِ وَاسْتِخْرَاجِهِ عُذُّ مَضْحَكَا

ولي أيضاً في الرد على مَنْ زعم أن النبي ﷺ رأى الله سبحانه بالعين، وهو الذي أنكرته عائشة^(١)، والعجب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب:

عَجِبْتُ لِقَوْمٍ يَزْعُمُونَ نَبِيِّهُمْ رَأَى رَبَّهُ بِالْعَيْنِ، نَبَا لَهُمْ نَبَا!
وَهَلْ تُدْرِكُ الْأَبْصَارُ غَيْرَ مَكْيُفٍ وَكَيْفَ تَبْيِخُ الْعَيْنُ مَا يَمْنَعُ الْقَلْبَا!
إِذَا كَانَ طَرَفُ الْقَلْبِ عَنْ كُنْهِهِ نَبَا خَسِيراً، فَطَرَفُ الْعَيْنِ عَنْ كُنْهِهِ أَنْبَى!

والمقطعات التي نظمها في إجلال الباري سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة، موجودة في كتي ومصنفاي، فلتلمح من مظانها، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشييداً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام علي في هذا الباب.

قوله عليه السلام: «ليس بذي كبر» إلى قوله «وعظم سلطانه»، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم، وقد ورد بهما القرآن العزيز، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم: هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم، بل المراد عظم شأنه وجلالة سلطانه.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٧٧).

والفلج: النُصرة، وأصله سكون العين، وإنما حرّكه ليوازن بين الألفاظ، وذلك لأن الماضي، منه فلج الرجل على خصمه بالفتح، ومصدره الفلج بالسكون، فأما من روي: «وظهور الفلج» بضمّتين فقد سقط عنه التأويل، لأن الاسم من هذا اللفظ: «الفلج» بضم أول الكلمة، فإذا استعملها أو الخطيب جاز له ضمّ الحرف الثاني. وصادعاً بهما: مظهراً مجاهداً، وأصله الشق. والأمراس: الجبال، والواحد مَرَس، بفتح الميم والراء.

الأصل: منها في صفة عجب خلق أصناف من الحيوان: وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنْ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرُ مَذْخُولَةٌ. أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرٍ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشْرَ

أَنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَذْكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرَمٍ لِيَرِدَهَا، وَفِي وَرْدٍ لِيَصْدِرَهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا، لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا أَلْيَاسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، وَفِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوِّ مِنْ شَرَاسِيفٍ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا نَعْباً! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنِّهِ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ.

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَتَبَلَّغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّحْلَةِ، لِذِيْقِي تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ.

وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ.

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ. فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ.

فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ!

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صَوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ
فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا دَعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جَنَابَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ!

الشرح: مدخولة: معيبة. وفَلَقَ: شقَّ وخلق. والبَشْرُ: ظاهر الجلد.

قوله ﷺ: «وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا»، قيل: هو على العكس، أي وصب رزقها عليها،
والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا، والمراد: كيف هَمَّتْ حتى انصبت على رزقها انصباباً،
أي انحطت عليه. ويروي: «وَضُنَّتْ عَلَى رِزْقِهَا» بالضاد المعجمة والنون، أي بخلت.
وَجُخِرَها: بيتها.

قوله ﷺ: «وَفِي وِزْدِهَا لَصَدْرُهَا»، أي تجمع في أيام التمكن من الحركة لأيام العجز
عنها، وذلك لأن النمل يظهر صيفاً ويخفي في شدة الشتاء لعجزه عن ملاقاته البرد.
قوله ﷺ: «رِزْقُهَا وَفَقْها» أي بقدر كفايتها، ويروي «مكفول برزقها مرزوقة بوفقها».
والمَثَانِ، من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية، أي هو كثير المنّ والإنعام على
عباده.

والدَيَانُ: المجازي للعباد على أفعالهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَا لَمَدِينُونَ﴾^(١) أي مجزيون.
والحَجَرُ الجامس: الجامد. والشراسيف: أطراف الأضلاع المشرقة على البطن.

في ميزات وصفات الذرة والنملة

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد في كتاب «الحيوان»^(٢) في باب النملة والذرة - وهي
الصغيرة جداً من النمل - كلاماً يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين ﷺ أصله، ولكن أبا
عثمان قد قرّع عليه.

قال: الذرة تذخر في الصيف للشتاء، وتتقدم في حال المهلة، ولا تُضَيِّعُ أوقات إمكان
الحزم، ثم يبلغ من تفقدها وصحة تمييزها، والنظر في عواقب أمورها، أنها تخاف على
الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف، أن تعفن وتسوس في بطن الأرض فتخرجها إلى
ظهرها لتشرها وتعيد إليها جفوفها، ويمر بها النسيم فينفي عنها اللّخن^(٣) والفساد.

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٣.

(٢) كتاب: الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المتوفى سنة (٢٥٥هـ) «كشف
الظنون» (١/٦٩٦).

(٣) اللّخن محرّكة: قبح ريح الفرج القاموس، مادة (لخن).

ثم ربما - بل في الأكثر - تختار ذلك العمل ليلاً، لأن ذلك أخفى، وفي القمر لأنها فيه أبصر، فإن كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت الحبة نقرت موضع القطمير^(١) من وسطها، لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت، وربما فلتت الحبة نصفين. فأما إن كان الحب من حب الكزبرة فإنها تفلقه أرباعاً، لأن أنصاف حب الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات، حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس، ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها في الشم والاسترواح ما ليس لشيء، فربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة، وليس بقربه ذرة ولا له عهد بالذر في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة، فترومها وتحاول نقلها وجرها إلى جحرها، فإذا أعجزتها بعد أن تبلي عُذراً مضت إلى جحرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلفها كالخييط الأسود الممدود، حتى يتعاون عليها فيحملنها. فاعجب من صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع! ثم انظر إلى بُعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرة، بل أضعاف أضعاف المائة، وليس شيء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مراراً كثيرة غيرها.

فإن قال قائل: فمن أين علمتم أن التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي أخبرت صواحباتها من الذر، وأنها التي كانت على مقدمتهن؟

قيل له: لطول التجربة، ولأننا لم نر قط ذرة حاولت جر جرادة فعجزت عنها، ثم رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك، وإن كنا لا تفصل في رأى العين بينها وبين أخواتها، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا، فدلنا ذلك على أنها في رجوعها عن الجرادة أنها إنما كانت لأشبابها كالرائد الذي لا يكذب أهله.

قال أبو عثمان: ولا يُنكر قولنا: إن الذرة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذب القرآن، فإنه تعالى قال في قصة سليمان: ﴿قَالَ نَمُّهُ بِتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٨) فَبَشِّرْ ضَاجِكَا مِنْ قَوْلِهَا^(٢)، فهل بعد هذا ريب أو شك في أن لها قولاً وبياناً وتمييزاً!

فإن قلت: فلعلها مكلفة، ومأمورة ومنهية، ومطبعة وعاصية!

قيل: هذا سؤال جاهل، وذلك أنه لا يلزم أن يكون كل ذي حس، وتمييز مكلفاً مأموراً

(١) القطمير: شق النواة، أو القشرة التي فيها، أو القشرة التي بين النواة والتمرة، أو النكة البيضاء في ظهرها. ا. هـ. القاموس مادة (قطر).

(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٨، ١٩.

منهياً، مطيعاً عاصياً، لأن الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيراً من سائر العلوم ^{السموات} وهو غير مكلف ولا مأمور، لا منهياً ولا عاص ولا مطيع، فلا يلزم مما قلناه في الذرة أن تكون مكلفة.

قال أبو عثمان: ومن عجيب ما سمعته من أمر النملة، ما حدثني به بعض المهندسين عن رجل معروف بصناعة الإسطرلابات، إنه أخرج طوقاً من صُفر - أو قال من حديد - من الكير، وقد أحماه، فرمى به على الأرض ليرد، فاشتعل الطوق على نملة، فأرادت أن تنفر يمنة فلقبها وهج النار، فأخذت يسرة فلقبها وهج النار، فمضت قدماً فكذلك، فرجعت إلى خلفها فكذلك، فرجعت إلى وسط الدائرة، فوجدتها قد ماتت في موضع رجل البركار^(١) من الدائرة، وهذا من العجائب.

قال أبو عثمان: وحدثني أبو عبيد الله الأفره، وما كنت أقدم عليه في زمانه من مشايخ المعتزلة إلا القليل، قال: قد كنت ألقى من الذر والنمل في الرطب يكون عندي وفي الطعام عتاً كثيراً، وذلك لأنني كنت لا أستقدر النملة ولا الذرة، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت في قارورة باني أو زئبق أو خيري، فسد ذلك الدهن وزنخ، فقذرتها ونفرت منها، وقلت: أخلق بطبيعتها أن تكون فاسدة خبيثة، وكنت أرى لها عظاماً منكراً، فأقول: إنها من ذوات السموم، ولو أن بدن النملة زيد في أجزائه حتى يلحق بدن العقرب، ثم عضت إنساناً لكانت عضتها أضرب عليه من لسعة العقرب.

قال: فاتخذت عند ذلك لطعامي منملة وقيرتها، وصببت في خندقها الماء، ووضعت سلة الطعام على رأسها، فغبرت أياماً أكشف رأس السلة بعد ذلك، وفيها ذرٌ كثير، ووجدت الماء في الخندق على حاله، فقلت: عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها، وأكل مما فيها! وطال مكثها في الأرض، وقد دخلها الذر ثم أعيدت على تلك الحال، وتكلمت في ذلك وتعرفت الحال فيه، فعرفت البراءة في عذرهم، والصدق في خبرهم، فاشتد تعجبي، وذهبت بي الظنون والخواطر كل مذهب، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها، وأثبت في أمري، وأتعرّف شأني، فإذا هي بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانباً، وصعدت في الحائط، ثم مرت على جذع السقف، فلما صارت محاذية للسلة أرسلت نفسها فقلت في نفسي: انظر كيف اهتدت إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة!

ثم قلت: وما عليها أن تبقى محصورة؟ بل أي حصار على ذرة وقد وجدت ما تشتهي.

(١) البركار: آلة مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى، ترسم بها الدوائر والأقواس. اهـ. «المعجم الوسيط» (١/٤٧).

قال أبو عثمان: ومن أعاجيب الذرة لا تعرض لجعل ولا لجرادة ولا لخنفساء ولا لبنت وزدان^(١)، ما لم يكن بها حبل أو عقل أو قطع رجل أو يد، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علة، وثبت عليها، حتى لو أن حية بها ضربة أو خرق أو خدش، ثم كانت من ثعابين مضر، لوثب عليها الذر حتى يأكلها، ولا تكاد الحية تسلم من الذر إذا كان بها أدنى عقر.

قال أبو عثمان: وقد عذب الله بالذر والنمل أمماً وأمماً، وأخرج أهل قرى من قراهم، وأهل دروب من دروبهم.

وحدثني بعض من أصدق خبره، قال: سألت رجلاً كان ينزل ببغداد في بعض الدروب التي في ناحية باب الكوفة التي جلا أهلها عنها، لغلبة النمل والذر عليها، فسأله عن ذلك، فقال: وما تصنع بالحديث! امض معي إلى داري التي أخرجني منها النمل.

قال، فدخلتها معه فبعث غلامه، فاشترى رؤوساً من الرأسين ليتغذى بها، فانتقلنا هرباً من النمل في أكثر من عشرين مكاناً، ثم دعا بطست ضخمة، وصب فيها ماء صالحاً، ثم فرق عظام الرؤوس في الدار، ومعه غلمان، فكان كلما اسود منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه - وذلك في أسرع الأوقات - أخذه الغلام ففرغه في الطست بعود ينثر به ما عليه في جوف الطست، فما لبثنا مقدار ساعة من النهار حتى فاضت الطست نملاً، فقال: كم تظن أني فعلت مثل هذا قبل الجلاء طمعاً في أن أقطع أصلها! فلما رأيت عددها إما زائداً، وإما ثابتاً، وجاءنا ما لا يصبر عليه أحد، ولا يمكن معه مقام، خرجت عنها.

قال أبو عثمان: وعذب عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي بأنواع العذاب، ف قيل له: إن أردت ألا يفلح أبداً فمرهم فلينفخوا في ذبّره النمل، ففعلوا فلم يفلح بعدها.

قال أبو عثمان: ومن الحيوان أجناس يشبه الإنسان في العقل والروية والنظر في العواقب والفكر في الأمور، مثل النمل، والذر، والفار، والجردان، والعنكبوت، والنحل إلا أن النحل لا يذخر من الطعام إلا جنساً واحداً وهو العسل.

قال: وزعم البقري أنك لو أدخلت نملة في جحر ذر لأكلتها حتى تأتي على عاتقها، وذكر أنه قد جرب ذلك.

قال: وزعم صاحب المنطق أن الضبع تاكل النمل أكلاً ذريعاً، لأنها تأتي قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية، فتلحس ذلك النمل كله بلسانها، بشهوة شديدة وإرادة قوية.

(١) هي دويبة نحو الخنفساء حمراء اللون وأكثر ما تكون في الحمامات وفي الكنف. هـ. المعجم الوسيط (٢/ ١٠٢٥).

قال: وربما أفسدت الأرضة^(١) على أهل القرى منازلهم، وأكلت كل شيء لهم، فلا تزال كذلك حتى ينشأ في تلك القرى النمل، فيسلط الله عز وجل ذلك النمل على تلك الأرضة، حتى تأتي على آخرها، على أن النمل بعد ذلك سيكون له أذى، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيداً، وما أكثر ما يذهب النمل أيضاً من تلك القرى، حتى يتم لأهلها السلامة من النوعين جميعاً.

قال: وقد زعم بعضهم أن تلك الأرضة بأعيانها تستحيل نملاً، وليس فناؤها لأكل النمل لها، ولكن الأرضة نفسها تستحيل نملاً، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى الناس النقصان في عددها ومضرتها على الأيام.

قال أبو عثمان: وكان ثمامة يرى أن الذر صغار النمل، ونحن نراه نوعاً آخر كالبقرة والجواميس.

قال: ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته، وقال الشاعر:

وإذا استوثق للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطفه

وكان في كتاب عبد الحميد إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحاً، فيقال: إن أبا مسلم لما قرأ هذا الكلام في أول الكتاب لم يتم قراءته وألقاه في النار، وقال: أخاف إن قرأته أن ينخب قلبي.

قال أبو عثمان: ويقتل النمل بأن يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر، وأن يدس في أفواهها الشعر، على أن قد جرئنا ذلك فوجدناه باطلاً.

فأما الحكماء، فإنهم لا يشبتون للنمل شراسيف ولا أضلاعاً، ويجب إن صبح قولهم أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيله وتتوقمه حقاً، وكذلك لا يثبت الحكماء للنمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها، ويجب إن صبح ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على قوة الإحساس بالأصوات، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوة للنمل، ولهذا إذا صيح عليهم هربن.

ويذكر الحكماء من عجائب النمل أشياء، منها أنه لا جلد له، وكذلك كل الحيوان المخرز.

ومنها أنه لا يوجد في صقليّة نمل كبار أصلاً.

ومنها أن النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر.

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شيء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت على العضد منعت من النوم.

(١) الأرضة: دويبة بيضاء تشبه النملة تظهر أيام الربيع. اهـ «المعجم الوسيط»، مادة (أرض)، (١).

قوله **﴿لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَتَبْلُغَ غَايَاتِهِ﴾**، أي غايات فِكْرِكَ، وضربت بمعنى سرت، والمذاهب: الطرق. قال تعالى: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** ^(١) وهذا الكلام استعارة.

قال: لو أمنت النظر لعلمت أن خالق النملة الحقيرة هو خالف النحلة الطويلة لأن كل شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق، واختلاف تلك الأجسام في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلاف غامض السبب، فلا بد لكل من مدبر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله، على حسب ما يعلمه من المصلحة.

ثم قال: «وما الجليل والدقيق في خلقه إلا سواء! لأنه تعالى قادر لذاته، لا يعجزه شيء من الممكنات».

ثم قال: «فانظر إلى الشمس والقمر» إلى قوله: «والألسن المختلفات»، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع. والطرق إليه أربعة:

أحدها: الاستدلال بحدوث الأجسام.

والثاني: الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام.

والثالث: الاستدلال بحدوث الأعراض.

والرابع: الاستدلال بإمكان الأعراض.

وصورة الاستدلال هو أن كل جسم يقبل - للجسمية المشتركة بينه وبين سائر الأجسام - ما يقبله غيره من الأجسام، فإذا اختلفت الأجسام في الأعراض فلا بد من مخصص خصص هذا الجسم بهذا العرض دون أن يكون هذا العرض لجسم آخر، ويكون لهذا الجسم عرض غير هذا العرض، لأن الممكنات لا بد لها من مرجع يرجع أحد طرفيها على الآخر، فهذا هو معنى قوله: «فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات، والألسن المختلفات»، أي أنه يمكن أن تكون هيئة الشمس وضوءها ومقدارها حاصلًا لجرم القمر، ويمكن أن يكون النبات الذي لا ساق له شجراً، والشجر ذو الساق نباتاً، ويمكن أن يكون الماء صلباً والحجر مائعاً، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيقاً وزمان النهار مظلماً، ويمكن ألا تكون هذه البحار متفجرة بل تكون جبلاً، ويمكن ألا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرة، ويمكن ألا تكون هذه القلال طويلة. وكذلك القول في اللغات واختلافها. وإذا كان كل هذا ممكناً فاختصاص الجسم المخصوص بالصفات والأعراض والصور المخصوصة لا يمكن

أن يكون لمجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها، فلا بدّ من أمر زائد، وذلك الأمر الزائد هو المعنيّ بقولنا: صانع العالم.

ثم سقاه آراء المعطّلة، وقال: «إنهم لم يعتصموا بحجّة، ولم يحققوا ما وعّوه» أي لم يرتّبوا العلوم الضرورية ترتيباً صحيحاً يفضي بهم إلى النتيجة التي هي حق.

ثم أخذ في الردّ عليهم من طريق أخرى، وهي دعوى الضرورة، وقد اعتمد عليها كثير من المتكلّمين، فقال: نعلم ضرورة أنّ البناء لا بدّ له من بان.

ثم قال: «والجناية لا بدّ لها من جان»، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة، والمراد عموم الفعلية لا خصوص الجناية، أي مستحيل أن يكون الفعل من غير فاعل، والذين ادّعوا الضرورة في هذه المسألة من المتكلّمين استغنوا عن الطرق الأربع التي ذكرناها، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أولاً على طريق واحدة، ثم جنح ثانياً إلى دعوى الضرورة، وكلا الطريقين صحيح.

الأصل: وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خُلِقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْقَمَّ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَاطَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثُ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ إِضْبَعًا مُسْتَدِقَّةً.

فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيَعْتَفِرُ لَهُ خُذًا وَوَجْهاً، وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْماً وَضَعْفًا، وَيُعْطِي الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا!

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسِ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبْسِ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا، فَهَذَا غُرَابٌ، وَهَذَا عُقَابٌ، وَهَذَا حَمَامٌ، وَهَذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلُّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ.

وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثَّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا، قَبْلَ الْأَرْضِ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح: قوله: «وأسرج لها حدقتين» أي جعلهما مضيتين كما يضيء السراج، ويقال: حدقة قمرء أي منيرة، كما يقال: ليلة قمرء أي نيرة بضوء القمر. و«بهما تقريض» أي تقطع،

والراء مكسورة. والمنجلان: رجلاها، شبههما بالمناجل لعوجهما وخشونتهما. ويترهبها: يخافها. ونزواتها: وثباتها. والجذب: المحل.

غرائب الجراد

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب «الحيوان»: من عجائب الجراد التماسها لبيضها الموضع الصلب، والصخور الملس، ثقة منها أنها إذا ضربت بأذنانها فيها، انفرجت لها، ومعلوم أن ذنب الجراد ليس في خلقه المنشار ولا طرف ذنبه كحد السنان، ولا لها من قوة الأشر، ولا لذنبها من الصلابة ما إذا اعتمدت به على الكذبة^(١) خرج فيها، كيف وهي تتعدى إلى ما هو أصلب من ذلك، وليس في طرفها كلبرة العقرب.

وعلى أن العقرب ليس تخرق القنقم، من جهد الأيد وقوة البدن، بل إنما ينفرج لها بطبع مجعول هناك، وكذلك انفراج الصخور لأذنان الجراد.

ولو أن عقاباً أرادت أن تخرق جلد الجاموس لما انخرق لها إلا بالتكلف الشديد، والعقاب هي التي تنكدر على الذنب الأطلس، فتقد بدابرتها ما بين صلاة إلى موضع الكاهل.

فإذا غرزت الجراد، وألقت بيضها، وانضمت عليها تلك الأخاديد التي هي أحدثها، وصارت كالأفاحيص^(٢) لها صارت حاضنة لها ومربية، وحافظة وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقت ذيب الروح فيها حدث عجب آخر، وذلك لأنه يخرج من بيضه أذهب^(٣) إلى البياض، ثم يصفر وتتلون فيه خطوط إلى السواد، ثم يصير فيه خطوط سود وبيض، ثم يبدو حجم جناحه، ثم يستقل فيموج بعضه في بعض.

قال أبو عثمان، ويزعم قوم أن الجراد قد يريد الخضرة ودونه النهر الجاري، فيصير بعضه جسراً لبعض حتى يعبر إلى الخضرة، وأن ذلك حيلة منها.

وليس كما زعموا، ولكن الزحف الأول من الذبا يريد الخضرة فلا يستطيعها إلا بالعبور إليها، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافية صارت لعمرى أرضاً للزحف الثاني الذي يريد الخضرة، فإن سموا ذلك جسراً استقام، فاما أن يكون الزحف الأول مهّد للثاني ومكّن له وأثره بالكفاية فهذا ما لا يعرف، ولو أن الزحفين جميعاً أشرفا على النهر، وأمسك أحدهما عن تكلف العبور حتى يمهد له الآخر لكان لما قالوه وجه.

(١) الكذبة: الشيء الصلب بين الحجارة والطين. القاموس، مادة (كذي).

(٢) الأفاحيص: جمع أفحوص: وهو مبيض القطا؛ لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه. اللسان. مادة (فحص).

(٣) الأصهب: الذي يخالط بياضه حمرة. اللسان، مادة (صهب).

قال أبو عثمان: ولعاب الجراد سمٌ على الأشجار لا يقع على شيء إلا أحرقه.
فأما الحكماء فيذكرون في كتبهم أن أرجل الجراد تطلع الثآليل، وأنه إذا أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رؤوسها وأطرافها، وجعل معها قليل آس يابس، وشربت للاستسقاء كما هي، نفعت نفعاً بيناً، وأن التبخر بالجراد ينفع من عسر البول، وخاصة في النساء، وأن أكله ينفع من تقطيره، وقد يبخر به للبواسير، وينفع أكله من لسعة العقرب.
ويقال: إن الجراد الطوال إذا غلق على من به حُمى الربيع^(١) نفعه.

٢٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام : في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعها خطبة غيرها

الأصل: مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبْهِهِ، وَلَا صَمَدَهُ مِنْ أَشَارِ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَضْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَغْلُوبٌ. فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ، لَا تَضْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفُدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتُ كَوْنَهُ، وَالْعَدَمَ وَجُودَهُ، وَالْإِبْتِدَاءَ أَوَّلَهُ.

الشرح: هذا الفصل يشتمل على مباحث متعددة:

أولها قوله: «مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفِهِ»، وهذا حق لأنه إذا جعله مكيفاً جعله ذا هيئة وشكل، أو ذا لون وضوء، إلى غيرهما من أقسام الكيف، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً، لأن كل جسم قابل للانقسام، والواحد حقاً لا يقبل الانقسام، فقد ثبت أنه ما وحده مِنْ كَيْفِهِ.
وثانيها قوله: «وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ»، وهذا حق، لأنه تعالى لا مثل له، وقد دلت الأدلة الكلامية والحكمية على ذلك، فمن أثبت له مثلاً، فإنه لم يصب حقيقة تعالى، والسجعة الأخرى تعطي هذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه، وهي قوله عليه السلام: «وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبْهِهِ» ولهذا قال شيوخنا: إن المشبه لا يعرف الله، ولا تتوجه عباداته وصلواته إلى الله تعالى، لأنه يعبد شيئاً يعتقد جسمه، أو يعتقد مشابهاً لبعض هذه الذوات المحدثة، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد، فإذا قُصِدَ بها غيرُ الله تعالى لم يكن قد عبد الله سبحانه ولا عرفه، وإنما يتخيل ويتوهم أنه قد عرفه وعبدته، وليس الأمر كما يتخيل وتوهم.

(١) حمى الربيع: إتيانها في اليوم الرابع، وذلك أن يحم يوماً ويترك يومين لا يحم، ويحم في اليوم الرابع، اللسان، مادة (ربع).

وثالثها قوله عليه السلام: «ولا صَمَدٌ مَنْ أشار إليه» أي أثبتته في جهة، كما تقول الكَرَامِيَّة. الصَّمَد في اللغة العربيَّة: السَّيِّد. والصَّمَد أيضاً الذي لا جوف له، وصار التصميميد في الاصطلاح العرفي عبارة عن التنزيه، والذي قال عليه السلام حق، لأنَّ مَنْ أشار إليه - أي أثبتته في جهة كما تقوله الكَرَامِيَّة - فإنه ما صَمَدٌ، لأنه ما نَزَّهه عن الجهات، بل حكم عليه بما هو من خواصِّ الأجسام، وكذلك مَنْ توقَّعه سبحانه، أي مَنْ تخيَّل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً، فإنه لم يتزَّهه عمَّا يجب تنزيهه عنه.

ورابعها قوله: «كلَّ معروف بنفسه مصنوع»، هذا الكلام يجب أن يتأوَّل، ويحمل على أنَّ كلَّ معروف بالمشاهدة والحسَّ فهو مصنوع، وذلك لأنَّ الباري سبحانه معروف من طريقين: أحدهما من أفعاله، والآخرى بنفسه، وهي طريقة الحكماء الذين بحثوا في الوجود من حيث هو وجود، فعلموا أنه لا بدَّ من موجود واجب الوجود، فلم يستدلُّوا عليه بأفعاله، بل أخرج لهم البحث في الوجود أنه لا بدَّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هي هي.

فإن قلت: كيف يحمل كلامه على أنَّ كلَّ معروف بالمشاهدة والحسَّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية، وهي قوله عليه السلام: «وكلَّ قائم فيما سواه معلوم» لأنها للأعراض خاصَّة، فيدخل أحد مدلولي الفقرتين في الأخرى، فيختلَّ النظم!

قلت: يريد عليه السلام بالفقرة الأولى كلَّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلاً بذاته، غير مفتقر في تقوِّمه إلى غيره فهو مصنوع، وهذا يختصُّ بالأجسام خاصَّة، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه، لأنها متقوِّمة بمحالتها.

وخامسها قوله: «وكلَّ قائم في سواه معلول»، أي وكلَّ شيء يتقوِّم بغيره فهو معلول، وهذا حقٌّ لا محالة، كالأعراض، لأنها لو كانت واجبة لاستغنت في تقوِّمها عن سواها، لكنها مفتقرة إلى المحلِّ الذي يتقوِّم به ذاتها، فإذا هي معلولة، لأنَّ كلَّ مفتقر إلى الغير فهو ممكن فلا بدَّ له من مؤثر.

وسادسها قوله: «فاعل لا باضطراب آلة» هذا لبيان الفرق بيننا وبيننا، فإننا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة.

وسابعها قوله: «مقدَّر لا بجوْل فكرة»، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه، لأننا إذا قدرنا أجلنا أفكارنا، وتردَّت بنا الدواعي، وهو سبحانه يقدر الأشياء على خلاف ذلك.

وثامنها قوله: «غني لا باستفادة»، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه، لأن الغني مَنْ لا يستفيد الغني بسبب خارجي، وهو سبحانه غني بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنياً، والمراد بكونه غنياً أن كلَّ شيء من الأشياء يحتاج إليه، وأنه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الأشياء أصلاً.

وتاسعها قوله: «لا تصحبه الأوقات»، هذا بحث شريف جداً، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة، فذاته فوق الزمان والدمر، أما المتكلمون فإنهم يقولون: إنه تعالى كان ولا زمان ولا وقت، وأما الحكماء فيقولون: إن الزمان عَرَض قائم بعَرَض آخر، وذلك العَرَض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه، فالزمان عندهم - وإن كان لم يزل - إلا أن العلة الأولى ليست واقعة تحته، وذلك هو المراد بقوله: «لا تصحبه الأوقات» إن فسرناها على قولهم، وتفسيره على قول المتكلمين أولى.

وعاشرها قوله: «ولا تُرَفِّدُه الأدوات»، رفدت فلاناً إذا أعنته، والمراد الفرق بيننا وبينه، لأننا مرفودون بالأدوات، ولولاها لم يصح منا الفعل، وهو سبحانه بخلاف ذلك.

وحادي عشرها قوله: «سبق الأوقات كونه...» إلى آخر الفصل، هذا تصريح بحدوث العالم.

فإن قلت: ما معنى قوله: «والعدل وجوده»، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم في الأزل لا أول له؟

قلت: ليس يعني بالعدم هنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه، أي غلب وجود ذاته عدمها وسبقها، فوجب له وجود يستحيل تطرق العدم إليه أزلاً وأبداً بخلاف الممكنات، فإن عدمها سابق بالذات على وجودها، وهذا دقيق!

الأصل: بِتَشْعِيرِ الْمَشَاعِرِ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيِّنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيِّنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ.

ضَادُّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحُ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودُ بِالْبَلَلِ، وَالْحُرُورُ بِالصَّرْدِ. مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحَسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا.

الشرح: المشاعر الحواس، قال بلعاء بن قيس:

وَالرَّأْسُ مُرْتَفِعٌ فِيهِ مَشَاعِرُهُ يَهْدِي السَّبِيلَ لَهُ سَمْعٌ وَعَيْنَانِ
قال: بجعله تعالى المشاعر عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وذلك لأن الجسم لا يصح منه فعل الأجسام، وهذا هو الدليل الذي يعول عليه المتكلمون في أنه تعالى ليس بجسم.

ثم قال: «وبمضاداته بين الأمور عرف أن لا ضد له»، وذلك لأنه تعالى لما دلنا بالعقل على

أن الأمور المتضادة إنما تتضاد على موضوع تقوم به وتحله كان قد دللنا على أنه تعالى لا ضد له، لأنه يستحيل أن يكون قائماً بموضوع يحله كما تقوم المتضادات بموضوعاتها.

ثم قال: «وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له»، وذلك لأنه تعالى قرن بين العَرَض والجَوْهر، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر، وقرن بين كثير من الأعراض، نحو ما يقوله أصحابنا في حياتي القلب والكبد، ونحو الإضافات التي يذكرها الحكماء كالبنوة والأبوة والفوقية التحتية، ونحو كثير من العلل والمعلولات، والأسباب والمسببات، فيما ركه في العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين عن الآخر، علمنا أنه لا قرين له سبحانه، لأنه لو قارن شيئاً على حسب هذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه، فكان محتاجاً في تحقق ذاته تعالى إليه، وكل محتاج ممكن، فواجب الوجود ممكن! هذا محال.

ثم شرع في تفصيل المتضادات، فقال: «ضاد النور بالظلمة»، وهما عَرَضَان عند كثير من الناس، وفيهم من يجعل الظلمة عدمية.

قال: «والوضوح بالبهمة» يعني البياض والسواد.

قال: «والجمود بالبلل»، يعني اليبوسة والرطوبة.

قال: «والحرور بالصرد» يعني الحرارة والبرودة، والحرور هنا مفتوح الحاء، يقال: إني لأجد لهذا الطعام حروراً وحرورة في فمي، أي حرارة، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف، أي وحرارة الحرور بالصرد، والحرور هنا يكون الريح الحارة، وهي بالليل كالسُموم بالنهار، والصرد: البرد.

ثم قال: وإنه تعالى مؤلف بين هذه المتباعدات، المتعاديات: المتباينات، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إياها في مكان واحد، كيف وذلك مستحيل في نفسه، بل هو سبحانه مؤلف لها في الأجسام المركبة حتى خلع منها صورة مفردة، هي المزاج، ألا ترى أنه جمع الحار والبارد والرطب واليابس، فمزجه مزجاً مخصوصاً حتى انتزع منه طبيعة مفردة، ليست حارة مطلقة، ولا باردة مطلقة، ولا رطبة مطلقة، ولا يابسة مطلقة، وهي المزاج، وهو محدود عند الحكماء بأنه كيفية حاصلة من كفيات متضادة، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه.

والعجب من فصاحته في ضمن حكمته، كيف أعطى كل لفظة من هذه اللفظات ما يناسبها ويليق بها، فأعطى المتباعدات لفظة «مقرب»، لأن البعد بإزاء القرب، وأعطى المتباينات لفظة «مقارن»، لأن البينونة بإزاء المقارنة، وأعطى المتعاديات لفظة «مؤلف» لأن الائتلاف بإزاء التعادي.

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى، فقال: «مفرق بين متدانياتها»، فجعل الفساد بإزاء الكون،

وهذا من دقيق حكمته عليه السلام، وذلك لأن كل كائن فاسد، فلما أوضح ما أوضح في الكون والتركيب والإيجاد، أعقبه بذكر الفساد والعدم، فقال: «مفرق بين متدانياتها»، وذلك لأن كل جسم مركب من العناصر المختلفة الكيفيات المتضادة الطباعة، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرق.

ثم قال: «لا يُشمل بحدّ»، وذلك لأن الحدّ الشامل ما كان مركباً من جنس وفصل، والباري تعالى منزّه عن ذلك، لأنه لو شمله الحدّ على هذا الوجه يكون مركباً، فلم يكن واجب الوجود، وقد ثبت أنه واجب الوجود، ويجوز أن يعني به أنه ليس بذی نهاية، فتحويه الأقطار وتحده.

ثم قال: «ولا يحسب بعدّ»، يحتمل أن يريد: لا تحسب أزليته بعدّ، أي لا يقال له: منذ وجد كذا وكذا، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد، ويحتمل أن يريد به أنه ليس مماثلاً للأشياء فيدخل تحت العدد، كما تعدّ الجواهر، وكما تعدّ الأمور المحسوسة.

ثم قال: «وإنما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها»، هذا يؤكد معنى التفسير الثاني، وذلك لأن الأدوات كالجوارح، إنما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير، وكذلك إنما تشير الآلات - وهي الحواس - إلى ما كان نظيراً لها في الجسمية ولوازمها، والباري تعالى ليس بذی مقدار ولا جسم، ولا حال في جسم، فاستحال أن تحدّه الأدوات وتشير إليه الآلات.

الأصل: مَنَعَهَا مِّنْذُ الْقِدْمَةِ، وَحَمَّتْهَا قَدْ الْأَزَلِيَّةُ، وَجَنَّبَهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةُ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا أَمْتَنَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاءُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاءُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثُ! إِذَا لَتَفَاوَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَا مَتْنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءُ إِذْ وَجَدَ لَهُ أَمَامَ، وَلَا تَمَسَّ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَضْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَذْلُولًا عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْأَمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ.

الشرح: قد اختلف الرواة في هذا الموضع من وجهين:

أحدهما: قول مَنْ نصب «القدمة» و «الأزلية» و «التكملة» فيكون نصبها عنده على أنها مفعول ثانٍ، والمفعول الأول الضمائر المتصلة بالأفعال، وتكون «منذ» و «قد» و «لولا» في موضع رفع بأنها فاعلة، وتقدير الكلام: إن إطلاق لفظة «منذ» على الآلات والأدوات يمنعها

عن كونها قديمة، لأن لفظة «منذ» وضعت لا ابتداء الزمان كلفظة «من» لا ابتداء المكان والقديم لا ابتداء له وكذلك إطلاق لفظة «قد» على الآلات، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزلية، لأن «قد» لتقريب الماضي من الحال، تقول: قد قام زيد، فقد دلّ على أن قيامه قريب من الحال التي أخبرت فيها بقيامه، والأزلي لا يصحّ ذلك فيه، وكذلك إطلاق لفظة «لولا» على الأدوات والآلات يجنبها التكملة، ويمنعها من التمام المطلق، لأن لفظة «لولا» وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره، كقولك: لولا زيد لقام عمرو، فامتناع قيام عمرو إنما هو لوجود زيد، وأنت تقول في الأدوات والآلات وكلّ جسم: ما أحسنه لولا أنه فان! وما أتمه لولا كذا! فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أن الأدوات والآلات محدثة ناقصة، والمراد بالآلات والأدوات أربابها.

الوجه الثاني: قول مَنْ رفع «القديمة» و«الأزلية» و«التكملة» فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلاً، وتكون الضمائر المتصلة بالأفعال مفعولاً أولاً، و«منذ» و«قد» و«لولا» مفعولاً ثانياً، ويكون المعنى أن قَدَمَ الباري وأزليته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة «منذ» و«قد» و«لولا» عليه سبحانه، لأنه تعالى قديم كامل، ولفظنا «منذ» و«قد» لا يطلقان إلا على محدث، لأن إحداهما لا ابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضي من الحال، ولفظة «لولا» لا تطلق إلا على ناقص، فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قَدَمَ الباري تعالى وكماله، وأنه لا يصحّ أن يطلق عليه ألقاظ تدلّ على الحدوث والنقص.

قوله عليه السلام: «بها تجلّى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون»، أي بهذه الآلات والأدوات التي هي حواسنا ومشاعرنا، وبخلقها إياها، وتصويره لها، تجلّى للعقول وعُرف، لأنه لو لم يخلقها لم يعرف، وبها امتنع عن نظر العيون، أي بها استنبطنا استحالة كونه مرئياً بالعيون، لأننا بالمشاعر والحواس كملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنه لا تصحّ رؤيته، فإذاً بخلق الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلاً، وبذلك أيضاً عرفنا أنه يستحيل أن يعرف بغير العقل، وأن قول من قال: إنا سنعرفه رؤية ومشافهة بالحاسة باطل.

قوله عليه السلام: «لا تجري عليه الحركة والسكون»، هذا دليل أخذ المتكلمون عنه عليه السلام فنظموه في كتبهم وقرروه، وهو أن الحركة والسكون معانٍ محدثة، فلو حلت فيه لم يخل منها، وما لم يخل من المحدث فهو محدث.

فإن قلت: إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج، وإنما قال كيف يجري عليه ما هو أجراه، وهذا نمط آخر غير ما يقرره المتكلمون!

قلت: بل هو هو بعينه، لأنه إذا ثبت أنه هو الذي أجرى الحركة والسكون، أي أحدثهما لم يجز أن يجريا عليه، لأنهما لو جريا عليه لم يخلُ إما أن يجريا عليه على التعاقب، وليساً ولا واحد منهما بقديم، أو يجريا عليه على أن أحدهما قديم ثم تلاه الآخر، والأول باطل بما يبطل به حوادث لا أول لها، والثاني باطل بكلامه عليه السلام، وذلك لأنه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه، لكن قد قلنا: إنه أجراه أي أحدثه، وهذا خُلف محال وأيضاً فإذا كان أحدهما قديماً معه لم يجز أن يتلوّه الآخر، لأن القديم لا يزول بالمحدث.

ثم قال عليه السلام: «إذا لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كُنْهه^(١)، ولا تمتنع من الأزل معناه»، هذا تأكيد لبيان استحالة جريان الحركة والسكون عليه، تقول: لو صحَّ عليه ذلك لكان محدثاً، وهو معنى قوله: «لا تمتنع من الأزل معناه»، وأيضاً كان ينبغي أن تكون ذاته منقسمة، لأن المتحرك الساكن لا بد أن يكون متحيزاً، وكل متحيز جسم، وكل جسم منقسم أبداً، وفي هذا إشارة إلى نفي الجوهر الفرد.

ثم قال عليه السلام: «ولكان له وراء إذا وُجد له أمام» هذا يؤكد ما قلناه إنه إشارة إلى نفي الجوهر الفرد، يقول: لو حلته الحركة لكان جزماً وحجماً، ولكان أحد وجهيه غير الوجه الآخر لا محالة، فكان منقسماً، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفي الجوهر الفرد، لأن من أثبتة يقول: يصح أن تحله الحركة، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام.

ثم قال عليه السلام: «ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان»، هذا إشارة إلى ما يقوله الحكماء، من أن الكون عدم ونقص، والحركة وجود وكمال، فلو كان سبحانه يتحرك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله، فكان ملتصقاً كماله بالحركة الطارئة على السكون، وواجب الوجود، يستحيل أن يكون له حالة نقصان، وأن يكون له حالة بالقوة وأخرى بالفعل.

قوله عليه السلام: «إذا لقامت آية المصنوع فيه»، وذلك لأن آية المصنوع كونه متغيراً منتقلاً من حال إلى حال، لأننا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام، فلو كان تعالى متغيراً متحركاً منتقلاً من حال إلى حال لتحقق فيه دليل الحدوث، فكان مصنوعاً، وقد ثبت أنه الصانع المطلق سبحانه.

قوله عليه السلام: «ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه»، يقول: إنا وجدنا دليلاً على الباري سبحانه، إنما هو الأجسام المتحركة، فلو كان الباري متحركاً لكان دليلاً على غيره، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه، لكنه سبحانه لا صانع له ولا ذات فوق ذاته، فهو المدلول عليه والمتهي إليه.

قوله عليه السلام: «وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره»، في هذا الكلام

(١) كنه الشيء: جوهره وحقيقته. اللسان، مادة (كنه).

يتوهم سامعه أنه عطف على قوله: «لتفاوتت» و«لتجزأ» و«لامتنع» و«الكان له» و«الالتمس» و«القامت» و«التحول» وليس كذلك، لأنه لو كان معطوفاً عليها لاختل الكلام وفسد، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى، والمراد لو تحرك لزمت هذه المحالات كلها.

وقوله: «وخرج بسلطان الامتناع» ليس من المستحيلات عليه، بل هو واجب له، ومن الأمور الصادقة عليه، فإذا فسد أن يكون معطوفاً عليها وجب أن يكون معطوفاً على ما كان مدلولاً عليه، وتقدير الكلام: كان يلزم أن يتحول الباري دليلاً على غيره، بعد أن كان مدلولاً عليه، وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره، وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز، فهذا هو سلطان الامتناع الذي به خرج عن أن يؤثر فيه ما أثر في غيره من الأجسام والممكنات.

الأصل: الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأَقُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَخْدُوداً. جَلَّ عَنْ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَظَهَرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ، لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ، وَلَا تَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرُهُ، وَلَا تُذَرِّكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِجَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ، وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظُّلَامُ.

الشرح: هذا الفصل كله واضح مستغن عن الشرح، إلا قوله **عَلَيْهِ الْأَقُولُ**: «لم يلد فيكون مولوداً»، لأن لقائل أن يقول: كيف يلزم من فرض كونه والداً أن يكون مولوداً؟ في جوابه: إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر، وكيف وأدم والداً وليس بمولوداً وإنما المراد أنه يلزم من فرض صحة كونه والداً صحة كونه مولوداً، والتالي محال والمقدم محال، وإنما قلنا: إنه يلزم من فرض صحة كونه والداً صحة كونه مولوداً، لأنه لو صح أن يكون والداً على التفسير المفهوم من الوالدية، وهو أن يتصور من بعض أجزائه حتى آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله في النطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى، حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأول لصح عليه أن يكون هو مولوداً من والد آخر قبله، وذلك لأن الأجسام متماثلة في الجسمية، وقد ثبت ذلك بدليل عقلي واضح في مواضعه التي هي أملاك به، وكل منثنين فإن أحدهما يصح عليه ما يصح على الآخر، فلو صح كونه والداً يصح كونه مولوداً. وأما بيان أنه لا يصح كونه مولوداً، فلأن كل مولود متأخر عن والده بالزمان، وكل متأخر عن غيره بالزمان محدث، فالمولود محدث والباري تعالى قد ثبت أنه قديم، وأن الحدوث عليه محال، فاستحال أن يكون مولوداً، وتم الدليل.

الأصل: وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ، وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ، وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَخْوِيهِ، فَتَقِلُّهُ أَوْ تُثَوِّبُهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ قَبِيلُهُ أَوْ يَغْدِلُهُ. لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ.

يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ. يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: كُنْ فَيَكُونُ. لَا بِصَوْتٍ يَفْرَعُ، وَلَا بِنَدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَاءٌ وَمَثَلُهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا.

الشرح: في هذا الفصل مباحث:

أولها: أَنَّ الْبَارِي سُبْحَانَهُ لَا يوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، أَي لَيْسَ بِمَرْكَبٍ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَرْكَبًا لَافْتَقَرَ إِلَى أَجْزَائِهِ، وَأَجْزَاؤُهُ لَيْسَتْ نَفْسُ هَوِيَّتِهِ، وَكُلُّ ذَاتٍ تَفْتَقِرُ هَوِيَّتُهَا إِلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ فَهِيَ مُمَكِّنَةٌ، لَكِنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ، فَاسْتَحَالَ أَنْ يوصَفَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ.

وثانيها: أَنَّهُ لَا يوصَفُ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ كَمَا يَقُولُ مَثَبُو الصُّورَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ جَسَمًا، وَكُلُّ جَسَمٍ مُمْكِنٌ، وَوَاجِبُ الْوُجُودِ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

وثالثها: أَنَّهُ لَا يوصَفُ بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ كَمَا يَقُولُهُ الْكُرَّامِيَّةُ، لِأَنَّهُ لَوْ حَلَّ الْعَرَضُ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَرَضُ لَيْسَ بِأَنْ يُحَلَّ فِيهِ أَوْلَى مِنْ أَنْ يُحَلَّ هُوَ فِي الْعَرَضِ، لِأَنَّ مَعْنَى الْحُلُولِ حَصُولُ الْعَرَضِ فِي حَيْزِ الْمَحَلِّ تَبَعًا لِحَصُولِ الْمَحَلِّ فِيهِ، فَمَا لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ لَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ مَعْنَى الْحُلُولِ، وَلَيْسَ بِأَنْ يُجْعَلَ مَحَلًّا أَوْلَى مِنْ أَنْ يُجْعَلَ حَالًا!

ورابعها: أَنَّهُ لَا يوصَفُ بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ، أَي لَيْسَ لَهُ بَعْضٌ، وَلَا هُوَ ذُو أَقْسَامٍ بَعْضُهَا غَيْرُ اللَّبَعْضِ الْآخَرِ، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى الْبَحْثِ الْأَوَّلِ.

وخامسها: أَنَّهُ لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ، أَي لَيْسَ ذَا مَقْدَارٍ، وَلِذَلِكَ الْمَقْدَارُ طَرَفٌ وَنِهَايَةٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَا مَقْدَارٍ لَكَانَ جَسَمًا، لِأَنَّ الْمَقْدَارَ مِنْ لَوَازِمِ الْجَسَمِيَّةِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِجَسَمٍ.

وسادسها: أَنَّهُ لَا انْقِطَاعَ لَوْجُودِهِ، وَلَا غَايَةَ، لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ عَلَيْهِ الْعَدَمُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَكَانَ وَجُودُهُ الْآنَ مُتَوَقِّفًا عَلَى عَدَمٍ سَبَبِ عَدَمِهِ، وَكُلُّ مُتَوَقِّفٍ عَلَى الْغَيْرِ فَهُوَ مُمْكِنٌ فِي ذَاتِهِ، وَالْبَارِي تَعَالَى وَاجِبُ الْوُجُوبِ، فَاسْتَحَالَ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَأَنْ يَكُونَ لَوْجُودُهُ انْقِطَاعًا، أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَى غَايَةٍ يَعْدَمُ عِنْدَهَا.

وسابعها : أنَّ الأشياء لا تحويه فتقله، أي ترفعه، أو تهويه، أي تجعله هاوياً إلى جهة تحت، لأنه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشيء الحاوي له، لكن قد بينا أنه يستحيل عليه المقادير، فاستحال كونه محوياً.

وثامنها : أنه ليس يحمله شيء فيميله إلى جانب، أو يعد له بالنسبة إلى جميع الجوانب، لأنَّ كلَّ محمول مقدَّر، وكلُّ مقدَّر جسم، وقد ثبت أنه ليس بجسم.

وتاسعها : أنه ليس في الأشياء بوالج، أي داخل. ولا عنها بخارج، هذا مذهب الموحدين، والخلاف فيه مع الكرامية والمجسمة، وينبغي أن يفهم قوله عليه السلام : «ولا عنها بخارج» أنه لا يريد سلب الولوج، فيكون قد خلا من النقيضين، لأنَّ ذلك محال، بل المراد بكونه ليس خارجاً عنها أنه ليس كما يعتقد كثير من الناس، أنَّ الفلك الأعلى المحيط لا يحتوي عليه، ولكنه ذات موجودة متميزة بنفسها، قائمة بذاتها، خارجة عن الفلك في الجهة العليا، بينها وبين الفلك بعد، إمّا غير متناهٍ - على ما يحكى عن ابن الهيصم - أو متناهٍ على ما يذهب إليه أصحابه، وذلك أنَّ هذه القضية، وهي قولنا : الباري خارج عن الموجودات كلها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضية الأولى، وهي قولنا : الباري داخل العالم، ليكون القول بخلوه عنهما قولاً بخلوه عن النقيضين، ألا ترى أنه يجوز أن تكون القضيتان كاذبتين معاً، بل لا يكون الفلك المحيط محتوياً عليه، ولا يكون حاصلاً في جهة خارج الفلك، ولو كانت القضيتان متناقضتين لما استقام ذلك، وهذا كما تقول : زيد في الدار زيد في المسجد، فإنَّ هاتين القضيتين ليستا متناقضتين، لجواز ألا يكون زيد في الدار، ولا في المسجد، فإنَّ هاتين لو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضين، لكن المتناقض : «زيد في الدار، زيد ليس في الدار»، والذي يستشعنه العوام من قولنا : «الباري لا داخل العالم ولا خارج العالم» غلط مبني على اعتقادهم وتصوّرهم أنَّ القضيتين تتناقضان، وإذا فهم ما ذكرناه بأنَّ أنه ليس هذا القول بشنيع، بل هو سهل وحق أيضاً، فإنه تعالى لا متحيّز ولا حال في المتحيّز، وما كان كذلك استحال أن يحصل في جهة، لا داخل العالم ولا خارج العالم، وقد ثبت كونه غير متحيّز ولا حال في المتحيّز، من حيث كان واجب الوجود، فإذن القول بأنه ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج صواب وحق.

وعاشرها : أنه تعالى يخبر بلا لسان ولهوات^(١)، وذلك لأنَّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلاً للخبر، كما أنَّ كونه ضارباً هو كونه فاعلاً للضرب، فكما لا يحتاج في كونه ضارباً إلى أداة وجارحة يضرب بها كذلك لا يحتاج في كونه مخبراً إلى لسان ولهوات يخبر بها.

(١) لهوات : جمع لهاة : وهي اللحم المشرقة على الحلق. القاموس، مادة (لهو).

وحادي عشرها : أنه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات، وذلك لأن الباري سبحانه حي لا آفة به، وكل حي لا آفة به، فواجب أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات، ولا حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات، كما نحتاج نحن إلى ذلك، لأننا أحياء بحياة تحلنا، والباري تعالى حي لذاته، فلما افرقنا فيما به كان سامعاً ومبصراً، افرقنا في الحاجة إلى الأدوات والجوارح.

وثاني عشرها : أنه يقول ولا يتلفظ، هذا بحث لفظي، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلاً، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة، نحو قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى﴾^(١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾^(٢)، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفظاً عليه، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جارحة، فوجب الاقتصار على ما ورد، وترك ما لم يرد.

وثالث عشرها : أنه تعالى يحفظ ولا يتحفظ، أما كونه يحفظ فيطلق على وجهين : أحدهما : أنه يحفظ بمعنى أنه يحصي أعمال عباده ويعلمها، والثاني : كونه يحفظهم ويحرسهم من الآفات والدواهي. وأما كونه لا يتحفظ فيحتمل معنيين. أحدهما : أنه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفظ الكلام، أي يتكلف كونه حافظاً له، ومحبطاً وعالمياً به، كالواحد منا يتحفظ الدرس ليحفظه، فهو سبحانه حافظ غير متحفظ. والثاني : أنه ليس بمتحرز ولا مشفق على نفسه خوفاً أن تبدر إليه بادرة من غيره.

ورابع عشرها : أنه يريد ولا يضر، أما كونه مريداً فقد ثبت بالسمع نحو قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَحْكُمُ الْيُسْرَ﴾^(٣)، وبالعقل لا اختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة، وكيفيات مخصوصة، جاز أن تقع على خلافها، فلا بد من مخصص لها بما اختصت به، وذلك كونه مريداً. وأما كونه لا يضر فهو إطلاق لفظي لم يأذن فيه الشرع، وفيه إيهام كونه ذا قلب، لأن الضمير في العرف اللغوي ما استكن في القلب، والباري ليس بجسم.

وخامس عشرها : أنه يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويغضب من غير مشقة، وذلك لأن محبته للعبد إرادته أن يشبهه، ورضاه عنه أن يحمد فعله، وهذا يصح ويطلق على الباري، لا كإطلاقه علينا، لأن هذه الأوصاف يقتضي إطلاقها علينا رقة القلب، والباري ليس بجسم، وأما بغضه لإرادة عقابه وغضبه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به، وفي الأغلب إنما يطلق ذلك علينا ويصح منا مع مشقة تنالنا من إزعاج القلب وغليان دمه، والباري ليس بجسم.

وسادس عشرها : أنه يقول لما أراد كونه : كن، فيكون من غير صوت يقرع، ولا نداء يسمع، هذا مذهب شيخنا أبي الهذيل، وإليه يذهب الكرامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم،

(١) سورة المائدة، الآية : ١١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية : ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية : ١٨٥.

والظاهر أن أمير المؤمنين عليه السلام أطلقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن في مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به، وتكرر على أسماعهم وأذهانهم، فأما باطن الآية وتأويلها الحقيقي فغير ما يسبق إلى أذهان العوام، فليطلب من موضعه.

وسابع عشرها: أن كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قدماً لكان إلهاً ثانياً، هذا هو دليل المعتزلة على نفي المعاني القديمة التي منها القرآن، وذلك لأن القدم عندهم أخص صفات الباري تعالى، أو موجب عن الأخص، فلو أن في الوجود معنى قديماً قائماً بذات الباري، لكان ذلك المعنى مشاركاً للباري في أخص صفاته، وكان يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للباري من الصفات، نحو العالمية والقادرية وغيرهما، فكان إلهاً ثانياً.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام «ومثله»؟

قلت: يقال: مثلت له كذا تمثيلاً، إذا صورت له مثاله بالكتابة أو بغيرها، فالباري مثل القرآن لجبريل عليه السلام بالكتابة في اللوح المحفوظ فأنزله على محمد عليه السلام. وأيضاً يقال: مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً، ومثله بين يدي زيد أي أحضرته منتصباً فلما كان الله تعالى فعل القرآن واضحاً بينا كان قد مثله للمكلفين.

الأصل: لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَكْفَأُ الْمُبْتَدِعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْأَغْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَاقُتِ وَلَا تَفْرَاجٍ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَأَسْتَقَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ.

الشرح: عاد عليه السلام إلى تنزيه الباري تعالى عن الحدوث، فقال: لا يجوز أن يوصف به فتجري عليه الصفات المحدثات كما تجري على كل محدث، وروي: «فتجري عليه صفات المحدثات» وهو أليق، ليعود إلى المحدثات ذوات الصفات ما بعده، وهو قوله عليه السلام: «ولا يكون

بينه وبينها فصل، لأنه لا يحسن أن يعود الضمير في قوله: «وبينها» إلى «الصفات» بل إلى «ذوات الصفات».

قال: لو كان محدثاً لجرت عليه صفات الأجسام الحديثة، فلم يكن بينه وبين الأجسام الحديثة فرق، فكان يستوي الصانع والمصنوع، وهذا محال.

ثم ذكر أنه خلق الخلق غير محتذ لمثال، ولا مستفيد من غيره كيفية الصنعة، بخلاف الواحد منا، فإن الواحد منا لا بد أن يحتذي في الصنعة، كالبناء والتجار والصانع وغيرها.

قال عليه السلام: «ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه»، لأنه تعالى قادر لذاته لا يُعجزه شيء.

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بامساكها، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته، ليس كالواحد منا يمسك الثقل فيشتغل بامساكه عن كثير من أموره.

قال: «وأرساها»، جعلها راسية على غير قرار تتمكن عليه، بل واقفة بإرادته التي اقتضت وقوفها، ولأن الفلك يجذبها من جميع جهاتها - كما قيل - أو لأنه يدفعها من جميع جهاتها، أو لأن أحد نصفها صاعد بالطبع، والآخر هابط بالطبع، فاقضى التعادل وقوفها، أو لأنها طالبة للمركز فوقفت.

والأود: الأعوجاج، وكرر لاختلاف اللفظ. والتهافت: التساقط. والأسداد: جمع سد، وهو الجبل، ويجوز ضم السين.

واستفاض عيونها، بمعنى أفاض، أي جعلها فائضة.

وخذ أوديتها، أي شققها. فلم يهْنُ ما بناه، أي لم يضعف.

الأصل: هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا سُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيْغْلِبُهُ، وَلَا يَقْوَاهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ، وَلَا يَخْتِاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقُهُ.

خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلَا كُفَّ لَهُ فَيَكْفِيَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيَهُ.

هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وَجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا - مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاجِحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا

وَأَكْبَاسِهَا - عَلَى إِحْدَاثِ بَعْوَضَةٍ، مَا قَدَرْتُ عَلَى إِحْدَائِهَا، وَلَا عَرَفْتُ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى
إِجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرْتُ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَنَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قَوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً
خَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقَرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!

الشرح: الظاهر: الغالب القاهر، والباطن: العالم الخبير.

والمُراح بضم الميم: النعم تُرَدُّ إلى المراح، بالضم أيضاً، وهو الموضع الذي تأوي إليه
النعم، وليس المراح ضد السائم على ما يظنه بعضهم، ويقول: إن عطف أحدهما على الآخر
عطف على المختلف والمتضاد، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المعلوفة، وإنما عطف
أحدهما على الآخر على طريقة العرب في الخطابة، ومثله في القرآن كثير، نحو قوله سبحانه:
﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾^(١).

وأسناخها: جمع سنخ بالكسر، وهو الأصل.

وقوله: «لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة»، هو معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾^(٢).

فإن قلت: ما معنى قوله: «لا تستطيع الهرب من سلطانها إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره»؟
وهلاً قال: «من ضره»؟ ولم يذكر النفع، فإنه لا معنى لذكره هنا!

قلت: هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين عن غيره: ما يقدر اليوم فلان لي على نفع ولا
ضر، وليس غرضه إلا ذكر الضرر، وإنما يأتي بذكر النفع على سبيل سلب القدرة عن فلان على
كل ما يتعلق بذلك المعتصم، وأيضاً فإن العفو عن المجرم نفع له، فهو عنه يقول: إنه ليس
شيء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله
تعالى، ويستغني عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه.

الأصل: وَإِنَّ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ قَنَاءِ الدُّنْيَا وَخَدُّهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ أَيْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ
يَكُونُ بَعْدَ قَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ.

عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ.

بِلا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ أَيْدَاءُ خَلْقِهَا، وَيَغْيَرُ أَمْتِنَاعُ مِنْهَا كَانَ فَنَائِهَا، وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَى أَلَامَتِنَاعٍ لَدَامَ بَقَائُهَا. لَمْ يَتَكَاءَذْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَوْدُهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ، وَلَمْ يَكُونْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَتَقْصَانٍ، وَلَا لِأَسْتِعَانَةٍ بِهَا عَلَى نِدِّ مُكَائِرٍ، وَلَا لِاخْتِرَازٍ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُثَاوِرٍ، وَلَا لِلِإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِمُكَائِرَةِ شَرِيكِ فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِيَوْخَشَةِ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا. ثُمَّ هُوَ يُقْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَا لِسَامٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا وَتَذْيِيرِهَا، وَلَا لِإِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لَا يُعْمَلُهُ طَوْلُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةٍ إِفْنَائِهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقْنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا أَسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لَانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَةِ إِلَى حَالٍ أَسْتَشْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالٍ جَهْلٍ وَعَمَى إِلَى عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ، وَلَا مِنْ فَقْرِ وَحَاجَةٍ، إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ دُلٍّ وَضَعَةٍ، إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

الشرح: شرع أولاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة، وذلك لأن الكتاب العزيز قد ورد به، نحو قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾^(١)، ومعلوم أنه بدأه عن عدم، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً. وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾^(٢)، وإنما كان أولاً لأنه كان موجوداً، ولا شيء من الأشياء بموجود، فوجب أن يكون آخراً كذلك، هذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين.

ثم ذكر أنه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان، وذلك لأن المكان إما الجسم الذي يتمكن عليه جسم آخر، أو الجهة، وكلاهما لا وجود له بتقدير عدم الأفلاك وما في حشوها من الأجسام، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأن الجهة لا تتحقق إلا بتقدير وجود الفلك، لأنها أمرٌ إضافيٌّ بالنسبة إليه، فتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقق أصلاً، وهذا هو القول في عدم المكان حينئذٍ، وأما الزمان والوقت والحين فكل هذه الألفاظ تعطي معنى واحداً، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك، لأن الزمان هو مقدار حركة الفلك، فإذا قدرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان.

ثم أوضح ﷺ ذلك وأكدته، فقال: «عدمته عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات»، لأن الأجل هو الوقت الذي يحل فيه الدين أو تبطل فيه الحياة، وإذا ثبت أنه لا وقت، ثبت أنه لا أجل، وكذلك لا سنة ولا ساعة، لأنها أوقات مخصوصة.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا، فقال: «بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها»، يعني أنها مسخرة تحت الأمر الإلهي.

قال: «ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها»، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه في مراده، وإنما تمنعه في مراده لو كانت قادرة لذاتها، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت.

قوله عليه السلام: «لم يتكأده» بالمد، أي لم يشق عليه، ويجوز «لم يتكأده» بالتشديد والهمزة، وأصله من العقبة الكئود، وهي الشاقة.

قال: «ولم يؤده» أي لم يثقله.

ثم ذكر أنه تعالى لم يخلق الدنيا ليشد بها سلطانه، ولا لخوفه من زوال أو نقص يلحقه، ولا ليستعين بها على ند مماثل له، أو يحترز بها عن ضد محارب له، أو ليزداد بها ملكه ملكاً، أو ليكاثر بها شريكاً في شركته له، أو لأنه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمن خلق.

ثم ذكر أنه تعالى: «سيفنيها بعد إيجادها» لا لضجر لحقه في تدبيرها، ولا لراحة تصله في إعدامها، ولا لثقل شيء منها عليه حال وجودها، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها.

ثم عاد عليه السلام، فقال: إنه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء، لا حاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض، ولا لأنه استوحش حال عدمها فأحب أن يستأنس بإعادتها، ولا لأنه فقد علماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم، ولا لأنه صار فقيراً عند إعدامها فأحب أن يتكثر ويثرى بإعادتها، ولا لذلك أصابه بإفنائها فأراد العز بإعادتها.

فإن قلت: إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا، وكان من قبل أوجدها لا لكذا ولا لكذا، ثم قلت: إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا، فلا يـ حال أوجدها أولاً، ولا يـ حال أفناها ثانياً، ولا يـ حال أعادها ثالثاً؟ خبرونا عن ذلك، فإنكم قد حكيتُم عنه عليه السلام الحكم ولم تحكوا عنه العلة!

قلت: إنما أوجدها أولاً للإحسان إلى البشر ليعرفوه، فإنه لو لم يوجد لهم لبقى مجهولاً لا يعرف، ثم كلف البشر ليعرضهم للمنزلة الجليلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهي الثواب، ثم يفنيهم لأنه لا بد من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاق التكليف، وإذا كان لا بد من انقطاعه فلا فرق بين انقطاعه بالعدم المطلق، أو بتفريق الأجزاء، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع، وفيه لطف زائد للمكلفين، لأنه أردع وأهيب في صدورهم من بقاء أجزائهم، واستمرار وجودها غير معدومة.

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدهم ليوصل إلى كل إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب، ولا

يمكن إيصال هذا المستحق إلا بالإعادة، وإنما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليقات، لأنه قد أشار إليها فيما تقدم من كلامه، وهي موجودة في فرش خطبه، ولأن مقام الموعظة غير مقام التعليل، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلك مسلك الموعظة في ضمن تمجيد الباري سبحانه وتعظيمه، وليس ذلك بمظنة التعليل والحجاج.

٢٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام تختص بذكر الملاحم

الأصل: أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي هُم مِّنْ عَدُوِّ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ، وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ إِلَّا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وَصْلِكُمْ، وَأَسْتِغْمَالِ صِفَارِكُمْ. ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ جِلَّةِ ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْثَرَ مِنْ الْمُعْطِي، ذَاكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النِّعَمِ وَالنِّعَمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ أَضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ، كَمَا يَعْضُ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءُ! وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءُ! أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذْمُوا غِبَّ فِعَالِكُمْ، وَلَا تَفْتَحِمُوا مَا أَسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ قُورِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا، فَقَدْ لَعَنَ فِي يَهْلِكُ فِي لَهْيِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ. إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَغُوا وَأَخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ فَتَهْمُوا.

الشرح: الإمامية تقول: هذه العدة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام. وغيرهم يقول: إنه عنى الأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض، وقد تقدم منا ذكر القطب والأبدال، وأوضحنا ذلك إيضاحاً جلياً.

قوله عليه السلام: «أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ»، أي تعرفها الملائكة المعصومون، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم.

وفي الأرض مجهولة، أي عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر.

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان الدنيا، فقال لهم: تَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وَصْلِكُمْ - جمع وُضلة -.

واستعمال صغاركم، أي يتقدم الصغار على الكبار، وهو من علامات الساعة.

قال: ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقل مشقة من احتمال المشقة في اكتساب درهم حلال، وذلك لأن المكاسب تكون قد فسدت واختلطت، وغلب الحرام الحلال فيها.

قوله: «ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي»، معناه أن أكثر من يعطي ويتصدق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجر له في التصديق به، ثم أكثرهم يقصد الرياء والسمعة بالصدقة أو لهوى نفسه، أو لخطرة من خطراته، ولا يفعل الحسن لأنه حسن، ولا الواجب لوجوبه، فتكون اليد السفلى خيراً من اليد العليا، عكس ما ورد في الأثر، وأما المعطى فإنه يكون فقيراً ذا عيال، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال! فإذا أخذه ليسد به خلته، ويصرفه في قوت عياله، كان أعظم أجراً ممن أعطاه.

وقد خطر لي فيه معنى آخر، وهو أن صاحب المال الحرام إنما يصرفه في أكثر الأحوال وأغلبها في الفساد وارتكاب المحظور كما قال: «مَنْ اكْتَسَبَ مَالاً مِنْ نَهَائِشٍ^(١)، أَذْهَبَ اللَّهُ فِي نَهَائِرِ^(٢)». فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوت عليه صرفه في تلك القبائح والمحظورات التي كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير، فإذا قد أحسن الفقير إليه بكفه عن ارتكاب القبيح، ومن العصمة ألا يقدر فكان المعطى أعظم أجراً من المعطي.

قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «ذاك حيث تسكرون من غير شراب، بل من النعمة»، بفتح النون، وهي غضارة العيش، وقد قيل في المثل: سُكَّرَ الْهَوَى أَشَدَّ مِنْ سُكَّرِ الْخَمْرِ.

قال: «تحلفون من غير اضطرار»، أي تنهانون باليمين وبذكر الله عز وجل.

قال: «وتكذبون من غير إحراج»، أي يصير الكذب لكم عادة ودربة، لا تفعلونه لأن آخر منكم قد أخرجكم واضطركم بالغيظ إلى الحلف. وروي من غير «إحراج» بالواو، أي من غير أن يُحَوجَكُم إليه أحد.

قال: ذلك إذا غَضَّكُمْ البلاء كما يعض القَتَبُ غارب البعير. هذا الكلام غير متصل بما قبله، وهذه عادة الرضي رحمه الله يلتقط الكلام التقاطاً، ولا يتلو بعضه بعضاً، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدم من الأجزاء الأول، وقبل هذا الكلام ذكر ما يناله من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج.

قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «ما أطول هذا العناء، وأبعد هذا الرجاء! هذا حكاية كلام شعبيته وأصحابه.

(١) النهائش: المظالم والإجحافات بالناس. القاموس، مادة (نهش).

(٢) النهابر: المهالك. القاموس، مادة (نهر).

ثم قال مخاطباً أصحابه الموجودين حوله: أيها الناس، ألقوا هذه الأزمة التي تحمل ظهورها الأثقال عن أيديكم. هذه كناية عن النهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب. والظهور ما هنا: هي الإبل أنفسها. والأثقال: المآثم. وإلقاء الأزمة: ترك اعتماد القبيح، فهذا عموم، وأما خصوصه فتعريض بما كان عليه أصحابه من الغدر ومخامرة العدو عليه، وإضماء الغل والغش له، وعصيانه والتلوي عليه، وقد فسره بما بعده فقال: «ولا تصدعوا عن سلطانكم» أي لا تفرقوا، «فتدقوا غيب فعالكم»، أي عاقبه.

ثم نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من قور نار الفتنة وقور النار: غلبانها واحتدامها، ويروي: «ما استقبلكم».

ثم قال: «وأيملوا عن سننها» أي تنحوا عن طريقها، وخلوا قضا السبيل لها، أي دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا خطباً لنارها.

ثم ذكر أنه قد يهلك المؤمن في لخبها، ويسلم فيه الكافر، كما قيل: المؤمن ملقى والكافر مرقى. ثم ذكر أن مثله فيهم كالشرج يستضيء بها من ولجها، أي دخل في ضوئها.

وآذان قلوبكم، كلمة مستعارة، جعل للقلب آذاناً كما جعل الشاعر للقلوب أبصاراً، فقال: يدق على النواظر ما أتاه فنبصره بأبصار القلوب

٢٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الوصية بالتقوى

الأصل: أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آله وإيكم، ونعمائه عليكم، وببلائه لديكم، فكنم حصصكم بِنِعْمَةٍ، وتدارككم بِرَحْمَةٍ!

أعوزتم له فسرركم، وتعرضتم لأخذه فأمهلكم!

وأوصيكم بذكر الموت وإفلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس بئفلكم، وطمعكم فيمن ليس بئفلكم، فكفى واعظاً بموتى عابثوهم، حبلوا إلى قبورهم غير راكبين، وأنزلوا فيها غير نازلين، كأنهم لم يكونوا للدنيا عمارة، كأن الآخرة لم تزل لهم داراً. وأوحشوا ما كانوا يوطنون، وأزطنوا ما كانوا يوحشون، واشتغلوا بما فارقوا، وأضاعوا ما إليه انتقلوا، لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً، ولا في حسن يستطيعون أزياداً، أنسوا بالدنيا ففرتهم، ووثقوا بها فصرعتهم.

فسابقوا رحمكم الله إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها، والتي رغبتم فيها ودعيتهم

إِلَيْهَا، وَاسْتَتِمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، الْمُجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ

الشرح: أعورتم، أي انكشفتم وبدت عوراتكم، وهي المقاتل، تقول: أعور الفارس، إذا بدت مقاتله، وأعورك الصيّد إذا أمكنك منه.

قوله **عَلَيْكُمْ**: أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يوطنون أي أوطنوا قبورهم التي كانوا يوحشونها.

قوله **عَلَيْكُمْ**: «واشتغلوا بما فارقوا»، أي اشتغلوا وهم في القبور بما فارقوه من الأموال والقيّنات، لأنها أذى وعقاب عليهم في قبورهم، ولولاها لكانوا في راحة، ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد في الدنيا، أي اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه.

ثم ذكر أنهم لا يستطيعون فعل حسنة، ولا توبة من قبيح، لأن التكليف سقط، والمنازل التي أمروا بعمارتها، والمقابر، وعمارتها الأعمال الصالحة.

وقوله **عَلَيْكُمْ**: «إِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ» كلام يجري مجرى المثل، قال:

غَدٌ مَا غَدٌ مَا أَقْرَبُ الْيَوْمِ مِنْ غَدٍ

والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(١) وقوله **عَلَيْكُمْ**: «ما أسرع الساعات في اليوم...» إلى آخر الفصل، كلام شريف وجيز بالغ في معناه، والفصل كله نادر لا نظير له.

٢٣٥ - ومن خطبة له **عَلَيْهِ السَّلَام** في الإيمان ووجوب الهجرة

الأصل: مِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقُفُّوا حَتَّى يَخْضُرَ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ.

وَالْهَجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ، مَا كَانَ لَكُمْ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِيرِ الْأُمَّةِ

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

وَمُعْلِنَهَا . لَا يَقَعُ اسْمُ الْهَجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا
فَهُوَ مُهَاجِرٌ ، وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ ، وَوَعَاَهَا قَلْبُهُ .

إِنَّ أَمْرَنَا صَغْبٌ مُسْتَضْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا يَبْعِي
حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ ، وَأَخْلَامٌ رَزِينَةٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ . سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ ، قَبْلَ
أَنْ تَشْفَرَ بِرِجْلَيْهَا فِتْنَةً تَطَأُ فِي خِطَايِمِهَا ، وَتَذْهَبُ بِأَخْلَامِ قَوْمِهَا .

الشرح: هذا الفصل يُحْمَلُ عَلَى عِدَّةٍ مباحث:

أولها: قوله ﷺ: فمن الإيمان ما يكون كذا. فنقول: إنه قَسَمُ الإيمانِ إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: الإيمان الحقيقي، وهو الثابت المستقر في القلوب بالبرهان اليقيني.

الثاني: ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقيني بل بالدليل الجدلي، كإيمان كثير ممن لم يحقق العلوم
العقلية، ويعتقد ما يعتقده عن أقسية جدلية لا تبلغ إلى درجة البرهان، وقد سَمِيَ ﷺ هذا
القسم باسم مفرد، فقال: إنه عواري في القلوب، والعواري: جمع عارية أي هو وإن كان في
القلب وفي محل الإيمان الحقيقي إلا أن حكمه حكم العارية في البيت، فإنها بعرضة الخروج
منه، لأنها ليست أصلية كائنة في بيت صاحبها.

والثالث: ما ليس مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدلي، بل على سبيل التقليد وحسن
الظن بالأسلاف، وبمن يحسن ظن الإنسان فيه من عابد أو زاهد أو ذي ورع، وقد جعله ﷺ
عواري بين القلوب والصدور لأنه دون الثاني، فلم يجعله حالاً في القلب، وجعله مع كونه
عارية حالاً بين القلب والصدر. فيكون أضعف مما قبله.

فإن قلت: فما معنى قوله: «إلى أجل معلوم»؟

قلت: إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين، لأن من لا يكون إيمانه ثابتاً بالبرهان القطعي قد
ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعياً، بأن ينعم النظر ويرتب البرهان ترتيباً مخصوصاً، فينتج له
النتيجة اليقينية، وقد يصير إيمان المقلد إيماناً جدلياً فيرتقي إلى ما فوقه مرتبته، وقد يصير إيمان
الجدلي إيماناً تقليدياً بأن يضعف في نظره ذلك القياس الجدلي، ولا يكون عالماً بالبرهان،
فيؤول حال إيمانه إلى أن يصير تقليدياً، فهذا هو فائدة قوله: «إلى أجل معلوم» في هذين
القسمين.

فأما صاحب القسم الأول فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم، لأن من ظفر بالبرهان

استحال أن ينتقل عن اعتقاده، لا صاعداً ولا هابطاً، أما لا صاعداً، فلأنه ليس فوق البرهان مقام آخر، وأما لا هابطاً، فلأن مادة البرهان هي المقدمات البديهية والمقدمات البديهية يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدلياً أو تقليدياً.

وثانيها قوله عليه السلام: «فإذا كانت لكم براءة»، فنقول: إنه عليه السلام نهى عن البراءة من أحد ما دام حياً، لأنه وإن كان مخطئاً في اعتقاده، لكن يجوز أن يعتقد الحق فيما بعد، وإن كان مخطئاً في أفعاله، لكن يجوز أن يتوب. فلا تحل البراءة من أحد حتى يموت على أمر، فإذا مات على اعتقاد قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظر، وينبغي أن تحمل هذه البراءة التي أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة، لا على كل براءة، لأننا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حي، ومن الكافر وهو حي، لكن بشرط كونه فاسقاً، وبشرط كونه كافراً، فأما مَنْ مات ونعلم ما مات عليه فإننا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة.

وثالثها قوله: «والهجرة قائمة على حدّها الأول»، فنقول: هذا كلام يختص به أمير المؤمنين عليه السلام، وهو من أسرار الوصية؛ لأنّ الناس يروون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا هجرة بعد الفتح»^(١)، فشفع عنه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعي أن يستثنيه، فاستثناءه، وهذه الهجرة التي يشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة، بل هي الهجرة إلى الإمام، قال: إنها قائمة على حدّها الأول ما دام التكليف باقياً، وهو معنى قوله: «ما كان لله تعالى في أهل الأرض حاجة».

وقال الراوندي: ما هاهنا نافية، أي لم يكن لله في أهل الأرض من حاجة، وهذا ليس بصحيح؛ لأنه إدخال كلام منقطع بين كلامين متصل أحدهما بالآخر.

ثم ذكر أنه لا يصح أن يعدّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه، وهو معنى قوله: «إلا بمعرفة الحجة في الأرض». قال: «فمن عرف الإمام وأقر به فهو مهاجر».

قال: ولا يجوز أن يسمّى مَنْ عرف الإمام مستضعفاً، يمكن أن يشير به إلى آيتين في القرآن:

إحدهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (١٨٦٤).

الْأَرْضُ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ^(١)، فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كما كان هؤلاء مستضعفين، وإن كان في بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشم مشقة السفر.

ثانيهما قوله تعالى في الآية التي تلي الآية المذكورة: ﴿إِلَّا السُّعَفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾^(٢) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ^(٣) فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين؛ لأن أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضة عليهم، وعُفي عن ذوي العجز عن الحركة منهم، وشيعة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضة عليهم، بل تكفي معرفتهم به وإقرارهم بإمامته، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم.

فإن قلت: فما معنى قوله: «من مستسر الأمة ومعلنها»، وبماذا يتعلق حرف الجر؟ قلت: معناه: ما دام الله في أهل الأرض المستسر منهم باعتقاده والمعلن حاجة، ف«من على هذا زائدة، فلو حذفت لجر المستسر بدلاً من أهل الأرض، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلق، نحو قولك: ما جاءني من أحد».

ورابعها: قوله عليه السلام: «إن أمرنا هذا صعب مستصعب» ويروى: «مستصعب - بكسر العين - لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبه للإيمان»، هذه من ألفاظ القرآن العزيز، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمُ لِلتَّقْوَى﴾^(٣)، وهو من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وإن عته، والمعنى أنهم صبروا على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة؛ لأن تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة، فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى، فتعلق اللام بمحذوف، أي كائنة له، وهي اللام التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي مختص به كقوله:

أَعْدَاءُ مَنْ لِلْعَمَلَاتِ عَلَى الْوَجَا

وتكون مع معمولها منصوبة على الحال، ويجوز أن يكون المعنى: ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى، أي لتثبت فيظهر تقواها، ويعلم أنهم متقون؛ لأن

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٣.

حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلص قلوبهم للتقوى، من قولهم: امتحن الذهب، إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاها.

وهذه الكلمة قد قالها ﷺ مراراً، ووقفت في بعض الكتب على خطبة من جملتها: إن قريشاً طلبت السعادة فشقيت، وطلبت النجاة فهلكت، وطلبت الهدى فضلت، ألم يسمعون ويحكم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ءَلَفْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(١) فإين المعدل والمنزع عن ذرية الرسول، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم، وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم عليهم! ألا إن الذرية أفناناً أنا شجرتها، ودوحة أنا ساقها، وإني من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء، كنا ظلالاً تحت العرش قبل خلق البشر، وقبل خلق الطينة التي كان منها البشر، أشباحاً عالية، لا أجساماً نامية، إن أمرنا صعب مستصعب، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة: ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فإذا انكشف لكم سرٌّ أو وضع لكم أمر فاقبلوه، وإلا فاسكتوا تسلموا، وردُّوا علمنا إلى الله فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض.

وخامسها: قوله: «سلوني قبل أن تفقدوني»، أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء: «سلوني» غير علي بن أبي طالب عليه السلام، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب «الاستيعاب»^(٢).

والمراد بقوله: «فلأنا أعلم بطرق السماء مني بطرق الأرض»، ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور، ولا سيما في الملاحم والدول، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكررة، لا مرة ولا مائة مرة، حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم، وأنه ليس على طريق الاتفاق، وقد ذكرنا كثيراً من ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب.

وقد تأوله قوم على وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحكام الشرعية والفتاوى الفقهية أعلم مني بالأمور الدنيوية، فعبر عن تلك بطرق السماء؛ لأنها أحكام إلهية، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضية. والأول أظهر؛ لأن فحوى الكلام وأوله يدل على أنه المراد.

قصة واعظ مشهور ببغداد

وعلى ذكر قوله ﷺ: «سلوني»، حدثني مَنْ أثق به من أهل العلم حديثاً، وإن كان فيه بعض الكلمات العامة، إلا أنه يتضمن ظرفاً ولطفاً، ويتضمن أيضاً أدباً.

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٢) أنظر أسد الغابة: ٢٢/٤، والاستيعاب: ١١٠٤/٣.

قال: كان ببغداد في صدر أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بالله، واعظ مشهور بالجدِّ ومعرفة الحديث والرجال، وكان يجتمع إليه تحت منبره خلق عظيم من عوام بغداد ومن فضلائها أيضاً، وكان مشتهراً بذي أهل الكلام وخصوصاً المعتزلة وأهل النظر، على قاعدة الحشوية، ومبغضي أرباب العلوم العقلية، وكان أيضاً منحرفاً عن الشيعة برضا العامة بالميل عليهم، فاتفق قوم من رؤساء الشيعة على أن يضعوا عليه من يبيته ويسأله تحت منبره، ويخجله ويفضحه بين الناس في المجلس، وهذه عادة الوعاظ، يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلفون عنها، وسألوا عمن ينتدب لهذا، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزبي، كان له لسن، ويشغل بشيء يسير من كلام المعتزلة، ويتشيع، وعنده قجة، وقد شدا أطرافاً من الأدب، وقد رأيت أنا هذا الشخص في آخر عمره، وهو شيخ، والناس يختلفون إليه في تعبير الرؤيا، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك، فأجابهم، وجلس ذلك الواعظ في يومه الذي جرت عادته بالجلوس فيه، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم، حتى امتلأت الدنيا بهم، وتكلم على عادته فأطال، فلما مر في ذكر صفات الباري سبحانه في أثناء الوعظ، قام إليه الكزبي، فسأله أسئلة عقلية، على منهاج كلام المتكلمين من المعتزلة، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظري، وإنما دفعه بالخطابة والجدل، وسجع الألفاظ، وتردد الكلام بينهما طويلاً، وقال الواعظ في آخر الكلام أعيين المعتزلة حول، وصوتي في مسامعهم طبول، وكلامي في أفئدتهم نُصول، يا من بالاعتزال بصول، ويحك كم تحوم وتجول، حول من لا تدركه العقول! كم أقول، كم أقول! خلوا هذا الفضول!

فارتج المجلس، وصرخ الناس، وعلت الأصوات، وطاب الواعظ وطرب، وخرج من هذا الفصل إلى غيره فشطح شطح الصوفية، وقال: سلوني قبل أن تفقدوني، وكثرها، فقام إليه الكزبي، فقال: يا سيدي ما سمعنا أنه قال هذه الكلمة إلا علي بن أبي طالب عليه السلام، وتمام الخبر معلوم. وأراد الكزبي بتمام الخبر قوله عليه السلام: «لا يقولها بعدي إلا مدع».

فقال الواعظ وهو في نشوة طربه، وأراد إظهار فضله ومعرفة برجال الحديث والرواة: من علي بن أبي طالب؟ أم علي بن أبي طالب بن المبارك النيسابوري؟ أم علي بن أبي طالب بن إسحاق المروزي؟ أم علي بن أبي طالب بن عثمان القيرواني؟ أم علي بن أبي طالب بن سليمان الرازي؟ وعد سبعة أو ثمانية من أصحاب الحديث، كلهم علي بن أبي طالب.

فقام الكزبي، وقام من يمين المجلس آخر، ومن يسار المجلس ثالث، انتدبوا له، وبذلوا أنفسهم للحمية ووطنوها على القتل.

فقال الكزبي: أشا يا سيدي فلان الدين، أشا! صاحب هذا القول هو علي بن أبي طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليه السلام، وإن كنت ما عرفته بعد بعينه، فهو الشخص الذي لما

أخى رسول الله ﷺ بين الأتباع والأذئاب أخى بينه وبين نفسه، وأسجل على أنه نظيره ومماثله، فهل نقل في جهازكم أنتم من هذا شيء؟ أو نبت تحت خبكم من هذا شيء؟
فأراد الواعظ أن يكلمه، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن، وقال: يا سيدي فلان الدين، محمد بن عبد الله كثير في الإسماء، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزة: ﴿مَا سَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (١) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٣) (١). وكذلك علي بن أبي طالب كثير في الأسماء، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (٢).

وقد تلتقي الأسماء في الناس والكُنَى كثيراً ولكن مُبَيَّنوا في الخلائق فالتفت إليه الواعظ ليكلمه، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر، وقال: يا سيدي فلان الدين، حَقَّ تجهله، أنت معذور في كونك لا تعرفه:
وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَيْبِ فَعَاذَرُ الْأَتْرَانِي مَقْلَةً عَمِيَاءُ!
فاضطرب المجلس وماج كما يمج البحر، وافتتن الناس، وتواثبت العامة بعضها إلى بعض، وتكشفت الرؤوس، ومزقت الثياب، ونزل الواعظ، واحتل حتى أدخل داراً أغلق عليه بابها، وحضر أعوان السلطان فسكنوا الفتنة، وصرفوا الناس إلى منازلهم وأشغالهم، وأنفذ الناصر لدين الله في آخر نهار ذلك اليوم، فأخذ أحمد بن عبد العزيز الكزي والرجلين اللذين قاما معه، فحبسهم أياماً لتطفأ نائرة الفتنة. ثم أطلقهم.

٢٣٦ - ومن خطبة له عليه السلام في الأمر بالتقوى

الأصل: أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، حَزِيرَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ، جِهَادًا عَنْ دِينِهِ، لَا يَنْبِيهِ عَنْ ذَلِكَ أَجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالْتِمَاسٌ لِإِظْفَاءِ نُورِهِ.
فَاغْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتَهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذُرْوَتَهُ. وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَأَمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ، فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ، وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهِلَ. وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ

(١) سورة النجم، الآيات: ٢، ٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك (٤٤١٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤).

الْإِبْلَاسَ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ الْفَرْعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَصْلَاحِ، وَاسْتِكَارِ الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَذَمِ الصَّفِيحِ.

فَاللهَ عِبَادَ اللهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنِ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَالِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا، وَانْصَرَفَتْ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى، وَشَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًا، وَسَمِينُهَا غَثًا.

فِي مَوْقِفِ صُنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةِ عِظَامِ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلْبِهَا، عَالٍ لَجْبُهَا، سَاطِعٍ لَهْبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكِ وَثُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَطِيْعَةٍ أُمُورُهَا. ﴿وَسَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾^(١). قَدْ أَمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُخِرْخَوْا عَنِ النَّارِ، وَأَظْمَأَتْ بِهِمْ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَوْتَ وَالْقَرَارَ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَّةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِئَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَحَشُّعًا وَاسْتِغْفَارًا، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشًا وَانْقِطَاعًا، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبَاً، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ، وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةَ تُنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُونَ.

أَسْتَعْمَلْنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الزُّمَرُوا الْأَرْضَ، وَأَضْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى السَّيِّئِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاسِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحٍ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ أَلْيَةُ مَقَامِ إِصْلَاحِهِ لِسَيِّفِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا.

الشرح: وظائف حقوقه: الواجبات المؤقتة، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، والوظيفة ما يُجعل للإنسان في كل يوم، أو في كل شهر، أو في كل سنة، من طعام، أو رزق.

وعزيز منصوب؛ لأنه حال من الضمير في «أستعينه»، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المجرور في «حقوقه» وإضافة «عزیز» إلى «الجند» إضافة في تقدير الانفصال، لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالاً.

وقاهر أعداءه: حاربهم، وروي «وقهر أعداءه».

والمعقل: ما يعتصم به. وذروته: أعلاه.

وأمهدوا له: اتخذوا مهاداً، وهو الفراش، وهذه استعارة.

قوله عليه السلام: «فإن الغاية القيامة»، أي فإن انتهى كل البشر إليها، ولا بد منها.

والأرماس: جمع رَمَس وهو القبر. والإبلاس مصدر «أبلس» أي خاب ویش، والإبلاس أيضاً: الانكسار والحزن. واستكاك الأسماع: صممها.

وغم الضريح: ضيق القبر وكربه. والصفیح: الحجر، وردمه: سدّه.

والسنن: الطريق. والقرن: الحبل.

وأشراط الساعة: علاماتها. وأزفت: قربت. وأفراطها: جمع قرط، وهم المتقدمون السابقون من الموتى، ومن روى «بافراطها» فهو مصدر أفرط في الشيء، أي قربت الساعة بشدة غلوائها وبلوغها غاية الهول والفظاعة، ويجوز أن تفسر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة، كالدجال ودابة الأرض ونحوهما، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى، وهي أشراطها، وإنما يختلف اللفظ.

والكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر، ويقال للأمر الثقيل: «قد أناخ عليهم بكلكله»، أي هذمهم ورضهم كما يهد البعير المبارك من تحته إذا أنحى عليه بصدرة.

قوله عليه السلام: «وانصرف الدنيا بأهلها» أي ولّت، ويروى: «وانصرمت» أي انقضت.

والحِضْن، بكسر الحاء: ما دون الإبط إلى الكشح.

والرث: الخلق، والغث: الهزيل.

ومقام ضنك، أي ضيق.

وشديد كلبها، أي شرها وأذاها. واللجب: الصوت. ووقودها هاهنا، بضم الواو، وهو الحدث، ولا يجوز الفتح؛ لأنه ما يوقد به كالحطب ونحوه، وذاك لا يوصف بأنه ذاك.

قوله عليه السلام: «عم قراؤها»، أي لا يهتدى فيه لظلمته، ولأنه عميق جداً، ويروى: «وكان لي لهم نهار» وكذلك أختها على التشبيه.

والمآب: المرجع، ومدينون: مجزيون.

قوله عليه السلام: «فلا رجعة تُنالون» الرواية بضم التاء، أي تعطون، يقال: أنلت فلاناً مالاً، أي منحته، وقد روي: «تَنالون» بفتح التاء.

ثم أمر أصحابه أن يشبثوا ولا يعجلوا في محاربة مَنْ كان مخالطاً لهم من ذوي العقائد الفاسدة كالخوارج، وَمَنْ كان يُبِطنُ هوى معاوية، وليس خطابه هذا تهييلاً لهم عن حرب أهل الشام، كيف وهو لا يزال يقرعهم ويوبخهم عن التقاعد والإبطاء في ذلك! ولكن قوماً من خاصته كانوا يظلمون على ما عند قوم من أهل الكوفة، ويعرفون نفاقهم وفسادهم، ويرومون قتلهم وقتالهم، فنهاهم عن ذلك، وكان يخاف فرقة جُنْدِه وانتشار حَبْلِ عسكره، فأمرهم بلزوم الأرض، والصبر على البلاء.

وروي بإسقاط ألباء من قوله: «بأيديكم» وَمَنْ رَوَى الكلمة بالباء جعلها زائدة، ويجوز ألا تكون زائدة، ويكون المعنى: ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم في هوى السنتكم، فحذف المفعول. والإصلاط بالسيف: مصدر أصلت، أي سلّ.

واعلم أن هذه الخطبة من أعيان خطبه عليه السلام، ومن ناصع كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسنة البريئة من التكلف ما لا يخفى، وقد أخذ ابنُ نُباتة الخطيب كثيراً من ألفاظها فأودعها خطبه، مثل قوله: «شديد كَلْبُها»، عال لجبها، ساطع لهبها، متغيظ زفيرها، متأجج سعيرها، بعيد خمودها، ذاك وقودها، مخوف وعيدها، عمّ قرارها، مظلمة أقطارها، حامية قدورها، فظيعة أمورها، فإن هذه الألفاظ كلّها اختطفها، وأغار عليها واغتصبها، وسَمَّطَ بها خطبه، وشذّر بها كلامه.

ومثل قوله: «هول المطلق، وروعات الفرع، واختلاف الأضلاع، واستكراك الأسماع، وظلمة اللحد، وخيفة الوعد، وغم الضريح، وردم الصفيح». فإن هذه الألفاظ أيضاً تمضي في أثناء خطبه، وفي غضون مواعظه.

٢٣٧ - ومن خطبة له عليه السلام في وصيته بالزهد

الأصل: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التَّوَّامِ، وَالْأَيُّهُ الْعِظَامِ، الَّذِي عَظَّمَ جِلْمَهُ فَعَمَّا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلَا أَقْتِدَاءٍ وَلَا تَغْلِيمٍ، وَلَا اخْتِدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابَةِ خَطَا، وَلَا حَضَرَةَ مَلَأَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَتْبَعْتُهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمْوُجُونَ فِي خَيْرَةٍ،
قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةٌ الْحَيْنِ، وَأَسْتَفْلَقَتْ عَلَى أَفْدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقٌّ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقُّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا
عَلَيْهَا بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْجَزْزُ وَالْجَنَّةُ، وَفِي غَدِ الطَّرِيقُ إِلَى
الْجَنَّةِ، مَسْلُكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِعٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى
الْأَمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ، وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبَدَى، وَأَخَذَ مَا
أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسَدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا،
وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾^(١).

فَأَمِطْعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَالْإِطْعُوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفًا، وَمِنْ
كُلِّ مُخَالِفٍ مُّوَافِقًا.

أَيَقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَأَقِطْعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعُرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَأَرَحِضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ،
وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الْجَمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَغْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ
أَطَاعَهَا.

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَاهًا، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلاَهَا، وَلَا تَضَعُوا
مَنْ رَفَعْتُهُ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعْتُهُ الدُّنْيَا، وَلَا تَسِيْمُوا بَارِقَهَا، وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا
تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتَتُوا بِأَغْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا
كَاذِبٌ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَغْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ.

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّبَةُ الْعَنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَوُونُ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ،
وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ خَالِهَا انْتِقَالٌ، وَوُطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا
هَزْلٌ، وَعُلُوهَا سُفْلٌ.

دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهَبٍ وَعَطَبٍ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ، قَدْ تَحَيَّرَتْ
مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا، فَأَسْلَمَتْهُمْ الْمَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ،
وَأَغْبَيْتَهُمُ الْمَحَاوِلُ، فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ وَعَاضٌ
عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ بِكَفِّهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَلْدِيهِ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزِيمِهِ.

وَقَدْ أَذْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، وَلَآتِ حِينَ مَنَاصِرِ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتْ الدُّنْيَا لِحَالِ بِأَلْيَا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^(١).

الشرح: الفاشي: الذائع، فشا الخبرُ يَفْشُو فَشْوَاً، أي ذَاعَ، وأفشاه غيره. وتفشى الشيء، أي اتسع، والفواشي: كلُّ منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرهما، ومنه الحديث: «ضَمُّوا فَوَاشِيَكُمْ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ»^(٢)، فيجوز أن يكون عَنَى يَفْشُو حمده إطباق الأم قاطبة على الاعتراف بنعمته، ويجوز أن يريد بالفاشي سبب حمده، وهو النعم التي لا يقدر قدرها، فحذف المضاف.

قوله: «وَالْغَالِبُ جَنْدُهُ»، فيه معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٣).
قوله: «وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ» فيه معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ قَوْلُ جَدِّ رَبِّنَا﴾^(٤)، والجَدُّ في هذا الموضع وفي الآية: العظمة.

والتَّوَام: جمع تَوْم على قَوْعِل، وهو الولد المقارن أخاه في بطن واحد، وقد أتامت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك، فهي متِّيم، فإن كان ذلك عاداتها فهي مِتَّام، وكل واحد من الولدين تَوْم، وهما توأمان، وهذا توأم هذا، وهذه توأمته، والجمع توائم، مثل قشعم وقشاعم، وجاء في جمعه «تُؤَام» على فُعَال، وهي اللفظة التي وردت في هذه الخطبة، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا في مواضع معدودة، وهي عِرْقُ الْعِظَمِ يؤخذ عنه اللحم وعُرَاق، وشاة رُبَّى للحديث العهد بالولادة وغنم رُبَاب، وظئر للمرضعة غير ولدها وُطُور، ورُخْل للأنثى من أولاد الضأن ورُخَال، وفَرِير لولد البقرة الوحشية، وفُرَار. والآء: النعم.

قوله عليه السلام: «مَبْدِعُ الْخَلَائِقِ بَعْلَمُهُ»، ليس يريد أن العلم علة في الإبداع، كما تقول: هوى الحَجَرِ بثقله، بل المراد: أبدع الخلق وهو عالم، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أي خرج متسلحاً، فموضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحالية وكذلك القول في: «ومنشئهم بِحُكْمِهِ» والحُكْم هاهنا: الحكمة.

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء (٢٠١٣)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في كراهية السير في أول الليل (٢٦٠٤).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٦. (٤) سورة الجن، الآية: ٣.

ومنه قوله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»^(١).

قوله: «بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء» قد تكرر منه ﷺ أمثاله مراراً.

قوله: «ولا إصابة خطأ» تحته معنى لطيف، وذلك لأن المتكلمين يوردون على أنفسهم سؤالاً في باب كونه عالماً بكل معلوم إذا استدلوا على ذلك فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال، فوجب أن يعلم سائرهما؛ لأنه لا مخصص، فقالوا لأنفسهم: لم زعمتم ذلك؟ ولم لا يجوز أن يكون فعل أفعاله مضطربة، فلما أدركها علم كيفية صنعها بطريق كونه مدركاً لها فأحكمها بعد اختلالها واضطرابها! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بد أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس، ويكفي ذلك في كونه عالماً بما لم يتطرق إليه، ثم يعود الاستدلال المذكور أولاً.

قوله ﷺ: «ولا حَضْرَةٌ مَلَأَ»، المَلَأَ: الجماعة من الناس وفيه معنى قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

قوله: «يضربون في جهل وضلالة، والضرب: السير السريع. والْحَيْنُ: الهلاك. والرَّيْنُ: الذنب على الذنب حتى يسود القلب، وقيل: الرَّيْنُ: الطَّبَعُ والدنس، يقال: رَانَ عَلَى قَلْبِهِ ذَنْبُهُ، يَرِينُ رَيْنًا، أي دنسه ووسَّخه، واستغلفت أفعال الرَّيْنِ عَلَى قُلُوبِهِمْ: تعسَّرت فتحها.

قوله: «فإنها حقُّ الله عليكم، والموجبة على الله حقكم» يريد أنها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجب على الله أن يجازيكم عنها بالثواب، وهذا تصريح بمذهب المعتزلة في العدل، وأن من الأشياء ما يجب على الله تعالى من باب الحكمة.

قوله: «وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله»، يريد: أوصيكم بأن تستعينوا بالله على التقوى بأن تدعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها، ويوفقكم لها وييسرها ويقوي دواعيكم إلى القيام بها، وأوصيكم أن تستعينوا بالتقوى على لقاء الله ومحاكمته وحسابه، فإنه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين: ﴿وَرَبِّي كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ مُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾^(٣)، فالسعيد من استعان على ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى في دار التكليف، فإنها نعم المعونة ﴿وَتَكَرَّرُوا فَإِنَّكَ خَيْرَ الْزَادِ النَّقْوَى﴾^(٤). والجنة: ما يستتر به.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الآداب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء (٦١٤٥)، والترمذي، كتاب: الآداب، باب: ما جاء أن من الشعر حكمة (٢٨٤٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥١. (٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

قوله: «ومستودعها حافظ»، يعني الله سبحانه؛ لأنه مستودع الأعمال، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَمْرًا مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلٍ﴾^(١)، وليس ما قاله الراوندي من أنه أراد بالمستودع قلب الإنسان بشيء.

قوله: «لم تبرح عارضة نفسها»، كلام فصيح لطيف، يقول: إن التقوى لم تزل عارضة نفسها على من سلف من القرون، فقبلها القليل منهم، شبهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحاً على قوم، فرغب فيها من رغب، وزهد من زهد، وعلى الحقيقة ليست هي العارضة نفسها، ولكن المكلفين ممكنون من فعلها ومرغبون فيها، فصارت كالعارضة.

والغابر هاهنا: الباقي، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقي، وبمعنى الماضي.

قوله عليه السلام: «إذا أعاد الله ما أبدى»، يعني أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبق في الوجود من له تصرف في شيء غيره، كما قال: ﴿لِيَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢). وقيل في الأخبار والحديث: إن الله تعالى يجمع الذهب والفضة كل ما كان منه في الدنيا، فيجعله أمثال الجبال، ثم يقول: هذا فتنة بني آدم، ثم يسوقه إلى جهنم فيجعله مكاوي لجباه المجرمين.

«وسأل عما أسدى»، أي سأل أرباب الثروة عما أسدى إليهم من النعم فيم صرفوها؟ وفيهم أنفقوها؟

قوله عليه السلام: «فما أقل من قبلها!»، يعني ما أقل من قبل التقوى العارضة نفسها على الناس. وإذا في قوله: «إذا أعاد الله»، ظرف لحاجتهم إليها؛ لأن المعنى يقتضيه، أي لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق، وليس كما ظنه الراوندي أنه ظرف لقوله: «فما أقل من قبلها»؛ لأن المعنى على ما قلناه؛ ولأن ما بعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملاً فيما قبلها.

قوله: «فاهبطوا بأسماعكم»، أي أسرعوا، اهبط في عذوه أي أسرع. ويروى: «فانقطعوا بأسماعكم إليها»، أي فانقطعوا إليها مصغيين بأسماعكم.

قوله: «والظُّوا بجذكم»، أي ألحوا، والإلظاظ: الإلحاح في الأمر، ومنه قول ابن مسعود: الظُّوا في الدعاء بياذا الجلال والإكرام، ومنه الملاظة في الحرب، ويقال: رجل ملظ وملظاظ، أي ملحاح، وألفظ المطر، أي دام.

وقوله: «بجذكم» أي باجتهادكم، جددت في الأمر جدًّا بالغت واجتهدت، ويروى:

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٦.

«وَأَكْظُوا بِحَدِّكُمْ» والمواظظة: المداومة على الأمر. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾^(١) قال: أي مواظظاً.

قوله: «وَأَشْعُرُوا بِهَا قُلُوبَكُمْ»، يجوز أن يريد: اجعلوها شعاراً لقلوبكم، وهو ما دون الدثار والصق بالجسد منه، ويجوز أن يريد: اجعلوها علامة يعرف بها القلب التقي من القلب المذنب كالشعار في الحرب يعرف به قوم من قوم، ويجوز أن يريد أخرجوا قلوبكم بها من أشعار البدن، أي طهروا القلوب بها، وصفوها من دنس الذنوب، كما يصفى البدن بالفصاد من غلبة الدم الفاسد، ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام، من أشعرت زيدا بكذا، أي عرفته إياه، أي اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها.

قوله: «وَارْحَضُوا بِهَا» أي اغسلوا، وثوب رَجِيض ومَرْحُوض، أي مغسول.

قال: «وداؤوا بها الأسقام»، يعني أسقام الذنوب.

وبادروا بها الحمام: عجلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متقين.

واعتبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقياً، ولا يعتبرن بكم أهل التقوى، أي لا تكونوا أنتم لهم معتبراً بشقاوتكم وسعادتهم.

ثم قال: وصونوا التقوى عن أن تمازجها المعاصي، وتصونوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافي العدالة.

والنَّزْه: جمع نَزِه، وهو المتباعد عما يوجب الذم. والولاء: جمع وَالِه، وهو المشتاق ذو الوجد حتى يكاد يذهب عقله.

ثم شرع في ذكر الدنيا، فقال: «لَا تَشِيمُوا بَارْقَهَا»، الشيم: النظر إلى البرق انتظاراً للمطر.

ولا تسمعوا ناطقها: لا تصغوا إليها سامعين، ولا تجيؤا مناديتها.

والأعلاق: جمع عِلْق وهو الشيء النفيس. ويرق خالب وخَلَب: لا مطر فيه. وأموالها محروبة، أي مسلوقة.

قوله ﷺ: «أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيةُ الْعُنُونُ»، شبهها بالمرأة المومِيس تتصدى للرجال تريد الفجور. وتتصدى لهم، تتعرض. والعُنُون: المتعرضة أيضاً، عن لي كذا أي عرض.

ثم قال: «وَالْجَامِحةُ الْحَرُونُ» شبهها بالذابة ذات الجِماح، وهي التي لا يُستطاع ركوبها لأنها تعثر بفارسها وتغلبه، وجعلها مع ذلك حَرُوناً وهي التي لا تنقاد.

ثم قال: «وَالْمَائِنةُ الْخُنُونُ»، مان، أي كذب، شبهها بامرأة كاذبة خائنة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

والجحود الكنود، جحد الشيء أنكره، وكند النعمة: كفرها، جعلها كامراً تجحد الصنعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة. ويجوز أن يكون الجحود من قولك: رجل جحد وجحد، أي قليل الخير، وعام جحد، أي قليل المطر، وقد جحد الثبت، إذا لم يطل.

قال: «والعنود: الصدود»، العنود: الناقة تعدل على مرعى الإبل وترعى ناحية، والصدود: المعرضة، صد عنه، أي أعرض، شبهها في انحرافها وميلها عن القصد بتلك.

قال: «والحيود الميود»، حادت الناقة عن كذا تَحِيدُ فهي حَيُود، إذا مالت عنه. ومادت تميد فهي مَيُود، أي مالت، فإن كانت عاداتها ذلك سُميت الحيود الميود في كل حال.

قال: «حالتها انتقال»، يجوز أن يعني به أن شيمتها وسجيته الانتقال والتغير، ويجوز أن يريد به معنى أدق وهو أن الزمان على ثلاثة أقسام: ماض، وحاضر، ومستقبل، فالماضي والمستقبل لا وجود لهما الآن، وإنما الموجود أبداً هو الحاضر، فلما أراد المبالغة في وصف الدنيا بالتغير والزوال قال: «حالتها انتقال»، أي أن الآن الذي يحكم العقلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة، بل هو سيال متغير، فلا ثبوت إذاً لشيء منها مطلقاً، ويروى: «وحالتها افتعال»، أي كذب وزور، وهي رواية شاذة.

قال: «ووطأتها زلزال»، الوطأة كالضغطة، ومنه قوله عليه السلام: «اللهم اشدّ وطأتك على مُضَرٍّ»^(١)، وأصلها موضع القدم. والزلزال: الشدة العظيمة، والجمع زلازل.

وقال الراوندي في شرحه: يريد أن سكونها حركة، من قولك: وَطَوَّ الشيء، أي صار وطياً ذا حال لينة، وموضع وطيء، أي وثير، وهذا خطأ؛ لأن المصدر من ذلك وطأة بالمد، وهما ناطة ساكن الطاء، فأين أحدهما من الآخر؟ قال: «وعلوها سُفل»، يجوز ضم أولهما وكسره.

قال: «دار حرب» الأحسن في صناعة البديع أن تكون الرءاء هنا ساكنة ليوازي السكون هاء «نهب» ومن فتح الرءاء، أراد السلب. حربته أي سلبت ماله.

قال: «أهلها على ساق وسياق» يقال: قامت الحرب على ساق، أي على شدة ومنه قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾^(٢) والسياق: نزع الروح، يقال: رأيت فلاناً يسوق، أي ينزع عند الموت، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقاً وسياقاً وقال الراوندي في شرحه: يريد أن بعض

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب: القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥).

(٢) سورة القلم، الآية: (٤٢).

أهلها في أثر بعض كقولهم: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق، وليس ما قاله بشيء؛ لأنهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى، ولا يقال ذلك في مطلع التابع: أين كان.

قال عليه السلام: «ولحاق وفراق»، اللام مفتوحة، مصدر لحق به، وهذا كقولهم: «الدنيا مولود يولد، ومفقود يفقد».

قال عليه السلام: «قد تحيرت مذاهبها»، أي تحير أهلها في مذاهبهم، وليس يعني بالمذاهب هاهنا الاعتقادات، بل المسالك.

وأعجزت مهاربها: أي أعجزتهم جعلتهم عاجزين، فحذف المفعول. وأسلمتهم المعازل: لم تحصنهم. ولفظتهم، بفتح الفاء: رمت بهم وقذفتهم. وأعبتهم المحاول، أي المطالب.

ثم وصف أحوال الدنيا فقال: «هم من ناج معقور»، أي مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه، وقد جرح بدنه.

ولحم مجزور، أي قتل قد صار جزراً للسباع.

وشلّو مذبوح: الشلّو، العضو من أعضاء الحيوان، المذبوح أو الميت. وفي الحديث: «اتنوني بشلّوها الأيمن»^(١).

ودم مسفوح، أي مسفوك. وعاض على يديه، أي ندماً. وصافق بكفيه، أي تعسفاً أو تعجباً. ومرتفق بخديه: جاعل لهما على مرفقيه فكراً وهماً. وزار على رايه، أي عائب، أي يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه، وهو البداء الذي يذكره المتكلمون. ثم فسره بقوله: «وراجع عن عزمه».

فإن قلت: فهل يمكن أن يفرق بينهما، ليكون الكلام أكثر فائدة؟

قلت: نعم، بأن يريد بالأول مَنْ رأى رأياً وكشفه لغيره، وجامعه عليه ثم بدا له وعابه، ويريد بالثاني مَنْ عزم نفسه عزمًا ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه، ويمكن أيضاً بأن يفرق بينهما بأن يعني بالرأي الاعتقاد، كما يقال: هذا رأي أبي حنيفة، والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك، وهو ما يعزم عليه الإنسان من أمور نفسه، ولا يقال: عزم في الاعتقادات.

ثم قال عليه السلام: «وقد أدبرت الحيلة» أي ولّت، وأقبلت الغيلة، أي الشر، ومنه قولهم: فلان قليل الغائلة. أو يكون بمعنى الاغتيال، يقال: قتله غيلة، أي خديعة. يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله.

قال عليه السلام: «ولات حين مناص»، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز، قال الأخفش: شبهوا

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية (٤٩٨/٢)، مادة (شله).

«لات» بليس، وأضمرُوا فيها اسم الفاعل، قال: ولا تكون «لات» إلا مع «حين»، وقد جاء حذف «حين» في الشعر، ومنه المثل: «حَتَّتْ ولات هَتَّتْ»، أي ولات حين حَتَّتْ، والهاء بدل من الحاء، فحذف الحين وهو يريده. قال: وقرأ بعضهم ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾^(١) بالرفع، وأضمر الخبر. وقال أبو عبيد: هي لا، والتاء إنما زيدت في «حين»، لا في «لا»، وإن كتبت مفردة، والأصل «تحين» كما قال في «الأن» «تلان». فزادوا التاء، وأنشد لأبي وجزة:

العاطفون تَحِينُ ما من عاطفٍ والمطعمون زمانَ أين المطعم

وقال المؤرج: زيدت التاء في «لات» كما زيدت في «رَبَّتْ» و«ثَمَّتْ».

والمناص: المهرب، ناص عن قرنه يَنُوصُ نَوْصاً ومناصاً، أي ليس هذا وقت الهرب والفرار. ويكون المناص أيضاً بمعنى الملجأ والمفرج، أي ليس هذا حين تجد مفرجاً ومعقلاً تعتصم به.

هيهات: اسم للفعل ومعناه بَعُدَ، يقال: هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر، والمعنى يعطي الفعلية، والتاء في «هيهات» مفتوحة مثل كيف، وأصلها هاء، وناس يكسرونها على كل حال بمنزلة نون التثنية، وقال الراجز:

هَيْهَاتٍ من مُضَبَّجِها هَيْهَاتٍ هَيْهَاتٍ حَجَرٌ من صُنَيْعَاتٍ

وقد تبدل الهاء همزة، فيقال: «أيهات» مثل هراق وأراق، قال:

أَيْهَاتَ منك الحياة أَيْهَاتَا

قال الكسائي: فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء، فقال: «هَيْهَاءَ»، وَمَنْ فتحها وقف إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء.

قوله عليه السلام: «ومضت الدنيا لحال بالِهَا»، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره، ومعناها مضى بما فيه إن كان خيراً، وإن كان شراً.

قوله عليه السلام: «فما بكث عليهم السماء»، هو من كلام الله تعالى، والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنهم لا يستحقون أن يتأسف عليهم، وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم؛ لأن العرب كانت تقول في العظيم القدر يموت: بكته السماء، وبكته النجوم، قال الشاعر:

فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ

فنفي عنهم ذلك، وقال: ليسوا من يقال فيه مثل هذا القول، وتأولها ابن عباس رضي الله عنه لما قيل له: أتبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: نعم يبكيه مصلاً في الأرض ومصعداً

عمله في السماء، فيكون نفي البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منهما إلى السماء.

٢٣٨ - ومن خطبة له ﷺ في ذم الكبر

الأصل: (ومن الناس من يسمي هذه الخطبة بالقاصعة، وهي تتضمن ذم إبليس لعنه الله، على استكباره وتركه السجود لآدم ﷺ وأنه أول من أظهر العصية وتبع الحمية وتحذير الناس من سلوك طريقته):

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ الْعِزُّ وَالْكَبرِيَاءُ، وَأَخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمَى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَأَصْطَفَاهُمَا لِحِلَالِهِ، وَجَعَلَ اللَّغْنَةَ عَلَى مَنْ نَارَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ.

ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَخْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿١﴾، اغْتَرَضَتْهُ الْحَيَّةُ، فَافْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأُضْلِهِ، فَعَدُوُّ اللَّهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصِيَّةِ، وَنَارَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبَرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَرُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلَا يَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبَرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفَعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَذْخُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا.

الشرح: يجوز أن تسمى هذه الخطبة «القاصعة» من قولهم: قَصَعَتِ النَّاقَةُ بِحَرَّتِهَا، وهو أن تردّها إلى جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاهها، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مرددة من أولها إلى آخرها، شبهها بالناقة التي تقصع الحجر. ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصية، من قولهم: قَصَعَتِ الْقَمْلَةُ، إِذَا هَشَمَتْهَا وَقَتَلَتْهَا. ويجوز أن تسمى القاصعة؛ لأن المستمع لها المعتر بها يذهب كبره ونخوته، فيكون من قولهم: قَصَعَ الْمَاءُ عَطْشَهُ، أَي أَذْهَبَهُ وَسَكَنَهُ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ بَيْتًا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

فَانْصَاعَتْ أَلْحُقْبُ لَمْ تَقْصَعْ صَرَائِرَهَا وَقَدْ تَشَخَّ فَلَا رِيَّ وَلَا هَيْمَ
الضرائر: جمع صريرة، وهي العطش، ويجوز أن تسمى القاصعة؛ لأنها تتضمن تحقير
إيليس وأتباعه وتصغيرهم، من قولهم: قصعت الرجل إذا امتهنته وحقرته، وغلّام مقصوع، أي
قميء لا يشب ولا يزدد.

والعصية على قسمين: عصية في الله وهي محمودة، وعصية في الباطل وهي مذمومة،
وهي التي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها، وكذلك الحمية. وجاء في الخبر: «العصية في الله
تورث الجنة، والعصية في الشيطان تورث النار».

وجاء في الخبر: «العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته»^(١)، وهذا
معنى قوله عليه السلام: «اختارهما لنفسه دون خلقه...» إلى آخر قوله: «من عباده».

قال عليه السلام: «ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين» مع علمه بمضمراتهم، وذلك لأن اختباره
سبحانه ليس ليعلم، بل ليعلم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصي، وكذلك، قوله
سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾^(٢)،
النون في «لنعلم» نون الجمع لا نون العظمة، أي لتصير أنت وغيرك من المكلفين عالمين لمن
يطيع ومن يعصي، كما أنا عالم بذلك، فتكونوا كلكم مشاركين لي في العلم بذلك.

فإن قلت: وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به؟

قلت: ليس بممتنع أن يكون ظهور حال العاصي والمطيع وعلم المكلفين أو أكثرهم أو
بعضهم به يتضمن لطفاً في التكليف!

فإن قلت: إن الملائكة لم تكن تعلم ما البشر، ولا تتصور ماهيته، فكيف قال لهم ﴿إِنِّي خَلَقْتُ
بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾^(٣)؟

قلت: كان قال لهم: إني خالق جسماً من صفته كيت وكيت، فلما حكاه اقتصر على
الاسم. ويجوز أن يكون عرفهم من قبل أن لفظة «بشر» على ماذا تقع، ثم قال لهم: إني خالق
هذا الجسم المخصوص الذي أعلمتكم أن لفظة «بشر» واقعة عليه من طين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾^(٤)، أي إذا أكملت خلقه.

ففعوا له ساجدين: أمرهم بالسجود له. وقد اختلف في ذلك فقال قوم: كان قبلة، كما

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه، كتاب: الزهد،

باب: البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤)، بلفظ «القيته في جهنم» بدل «قصمته».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة ص، الآية: ٧١.

(٤) سورة ص، الآية: ٧٢.

الكعبة اليوم قبله، ولا يجوز السجود إلا لله. وقال آخرون: بل كان السجود له تكملة ومحنة، والسجود لغير الله غير قبيح في العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١)، أي أحللت فيه الحياة، وأجريت الروح إليه في عروقه، وأضاف الروح إليه تبجيلاً لها، وسمي ذلك نفخاً على وجه الاستعارة؛ لأن العرب تتصور من الروح معنى الريح، والنفخ يصدق على الريح، فاستعار لفظه «النفخ» توسعاً.

وقالت الحكماء: هذا عبارة عن النفس الناطقة.

فإن قلت: هل كان إبليس من الملائكة أم لا؟

قلت: قد اختلف في ذلك، فمن جعله منهم احتج بالاستثناء، ومن جعله من غيرهم احتج بقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٢)، وجعل الاستثناء منقطعاً، وبأن له نسلأ وذرية، قال تعالى: ﴿أَفَسَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾^(٣)، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرية، وبأن أصله نار والملائكة أصلها نور، وقد مر لنا كلام في هذا في أول الكتاب.

قوله: «فافتخر على آدم بخلقه»، وتعصب عليه لأصله، كانت خلقته أهون من خلقه آدم عليه السلام، وكان أصله من نار وأصل آدم عليه السلام من طين.

فإن قلت: كيف حكم على إبليس بالكفر، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر، ومعلوم أن تارك الأمر فاسق لا كافراً؟

قلت: إنه اعتقد أن الله أمره بالقبيح ولم ير أمره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة وامتنع من السجود تكبراً، ورد على الله أمره، واستخف بمن أوجب الله إجلاله، وظهر أن هذه المخالفة عن فساد عقيدة، فكان كافراً.

فإن قلت: هل كان كافراً في الأصل أم كان مؤمناً ثم كفر؟

قلت: أما المرجحة فأكثرهم يقول: كان في الأصل كافراً؛ لأن المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر، وأما أصحابنا فلما كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقفوا في حال إبليس، وجوزوا كلا الأمرين.

قوله عليه السلام: «رداء الجبرية» الباء مفتوحة، يقال: فيه جبرية، وجبروة، وجبروت، وجبورة، كفروجة، أي كبر، وأنشدوا:

فإنك إن عاديتني غصب الحصا عليك وذو الجبورة المتغظرف
وجعله مدحوراً، أي مطروداً مبعداً، دحره الله دحوراً، أي أقصاه وطرده.

(١) سورة ص، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

الأصل: وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ، وَطِيبٌ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَغْنَانُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُوى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَضْلُهُ تَمَيِّزاً بِالِاخْتِيَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِنْعَاداً لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ، فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَخْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبْدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرِي أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ! كَلَّا مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشِراً بِأَمْرِ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَوَاحِدٌ، وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةٍ جُمِيَ حَرَمُهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الشرح: خَطَفَت الشيء بكسر الطاء، أَخَطَفَهُ، إِذَا أَخَذَنهُ بِسُرْعَةٍ اسْتِلَاباً، وَفِيهِ لُغَةٌ أُخْرَى: خَطَفَ بِالْفَتْحِ، وَيَخْطَفُ بِالْفَتْحِ وَيَخْطِفُ بِالْكَسْرِ، وَهِيَ لُغَةٌ رَدِيئَةٌ قَلِيلَةٌ لَا تُكَادُ تُعْرَفُ، وَقَدْ قَرَأَ بِهَا يُونُسُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾^(١).

وَالرُّوَاءُ، بِالْهَمْزَةِ وَالْمَدِّ: الْمَنْظَرُ الْحَسَنُ. وَالْعَرْفُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ. وَالْخِيَلَاءُ، بِضَمِّ الْخَاءِ وَكُسْرِهَا: الْكِبَرُ، وَكَذَلِكَ الْخَالُ وَالْمَخِيلَةُ، تَقُولُ: اخْتَالَ الرَّجُلُ وَخَالَ أَيْضاً، أَيْ تَكَبَّرَ.

وَأَحْبَطَ عَمَلَهُ: أَبْطَلَ ثَوَابَهُ، وَقَدْ حَبَطَ الْعَمَلُ حَبْطاً بِالتَّسْكِينِ وَحَبُوطاً. وَالْمُنْكَلَمُونَ يَسْمُونَ إِبْطَالَ الثَّوَابِ إِحْبَاطاً وَإِبْطَالَ الْعِقَابِ تَكْفِيراً.

وَجَهْدُهُ بَفَتْحِ الْجِيمِ: اجْتِهَادُهُ وَجِدَّهُ، وَوَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: «الْجَهِيدُ» أَيِ الْمُسْتَقْصَى، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَرَعَى جَهِيداً، أَيِ قَدْ جَهَدَهُ الْمَالُ الرَّاعِي وَاسْتَقْصَى رَغْبَهُ.

وَكَلَامُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِقَوْلِهِ: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَلَكاً».

وَالْهُوَادَةُ: الْمَوَادَّةُ وَالْمَصَالِحَةُ، يَقُولُ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهُ مِنَ النُّورِ الَّذِي يَخْطِفُ أَوْ مِنَ الطَّيِّبِ الَّذِي يَعْبِقُ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَهَالِ الْمَلَائِكَةِ أَمْرُهُ وَخَضَعُوا لَهُ، فَصَارَ الْإِبْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ وَالتَّكْلِيفُ بِالسَّجُودِ لَهُ خَفِيفاً عَلَيْهِمْ، لِعَظَمَتِهِ فِي نَفْسِهِمْ، فَلَمْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

يستحقوا ثواب العمل الشاق، وهذا يدل على أن الملائكة تشم الرائحة كما نشمها نحن، ولكن الله تعالى يبتلي عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم.

فإن قلت: ما معنى قوله ﷺ: «تميزاً بالاختبار لهم».

قلت: لأنه ميزهم عن غيرهم من مخلوقاته، كالحوانات العُجم، وأبائهم عنهم، وفضلهم عليهم بالتكليف والامتحان.

قال: «ونفياً للاستكبار عنهم»؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلة، ففيها نفي الخيلاء والتكبر عن فاعليها، فأمرهم بالاقتدار بحال إبليس الذي عبد الله ستة آلاف سنة، لا يُذرى أمر سني الدنيا أم من سني الآخرة! وهذا يدل على أنه قد سمع فيه نصاً من رسول الله ﷺ مجعلاً لم يفتره له، أو فتره له خاصة، ولم يفتره أمير المؤمنين ﷺ للناس لما يعلمه في كتمانهم من المصلحة.

فإن قلت: قوله: «لا يُذرى» على ما لم يسم فاعله يقتضي أنه هو لا يدري!

قلت: إنه لا يقتضي ذلك، ويكفي في صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون.

فأما القول في سني الآخرة كم هي؟ فاعلم أنه ورد في الكتاب العزيز آيات مختلفات.

إحداهن قوله: ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(١).

والأخرى قوله: ﴿يُذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

والثالثة قوله: ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٣).

وأولى ما قيل فيها أن المراد بالآية الأولى مدة عمر الدنيا، وسمي ذلك يوماً، وقال: إن الملائكة لا تزال تعرج إليه بأعمال البشر طول هذه المدة حتى ينقضي التكليف، وينتقل الأمر إلى دار أخرى. وأما الآيتان الأخيرتان فمضمونهما بيان كمية أيام الآخرة، وهو أن كل يوم منها مثل ألف سنة من سني الدنيا.

فإن قلت: فعلى هذا كم تكون مدة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سني الآخرة؟

قلت: يكون ما يرتفع من ضرب أحد المضروبين في الآخرة، وهو ألف ألف ألف، ثلاث لفظات، الأولى منهنّ مثناة، ومائة ألف ألف لفظتان، وستون ألف ألف سنة لفظتان أيضاً من

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٧.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٥.

سني الدنيا . ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيماً جداً علم أن أذهان السامعين لا تحتمله ، فلذلك أبهم القول عليهم ، وقال : « لا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ » .

فإن قلت : فإذا كنتم قد رجّحتم قول مَنْ يقول : إن عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، فكم يكون عمرها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سني الآخرة ؟ لأنه لا يؤمن أن يكون أراد ذلك إذا كانت السنة عنده عبارة عن مدة غير هذه المدة التي قد اصطلاح عليها الناس ؟ قلت : يكون ما يرتفع من ضرب خمسين ألفاً في ثلاث مائة وستين ألف سنة من سني الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف سنة من سني الدنيا ثلاثة لفظات ، وهذا القول قريب من القول المحكي عن الهند .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه روايات كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصحابة أن إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سُموا الجن لأنهم كانوا خُزَّان الجنان ، وكان إبليس رئيسهم ومقدّمهم . وكان أصل خلقهم من نار السموم ، وكان اسمه الحارث ، قال : وقد روي أن الجن كانت في الأرض ، وأنهم أفسدوا فيها ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار ، ثم تكبر في نفسه ، ورأى أنه قد صنع شيئاً عظيماً لم يصنعه غيره . قال : وكان شديد الاجتهاد في العبادة^(١) .

وقيل : كان اسمه عزازيل ، وأن الله تعالى جعله حَكَمًا وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم ، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه في سكان الأرض وقضائه بينهم ، فانطوى على المعصية حتى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان .

قلت : ولا ينبغي أن نصدق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ما ورد في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو في السنة ، أو نقل عمن يجب الرجوع إلى قوله ، وكل ما عدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق ، والباب مفتوح ، فليقل كلُّ أحدٍ في أمثال هذه القصص ما شاء .

واعلم أن كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل يطابق مذهب أصحابنا في أن الجنة لا يدخلها ذو معصية ، ألا تسمع قوله : « فمن بُعد إبليس على الله بمثل معصيته ! كلاً ، ما كان الله ليُدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً ، إن حكمه في أهل السماء والأرض لواحد » .

فإن قلت : أليس من قولكم : إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة ! فهذا صاحب معصية وقد حكمت له بالجنة !

(١) أنظر جامع البيان للطبري : ٢٩٣/١ ، وتاريخ الطبري : ٥٥/١ .

قلت: إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص.

فإن قلت: إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال: «فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته!»، ولم يقل: بالمعصية المطلقة، والمرجئة لا تخالف في أن من وافى القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنة.

قلت: كل معصية كبيرة فهي مثل معصيته، ولم يكن إخراجهم من الجنة لأنه كافر، بل لأنه عاصي مخالف للأمر، ألا ترى أنه قال سبحانه: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾^(١)، فعلل إخراجهم من الجنة بتكبره لا بكفره.

فإن قلت: هذا مناقض لما قدمت في شرح الفصل الأول.

قلت: كلا؛ لأنني في الفصل الأول عللت استحقاقه اسم الكفر بأمر زائد على المعصية المطلقة، وهو فساد اعتقاده، ولم أجعل ذلك علة في خروجه من الجنة، وهاهنا عللت خروجه من الجنة بنفس المعصية، فلا تناقض.

فإن قلت: ما معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً؟» وهل يظن أحد أو يقول: إن الله تعالى يدخل الجنة أحداً من البشر بالأمر الذي أخرج به هاهنا إبليس! كلا، هذا ما لا يقوله أحد، وإنما الذي يقوله المرجئة: إنه يدخل الجنة من قد عصى وخالف الأمر - كما خالف الأمر إبليس - برحمته وعفوه، وكما يشاء، لا أنه يدخله الجنة بالمعصية، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي نفي دخول أحد الجنة بالمعصية لأن الباء للسيبية؟

قلت: الباء هاهنا ليست كما يتوهمه هذا المعترض، بل هي كالباء في قولهم: خرج زيد بشيابه، ودخل زيد بسلاحه، أي خرج لابساً، ودخل متسلحاً، أي يصبغه الثياب ويصعبه السلاح، فكذا قوله عليه السلام: «بأمر أخرج به منها ملكاً»، معناه أن الله تعالى لا يدخل الجنة بشراً يصعبه أمر أخرج الله به ملكاً منها.

الأصل: فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عَدُوَّ اللَّهِ أَنْ يُغَيِّبَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفْزِزَكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوْقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ يَا أَغْوِيَنِي لِأُرِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢)، قَدْ فُتِنَ بِغَيْبِ بَعِيدٍ، وَرَجُمَا بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبَرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَأَسْتَحْكَمَتِ الظَّمَاعِيَةُ مِنْكُمْ، فَتَجَمَّتْ فِيهِ الْحَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْعَلَ سُلْطَانَهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَفْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الدَّلِّ، وَأَحْلُوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِنْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَغْنَا فِي عُيُونِكُمْ، وَخَزَا فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقَّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَضَدَّا لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوَقَّا بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ، إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَضْبَحَ أَكْثَرُكُمْ فِي دِينِكُمْ خَرْجًا، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا، مِنَ الَّذِينَ أَضْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِيَيْنَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُمْ. فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ. يَفْتَنُصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلَقَةِ ضَيْقٍ، وَعَرَصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلَاءٍ.

فَاطْفِئُوا مَا كَمَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيَّةِ، وَأَخْفَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا يِلْكُ الْحِمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَحْوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّذَلُّ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَرُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبَرِ مِنْ أَغْنَائِكُمْ، وَاتَّخَذُوا التَّوَاضُّعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا، وَرَجُلًا وَقُرْسَانًا، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُنْكَبِرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ، سِوَى مَا أَلْحَقَتْ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَبِ، وَقَدَحَتْ الْحِمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ، الَّذِي أَهْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَالزَّمَهُ أَتَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشرح: موضع «أن يُعديكم» نصب على البدل من «عدو الله». وقال الراوندي: يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، وهذا ليس بصحيح لأن «حذر» لا يتعدى إلى المفعولين، والعدوى: ما يُعدي من جرَبٍ أو غيره، أعدى فلان فلاناً من خُلُقِهِ أو من عِلَّتِهِ، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره، وفي الحديث: «لا عدوى في الإسلام»^(١).

فإن قلت: فإذا كان النبي ﷺ قد أبطل أمر العدوى، فكيف قال أمير المؤمنين: «فاحذروه أن يُعديكم»؟

قلت: إن النبي ﷺ أبطل ما كانت العرب تزعمه من عدوى الجرَب في الإبل وغيرها، وأمير المؤمنين عليه السلام حذر المكلفين من أن يتعلموا من إبليس الكبر والحمية، وشبه تعلمهم ذلك منه بالعدوى لاشتراك الأمرين في الانتقال من أحد الشخصين إلى الآخر.

(١) أخرجه أحمد في مسنده بما معناه: ١٥٣/٢.

قوله **﴿يَسْتَفْزِمُ﴾** أي يستخفكم، وهو من ألفاظ القرآن: **﴿وَأَسْتَفْزِمُ مَنِ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾** ^(١)، أي أزعجه واستخفه وأطر قلبه. والخيل: الخيالة، ومنه الحديث: **«يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرْكَبِي»** ^(٢).

والرجل: اسم جمع لراجل كركب اسم جمع لراكب، وصنح اسم جمع لصاحب، وهذه أيضاً من ألفاظ القرآن العزيز: **﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ خَيْلَكَ وَرَجْلَكَ﴾** ^(٣) وقرئ **﴿وَرَجْلِكَ﴾** بكسر الجيم على أن «فِعْلاً» بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِبَ وَتَأَعَبَ، ومعناه، وجمعك الرجل وقد تضم الجيم أيضاً، فيكون مثل قولك: رجل حَدِثَ وَحَدَّثَ وَنَدَسَ وَنَدُسَ.

فإن قلت: فهل لإبليس خيل تركبها جنده؟

قلت: يجوز أن يكون ذلك، وقد فسر قوم بهذا. والصحيح أنه كلام خرج مخرج المثل، شبهت حاله في تسلطه على بني آدم بمن يُغَيِّرُ على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم. وقيل: بصوتك، أي بدعائك إلى القبيح. وخيله ورجله: كل ماشر وراكب من أهل الفساد من بني آدم.

قوله: **«وَفَوْقَ السَّهْمِ»** جعلت له فوقاً، وهو موضع الوتر، وهذا كناية عن الاستعداد، ولا يجوز أن يفسر قوله: **«فَقَدْ فَوْقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ»** بأنه وضع الفوق في الوتر ليرمي به؛ لأنّ ذاك لا يقال فيه: قد فوق، بل يقال: أفقت السهم وأوفقته أيضاً ولا يقال: أفوقته، وهو من النوادر. وقوله: **«وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ»**، أي استوفى مد القوس وبالع في نزعها ليكون مرماه أبعد، ووقع سهامه أشد.

قوله: **«وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ»**، لأنه كما جاء في الحديث: **«يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَيَخَالِطُ الْقَلْبَ»** ^(٤)، ولا شيء أقرب من ذلك.

والباء في قوله: **«بِمَا أَغْوَيْتَنِي»** متعلق بفعل محذوف تقديره: أجازيك بما أغويتني تزييني لهم القبيح، ف«ما» على هذا مصدرية، أي أجازيك بإغوائك لي تزييني لهم القبيح، فحذف المفعول. ويجوز أن تكون الباء قسماً، كأنه أقسم بإغوائه إياه ليزينن لهم.

فإن قلت: وأي معنى في أن يقسم بإغوائه؟ وهل هذا مما يقسم به!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٣٨٦)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٣٥٥/١)، وهناد في «الزهد» (٢٥).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رثي خالياً بامرأة وكانت زوجته (٢١٧٤).

قلت: نعم؛ لأنه ليس إغواء الله تعالى إياه خلق الغي والضلال في قلبه، بل تكليفه إياه السجود الذي وقع الغي عنده من الشيطان، لا من الله، فصار حيث وقع عنده، كأنه موجب عنه، فنسب إلى الباري، والتكليف تعريض للثواب ولذة الأبد، فكان جدير أن يقسم به، وقد أقسم في موضع آخر، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، فأقسم بالعزة، وهاهنا أقسم بالأمر والتكليف. ويجوز فيه وجه ثالث، وهو ألا تكون الباء قسماً، ويقدر قسماً محذوف، ويكون المعنى: بسبب ما كلفني فأفضى إلى غوايتي أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي، وهو أن أزين لهم المعاصي التي تكون سبب هلاكهم.

فإن قلت: ليس هذا نحو ما فعله الباري به؛ لأن الباري أمره بالحسن فأباه، وعدل عنه إلى القبيح، والشيطان لا يأمرنا بالحسن فنكرهه ونعدل عنه إلى القبيح، فكيف يكون ذلك نحو واقعه مع الباري؟

قلت: المشابهة بين الواقعتين في أن كل واحدة منهما تقع عندها المعصية، لا على وجه الإجبار والقسر، بل على قصد الاختيار؛ لأن معصية إبليس كانت من نفسه، ووقعت عند الأمر بالسجود اختياراً منه لا فعلاً من الباري، ومعصيتنا نحن عند التزيين والوسوسة تقع اختياراً منا لا اضطراراً يضطرنا إبليس إليه، فلما تشابهت صورتان في هذا المعنى حسن قوله: «بِمَا فَعَلْتُ بِي كَذَا لَا فَعَلْتُ بِهِمْ نَحْوَهُ».

فإن قلت: ما معنى قوله: «في الأرض»؟ ومن أين كان يعلم إبليس أن آدم سيصير له ذرية في الأرض؟

قلت: أما علمه بذلك فمن قول الله تعالى له وللملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) وأما لفظة «الأرض»، فالمراد بها هاهنا الدنيا التي هي دار التكليف، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(٣)، ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملاذ وهوى الأنفس. قوله عليه السلام: «قَدْ فُأَ بَغِيْبٌ بَعِيدٌ»، أي قال إبليس هذا القول قَدْ فُأَ بَغِيْبٌ بَعِيدٌ، والعرب تقول للشيء المتوهم على بعد: هَذَا قَدْ فُأَ بَغِيْبٌ بَعِيدٌ، والقذف في الأصل: رَمَى الحَجَرِ وَأَشْبَاهَهُ، والغيب الأمر الغائب، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية، قال الله تعالى في كفار قريش: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٤)، أي يقولون: هذا سحر، أو هذا من تعليم أهل الكتاب، أو هذه كهانة، وغير ذلك مما كانوا يرمونه عليه الصلاة والسلام به. وانتصب «قَدْ فُأَ» على المصدر الواقع موقع الحال، وكذلك «رَجْمًا» وقال الراوندي: انتصباً لأنهما مفعول له، وليس

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(١) سورة ص، الآية: ٨٢.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

بصحيح؛ لأن المفعول له ما يكون عذراً وعلّة لوقوع الفعل، وإبليس ما قال ذلك الكلام لأجل القذف والرّجم، فلا يكون مفعولاً له.

فإن قلت: كيف قال ﷺ: «قَدْ فَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَرَجْمًا بَظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ»، وقد صَحَّ ما تَوَقَّعَهُ وَأَصَابَ فِي ظَنِّهِ، فَإِنْ إغْوَاهُ وَتَزَيَّنَّه تَمَّ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَّا عَلَى الْمُخْلِصِينَ!

قلت: أمّا أولاً فقد رُوي: «وَرَجْمًا بَظَنٍّ مُصِيبٍ» بحذف «غير»، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾^(١) وأما ثانياً على الرواية التي هي أشهر فنقول: أمّا قَدْ فَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فإنه قال ما قال على سبيل التوهم والحسبان لأمرٍ مستبعد لا يعلم صحته ولا يظنها، وليس وقوع ما وقع من المعاصي وصحة ما توقَّع به بمخرج لكون قوله الأول: «قَدْ فَا بَغِيبٍ بَعِيدٍ»، وأما «رَجْمًا بَظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ»، فيجب أن يحمل قوله: ﴿لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) على الغواية بمعنى الشرك أو الكفر، ويكون الاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٣) معنا: إلا المعصومين من كل معصية، وهذا ظَنٌّ غَيْرِ مُصِيبٍ لأنه ما أغوى كلَّ البشر الغواية التي هي الكفر والشرك إلا المعصومين العصمة المطلقة، بل أغوى بعضهم كذلك، وبعضهم بأن زَيَّنَّ له الفسق دون الكفر، فيكون ظَنُّهُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إغْوَاءِ الْبَشَرِ كَأَنَّهُ بِمَعْنَى الضَّلَالِ بِالْكَفْرِ ظَنًّا غَيْرِ مُصِيبٍ.

قوله: «صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحِمِيَّةِ»، موضع «صَدَقَهُ» جرّ؛ لأنه صفة «ظَنٍّ»، وقد روي: «صَدَقَهُ أَبْنَاءُ الْحِمِيَّةِ» من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رَوَاهُ بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ كَانَ مَعْنَاهُ: صَدَقَهُ فِي ذَلِكَ الظَّنِّ أَبْنَاءُ الْحِمِيَّةِ، فَأَقَامَ الْبَاءَ مَقَامَ «فِي».

قوله: «حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِئَةُ مِنْكُمْ»، أي الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة. قوله «فَنَجَمَتِ فِيهِ الْحَالُ» أي ظهرت، وقد روي: «فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ» من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رَوَاهُ بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ فَالْمَعْنَى: فَنَجَمَتِ الْحَالُ فِي هَذَا الشَّانِ الْمَذْكُورِ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْخَفَاءِ إِلَى الْجَلَاءِ.

واستفحل سلطانه: قوِي واشتدَّ وصار فُحْلًا، واستفحل جواب قوله: «حَتَّى إِذَا». دلف بجنوده: تقدّم بهم.

والوَلَجَاتُ: جمع وَلَجَةٍ بالتحريك، وهي موضع، أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره. وأقحموكم: أدخلوكم. والوَزْطَةُ: الهلّكة.

قوله: «وَأَوْطَوْكُمُ إِثْخَانَ الْجَرَاخَةِ»، أي جعلوكم واطنين لذلك، والإِثْخَانُ: مصدر أثخن

(٢) سورة ص، الآية: ٨٢.

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٠.

(٣) سورة ص، الآية: ٨٣.

في القتل، أي أكثر منه وببالغ حتى كثف شأنه، وسار كالشيء الثخين، ومعنى إيطاء الشيطان بني آدم ذلك إلقاءهم فيه، وتوريطهم وحمله لهم عليه. بالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ، لا كما زعم الراوندي أنه انتصب بحذف حرف الخفض.

قوله عليه السلام: «طَعْنًا فِي عَيُونِكُمْ»، انتصب «طَعْنًا» على المصدر، وفعله محذوف، أي فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم في عيونكم طعنًا، فأما من روي: «وَأَوْطَوْوَكُمْ لِإِثْخَانِ الْجِرَاحَةِ» باللام فإنه يجعل «طَعْنًا» منصوبًا على أنه مفعول به، أي أوطؤوكم طعنًا وحزًا، كقولك: أوطأته نارًا، وأوطأته عَشْوَةً، ويكون «لِإِثْخَانِ الْجِرَاحَةِ» مفعولاً له، أي أوطؤوكم الطعن ليشخنوا جراحكم. وينبغي أن يكون «قَصْدًا» و«سَوْقًا» خالصين للمصدرية؛ لأنه يبعد أن يكون مفعولاً به.

واعلم أنه لما ذكر الطعن نسبة إلى العيون، ولما ذكر الحز، وهو الذبح نسبة إلى الحلق، ولما ذكر الدق، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر، وهذا من صناعة الخطابة التي علمه الله إياها بلا تعليم، وتعلمها الناس كلهم بعده منه.

والخزائم: جمع خزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في وَثْرَةِ أَنْفِ البعير فيشد فيها الزمام. وتقول: قَدْ وَرَى الزَّندَ، أي خرجت ناره، وهذا الزند أَوْرَى من هذا، أي أكثر إخراجاً للنار يقول: فأصبح الشيطان أضراً عليكم وأفسد لحالك من أعدائكم الذين أصبحتم مناصبين لهم، أي معادين، وعليهم متآلين، أي مجتمعين.

فإن قلت: أمّا أعظم في الدين حرجاً فمعلوم، فأي معنى لقوله: «وَأُورَى فِي دُنْيَاكُمْ قَذْحًا»، وهل يُفْسِدُ إبليسُ أَمْرَ الدُّنْيَا كما يفسد أمر الدين!

قلت: نعم؛ لأن أكثر القبائح الدينية مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيوية، ألا ترى أنه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسد حال السارق من جهة الدين وحال المسروق منه من جهة الدنيا، وكذلك القول في الغضب والقتل وما يحدث من مضار الشرور الدنيوية من اختلاط الأنساب واشتباة النسل، وما يتولد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنها من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقذفاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهاها.

قوله عليه السلام: «فاجعلوا عليه حَدَّكُمْ»، أي شَبَاتَكُمْ وبأسكم.

وله جِدَّكُمْ: من جددت في الأمر جدًّا، أي اجتهدت فيه وبالغت.

ثم ذكر أنه فخر على أصل بني آدم، يعني أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال: «أنا خير منه».

ووقع في حَسَبِكُمْ، أي عاب حَسَبَكُمْ وهو الطين، فقال: إِنَّ النَّارَ أَفْضَلُ مِنْهُ. ودفع في نسبكم مثله.

وأجلب بخيله عليكم، أي جمع خياله وفُرسانه وألبها.

ويقتنصونكم: يتصيدونكم. والبَنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحده بَنانة، ويجمع في القلّة على بَنانات، ويقال: بنان مخضّب؛ لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يذكر ويؤخذ.

والحومة: معظم الماء والحرب وغيرهما، وموضع هذا الجارّ والمجرور نصب على الحال، أي يقتنصونكم في حومة ذلّ.

والجولة: الموضع الذي تجول فيه.

وكَمَن في قلوبكم: استتر، ومنه الكمين في الحرب.

ونزغات الشيطان: وساوسه التي يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: «واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعرّز تحت أقدامكم» كلام شريف جليل المحلّ، وكذلك قوله ﷺ: «واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده»، والمسلحة: خيلٌ معدّة للحماية والدفاع.

ثم نهاهم أن يكونوا كقبايل الذي حسد أخاه هابيل فقتله، وهما أخوان لأب وأم، وإنما قال: «ابن أمه»، فذكر الأم دون الأب؛ لأنّ الأخوين من الأم أشدّ حُناً ومحبةً والتصاقاً من الأخوين من الأب؛ لأنّ الأم هي ذات الحضانة والتربية.

وقوله: «من غير ما فضل»، ما هاهنا زائدة، وتعطي معنى التأكيد، نهاهم ﷺ أن يحسدوا النعم، وأن يبغيوا ويفسدوا في الأرض، فإنّ آدم لما أمر ولده بالقربان قرب قاييل شرّاً ماله - وكان كافراً - وقرب هابيل خيراً ماله - وكان مؤمناً - فتقبل الله تعالى من هابيل، وأهبط من السماء ناراً فأكلته، قالوا: لأنه لم يكن في الأرض حينئذٍ فقير يصل القربان إليه، فحسده قاييل - وكان أكبر منه سنّاً - فقال: لأقتلك، قال: هابيل إنّما يتقبل الله من المتقين، أي بذنبك وجرمك كان عدم قبول قربانك لانسلاخك من التقوى، فقتله فأصبح نادماً، لا ندم التوبة بل ندم الحيرة ورقة الطبع البشري، ولأنه تعب في حمله كما ورد في التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب.

قوله ﷺ: «ألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة»؛ لأنه كان ابتداء بالقتل، ومن سنّ سنّة شرّاً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما أنّ من سنّ سنّة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة^(١).

(١) هذا الكلام مقتبس من حديث النبي ﷺ وهو الذي أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر (١٠١٧)، والنساء، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على الصدقة (٢٥٥٤).

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه، أن الروايات اختلفت في هذه الواقعة، فروى قوم أن الرجلين كانا من بني إسرائيل وليسا من ولد آدم لصلبه، والأكثرون خالفوا في ذلك.

ثم اختلف الأكثرون، فروى قوم أن القربان من قاييل وهايل كان ابتداء، والأكثرون قالوا: بل أراد آدم عليه السلام أن يزوج هابيل أخت قاييل توأمة، ويزوج قاييل أخت هابيل توأمة، فأبى قاييل؛ لأن توأمة كانت أحسن، فأمرهما أبوهما بالقربان، فمن تقبل قربانه نكح الحسناء. فتقبل قربان هابيل، فقتله أخوه كما ورد في الكتاب العزيز.

وروى الطبري مرفوعاً أنه عليه السلام قال: «ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأول كفل منها، وذلك بأنه أول من سن القتل»^(١)، وهذا يشيد قول أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل: أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ فِي الْبَنِي، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ، مُصَارَحَةً لِلَّهِ بِالْمُنَاصِبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. قَالَ اللَّهُ فِي كِبَرِ الْحَيَةِ، وَفَخِرِ الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّهُ مَلَأَ قُحُ الشَّانِ، وَمَنَافِعِ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةَ، حَتَّى أَغْنَوْا فِي حَنَاسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ، دُلَّاءَ عَنْ سَبَاقِهِ، سُلَّاساً فِي قِيَادِهِ، أَمراً تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكَبِراً تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكِبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوْا الْهَجِيئَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِأَلَايِهِ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ آسَاسِ الْعَصِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ أَعْيَازِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أُضْدَاداً، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَاداً، وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوَتِكُمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ آسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَخْلَاسُ الْعُقُوقِ، اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ، وَجُنُوداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُوبِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْساً فِي أَسْمَاعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى تَبْلِيهِ، وَمَوْطِئاً قَدَمِهِ، وَمَاخِذَ يَدِهِ.

فَاغْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ (٦٨٦٧)، ومسلم،

كتاب: القسامة والمحاريب، باب: بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

وَمَثَلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيدُوا بِالله مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبَرِ،
كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الذَّهْرِ.

الشرح: أمعتم في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض، أي ذهب فيها بعيداً. ومصارحة
الله، أي مكاشفة.

والمناصبية المعادة.

وملاقح الشنآن، قال الراوندي: الملاقح هي الفحول التي تلقح، وليس بصحيح، نص
الجوهرى على أن الوجه لواقح كما جاء في القرآن: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾^(١).
وقال: هو من التوارد؛ لأن الماضي رباعي. والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع ملقح وهو
المصدر، من لقحت كضربت مضرباً وشربت مشرباً.

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها، وهو البغض.

ومنافخ الشيطان: جمع منفخ، وهو مصدر أيضاً، من نفخ، ونفخ الشيطان ونفثه واحد،
وهو وسوسته وتسويله، ويقال للمتطاول إلى ما ليس له: قد نفخ الشيطان في أنفه.

وفي كلامه عليه السلام، يقوله لطلحة وهو صريع، وقد وقف عليه، وأخذ سيفه: «سيف طالما
جلّى به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، ولكن الشيطان نفخ في أنفه»^(٢).

قوله: وأعنقوا: أصرعوا، وفرس مغناق، والسَّير العنق، قال الراجز:

يَا نَاقَ سِيرِي عَنَقاً فسيحاً إلى شُلَيْمَانَ فنستريحاً

والحنادس: الظلم. والمهاوي: جمع مهواة بالفتح، وهي الهوة يتردى الصيد فيها، وقد
تهاوى الصيد في المهواة، إذا سقط بعضه في أثر بعض.

قوله عليه السلام: «ذلاً عن سياقه»، انتصب على الحال، جمع ذلول، وهو السهل المقادة، وهو
حال من الضمير في «أعنقوا»، أي أصرعوا منقادين لسوقه إياهم.

وسُلُساً: جمع سلس، وهو السهل أيضاً، وإنما قسم «ذلاً» و«سلساً» بين «سياقه» و«قياده»
لأن المستعمل في كلامهم: قدتُ الفرس فوجدته سلساً أو صعباً، ولا يستحسنون: سقته
فوجدته سلساً أو صعباً، وإنما المستحسن عندهم: سقته فوجدته ذلولاً أو شُموساً.

قوله عليه السلام: «أمرأ» منصوب بتقدير فعل، أي اعتمدوا أمراً، «وكبراً»، معطوف عليه، أو
ينصب «كبراً» على المصدر بأن يكون اسماً واقعاً موقعه، كالعطاء موضع الإعطاء.

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٥٤٠/٣.

وقال الراوندي: «أمرأ» منصوب هاهنا لأنه مفعول به. وناصبه المصدر الذي هو سياقه وقياده، تقول: سقت سياقاً وقدت قياداً، وهذا غير صحيح لأن مفعول هذين المصدرين محذوف تقديره: عن سياقه إيتاهم، وهذا هو معنى الكلام، ولو فرضنا مفعول أحد هذين المصدرين «أمرأ» لفسد معنى الكلام. وقال الراوندي أيضاً: ويجوز أن يكون «أمرأ» حالاً. وهذا أيضاً ليس بشيء؛ لأن الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول، و«أمرأ» ليس كذلك. قوله عليه السلام: «تشابهت القلوب فيه»، أي أن الحمية والفخر والكبر والعصبية ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها.

وتتابعت القرون عليه: جمع قرن بالفتح، وهي الأمة من الناس. وكبراً تضايقت الصدور به، أي كبر في الصدور حتى امتلأت به وضافت عنه لكثرتة. ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾^(١). وقد كان أمر في الفصل الأول بالتواضع لله، ونهى هاهنا عن التواضع للرؤساء، وقد جاء في الخبر المرفوع: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء! وأحسن منه تكبر الفقراء على الأغنياء»^(٢).

الذي تكبروا عن حسبهم، أي جهلوا أنفسهم، ولم يفكروا في أصلهم من النطف المستقذرة من الطين المتن، قال الشاعر:

ما بال من أوله نُظْفَةٌ وجيفةٌ آخرةٌ يَفْخَرُ

يُصبح لا يملك تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحذرُ

قوله عليه السلام: «وألقوا الهجينة على ربهم» روي «الهجينة» على «فَعِيلَة»، كالطبيعة والخلقة، وروي «الهجينة» على «فُعْلَة»، كالمضغة واللُقمة، والمراد بهما الاستهجان، من قولك: هو يهجن كذا، أي يقبحه، ويستهنه أي يستقبحه. أي نسبوا ما في الأنساب من القبح بزعمهم إلى ربهم، مثل أن يقولوا للرجل: أنت عجمي ونحن عرب، فإن هذا ليس إلى الإنسان، بل هو إلى الله تعالى، فأَيُّ ذنب له فيه!

قوله: «وجاحدوا الله»، أي كابروه وأنكروا صنعه إليهم. وأساس بالمد: جمع أساس. واعتزاء الجاهلية: قولهم: يا لفلان! وسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان! فقال:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٢) لم أجده مرفوعاً وإنما روي عن علي بن أبي طالب كما في «تاريخ بغداد» (٩/٤٢٥)، و«صفوة الصفوة» (٢/٤٠٣).

عَضَضْتُ بِهِنِ أَبِيكَ! فْقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ مَا كُنْتَ فَحَاشَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَعَرَّى بِعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضَّوهُ بِهِنِ آيَهُ وَلَا تَكُنُوا»^(١).

قوله: «فلا تكونوا لنعمة الله أضداداً»؛ لأنَّ البغي والكبر يقتضيان زوال النعمة وتبديلها بالنقمة.

قوله: «ولا تطيعوا الأدعياء»، مراده هاهنا بالأدعياء الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق.

ثم وصفهم فقال: «الذين شربتم بصفوكم كدَرهم»، أي شربتم كدَرهم مستبدلين ذلك بصفوكم. ويروي: «الذين ضربتم»، أي مزجتم. ويروي: «شَرَيْتُمْ» أي بعتم واستبدلتم.

والأحلاس: جمع جلس، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، فقيل لكل ملازم أمر: هو جلس ذلك الأمر.

والترجمان، بفتح التاء: هو الذي يفسر لساناً بلسان غيره، وقد تُضَمَّ التاء. ويروي: «ونشأ في أسماعكم» من نث الحديث، أي أفشاء.

الأصل: فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبَرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِمَخَاصِيهِ أَنْبِيَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرِهَ إِلَيْهِمُ التَّكَايُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُّعَ، فَالْصَّفُوفُ بِالْأَرْضِ خُدُودُهُمْ، وَعَقَرُوا فِي التُّرَابِ وَجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمُخَمَصَةِ، وَأَبْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَأَمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَصَّهُمْ بِالْمَكَارِهِ.

فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ، جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالْاِخْتِبَارِ فِي مَوَاضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُقَدِّمُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نَارِ ۖ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢).

الشرح: التكبر: التعاظم، والغرض مقابلة لفظة «التواضع» لتكون الألفاظ مزدوجة.

وعقر وجهه: ألصقه بالعقر.

وخفضوا أجنحتهم: ألأثوا جانبهم.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٦.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٨).

والمخمصة: الجوع. والمجهد: المشقة، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال لمفعل ومفعلة بمعنى المصدر، إذا تصفحت كلامه عرفت ذلك.

ومتخصم، أي طهرهم، وروي «مخضهم» بالخاء والضاد المعجمة، أي حرّكهم وزلزلهم. ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالا وولداً، فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ...﴾، الآية دليل على ما قاله عليه السلام، والأدلة العقلية أيضاً دلّت على أن كثيراً من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى لللطاف والمصالح. وما الموصولة في الآية يعود إليها محذوف ومقدر لا بد منه، وإلا كان الكلام غير منتظم، وغير مرتبط ببعضه ببعض، وتقديره: نسارع لهم به في الخيرات.

الأصل: فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتِيرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَغْيُنِهِمْ، وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا - عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ - إِنْ أَسْلَمَ - بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ حِرْزِهِ، فَقَالَ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ، وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ! فَهَلَّا أَلْقَيْ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ، إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاخْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ!

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الدُّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِثْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجَنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ، وَوُحُوشَ الْأَرْضِينَ، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتْ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَغْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى، وَخَصَاصَةً تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَدًى.

الشرح: مدارع الصوف: جمع مذرعة، بكسر الميم، وهي كالكساء، وتدرع الرجل وتمذرع إذا لبسها. والعصي: جمع عصا.

وتقول: هذا سوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساوره، وقرئ: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى

عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ^(١). وقد يكون جمع أساور، قال سبحانه: ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِّنْ أَسَاوِرَ مِّنْ ذَهَبٍ^(٢)﴾، قال أبو عمرو بن العلاء: أساور هاهنا: جمع إسوار وهو السوار.

والذَّهَبَانِ، بكسر الهمزة: جمع ذهب، كخرب لذكر الحُبَارَى وخِرْبَان. والعِقْيَانِ: الذهب أيضاً.

قوله عَلَيْهِ: «واضحلت الأنباء»، أي تلاشت وفنيت. والأنباء: جمع نَبَأ، وهو الخبر، أي لسقط الوعد والوعيد وبطلاً.

قوله عَلَيْهِ: «ولا لزمت الأسماء معانيها»، أي مَنْ يَسْمَى مؤمناً أو مسلماً حينئذ، فإن تسميته مجاز لا حقيقة؛ لأنه ليس بمؤمن إيماناً مِنْ فِعْله وكَسْبِه، بل يكون ملجأً إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة.

والمَبْتَلَيْنِ، بفتح اللام: جمع مَبْتَلَى، كالمعْطَيْنِ والمرْتَضَيْنِ، جمع معْطَى ومرْتَضَى والخصاصة: الفقر.

وهذا الكلام هو ما يقوله أصحابنا بعينه في تعليل أفعال الباري سبحانه بالحكمة والمصلحة، وأن الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء، وَمِنْ أَنْ يَفْعَلَ الواجب بوجه غير وجه وجوبه، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه.

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، أن موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرعون، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفَا على بابه يلتزمان الإذن عليه، فمكثا سنين يغدوان على بابه ويروحان، لا يعلم بهما، ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما - وقد كانا قالا لمن بالباب: إنا رسولاً رب العالمين إلى فرعون - حتى دخل عليه بظال له يلاعبه ويضحكه، فقال له: أيتها الملك إن على الباب رجلاً يقول قولاً عجبياً عظيماً، ويزعم أن له إلهاً غيرك، قال: بيابي! قال: نعم، قال: أدخلوه، فدخل ويده عصاه، ومعه هارون أخوه، فقال: أنا رسول رب العالمين إليك... وذكر تمام الخبر.

فإن قلت: أي خاصية في الصوف ولُبْسُه؟ ولم اختاره الصالحون على غيره؟

قلت: ورد في الخبر أن أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قِيضه الله له، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويلبس صوفه؛ لأنه أهبط عرياناً من الجنة فذبحه، وغزلت حواء صوفه، فلبس آدم منه ثوباً، وألبس حواء ثوباً آخر، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفية.

الأصل: وَلَوْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوُهُ أَغْنَاكَ الرِّجَالَ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِغْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْإِسْتِكْبَارِ، وَلَا مَتْنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتْ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتْبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لَوُجْهِهِ، وَالْإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالْإِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةٌ، لَا يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ.

الشرح: تَمَدُّ نَحْوُهُ أَغْنَاكَ الرِّجَالَ، أَي لِعَظَمَتِهِ، أَي يَوْمَلُهُ الْمُؤْمَلُونَ وَيَرْجُوهُ الرَّاغِبُونَ، وَكُلُّ مَنْ أَهْلُ شَيْئاً فَقَدْ طَمَحَ بِبَصَرِهِ إِلَيْهِ مَعْنَى لَا صُورَةَ، فَكُنِيَ عَنْ ذَلِكَ بِمَدِّ الْعُنُقِ.

وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ: يَسَافِرُ أَرْبَابُ الرِّغْبَاتِ إِلَيْهِ، يَقُولُ: لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ مُلُوكاً ذَوِي بَأْسٍ وَقَهْرٍ لَمْ يُمْكِنَ إِيمَانُ الْخَلْقِ وَانْقِيَادُهُمْ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ فِي نَفْسِهِ وَاجِبٌ عَقْلاً، بَلْ كَانَ لِرَهْبَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ فِيهِمْ، فَكَانَتْ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً. هَذَا فَرَضُ سَوْأَلٍ وَجَوَابٍ عَنْهُ، كَأَنَّهُ قَالَ لِنَفْسِهِ: لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِيمَانُهُمْ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَوْجُوبِهِ، وَلِخَوْفِ ذَلِكَ النَّبِيِّ، أَوْ لِرَجَاءِ نَفْعِ ذَلِكَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ النِّيَّاتَ تَكُونُ حِينَئِذٍ مُشْتَرَكَةً، أَي يَكُونُ الْمَكْلَفُ قَدْ فَعَلَ الْإِيمَانَ لِكُلِّ الْأَمْرَيْنِ. وَكَذَلِكَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةٌ»: قَالَ: وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَعْلُو إِلَّا لَكُونِهَا طَاعَةً لَهُ لَا غَيْرَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشُوبَهَا وَيَخَالِطَهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِغْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْإِسْتِكْبَارِ»؟

قُلْتَ: أَي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ كَالْمُلُوكِ فِي السُّطُورَةِ وَالْبَطْشِ، لَكَانَ الْمَكْلَفُ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِ الْإِغْتِبَارُ وَالْإِنْزِجَارُ عَنْ الْقَبَائِحِ مُشَقَّةً عَلَيْهِ إِذَا تَرَكَ لِقَبْحِهِ لَا لَخَوْفِ السِّيفِ، وَكَانَ بَعْدُ الْمَكْلَفِينَ عَنْ الْإِسْتِكْبَارِ وَالْبَغْيِ لَخَوْفِ السِّيفِ وَالتَّأْدِيبِ أَعْظَمَ مِنْ بَعْدِهِمْ عَنْهُمَا إِذَا تَرَكَهُمَا لَوُجْهِ قَبْحِهِمَا، فَكَانَ يَكُونُ ثَوَابُ الْمَكْلَفِ، إِمَّا سَاقِطاً، وَإِمَّا نَاقِصاً.

الأصل: وَكُلَّمَا كَانَتْ الْبَلَوَى وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ، كَانَتْ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، بِأَخْبَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجَرًا، وَأَقْلَ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدْرَأً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْرًا. بَيْنَ جِبَالٍ خَشْنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِيَّةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَّةٍ، وَقُرَى مُنْقَطِعَةٍ، لَا يَرْكُوبُهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظُلْفٌ،

ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّاهُ أَغْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُتَّبِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُتَّقِي رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنِدَةِ، مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَجِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجِ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا، يَهْلُلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، شُغْنًا غُبْرًا لَهُ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِيَارًا مُبِينًا، وَتَمَجِّيصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبِيًّا لِرَحْمَتِهِ، وَوَضَلَّةً إِلَى جَنَّتِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانُهُ أَنْ يَضَعَ بَيْنَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمِّ الْأَشْجَارِ، دَانِي الثَّمَارِ، مُلْتَفِّ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَى سَفَرَاءَ، وَرَوْضَةِ خَضِرَاءَ، وَأَرْيَافِ مُخْدِقَةٍ، وَعِرَاصِ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعِ نَاصِرَةٍ، وَطُرُقِ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ.

وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَخْبَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، مِنْ زُمُرْدَةٍ خَضِرَاءَ، وَبَاقُوْتَةٍ حُمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشُّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهَدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَتَفَى مُغْتَلَجُ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجًا لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ.

الشرح: كانت المثوبة، أي الثواب.

وأجزل: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جزل وجزيل والجمع جزال، وقد أجزلت له من العطاء، أي أكثر.

وجعله للناس قياماً، أي عماداً، وفلان قيام أهله، أي يقيم شؤونهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾^(١).

وأوعر بقاء الأرض حجراً، أي أصعبها، ومكان وغر، بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

وأقل نتائج الدنيا مدرأ، أصل هذه اللفظة من قولهم: «امرأة مثاق»، أي كثيرة الحبل.

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

والولادة، ويقال: ضيعة مثاق أي كثيرة الربيع، فجعل عليه السلام الضياع دوات المدّر التي تثار للحرث نتائق وقال: إنّ مكة أقلها صلاحاً للزراع؛ لأن أرضها حجرية.

والقُطر: الجانب، ورمالٌ دميثة: سهلة، وكلّما كان الرّمل أسهل، كان أبعد عن أن ينبت. وعيون وشلة، أي قليلة الماء، والوشل، بفتح الشين: الماء القليل، ويقال: وشل الماء وشلاناً، أي قطر.

قوله: «لا يزكو بها خُفت»، أي لا تزيد الإبل فيها أي لا تسمن، والخُفت هاهنا هو الإبل، والحافر: الخيل والحمير، والظلف: الشاة، أي ليس حولها مرعى يرعاه الغنم فتسمن. وأن يشو أعطافهم نحوه، أي يقصدوه ويحتجوه، وعظفا الرجل: جانباه.

وصار مثابة، أي يُثاب إليه ويُرجع نحوه مرة بعد أخرى، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز. قوله عليه السلام: «المتجّع أسفارهم»، أي لُجعتها، والنُّجعة: طلب الكلأ في الأصل، ثم سمي كل من قصد أمراً يروم النفع منه متججماً.

قوله: «وغاية لمُلقى رحالهم» أي صار البيت هو الغاية التي هي الغرض والمقصد، وعنده تلقى الرجال، أي تحط رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السفر؛ لأنهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة.

قوله: «تَهْوِي إليه ثمار الأفئدة»، ثمرة الفؤاد: هو سويداء القلب، ومنه قولهم للولد: هو ثمرة الفؤاد، ومعنى «تَهْوِي إليه» أي تشوّقه وتحن نحوه.

والمفاوز: هي جمع مَفَازة، الفلاة سُمِّيَتْ مَفَازة، إمّا لأنها مهلكة، من قولهم: فَوَزَ الرَّجُلُ، أي هلك، وإمّا تفاؤلاً بالسلامة والفوز، والرواية المشهورة. «من مفاوز قفار» بالإضافة. وقد روي قوم: «من مفاوز» بفتح الزاء؛ لأنه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا «قفار» صفة. والسحيفة: البعيدة. والمهاوي: المساقط. والفجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق بين الجبلين.

قوله عليه السلام: «حتّى يهزّوا مناكبهم»، أي يحركهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه، فكُنِيَ عن السفر بهزّ المناكب.

وذُلّا، حال، إمّا منهم وإمّا من المناكب، وواحد المناكب، منكب بكسر الكاف، وهو مجمع عظم العُضد والكتف.

قوله: «ويهلّلون»، يقولون: لا إله إلا الله، وروي: «يُهلّلون الله» أي يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها. ويرملون، الرّمل: السمي فوق المشي قليلاً. شُعْثاً غُبْراً، لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم، قد نبذوا السرايل، ورموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة.

وشوّهوا بإعفاء الشعور، أي غيّروا وقبحوا محاسن. صورهم، بأن أعفوا شعورهم فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه ونبت في غيره من الأعضاء التي جرت العادة بإزالتها عنها.

والتمحيص: التّظهير، من تمحصت الذهب بالنار إذا صقيته مما يشوبه، و التّمحيص أيضاً: الامتحان والاختبار. والمشاعر: معالم النُّسك.

قوله: «وسهل وقرار»، أي في مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقة. وجمّ الأشجار: كثيرها. وداني الثمار: قريبها. وملتف البنى: مشتبك العمارة. والبرّة: الواحدة من البرّ، وهو الحنطة. والأرياف: جمع ريف وهو الخضب والمرعى في الأصل، وهو هاهنا السواد والمزارع. ومحدقة: محيطية. ومغدقة: غزيرة، والغدق: الماء الكثير. وناضرة: ذات نضارة وروّيق وحسن.

قوله: «ولو كانت الأساس»، يقول: لو كانت أساس البيت التي حمل البيت عليها وأحجاره التي رفع بها من زمردة وياقوتة فالمحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان؛ لأنهما صفة اسم كان والخبر «من زمردة»، وروي: «بين زمردة»، ويجوز أن تحمل لفظتا المفعول وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت، فيكون قائماً مقام اسم الفاعل، ويكون موضع الجار والمجرور نصباً، ويجوز ألاّ تحملهما ذلك الضمير، ويجعل الجار والمجرور هو الساذ مسدّ الفاعل، فيكون موضعه رفعاً.

وروي: «مضارعة الشك» بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس، وأصله من مضارعة القدر إذا حان إدراكها، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب.

وقال الراوندي في تفسير هذه الكلمة: من مضارعة الشك، أي مماثلته ومشابته، وهذا بعيد؛ لأنه لا معنى للمماثلة والمشابهة هاهنا، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة.

قوله عليه السلام: «ولنفي معتلج الريب»، أي اعتلاجه، أي ولنفي اضطراب الشك في القلوب. وروي «يستعبدهم» و«يتعبدهم»، والثانية أحسن.

والمجاهد: جمع مجهدة، وهي المشقة. وأبواباً فُتْحاً، أي مفتوحة. وأسباباً دُللاً، أي سهلة.

واعلم أنّ محصول هذا الفصل أنّه كلما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم، ولو أنّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلفين لما استحقّوا عليها من الثواب إلاّ قدرأ يسيراً، بحسب ما يكون فيها من المشقة اليسيرة.

فإن قلت: فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه؟

قلت: نعم هكذا روى أرباب السِّير وأصحاب التواريخ، روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «تاريخه» عن ابن عباس، أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبطه إلى الأرض: أن لي حَرَمًا حِيَال عَرُشِي، فانطلق فابن لي بيتاً فيه، ثم طُف به كما رأيت ملائكتي تحف بعُرْشِي، فهناك استجيبُ دعاءك ودعاء مَنْ يحف به من ذُرِّيَّتِكَ. فقال آدم: إنني لست أقوى على بنائه، ولا أهتدي إليه، فقيض الله تعالى له مَلَكًا، فانطلق به نحو مكة - وكان آدم في طريقه كلما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزل به هناك لينني فيه، فيقول الملك: إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكة - فبنى البيت من خمسة جبال: طور سيناء، وطور زيتون، ولُبْنان، والجودي، وبنى قواعدَه من حِراء. فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم، ثم قَدِم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً، ثم رجع إلى أرض الهند فمات^(١).

وروى الطبري في التاريخ أن آدم حج من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجة على رجليه. وقد روي أن الكعبة أنزلت من السماء وهي ياقوتة أو لؤلؤة، على اختلاف الروايات وأنها بقيت على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصي أيام نوح، وجاء الطوفان فرفع البيت، وبنى إبراهيم هذه البنية على قواعد القديمة.

وروى أبو جعفر، عن وهب بن منبه أن آدم دَعَا رَبَّهُ فقال: يا رب أما لأرضك هذه عامرٌ يستبحك ويقدّسك فيها غيري! فقال الله: إنني سأجعل فيها من ولدك من يستبح بحمدي ويقدّسني، وسأجعل فيها بُيُوتاً تُرْفَع لذكري، يستبحني فيها خلقي، ويذكر فيها اسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصه بكرامتي، وأوثره باسمي، فأسميه بيتي، وعليه وضعت جلالتي وخصصته بعظمتي، وأنا مع ذلك في كل شيء، أجعل ذلك البيت حَرَمًا آمناً يحرم بحرمة من حوله، ومن تحته، ومن فوقه فمن حرمه بحُرْمَتِي استوجب كرامتي، ومن أخاف أهله فقد أباح حُرْمَتِي، واستحق سَخَطِي، وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شُغْناً غُبراً على كل ضامر من كل فج عميق، يرجون بالتلبية رَجِيحاً، ويعجّون بالتكبير عَجيجاً، من اعتمده لا يريد غيره، ووفد إليّ وزارني واستضاف بي، أسعفته بحاجته، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، تعمّره يا آدم ما دمت حيّاً، ثم تعمّره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن.

قال: ثم أمر آدم أن يأتي إلى البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش، وكان البيت حينئذٍ من دُرّة أو من ياقوتة، فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه، وبقي أساسه فبَوّاه الله لإبراهيم فبناه^(٢).

(١) ذكره القرطبي بما معناه في تفسيره: ١٢١/٢.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٤٢٥/٧.

الأصل: قاله الله في عاجل البغي، وأجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنها مضيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً، ولا تشوي أحداً، لا عالماً لعلمه، ولا مقلداً في طميره.

وعن ذلك ما حرس الله عبادة المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضة، تسكيناً لأطرافهم، وتخفيفاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيفاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، ولما في ذلك من تغيير عتاق الوجوه بالشراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذلاً، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر.

انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر، وقذع طوابع الكبر!

الشرح: بلدة وخمة ووخيمة: بيئة الوخامة، أي بيئة.

مضيدة إبليس، بسكون الصاد وفتح الياء: أكلة التي يصطاد بها. وتساور قلوب الرجال: وسار إليه يسور، أي وثب، والمصدر السور، ومصدر «تساور» المساورة، ويقال: إن لغضبه سورة، وهو سوار، أي وثاب معربد، وسورة الشراب: وثوبه في الرأس، وكذلك مساورة السموم التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

وما تكدي: ما ترذ عن تأثيرها، من قولك: أكدي حافر الفرس، إذا بلغ الكذية وهي الأرض الصلبة، فلا يمكنه أن يحفر.

ولا تشوي أحداً: لا تخطيء المقتل وتصيب غيره، وهو الشوى، والشوى: الأطراف، كاليد والرجل.

قال: لا ترذ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه، ولا عن فقير لطميره، والطمير: الثوب الخلق.

وما في قوله: «وعن ذلك ما حرس الله» زائدة مؤكدة، أي عن هذه المكائد التي هي البغي والظلم والكبر حرس الله عباده، فمن «متعلقة بحرس». وقال الراوندي: يجوز أن تكون مصدرية، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء، وخبر المبتدأ قوله: «لما في ذلك». وقال أيضاً: يجوز أن تكون نافية، أي لم يحرس الله عباده عن ذلك إلجاءً وقهراً، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم، والوجه الأول باطل؛ لأن «عن» على هذا التقدير تكون من صلة المصدر، فلا يجوز تقديمها عليه، وأيضاً فإن «لما في ذلك» لو كان هو الخبر؛ لتعلق لام الجر بمحذوف، فيكون

التقدير: حراسة الله لعباده عن ذلك كائنه لما في ذلك من تعفير الوجوه بالتراب، وهذا كلام غير مفيد ولا منتظم إلا على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسفه، والوجه الثاني باطل؛ لأن سياقة الكلام تدل على فساد، ألا ترى قوله: «تسكيناً وتخشيعاً»، وقوله: «لما في ذلك من كذا»، وهذا كله تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفي المعدوم.

ثم بين عليه السلام الحكمة في العبادات، فقال: إنه تعالى حرس عباده بالصلوات التي افترضها عليهم من تلك المكائد، وكذلك بالزكاة والصوم ليسكن أطرافهم، ويخشع أبصارهم، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلّة للحراسة، ونصب اللفظات على أنها مفعول له.

ثم علل السكون والخشوع الذي هو علّة الحراسة لما في الصلاة من تعفير الوجه على التراب، فصار ذلك علّة العلة. قال: وذلك لأن تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً يوجب هضم النفس وكسرها وتذليلها. وعتاق الوجوه: كرائمها.

والصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والاستسلام، والجوع في الصوم الذي يلحق البطن في المتن يقتضي زوال الأثر والبطر، ويوجب مذلة النفس وقمعها عن الانهماك في الشهوات، وما في الزكاة من صرف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجب تطهير النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمع به النفوس من الأموال، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات، ففي ذلك كله دفع مكائد الشيطان.

وتخفيض القلوب: حطها عن الاعتلاء والتّيه. والخيّلاء: التكبر. والمسكنة: أشد الفقر في أظهر الرايين. والقمع: القهر. والنّواجم: جمع ناجمة، وهي ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره. والقذع، بالبدال المهلمة: الكفت، قدعت الفرس وكبحته باللجام، أي كفته، والطوالع، كالنواجم.

الأصل: وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ الْجُهْلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيْطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرِ مَا يُعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأُضْلِيهِ، وَطَمَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِي وَأَنْتَ طِينِي. وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ.

فإن كان لا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَعْمَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَّاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بَيُوتَاتِ الْعَرَبِ، وَيَعَاسِبِ الْقَبَائِلِ، بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيَّةِ، وَالْأَخْلَامِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ.

فَتَعْصَبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ، مِنَ الْحِفْظِ لِلْحَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَغْصَبَةِ
لِلْكِبَرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالْإِعْظَامَ لِلْقَتْلِ، وَالْإِنْصَافَ لِلخَلْقِ، وَالْكَظْمَ
لِلغَيْظِ، وَاجْتِنَابَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

الشرح: قد روي: «تحتمل» بالتاء، وروي «تحمل»، والمعنى واحد.

والتمويه: التلبس من مؤهت النحاس، إذا طليته بالذهب ليخفى. ولاط الشيء بقلبي يلوط
ويليط، أي التصق. والمترف: الذي أطفته النعمة. وتفاضلت فيها، أي تزايدت. والمجداء:
جمع ماجد، والمجد الشرف في الآباء، والحسب والكرم يكونان في الرجل وإن لم يكونا في
آبائه. هكذا قال ابن السكيت، وقد اعترض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى، قال
سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾^(١) على قراءة مَنْ رَفَعَ، والله سبحانه يتعالى عن الآباء، وقد جاء في
وصف القرآن المجيد، قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾^(٢).

والتجداء: الشجعان، واحدهم نجيد، وأما نجد ونجد، بالكسر والضم، فجمعه أنجاد،
مثل يقظ وأيقاظ.

وبيوتات العرب: قبائلها. ويعاسيب القبائل: رؤساؤها، واليعسوب في الأصل: ذكر
النحل وأميرها. والرغبة: الخصلة يرغب فيها. والأحلام: العقول. والأخطار: الأقدار.

ثم أمرهم بأن يتعصبوا لخلال الحمد وعددها، وينبغي أن يحمل قوله عليه السلام: «فإنكم
تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة»، على أنه لا يعرف له سبب مناسب، فكيف يمكن أن
يتعصبوا لغير سبب أصلاً!

وقيل: إن أصل هذه العvisية، وهذه الخطبة، أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا في آخر خلافة
أمير المؤمنين، وكانوا قبائل في الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمازل قبيلة
أخرى، فينادي باسم قبيلته: يا للنخع! مثلاً، أو بالكندة! نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشر،
فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مربها فينادون: يا لتميم! وبالربيع! ويقبلون إلى ذلك الصائح
فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتسل السيوف وتثور الفتن، ولا يكون لها أصل في
الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض.

الأصل: وَأَحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمُثَلَّاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَخْوَالَهُمْ، وَأَحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالِيهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ، وَزَاوَتْ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِمْ حَبْلَهُمْ، مِنْ أَلَا جِتَابٍ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأَلْفَةِ، وَالتَّحَاضُّ عَلَىهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا.

وَأَجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُتَّهَمَهُمْ، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي.

الشرح: المثلات: العقوبات.

وذميم الأفعال: ما يذم منها. وتفاوت حالهم: اختلافهما. وزاحت الأعداء: بعدت. وله، أي لأجله.

والتحاضن عليها: تفاعل يستدعي وقوع الحضن، وهو الحث من الجهتين، أي يحث بعضهم بعضاً. والفقرة: واحدة فقر الظهر، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة: قد كسرت فقرته. والمئة: القوة.

وتضاغن القلوب وتشاحنهما واحد. وتخاذل الأيدي: ألا ينصر الناس بعضهم بعضاً.

الأصل: وَتَذَبَّرُوا أَخْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْجِيسِ وَالْبَلَاءِ! أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَغْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً! اتَّخَذَتْهُمْ الْفِرَاعَةُ عَيْدًا فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمْ جُرْعَ الْمُرَارِ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلْبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالِاخْتِمَالِ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا، وَأَئِمَّةً أَغْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنْ اللَّهِ لَهُمْ، مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمْالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح: تدبروا، أي تأملوا. والتمجيس: التطهير والتصفية. والأغباء: الأثقال: واحدها عبء. وأجهد العباد: أتعبهم. والفراغة: العتاة، وكل عاتٍ فرعون. وساموهم سوء

العذاب: الزموم إياه، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَوْءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١).

والمُرار: بضم الميم: شجر مُرٌّ في الأصل، واستعير شرب المُرار لكل من يلقى شديد المشقة. ورأى الله منهم جد الصبر، أي أشده. وأئمة أعلاماً، أي يهتدى بهم، كالعلم في الفلاة.

الأصل: فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ!
فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْأَلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ، تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِيَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نَعِيمِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيَكُمُ هِبَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

الشرح: الأملاء: الجماعات، الواحد ملأ.

ومترادفة: متعاونة. البصائر نافذة، يقال: نفذت بصيرتي في هذا الخبر، أي اجتمع همتي عليه، ولم يبق عندي تردد فيه، لعلمي به وتحقيقي إياه.

وأقطار الأرضين: نواحيها، وتشئت: تفرقت.

وتشعبوا: صاروا شعوباً وقبائل مختلفين.

وتفرقوا متحزبين: اختلفوا أحزاباً، وروي: «متحازبين».

وغضارة النعمة: الطيب اللين منها. والقصاص: الحديث.

يقول: انظروا في أخبار من قبلكم من الأمم، كيف كانت حالهم في العز والملك لما كانت كلمتهم واحدة، وإلى ماذا آلت حالهم حين اختلفت كلمتهم! فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وأن يحل بكم إن اختلفتم مثل ما حل بهم.

الأصل: فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمَا أَشَدَّ اغْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِيَاءِ الْأَمْثَالِ!

تَأْمَلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَالِي كَانَتْ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْأَفَاقِ، وَيَخْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةَ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ، وَمَهَا فِي الرِّيحِ، وَنَكِدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ. أَذَلَّ الْأُمَمَ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَفْوَةٍ يَغْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَى ظِلِّ أَلْفَةٍ يَغْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَأَلْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بِلَاءٍ أَزَلٍ، وَأَطْبَاقٍ جَهْلٍ، مِنْ بَنَاتِ مَوْءُودَةٍ، وَأَضْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ.

الشرح: لقاتل أن يقول: ما نعرف أحداً من بني إسحاق وبني إسرائيل احتازتهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الأفاق إلى البادية ومنابت الشبح، إلا أن يقال: يهود خيبر والتضير وبني قريظة وبني قينقاع، ومولاء نفر قليل لا يعتد بهم. ويُعلم من فحوى الخطبة أنهم غير مرادين بالكلام؛ ولأنه عليه السلام قال: تركوهم إخوان دبر ووبر، ومولاء لم يكونوا من أهل الوبر والدبر، بل من أهل المدر؛ لأنهم كانوا ذوي حصون وآطام. والحاصل أن الذين احتازتهم الأكاسرة والقياصرة من الريف إلى البادية، وصاروا أهل وبر ولد إسماعيل، لا بنو إسحاق وبني إسرائيل!

والجواب أنه عليه السلام ذكر في هذه الكلمات، وهي قوله: «فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعاً»، أما المقهورون فبنو إسماعيل، وأما القاهرون فبنو إسحاق وبني إسرائيل؛ لأن الأكاسرة من بني إسحاق، ذكر كثير من أهل العلم أن فارس من ولد إسحاق، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً؛ لأن الروم بنو العيص بن إسحاق، وعلى هذا يكون الضمير في «أمرهم»، و«تشتيهم» و«تفرقهم» يرجع إلى بني إسماعيل خاصة.

فإن قلت: فبنو إسرائيل، أي مدخل لهم هاهنا؟

قلت: لأن بني إسرائيل لما كانوا ملوكاً بالشام في أيام أجاب الملك وغيره، حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرة، وطردهم عن الشام، وألجؤوهم على المقام ببادية الحجاز. ويصير تقدير الكلام: فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بني إسحاق وبني إسرائيل، فجاء بهم في صدر الكلام على العموم، ثم خصص فقال: الأكاسرة والقياصرة، وهم داخلون في عموم ولد إسحاق، وإنما لم يخصص عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك ولد يعقوب، فيذكر لهم أسماءهم في الخطبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بني ساسان ومن بني الأصفر.

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام** : «فما أشدَّ اعتدال الأحوال»، أي ما أشبه الأشياء بعضها ببعض ! وإنَّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم.

قوله : «يحتازونهم عن الريف» يبعدونهم عنه، والريف : الأرض ذات الخُضْب والزَّرع، والجمع أرياف، ورافت الماشية أي رعت الرِّيف، وقد أرفنا أي صرنا إلى الريف، وأرافت الأرض أي أخصبت، وهي أرض رِيقة، بتشديد الياء.

وبحر العراق : دجلة والفرات، أما الأكاسرة فطرُدوهم عن بَحْر العراق، وأما القياصرة فطرُدوهم عن ريف الآفاق، أي عن الشام وما فيه من المرعى والمتَّجِع.

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام** : «أرباباً لهم»، أي ملوكاً، وكانت العرب تسمي الأكاسرة أرباباً، ولما عظم أمر حذيفة بن بدر عندهم سموه ربَّ مَعَد.

ومنابت الشَّيخ : أرض العرب، والشَّيخ : نبت معروف.

ومهافي الرياح : المواضع التي تهفو فيها، أي تهب وهي الفياهي والصحارى.

ونكد المعاش : ضيقه وقلة.

وتركوهم عالةً، أي فقراء، جمع عائل، والعائل ذو العيلة والعيلة : الفقر، قال تعالى :

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، قال الشاعر :

تُعَيِّرُنَا أَتْنَا عَالَةً صَعَالِيكَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ مَلُوكُ

نظيره قائد وقادة، وسائس وساسة.

وقوله : «إخوان دَبَرٍ وَوَبَرٍ»، الدَّبر مصدر دَبَر البعير، أي عقره القَتَب. والوبر للبعير بمنزلة

الصوف للضأن والشعر للمعز.

قوله : «أذلَّ الأمم داراً»، لعدم المعازل والحصون المنيعة فيها.

وأجذبهم قراراً، لعدم الزَّرع والشجر والنخل بها. والجذب : المخل.

ولا يأوون : لا يلتجئون ولا ينضمون.

والأزل : الضيق. وأطباق جهل : جمع طَبَق، أي جهل متراكم بعضه فوق بعض.

وغارات مشنونة : متفرقة، وهي أصعب الغارات.

أسباب واد البنات

من بنات موأودة، كان قومٌ من العرب يثدُّون البنات، قيل : إنهم بنو تميم خاصة، وإنه

استفاض منهم في جيرانهم. وقيل : بل كان ذلك في تميم، وقيس، وأسد، وهذيل، وبكر بن

(١) سورة التوبة، الآية : ٢٨.

وائل، قالوا: وذلك أن رسول الله ﷺ عليهم، فقال: «اللهم اشدد وظائفك على مضر، واجعل عليهم سنين كسني يوسف»^(١)، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم، وكانوا يسمونه العلهز، فوآدوا البنات لإملاقهم وفقرهم، وقد دل على ذلك بقوله: «وَلَا تَقْلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ»^(٢)، قال: «وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُمْ»^(٣).

وقال قوم: بل وآدوا البنات أنفة، وزعموا أن تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من السنين، فوجه إليه أخاه الريان بن المنذر، وجُلَّ مَنْ معه من بكر بن وائل، فاستاق النعم وسبى الذراري، وفي ذلك يقول بعض بني يشكر:

لَمَّا رَأَوْا رَايَةَ النُّعْمَانِ مَقْبِلَةً قَالُوا: أَلَا لَيْتَ أَذْنَى دَارِنَا عَدَنُ
يَا لَيْتَ أُمَّ تَمِيمٍ لَمْ تَكُنْ عَرَفْتُ مُرًّا، وَكَانَتْ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَأَعْيَارُ مَخْدَعَةٍ أَوْ تُنْعِمُوا فَقَدِيمًا مِنْكُمْ الْمِنُّ
مَنْكُمْ زَمِيرٌ وَعَتَابٌ وَمَحْتَضِنٌ وَابْنَا لَقِيْطٍ وَأَوْدَى فِي الْوَعَى قَطْنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان، واستعطفوه، فرق عليهم، وأعاد عليهم السبي، وقال: كل امرأة اختارت أباه ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه، فكلهن اخترن آباءهن، إلا ابنة قيس بن عاصم، فإنها اختارت من سبأها، وهو عمرو بن المشمرخ الشكري، فنذر قيس بن عاصم المنقري التميمي ألا يولد له بنت إلا وأدها، والوَادُ أن يخنقها في التراب ويثقل وجهها به حتى تموت. ثم اقتدى به كثير من بني تميم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(٤)، أي على طريق التبكيت والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازته، كما قال سبحانه: ﴿يَكْبِتُ أَيْنَ مَرِيْمَ، أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٥).

ومن جيد شعر الفرزدق قوله في هجاء جرير:

أَلَمْ تَرَ أَنَا بَنِي دَارِمٍ زُرَّارَةٌ مِنْ أَسْمَاءِ أَبِو مَغْبَدٍ
وَمَنَا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَحْيَا الْوَلِيدَ فَلَمْ يُوَادِ
أَلَسْنَا بِأَصْحَابِ يَوْمِ النَّسَارِ وَأَصْحَابِ الْوَيْةِ الْمُرَبِّدِ
أَلَسْنَا الَّذِينَ تَمِيمٌ بِهِمْ تَسَامَى وَتَفْخَرُ فِي الْمَشْهَدِ
وَنَاجِيَةِ الْخَيْرِ وَالْأَقْرَعَا نِ وَقَبْرِ بَكَاظِمَةِ الْمَوْرِدِ
إِذَا مَا أَتَى قَبْرَهُ عَائِدٌ أَنَاخَ عَلَى الْقَبْرِ بِالشَّعْدِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ٢٣٤/٣، وأخرجه أبو داود في سننه رقم: ١٤٤٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١. (٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٤) سورة التكويد، الآيتان: ٨، ٩. (٥) سورة المائدة، الآية: ١٦.

أَيْطَلِبُ مَجْدَ بَنِي دَارِمٍ عَظِيْمَةً كَالْجَعَلِ الْأَسْوَدِ!
فَرْتَبِي بِحُكِّ قَفَا مُقْرِفٍ لُئِيْمٍ مَائِرِهِ قُفْدُ
وَمَجْدَ بَنِي دَارِمٍ فَوْقَهُ مَكَانَ السَّمَاكَيْنِ وَالْفَرْقَدِ

وفي الحديث: أَنَّ صَعْصَعَةَ بْنَ نَاجِيَةَ بْنِ عِقَالٍ لَمَّا وَفَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَمَلًا صَالِحًا، فَهَلْ يَنْفَعُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ قَالَ ﷺ: وَمَا عَمِلْتَ؟ قَالَ: ضَلَلْتُ نَاقَتَيْنِ عُشْرَاوَيْنِ، فَرَكِبْتُ جَمَلًا وَمَضَيْتُ فِي بُغَائِهِمَا، فَرَفَعَ لِي بَيْتَ حَرِيدٍ، فَقَصَدْتُهُ، فَإِذَا شَيْخٌ جَالِسٌ بِفَنَائِهِ فَسَأَلْتُهُ عَنِ النَّاقَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا نَارُهُمَا؟ قُلْتُ: مَيْسَمُ بَنِي دَارِمٍ، قَالَ: هُمَا عِنْدِي، وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِهِمَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِكَ مِنْ مُضَرٍّ، فَجَلَسْتُ مَعَهُ لِيُخْرِجَهُمَا إِلَيَّ، فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ كِسْرِ الْبَيْتِ، فَقَالَ لَهَا: مَا وَضَعْتَ، إِنْ كَانَ سَقْبًا شَارَكْنَا فِي أَمْوَالِنَا، وَإِنْ كَانَ حَائِلًا وَأَذْنَاهَا، فَقَالَتِ الْعَجُوزُ: وَضَعْتُ أَنْثَى، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَبِيعُهَا؟ قَالَ: وَهَلْ تَبِيعَ الْعَرَبُ أَوْلَادَهَا! قُلْتُ: إِنَّمَا أَشْتَرِي حَيَاتَهَا، وَلَا أَشْتَرِي رَقَّهَا، فَبِكُمْ؟ قُلْتُ: احْتَكِمْ، قَالَ: بِالنَّاقَتَيْنِ وَالْجَمَلِ، قُلْتُ: أَذَاكَ لَكَ عَلَى أَنْ يَبْلُغَنِي الْجَمَلُ وَإِيَّاهَا! قَالَ: بَعْتُكَ، فَاسْتَنْقَذْتَهَا مِنْهُ بِالْجَمَلِ وَالنَّاقَتَيْنِ، وَأَمَنْتُ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ صَارَتْ لِي سَنَّةٌ فِي الْعَرَبِ أَنْ أَشْتَرِيَ كُلَّ مَوْوُودَةٍ بِنَاقَتَيْنِ عُشْرَاوَيْنِ وَجَمَلٍ، فَعِنْدِي إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ثَمَانُونَ وَمِائَتَا مَوْوُودَةٍ قَدْ أَنْقَذْتُهُنَّ، فَقَالَ ﷺ: «لَا يَنْفَعُكَ ذَاكَ لَأَنَّكَ لَمْ تَبْتَغِ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، وَإِنْ تَعْمَلُ فِي إِسْلَامِكَ عَمَلًا صَالِحًا تَثْبُ عَلَيْهِ».

وروى الزُّبَيْرُ فِي «الْمَوْفِقِيَّاتِ»^(١) أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَقَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيُّ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ وَادَتْ؟ قَالَ: مَخَافَةٌ أَنْ يَخْلُفَ عَلَيْهِنَ مِثْلُكَ^(٢).

الأصل: فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ الْفَتْهَ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالتَّقَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَضْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِيقِينَ، وَفِي خُضْرَةٍ عَيْشِهَا فَاكِهَيْنِ، قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَأَوْتَهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنْفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ

(١) الموفقيات في الحديث: للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).

(٢) أخرجه المولى حيدر في مناقب آل البيت: ٣٠٨.

الْأَرْضِينَ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ، لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاءٌ، وَلَا تُقَرَّعُ لَهُمْ صَفَاءٌ.

الشرح: لما ذكر ما كانت العرب عليه من الذل والضييم والجهل، عاد فذكر ما أبدل الله به حالهم، حين بعث إليهم محمداً ﷺ. فعقد عليهم طاعتهم كالشيء المنتشر المحلول فعقدها بملة محمد ﷺ.

والجداول: الأنهر. التقت الملة بهم، أي كانوا متفرقين فالتقت ملة محمد بهم، أي جمعتهم، ويقال: التفت الحبل بالحطب، أي جمعه، والتفت الحطب بالحبل، أي اجتمع به. و«في» في قوله: «في عوائد بركتها» متعلقة بمحذوف، وموضع الجار والمجرور نصب على الحال، أي جمعتهم الملة كائنة في عوائد بركتها، والعوائد: جمع عائدة، وهي المنفعة. تقول: هذا أغود عليك، أي أنفع لك. وروي: «والتقت الملة» بالقاف أي اجتمعت بهم، من اللقاء. والرواية الأولى أصح.

وأصبحوا في نعمتها غريقين، مبالغة في وصف ما هم فيه من النعمة. وفاكهين: ناعمين. وروي «فاكهين» أي أشيرين وقد قرئ بهما في قوله تعالى: «وَنَعَمْرُكَ أَكُنَّا فِيهَا فَكَّهِينَ»^(١)، وقال الأصمعي: فاكهين: مازحين، والمفاكهة الممازحة، ومن أمثالهم: «لا تفاكه أمة، ولا تبُلْ عَلَى أكمة»، فأما قوله تعالى: «فَطَلَّتْ نَفْكَهُونَ»^(٢)، فقليل: تندمون، وقيل: تعجبون.

و«عن» في قوله: «وعن خضرة عيشها»، متعلقة بمحذوف، تقديره: فأصبحوا فاكهين فكاها صادرة عن خضرة عيشها، أي خطرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمزاح عنه. وتربعت الأمور بهم، أي أقامت، من قولك: ربيع بالمكان، أي أقام به. وآوتهم الحال، بالمد أي ضمتهم وأنزلتهم، قال تعالى: «وَأَوَّى إِلَيْهِ أَكْهَادَهُ»^(٣)، أي ضمّه إليه وأنزله، ويجوز «آوتهم» بغير مد. أفعلت في هذا المعنى وفعلت واحد، عن أبي زيد.

والكنف: الجانب، وتعظفت الأمور عليهم: كناية عن السيادة والإقبال، يقال: قد تعظف الذهر على فلان، أي أقبل حظّه وسعادته، بعد أن لم يكن كذلك. وفي ذرّا مُلْكٍ: بضم الذال أي في أعاليه، جمع ذروة، ويكنى عن العزيز الذي لا يُضام،

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٥.

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٧.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

فيقال: لا يغمز له قناة، أي هو صلب. والقناة إذا لم تَلِنْ في يد الغامر كانت أبعد عن الحطم والكسر.

ولا تُقرع لهم صفاة، مثل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزته وقوته.

الأصل: أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَمَّثْتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ ائْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَنْقَلِبُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنْفِهَا، بِبِنْعَمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً؛ لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُ مِنْ كُلِّ حَظَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَغْرَابًا، وَبَعْدَ الْمَوَالَاةِ أَخْرَابًا، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: النَّارُ وَلَا الْعَارَا كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِتُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِ انْتِهَاكَ لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضِ لِبَيْثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمَّا بَيْنَ خَلْقِهِ.

وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبْتُمْ أَهْلَ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلَ وَلَا مِيكَائِيلَ، وَلَا مُهَاجِرِينَ وَلَا أَنْصَارَ يَنْصُرُونَكُمْ، إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبِطُوا وَحِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللَّهُ الشُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّائِمِي.

الشرح: نفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ: كلمة يقال في اطراح الشيء وتركه، وهي أبلغ من أن تقول: تركتم حبل الطاعة؛ لأن مَنْ يخلي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشد تخلية له ممّن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط؛ لأن نفضاها إشعار وإبذان بشدة الأطراح والإعراض.

والباء في قوله: «بأحكام الجاهلية» متعلقة بـ«تلمثتم»، أي تلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التي حكمت بها في ملّة الإسلام.

والباء في قوله: «بنعمة لا يعرف»، متعلقة بـ«ائتن» وفي قوله «فيمَا عَقَدَ» متعلقة بمحذوف، وموضعها نصب على الحال، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا مَّا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ^(١). وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِبَنِيهِ إِخْوَانًا﴾^(٢). وروي: «تتقلبون في ظلها».

قوله: «صرتم بعد الهجرة أعراباً»، الأعراب على عهد رسول الله ﷺ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَلَمْ يَهَاجِرْ إِلَيْهِ، وَهُمْ نَاقِصُوا الْمَرْتَبَةِ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ لَجَفَانَتِهِمْ وَقَسَوَتِهِمْ وَتَوَخُّشِهِمْ، وَنَشْتِهِمْ فِي بُعْدٍ مِنْ مَخَالَطَةِ الْعُلَمَاءِ، وَسَمَاعِ كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ، وَفِيهِمْ أَنْزَلَ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾^(٣)، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كُلِّ الْأَعْرَابِ بَلْ خَاصَّةٌ بِبَعْضِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَهُمْ جُهَيْنَةُ، وَأَسْلَمُ، وَأَشْجَعُ، وَغِفَارُ، وَإِلَيْهِمْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾^(٤). وَكَيْفَ يَكُونُ كُلُّ الْأَعْرَابِ مَذْمُومًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥)، وَصَارَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ جَارِيَةً مَجْرَى الْمَثَلِ.

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بَغْصَلْبِي أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِيِّ

مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِي

وقال عثمان لأبي ذر: أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابياً.

وروي: «ولا يعقلون من الإيمان».

وقولهم: «النار ولا العار»، منصوبتان بإضمار فعل، أي ادخلوا النار ولا تلتزموا العار، وهي كلمة جارية مجرى المثل أيضاً، يقولها أرباب الحمية والإباء، فإذا قيلت في حقِّ كانت صواباً، وإذا قيلت في باطل كانت خطأ.

وأكفأت الإناء وكفأته: لغتان، أي كبيته.

قوله: «ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرين»، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة، كقولهم: معضلة ولا أبا حسن لها. قال الراجز، لا هيثم الليلة للمطي

وقد روي بالرفع في الجميع.

والمقارعة منصوبة على المصدر. وقال الراوندي: هي استثناء منقطع، والصواب ما ذكرناه، وقد روي: «إلا المقارعة» بالرفع، تقديره: ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٩.

والأمثال التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هي ما تضمنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

والتناهي: مصدر تنهى القوم عن كذا، أي نهى بعضهم بعضاً، يقول: لعن الله الماضين من قبلكم؛ لأن سلفهم ارتكبوا المعصية، وحلماءهم لم ينهواهم عنها، وهذا من قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٢).

الأصل: أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَبْدَ الْإِسْلَامِ، وَعَظَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمْتُمْ أَحْكَامَهُ.

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكَثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذَّةِ فَقَدْ كُفَيْتُهُ بِصَغْفَةٍ سَمِعْتُ لَهَا وَجْبَةَ قَلْبِهِ، وَرَجَّةَ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَلَئِنْ أَدْنَى اللَّهُ فِي الْكُرَّةِ عَلَيْهِمْ، لَا دَيْلَنَ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَشْدُرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشْدُرًا.

الشرح: قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال له عليه السلام: «استقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٣)، فكان الناكثون أصحاب الجمل؛ لأنهم نكثوا بيعته عليه السلام، وكان القاسطون أهل الشام بصفين، وكان المارقون الخوارج في النهروان، وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى: ﴿مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(٥)، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِيءٍ هَذَا قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ فِي النَّصْلِ فَلَا يَجِدُ شَيْئًا، فَيَنْظُرُ فِي الْفُوقِ، فَلَا يَجِدُ شَيْئًا، سَبَقَ الْفَرْثُ وَالدَّمُ»^(٦). وهذا الخبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب.

وأما شيطان الرَّذَّةِ، فقد قال قوم: إنه ذو الثَّدْيَةِ صاحب النهروان، ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله، وممن ذكر ذلك واختاره الجوهرى صاحب «الصحاح» وهؤلاء يقولون: إن ذا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥. (٢) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٦٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٤٠٤٩)، و«الأوسط» (٩٤٣٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٩).

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠. (٥) سورة الجن، الآية: ١٥.

(٦) أخرجه بنحوه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْبَحُكُمْ بِرِجٍ مَرْمَرٍ﴾ (٣٣٤٤).

الثَّدْيَةُ لم يقتل بسيف، ولكن الله رماه يوم النهروان بصاعقة، وإليها أشار عليه السلام بقوله: «فقد كُفِيَتْهُ بَصْعَةً سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةٌ قَلْبِهِ»، وقال قوم: شيطان الرَّذْهَةِ أحد الأبالسة المردة من أعوان عدو الله إبليس، ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله، وأنه كان يتعوذ منه. والرَّذْهَةُ: شبه نُقْرَةٍ في الجبل يجتمع فيها الماء، وهذا مثل قوله عليه السلام: «هذا أزب العقبة»، أي شيطانها، ولعلَّ أزب العقبة هو شيطان الرَّذْهَةِ بعينه، فتارة يردُّ بهذا اللفظ، وتارة يردُّ بذلك اللفظ. وقال قوم: شيطان الرَّذْهَةِ ماردٌ يتصوّر في صورة حية، ويكون على الرَّذْهَةِ. وإنما أخذوا هذا من لفظة «الشيطان» لأن الشيطان الحية، ومنه قولهم: شيطان الحماطة، والحماطة شجرة مخصوصة، ويقال: إنها كثيرة الحيات.

قوله: «ويتشذّر في أطراف الأرض»، يتمزّق ويتبدّد، ومنه قولهم: ذهبوا شذّر مذر. والبقية التي بقيت من أهل البغي: مُعاوية وأصحابه؛ لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم، وإنما وقفت الحرب بينه وبينهم بمكيدة الحكيم. قوله عليه السلام: «ولئن أذن الله في الكثرة عليهم»، أي إن مُدلي في العمر لأدبّل منهم، أي لتكونن الدولة لي عليهم، أدلت من فلان أي غلبته وقهرته، وصرت ذا دولة عليه.

القول في إمامة أبي بكر والرد عليه

واعلم أن أصحابنا قد استدّلوا على صحة إمامة أبي بكر بقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ يُجِيبُهُمْ وَيُجِيبُونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(١)، ثم قال قاضي القضاة في المعنى: وهذا خبر من الله تعالى، ولا بدّ أن يكون كائناً على ما أخبر به، والذين قاتلوا المرتدين هم أبو بكر وأصحابه، فوجب أن يكونوا هم الذين عناهم الله سبحانه بقوله: ﴿يُجِيبُهُمْ وَيُجِيبُونَهُ﴾، وذلك يوجب أن يكونوا على صواب.

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج في «الشافى» فقال: من أين قلت: إن الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه؟ فإن قال: لأنهم الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا أحد قاتلهم سواهم، قيل له: ومن الذي سلّم لك ذلك؟ أليس أمير المؤمنين عليه السلام قد قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدون عن الدين؟ ويشهد بصحة التأويل زائد على احتمال القول له، ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة: والله ما قاتل أهل الآية حتى اليوم، وتلاها، وقد روي عن عمار وحذيفة وغيرهما مثل ذلك^(٢).

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) أخرجه علي بن يونس في الصراط المستقيم: ٢٨٧/١.

فإن قال: دليلي على أنها في أبي بكر وأصحابه قول أهل التفسير، قيل له: أو كل أهل التفسير قال ذلك؟ فإن قال: نعم، كابر لأنه قد روي عن جماعة التأويل الذي ذكرناه، ولو لم يكن إلا ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين ذكرناهم لكفى، وإن قال: حجتي قول بعض المفسرين، قلنا: وأي حجة في قول البعض! ولم صار البعض الذي قال ما ذكرت أولى بالحق من البعض الذي قال ما ذكرنا!

ثم يقال له: قد وجدنا الله تعالى قد نعت المذكورين في الآية بنعوت يجب أن نراعيها، لنعلم أفي صاحبنا هي أم في صاحبك! وقد جعله الرسول ﷺ في خير حين فرم من القوم عن العدو صاحب هذه الأوصاف، فقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كزاراً غير فراراً، فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام ^(١).

ثم قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ^(٢)، يقتضي ما ذكرنا، لأنه من المعلوم بلا خلاف حال أمير المؤمنين عليه السلام في التخاضع والتواضع، وذم نفسه، وقمع غضبه، وأنه ما رُئي قط طائشاً ولا متطيراً في حال من الأحوال، ومعلوم حال صاحبتكم في هذا الباب، وأما العزة على الكافرين، فإنما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم، وهذه حال لم يسبق أمير المؤمنين عليه السلام إليها سابق، ولا لحقه فيها لاحق.

ثم قال تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ ^(٣)، وهذا وصف أمير المؤمنين المستحق له بالإجماع، وهو فيه نظر؛ لأنه لا قتيل لهما في الإسلام، ولا جهاد بين يدي الرسول ﷺ، وإذا كانت الأوصاف المراعاة في الآية حاصلة لأمر المؤمنين عليه السلام، وغير حاصلة لمن ادعيتهم؛ لأنها فيهم على ضربين: ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد، وضرب مختلف فيه كالأوصاف التي هي غير الجهاد، وعلى من أثبتها لهم الدلالة على حصولها، ولا بد أن يرجع في ذلك إلى غير ظاهر الآية، لم يبق في يده من الآية دليل.

هذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله، ولقد كان يمكنه التخلص من الاحتجاج بالآية على وجه الطف وأحسن وأصح مما ذكره، فيقول: المراد بها من ارتد على عهد رسول الله ﷺ في واقعة الأسود العنسي باليمن، فإن كثيراً من المسلمين ضلوا به وارتدوا عن الإسلام، وادعوا له النبوة، واعتقدوا صدقه، والقوم الذين يحبهم الله ويحبونه القوم الذين كاتبهم رسول الله ﷺ وأغراهم بقتله، والفتك به، وهم فيروز الديلمي وأصحابه. والقصة مشهورة.

وقد كان له أيضاً أن يقول: لم قلت: إن الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابه كانوا مرتدين! فإن

(١) أخرجه الطبري في تفسير المجمع: ٣/٣٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

المرتد من ينكر دين الإسلام بعد أن كان قد تدبّر به، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصل دين الإسلام، وإنما تأولوا فأخطأوا؛ لأنهم تأولوا قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾^(١)، فقالوا: إنما ندفع زكاة أموالنا إلى من صلاته سَكَنٌ لنا، ولم يبق بعد وفاة النبي ﷺ من هو بهذه الصفة، فسقط عنا وجوب الزكاة، ليس هذا من الردة في شيء، وإنما سمّاهم الصحابة أهل الردة على سبيل المجاز، إعظاماً لما قالوه وتأولوه.

فإن قيل: إنما الاعتماد على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيئمة وطليحة اللذين ادّعى النبوة، وارتد بطريقهما كثير من العرب، لا على قتال ما نعي الزكاة!

قيل: إن مُسَيِّئَةً وطليحة جَاهِدَهُمَا رسول الله ﷺ قبل موته بالكُتُب والرسُل، وأنفذ لقتلهما جماعة من المسلمين، وأمرهم أن يفتكوا بهما غيلةً إن أمكنهم ذلك، واستنفر عليهما قبائل من العرب، وكل ذلك مفضل مذكور في كتب السيرة والتواريخ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الذين بعثهم رسول الله ﷺ للفتك بهما، هم المعنيون بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٢) إلى آخر الآية! ولم يقل في الآية: «يجاهدون فيقتلون»، وإنما ذكر الجهاد فقط، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلاً وإن لم يبلغوا الغرض، كما كان الجهاد حاصلاً عند حصار الطائف وإن لم يبلغ فيه الغرض.

وقد كان له أيضاً أن يقول: سياق الآية لا يدل على ما ظنه المستدلُّ بها، من أنه من يرتد عن الدين، فإن الله يأتي بقوم يحبهم ويحبونه يحاربونه لأجل ردة، وإنما الذي يدل عليه سياق الآية أنه من يرتد منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله ﷺ - وسمّاه ارتداداً على سبيل المجاز - فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، يجاهدون في سبيل الله معه عوضاً عنكم، وكذلك كان كل من خذل النبي ﷺ وقعد عن النهوض معه في حروبه، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه!

وأما قول المرتضى رحمه الله: إنها أنزلت في الناكثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أمير المؤمنين ﷺ فبعيد؛ لأنهم لا يطلق عليهم لفظ «الردة» عندنا، ولا عند المرتضى وأصحابه، أما اللفظ فبالاتفاق، وإن سمّوهم كفاراً. وأما المعنى فلأن في مذهبهم أن من ارتد - وكان قد ولد على فطرة الإسلام - بانت امرأته منه، وقسم ماله بين ورثته، وكان على زوجته عدة المتوفى عنها زوجها، ومعلوم أن أكثر محاربي أمير المؤمنين ﷺ كانوا قد ولّدوا في الإسلام، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وقوله: «إِنَّ الصِّفَاتِ غَيْرَ مُتَحَقِّقَةٍ فِي صَاحِبِكُمْ»، فلعمري إِنَّ حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحِظُّ الأوفى، ولكن الآية ما خصت الرئيس بالصفات المذكورة، وإنما أطلقها على المجاهدين، وهم الذين يباشرون الحرب، فهب أن أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات، لم لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهد بين أيديهما من المسلمين، وياشر الحرب، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الذين فتحوا الفتوح، ونشروا الدعوة، وملكوا الأقاليم!

وقد استدلل قاضي القضاة أيضاً عن صححة إمامة أبي بكر، - وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي علي - بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنْ الْأَعْرَابِ مَغْلَتَنَا أَمَولُنَا وَاهْلُونَا فَاَسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَهُمُ الْخُرُوجُ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلْفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِكُمْ لِتَأْخُذْهَا ذُرُوءًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣). يعني قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾^(٤). ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَعُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَمْرِ شَدِيدٍ يَنْقُلُونَهُمْ أَوْ يَسِلُّوهُ فَإِنْ يُطِيعُوا يَؤِتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٥). فبيّن أن الذي يدعو هؤلاء المخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولي باس شديد غير النبي ﷺ؛ لأنه تعالى قد بين أنهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون معه عدوًّا، بآية متقدمة، ولم يدعهم بعد النبي ﷺ إلى قتال الكفار إلا أبو بكر وعمر وعثمان؛ لأن أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل، فقال بعضهم: عني بقوله: ﴿سَعُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَمْرِ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة، وقال بعضهم: عني فارس والروم، وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقاتل آل فارس والروم، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والروم عمر، فإذا كان الله تعالى قد بين أنهم بطاعتهم لهما يؤتاهم أجراً حسناً، وإن تولّوا عن طاعتهم يعذبهم عذاباً أليماً، صحّ أنهما على حق، وأن طاعتهم طاعة الله تعالى - وهذا يوجب صححة إمامتهما.

فإن قيل: إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصفيين!

قيل: هذا فاسد من وجهين: أحدهما قوله تعالى: ﴿يَنْقُلُونَهُمْ أَوْ يَسِلُّوهُ﴾، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام، ولم يقاتلوا على الكفر. والوجه الثاني أنا لا نعرف من الذين عناهم الله تعالى بهذا مَنْ بقي إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام، كما علمنا أنهم كانوا باقين في أيام أبي بكر.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٥) سورة الفتح، الآية: ١٦.

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين: أحدهما أنه نازع في اقتضاء الآية داعياً يدعو هؤلاء المخلفين غير النبي ﷺ، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِئِنَّهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَوْلٌ مِّن يَمِينِكَ لَكُمْ مِمَّنِ اللَّهُ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا أَلَسَّ الشَّوْءُ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١٢﴾ (١) إنما أراد به سبحانه الذين تخلفوا عن الحُدَيْبِيَّة بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسرين.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِرِكُمْ إِنَّا نأْخُذُهَا ذُرُوءًا نَّتِيغُكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُسَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُونَ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُسْتَدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٢﴾، وإنما التمس هؤلاء المخلفون أن يخرجوا إلى غنيمة خيبر، فمنعهم الله تعالى من ذلك، وأمر نبيه أن يقول لهم: لن تتبعونا إلى هذه الغزاة، لأن الله تعالى كان حكم من قبل بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، وأنه لاحظ لمن لم يشهدا، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُسَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسْئِدُوعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ آوَلِي بِأْسٍ شَدِيدٍ يُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾، وإنما أراد أن الرسول سيدعوكم فيما بعد إلى قتال قوم أولي بأس شديد، وقد دعاهم النبي ﷺ بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، إلى قوم أولي بأس شديد، كمؤتة وحنين وتبوك وغيرها، فمن أين يجب أن يكون الداعي لهؤلاء غير النبي ﷺ، مع ما ذكرناه من الحروب التي كانت بعد خيبر!

وقوله: إن معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، إنما أراد به ما بينه في قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا لَهَا لِيُخْرِجَ أَفْئِدَتَهُمْ قُلْ لَّن نَخْرُجُ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنُكْفِلَنَّ مَعِيَ عِدَدًا ۝١٣﴾، بتبوك سنة تسع، وآية الفتح نزلت في سنة ست، فكيف يكون قبلها!

وليس يجب أن يقال في القرآن بالإرادة، وبما يحتمل من الوجوه في كل موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآية، والأسباب التي وردت عليها، وتعلقت بها.

ومما يبين لك أن هؤلاء المخلفين غير أولئك لو لم نرجع في ذلك إلى نقل وتاريخ، قوله تعالى في هؤلاء: ﴿فَإِن تُطِيعُوا بُرُوكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٤﴾، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية، بل ذكر الوعد والوعيد على ما يفعلونه من طاعة أو معصية، وحكم المذكورين في آية سورة التوبة بخلاف هذه لأنه تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُقُورِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأَقْبِدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقِمَّ عَلَىٰ قَبْرِهِ

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٦.

إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ لِئَمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكُفْرُونَ ﴿٨٥﴾^(١)، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدل على اختلافهم، وأن المذكورين في آية سورة الفتح غير المذكورين في آية سورة التوبة.

وأما قوله: لأن أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرهما باطل؛ لأن أهل التأويل قد ذكروا شيئاً آخر لم يذكره؛ لأن المسيب روى عن أبي روق عن الضحّاك في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيداً...﴾^(٢) الآية، قال: هم ثقيف. وروى هشيم عن أبي يسر، سعيد بن جبير، قال: هم هوازن يوم حنين.

وروى الواقدي، عن معمر، عن قتادة، قال: هم هوازن وثقيف، فكيف ذكر من أقوال المفسرين ما يوافقه مع اختلاف الرواية عنهم! على أننا لا نرجع في كل ما يحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسرين، فإنهم ربما تركوا ما يحتمله القول وجهاً صحيحاً، وكما استخرج جماعة من أهل العدل في مثالبه القرآن من الوجوه الصحيحة التي ظاهر التنزيل بها أشبه، ولها أشد احتمالاً، مما لم يسبق إليه المفسرون، ولا دخل في جملة تفسيرهم وتأويلهم.

والوجه الثاني سلم فيه أن الداعي هؤلاء المخلفين غير النبي ﷺ، وقال: لا يمتنع أن يعني بهذا الداعي أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه قاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين. وبشره النبي ﷺ بأنه يقاتلهم، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة.

قال: فأما تعلق صاحب الكتاب بقوله: ﴿أَوْ يُسْلَمُونَ﴾، وأن الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين، فأول ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه؛ لأن الكبائر تخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمان هو الإسلام على مذهبهم. ثم إن مذهبنا في محاربي أمير المؤمنين عليه السلام معروف؛ لأنهم عندنا كانوا كفاراً بمحاربتهم لوجه:

الأول منها: أن من حاربه كان مستحلاً لقتاله، مظهراً أنه في ارتكابه علي حق، ونحن نعلم أن من أظهر استحلال شرب جرعة خمر هو كافر بالإجماع، واستحلال دماء المؤمنين فضلاً عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفاراً.

الثاني: أنه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل: «حربك يا عليّ حربي، وسلمك سلميّ»^(٣)، ونحن نعلم أنه لم يرد إلا التشبيه بينهما في الأحكام، ومن أحكام محاربي النبي ﷺ الكفر بلا خلاف.

الثالث: أن النبي ﷺ قال له بلا خلاف أيضاً: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٨٣، ٨٥.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٥/٣٥.

وانصر مَنْ نصره، واخذل من خذله^(١)، وقد ثبت عندنا أن العداوة من الله لا تكون إلا للكفار الذين يعادونه دون فساق أهل الملة.

الرابع: قوله: إنا لا نعلم ببقاء هؤلاء المخلفين إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشيء؛ لأنه إذا لم يكن ذلك معلوماً ومقطوعاً عليه، فهو مجوز وغير معلوم خلافه، والجواز كافٍ لنا في هذا الموضع.

ولو قيل له: من أين علمت بقاء المخلفين المذكورين في الآية على سبيل القطع إلى أيام أبي بكر؟ لكان يفرع إلى أن يقول: حكم الآية يقتضي بقاءهم حتى يتم كونهم مدعوتين إلى قتال أولي البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة، وهذا بعينه يمكن أن يقال له، ويعتمد في بقائهم إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يوجهه حكم الآية.

فإن قيل: كيف يكون أهل الجمل وصفيين كفاراً ولم يسز أمير المؤمنين عليه السلام فيهم بسيرة الكفار؛ لأنه ما سباهم، ولا غنم أموالهم، ولا تبع مولاهم!

قلنا: أحكام الكفر تختلف، وإن شملهم اسم «الكفر»؛ لأن في الكفار مَنْ يُقتل ولا يستبقى، وفيهم مَنْ يؤخذ منه الجزية ولا يحل قتله إلا بسبب طارئ غير الكفر، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين، فعلى هذا يجوز أن يكون هؤلاء القوم كفاراً، وإن لم يسز فيهم بجميع سيرة أهل الكفر؛ لأننا قد بينا اختلاف أحكام الكفار، ويرجع في أن حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم. على أننا لا نجد في الفساق مَنْ حكمه أن يقتل مقبلاً، ولا يقتل مولياً، ولا يجهز على جريحه، إلى غير ذلك من الأحكام التي سترها في أهل البصرة وصفيين.

فإذا قيل في جواب ذلك: أحكام الفسق مختلفة، وفعل أمير المؤمنين هو الحجة في أن حكم أهل البصرة وصفيين ما فعله.

قلنا مثل ذلك حرفاً بحرف، ويمكن مع تسليم أن الداعي لهؤلاء المخلفين أبو بكر، أن يقال: ليس في الآية دلالة على مدح الداعي ولا على إمامته؛ لأنه قد يجوز أن يدعو إلى الحق والصواب مَنْ ليس عليهما، فيلزم ذلك الفعل مَنْ حيث كان واجباً في نفسه، لا لدعاء الداعي إليه، وأبو بكر إنما دعا إلى دفع أهل الردة عن الإسلام، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داع، والطاعة فيه طاعة لله تعالى، فمن أين له أن الداعي كان على حق وصواب! وليس في كون ما دعا إليه طاعة ما يدل على ذلك.

(١) أخرج الشطر الأول ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٦)، وأحمد في مسنده (٩٥٣).

ويمكن أيضاً أن يكون قوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ﴾، إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم؛ لأنه إذا دلهم على وجوب قتال المرتدين، ورفعهم عن بيضة الإسلام، فقد دعاهم إلى القتال، ووجبت عليهم الطاعة، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا، وهذا أيضاً تحتمله الآية.

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله في هذا الموضع، وأكثره جيد لا اعتراض عليه، وقد كان يمكنه أن يقول: لو سلمنا بكل هذا لكان ليس في قوله: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ الآية ما يدل على أن النبي ﷺ لا يكون هو الداعي لهم إلى القوم أولى البأس الشديد؛ لأنه ليس فيها إلا محض الأخبار عنهم بأنهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون العدو معه، وليس في هذا ما ينفي كونه داعياً لهم، كما أنه عليه السلام قال: «أبو لهب لا يؤمن بي»، لم يكن هذا القول نافياً لكونه يدعوهم إلى الإسلام.

وقوله: ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْمُخَلَفِينَ﴾ ليس بأمر على الحقيقة، وإنما هو تهديد كقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(١) ولا بد للمرتضى ولقاضي القضاة جميعاً من أن يحملوا صيغة «افعل» على هذا المحمل؛ لأنه ليس لأحدهما بمسوغ أن يحمل الأمر على حقيقة؛ لأن الشارع لا يأمر بالعود وترك الجهاد مع القدرة عليه، وكونه قد تعين وجوبه.

فإن قلت: لو قدرنا أن هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَكُمْ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾^(٢)، أنزلت بعد غزوة تبوك، وبعد نزول سورة «براءة»، التي تتضمن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾، وقدرنا أن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ليس إخباراً محضاً كما تأولته أنت وحملت الآية عليه، بل معناه لا أخرجكم معي ولا أشهدكم حرب العدو، هل كان يتم الاستدلال؟

قلت: لا؛ لأن للإمامية أن تقول: يجوز أن يكون الداعي إلى حرب القوم أولى البأس الشديد مع تسليم هذه المقدمات كلها هو رسول الله ﷺ؛ لأنه دعاهم إلى حرب الروم في سرية أسامة بن زيد في صفر من سنة إحدى عشرة، لما سيره إلى البلقاء، وقال له: سر إلى الروم مقتل أبيك فأوطنهم الخيول وحشد معه أكثر المسلمين، فهذا الجيش قد دُعي فيه المخلفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد في غزاة تبوك إلى قوم أولى بأس شديد، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ ولا حاربوا معه عدواً.

فإن قلت: إذا خرجوا مع أسامة، فكأنما خرجوا مع رسول الله، وإذا حاربوا مع أسامة العدو، فكأنما حاربوا مع رسول الله ﷺ، وقد كان سبق أنهم لا يخرجون مع رسول الله ﷺ ولا يحاربون معه عدواً.

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٦.

قلت: وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره في أيام أبي بكر، ومع أبي عبيدة وسعد في أيام عمر، فكأنما خرجوا مع رسول الله ﷺ، وحاربوا العدو معه أيضاً.

فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلا أنه على الحقيقة ليس معه، وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه.

قيل لك: وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدو معه، وإن شابه الخروج مع النبي ﷺ ومحاربة العدو معه، إلا أنه على الحقيقة ليس معه، وإنما هو مع بعض أمرائه.

ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية، فيقال: لا يجوز حملها على بني حنيفة؛ لأنهم كانوا مسلمين، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ»، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة، والإمامية مرجئة، ولا يجوز حملها على فارس والروم؛ لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم، كما تقول: إما كذا وإما كذا، فيقضي ذلك نفي الواسطة، وقاتل فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة، وهو دفع الجزية، وإنما تنفي هذه الواسطة في قتال العرب؛ لأن مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية، فالآية إذن دالة على أن المخلفين سيذعنون إلى قوم أولي بأس شديد الحكم فيهم، إما قتالهم وإما إسلامهم، وهؤلاء هم مشركو العرب، ولم يحارب مشركي العرب إلا رسول الله ﷺ، فالداعي لهم إذاً هو رسول الله ﷺ، وبطل الاستدلال بالآية.

الأصل: أَنَا وَضَعْتُ بِكَ لَاكِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونٍ رَيْعَةً وَمُضَرَّ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حَجَرِهِ، وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتَفِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ قَطِيباً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتْبَعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرِ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ وَاحِدٍ يَوْمِيذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الرَّئَةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ، قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ.

الشرح: الباء في قوله: «بكلاكل العرب» زائدة. والكلاكل: الصُّدُور، الواحد كَلَكُلٌ، والمعنى: أَنِّي أَذَلَّتْهُمْ وَصَرَعْتَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ.

ونواجهم قرون ربيعة ومضر: مَنْ نَجَمَ مِنْهُمْ وَظَهَرَ، وَعَلَا قَدْرُهُ، وَطَارَ صَيْتُهُ. فَإِنْ قُلْتُ: أَمَّا قَهْرُهُ لِمُضَرَ فَمَعْلُومٌ، فَمَا حَالُ رِبِيعَةٍ، وَلَمْ نَعْرِفْ أَنَّهُ قَتَلَ مِنْهُمْ أَحَدًا؟ قُلْتُ: بَلَى قَدْ قَتَلَ بِيَدِهِ وَبِجَيْشِهِ كَثِيرًا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ فِي صِفِّينَ وَالْجَمَلِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَسْمَائِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَهَذِهِ الْخُطْبَةُ بِهَا بَعْدُ انْقِضَاءُ أَمْرِ النَّهْرَوَانِ.

وَالْعَرَفُ بِالْفَتْحِ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، وَمَضَغَ الشَّيْءَ يَمْضَغُهُ بِفَتْحِ الضَّادِ.

وَالْخُطْلَةُ فِي الْفِعْلِ: الْخَطَأُ فِيهِ، وَإِيقَاعُهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ.

وَجِرَاءُ: اسْمُ جَبَلٍ بِمَكَّةَ مَعْرُوفٌ.

وَالرَّئَةُ: الصَّوْتُ.

صلة علي برسول الله ﷺ في صفه

وَالْقَرَابَةُ الْقَرِيبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَامِ، كَوْنَهُ رَبَّاهُ فِيهِ جِجْرُهُ، ثُمَّ حَامَى عَنْهُ وَنَصَرَهُ عِنْدَ إِظْهَارِ الدَّعْوَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُصَاهَرَةِ الَّتِي أَفْضَتْ إِلَى النَّسْلِ الْأَظْهَرِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْهَارِ. وَنَحْنُ نَذْكُرُ مَا ذَكَرَهُ أَرْبَابُ السَّيْرِ مِنْ مَعَانِي هَذَا الْفَصْلِ.

رَوَى الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلْمَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: كَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا صَنَعَ اللَّهُ لَهُ، وَأَرَادَ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ، أَنَّ قَرِيشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ - وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: يَا عَبَّاسُ، إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ تَرَى مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، فَاَنْطَلِقْ بِنَا، فَلْنَخْفَفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخِذٌ مِنْ بَيْتِهِ وَاحِدًا، وَتَاخِذُ وَاحِدًا، فَنَكْفِيهِمَا عَنْهُ. فَقَالَ الْعَبَّاسُ: نَعَمْ، فَاَنْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَا لَهُ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَخْفَفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: إِنَّ تَرْكُتُمَا لِي عَقِيلًا فَاَصْنَعَا مَا شِئْتُمَا. فَاَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسَ جَعْفَرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ

علي بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه علي عليه السلام، فأقر به وصدقته، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه^(١).

قال الطبري: وحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب عليه السلام مستخفياً من عمه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عشر عليهما وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا بن أخي، ما هذا الذي أراك تدين به؟ قال: يا عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه - أو كما قال - فقال أبو طالب: يا بن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

قال الطبري: وقد روى هؤلاء المذكورون أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام: يا بني، ما هذا الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، إني آمنت بالله وبرسوله، وصدقته بما جاء به، وصليت لله معه، قال: فزعموا أنه قال له: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمه.

وروى الطبري في تاريخه أيضاً، قال: حدثنا أحمد بن الحسين الترمذي، قال: حدثنا عبد الله بن موسى، قال: أخبرنا العلاء، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن عبد الله، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر، صليت قبل الناس بسبع سنين^(٢).

وفي غير رواية الطبري: أنا الصديق الأكبر وأنا الفاروق الأول، أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصليت قبل صلاته بسبع سنين^(٣). كانه عليه السلام لم يرتض أن يذكر عمر ولا رآه أهلاً لمقايسة بينه وبينه، وذلك لأن إسلام عمر كان متأخراً.

وروى الفضل بن عباس رحمه الله، قال: سألت أبي عن ولد رسول الله ﷺ الذكور، أتهم كان رسول الله ﷺ له أشد حُباً؟ فقال: علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت له: سألتك عن بنيه،

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٥/٣٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١٢٠، وأخرجه الطبراني في الأوسط: ٢٥٤/٧.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٦٠/٣٨.

فقال: كان أحب إليه من بنيه جميعاً وأراف، ما رأينا زايلاً يوماً من الدهر منذ كان طفلاً، إلا أن يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أباً أبر بابن منه لعلي، ولا ابناً أطوع لأب من علي له^(١).

وروى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، قال: سمعتُ زيدا أبي عليه السلام يقول: كان رسول الله يمضغ اللّخمة والتمر حتى تلين، ويجعلهما في فم علي عليه السلام وهو صغير في حجره، وكذلك كان أبي علي بن الحسين عليه السلام يفعل بي، ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة، فيبرده في الهواء، أو ينفخ عليه حتى يبرد، ثم يلقمنيه، أفيشفق علي من حرارة لقمة ولا يشفق علي من النار! لو كان أخي إماماً بالوصية كما يزعم هؤلاء، لكان أبي أفضى بذلك إليّ ووقاني من حر جهنم.

وروى جبير بن مطعم، قال: قال أبي مطعم بن عديّ لنا ونحن صبيان بمكة: ألا ترون حب هذا الغلام - يعني علياً - لمحمد واتباعه له دون أبيه! والآلات والعزى، لوددت أن ابني بفتيان بني نوفل جميعاً!

وروى سعيد بن جبیر، قال: سألت أنس بن مالك، فقلت: أرايت قول عمر عن الستة: إن رسول الله مات وهو عنهم راضٍ؟ ألم يكن راضياً عن غيرهم من أصحابه؟ فقال: بلى، مات رسول الله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين، ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضاء، فقلت له: فأبي الصحابة كان رسول الله له أحمد؟ أو كما قال - قال: ما فيهم أحد إلا وقد سخط منه فعلاً، وأنكر عليه أمراً، إلا اثنان: علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة، فإنهما لم يقتربا منذ أتى الله بالإسلام أمراً أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله^(٢).

حياة الرسول صلى الله عليه وآله في بدء نشأته

وينبغي أن نذكر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وعِصْمَتِهِ بِالْمَلَائِكَةِ، ليكون ذلك تقريراً وإيضاحاً لقوله عليه السلام: «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته»، وأن نذكر حديث مجاورته عليه السلام بحراء، وكون علي عليه السلام معه هناك، وأن نذكر ما ورد في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وعلياً وخديجة، وأن نذكر ما ورد في سماعه رثة الشيطان، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيراً للمصطفى صلوات الله عليه.

أما المقام الأول فروى محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب «السيرة النبوية»، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري في تاريخه، قال: كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السَّعْدِيَّة أم

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢٣/٣٨.

(٢) أخرجه أحمد بما معناه في مسنده: ١٥/١.

رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجها وابن لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن الرضاع بمكة، في سنة شهباء لم تُبق شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لنا قمرَاء عجفاء، ومعنا شارف لنا، ما تُبض بقطرة، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيتنا الذي معنا من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، ولا في شارقنا ما يغذيه، ولكننا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانتي تلك، ولقد أرائت بالركب ضعفاً وعجفاً، حتى شق ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضاع فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمه وجدّه! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة ذهبت معي إلا أخذت رضيعاً غيри، فلما اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبي: والله إنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي لم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذته، قال: لا عليك أن تفعلني! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه فأخذته، وما يحملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت إلى رجلي، فلما وضعت في حجرني أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فوضع حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبيتنا جوعاً فنام، وقام زوجي إلى شارقنا تلك فنظر إليها فإذا أنها حافل، فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رياء وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: أتعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، فقلت: والله إنني لأرجو ذلك، ثم خرجنا وركبت أتانتي تلك، وحملته معي عليها، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء حميرهم حتى إن صواحيبي ليقلن لي: ويحك يا بنت أبي ذؤيب! اربعي علينا، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأناً.

قلت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد - وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجذب منها - فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى لبناً، فكنا نحتلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى إن الحاضر من قوماً ليقولون لرعاتهم: ويلكم؟ اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب! فيفعلون، فتروح أغنامهم جياً ما تُبض بقطرة، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصلته، فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه، حتى كان غلاماً جفراً، فقدمنا به على أمه آمنة بنت وهب، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلنا لها: لو تركته عندنا حتى يغلظ! فلإنا نخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى رده معنا.

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد، فوالله إنه لبعد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا، إذا أتاناً أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ها هو ذاك أخي القرشي، قد جاءه رجلان عليهما

ثياب بياض، فأضجعه وشقاً بطنه، فهما يسوطانه. قالت: فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه، فوجدناه قائماً ممتقاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا: ما لك يا بني! قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعني ثم شقاً بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو!

قالت: فرجعنا به إلى خبائثنا، وقال لي أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقه بأهله.

قالت: فاحتملته حتى قدمت به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت لها: قد بلغ الله بانبيي، وقضيت الذي علي، وتخوفت عليه الأحداث وأديته إليك كما تحبين. قالت: أتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني شأنًا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت له قصور بصرى من الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت حملاً قط كان أخف ولا أيسر منه، ثم وقع حين ولدته وإنه لو اضع يديه بالأرض، ورافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلق راشدة^(١).

قال: وروى الطبري في «تاريخه» عن شذاد بن أوس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن نفسه، ويذكر ما جرى له وهو طفل في أرض بني سعد بن بكر، قال: لما ولدت استرضعت في بني سعد، فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الصبيان، نتقاذف بالجلّة، إذا أتاني رهط ثلاثة، معهم طشت من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هرباً حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم عادوا إلى الرهط، فقالوا: ما أربكم إلى هذا الغلام، فإنه ليس منا! هذا ابن سيد قريش، وهو مسترضع فينا، غلام يتيم ليس له أب، فماذا يرث عليكم قتله، وماذا تصيبون من ذلك! ولكن إن كنتم لا بد قاتليه، فاخترأوا منا أين شئتم فاقتلوه مكانه، ودعوا هذا الغلام، فإنه يتيم.

فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيرون لهم جواباً، انطلقوا هرباً مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، فعمد أحدهم، فأضجعاني إضجاعاً لطيفاً، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حساً، ثم أخرج بطني فغسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني منهم، فقال لصاحبه: تنح، فنحاه عني، ثم أدخل يده في جوفي، وأخرج قلبي، وأنا أنظر إليه، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرماها، ثم قال بيده: يمنة منه وكأنه يتناول شيئاً، فإذا في يده خاتم من نور، تحار أبصار الناظرين دونه، فختم به قلبي، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا، ثم قال

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٥٧٥/١.

الثالث لصاحبه: تنخ عنه، فأمر يده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً، وقال للأول الذي شق بطني: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فرجحتهم، فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم، ثم ضموني إلى صدرهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: يا حبيب الله، لا تُرغ، إنك لو تدري ما يُراد بك من الخير لقرت عيناك! فبينما أنا كذلك إذا أنا بالحي قد جاؤوا بحذافيرهم، وإذا أمي - وهي ظري - أمام الحي تهتف بأعلى صوتها، وتقول: يا ضعيفاه! فانكبت عليّ أولئك الرهط فقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من ضعيف! ثم قالت ظري: يا وحيداه! فانكبوا عليّ، وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد! وما أنت بوحيد! إن الله وملائكته معك والمؤمنين من أهل الأرض، ثم قالت ظري: يا يتيماه! استضعفت من بين أصحابك، فقتلت لضعفك، فانكبوا عليّ وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله لو تعلم ما يراد بك من الخير! قال: فوصل الحي إلى شفير الوادي، فلما بصرت بي أمي - وهي ظري - نادى: يا بني، ألا أراك حياً بعد! فجاءت حتى انكبت عليّ، وضممتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده، إني لفي حجرها قد ضمتني إليها، وإن يدي لفي يد بعضهم، فجعلت ألتفت إليهم، وظننت أن القوم يبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم، فيقول بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ، أو طائف من الجن، فانطلقوا به إلى كاهن بني فلان، حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: ما بي شيء مما يذكرون، نفسي سليمة، وإن فؤادي صحيح، ليست بي قلة. فقال أبي - وهو زوج ظري: ألا ترؤن كلامه صحيحاً! إني لأرجو ألا يكون على ابني بأس.

فاتفق القوم على أن يذهبوا إلى الكاهن بي، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه، فقصوا عليه قصتي، فقال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فهو أعلم بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه أمري، وأنا يومئذ ابن خمس سنين، فلما سمع قلبي وثب وقال: يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام فهو والآت والعزى لئن عاش لبيدلن دينكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بما لم تسمعوا به قط، فانتزعني ظري من حجره، وقالت: لو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به، ثم احتملوني فأصبح وقد صار في جسدي أثر الشق، ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشراك^(١).

وروي أن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام سأل عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(٢). فقال عليه السلام: يوكل الله

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٦٨/١٥.

(٢) سورة الجن، الآية: ٢٧.

تعالى بأنبيائه ملائكة يُحْصُونَ أعمالهم، ويؤدُّون إليه تبليغهم الرسالة، ووَكَّلَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَلَكًا عَظِيمًا منذُ فَصْلٍ عن الرِّضَاعِ يُرْشِدُهُ إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصْذِّعُهُ عن الشرِّ ومساوئ الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: السَّلام عليك يا محمد يا رسول الله وهو شابٌّ لم يبلغْ دَرَجَةَ الرِّسَالَةِ بعد، فيظنُّ أنَّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرى شيئاً^(١).

وروى الطبري «التاريخ» عن محمد ابن الحنفية، عن أبيه عليّ عليه السلام، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيءٍ ممَّا كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوءٍ حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلةً لغلام من قریش كان يرعى مبيي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمرَ بها كما يسمر الشباب، فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أول دارٍ من دُور مكة، سمعت عَزْفًا بالدفِّ والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا فلان تزوج ابنة فلان، فجلست أنظر إليهم، فضرب الله على أذني فَنِمْتُ، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما صنعتُ شيئاً، ثم أخبرته الخبر، ثم قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، فقال: أفعَل، فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فأخبرته الخبر، ثم ما هممتُ بعدها بسوءٍ، حتى أكرمني الله برسالته»^(٢).

وروى محمد بن حبيب في «أمالیه» قال: قال رسول الله ﷺ: «أذكر وأنا غلام ابن سبع سنين، وقد بنى ابن جُدعان داراً له بمكة، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدَر في حُجورنا فننقله، فمَلأت حُجْري تُراباً فانكشفت عورتِي، فسمعت نداءً من فوق رأسي: يا محمد، أرْخِ إزارك، فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً، إلا أني أسمع الصوت، فتماسكت ولم أرْخِ، فكانَ إنساناً ضربني على ظهري، فخررت لوجهي، وانحلَّ إزاري فسترني، وسقط التراب إلى الأرض، فمَتَّ إلى دار أبي طالب عتي ولم أعد»^(٣).

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بجِراءِ فمَشْهُور، وقد ورد في الكتب الصحاح أنه كان يجاور في جِراء من كلِّ سنة شهراً، وكان يُطْعِم في ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين، فإذا قَضَى جِواره من جِراء، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قبل أن يدخل بيته،

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٦٢/١٥.

(٢) أنظر «تاريخ الطبري» (١/٥٢٠).

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: (٣٦٢/١٥).

فيطوف بها سبعا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السنة التي أكرمها الله فيها بالرسالة، فجاور في جراء شهر رمضان، ومعه أهله: خديجة وعلي بن أبي طالب وخادم لهم، فجاءه جبريل بالرسالة، وقال عليه والصلاة والسلام: «جاءني وأنا نائم بنمط فيه كتاب، فقال: أقرأ، قلت: ما أقرأ، فغتنني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ﴾^(٢)». فقرأته، ثم انصرف عني فانتبهت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتاب» وذكر تمام الحديث.

وأما حديث أن الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحد يومئذ إلا النبي وهو ﷺ وخديجة، فخير عفيف الكندي مشهور، وقد ذكرناه من قبل، وأن أبا طالب قال له: أتدري من هذا؟ قال: لا قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وهذا ابني علي بن أبي طالب، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد، زوجة محمد ابن أخي، وإيم الله ما أعلم على الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

وأما رنة الشيطان، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مسنده، عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: كنت مع رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي أسري به فيها، وهو بالحجر يصلي، فلما قضى صلاته، وقضيت صلاتي، سمعت رنة شديدة، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ قال: «ألا تعلم! هذه رنة الشيطان، علم أنني أسري بي الليلة إلى السماء، فأيس من أن يُقبَد في هذه الأرض»^(٣).

وقد روى عن النبي ﷺ ما يشابه هذا، لما بايعه الأنصار السبعون ليلة العقبة سُمع من العقبة صوت عالٍ في جوف الليل: يا أهل مكة، هذا مذمم والصبابة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ للأنصار: «ألا تسمعون ما يقول! هذا أرب العقبة» - يعني شيطانها، وقد روي: «أرب العقبة». ثم التفت إليه، فقال: «استمع يا عدو الله، أما والله لأفرغن لك»^(٤).

وروي عن جعفر بن محمد الصادق ﷺ، قال: كان علي ﷺ يرى مع رسول الله ﷺ قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له ﷺ: «لولا أنني خاتم الأنبياء لكنت شريكا في النبوة، فإن لا تكن نبيا فإنك وصي نبي ووارثه، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء»^(٥).

وأما خبر الوزارة، فقد ذكره الطبري في تاريخه، عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٢) سورة العلق، الآية: ٥.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢٤/١٨.

(٤) أنظر الغدير: ٢٤٢/٣، والإمام علي الهمداني: ٥٣٢.

(٥) أخرجه ابن البطريق في العمدة: ١٢.

طالب عليه السلام، قال لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دعاني، فقال: يا علي، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، فضقت بذلك ذرعاً، وعلمت أنني متى أنادهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُ حتى جاءني جبريل عليه السلام، فقال: يا مُحَمَّد، إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ يَعْذِبُكَ رَبُّكَ، فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رَجُلَ شاة، واملاً لنا عُسّاً من لبن، ثم أجمع بني عبد المطلب حتى أكلهم، وأبلغهم ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليه دعا بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ بَضْعَةً من اللحم فشَقَّها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصُّحُفَةِ، ثم قال: كُلُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فأكلوا حتى ما لهم إلى شيء من حاجة، وإيَّمُ اللَّهِ الَّذِي نَفْسُ عَلِيٍّ بِيَدِهِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لِيَأْكُلْ مَا قَدَّمْتَهُ لَجَمِيعِهِمْ، ثم قال: اسْقِ الْقَوْمَ يَا عَلِي، فجئتهم بذلك العُسَّ فشربوا منه، حتى رَوُوا جميعاً، وإيَّمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَشْرَبَ مِثْلَهُ، فلما أراد رسول الله ﷺ أَنْ يَكَلِّمَهُمْ بَذَرَهُ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْكَلَامِ، فقال: لَشَدُّ مَا سَحَرَكُم صَاحِبُكُمْ! ففترَّق القومُ، ولم يكلمهم رسول الله ﷺ، فقال من الغد: يا علي، إِنْ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَى مَا سَمِعْتَ مِنَ الْقَوْلِ، ففترَّق القوم قبل أَنْ أَكَلَمَهُمْ، فعد لنا اليوم إلى مثل ما صنعت بالأمس، ثم أجمعهم لي. ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقرَّبته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم قال: اسْقِهِمْ، فجئتهم بذلك العُسَّ، فشربوا منه جميعاً، حتى رَوُوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ، فقال: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ شَاباً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلٍ مِنَّا جِئْتَكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيْتُكُمْ بِوَأْزَرَنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ؟» فأحجم القوم عنه جميعاً، وقلت أنا - وإني لأخذهم سناً وأرمضهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً: أنا يا رسول الله أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيْهِ، فأعاد القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت، فأخذ برقبتي، ثم قال لهم: «هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا». فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ لَابْنِكَ وَتَطِيعَ^(٢).

ويدل على أنه وزير رسول الله ﷺ من نص الكتاب والسنة قول الله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ بَيْتِي﴾^(٣) أَشَدَّ بِهِ أَزْرَى ﴿٢٩﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٠﴾. وقال النبي ﷺ في الخبر

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٦٣/٢، وذكره ابن كثير في تفسيره: ٣٦٤/٣.

(٣) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣١.

المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(١)، فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى، فإذا هو وزير رسول الله ﷺ، وشاذ أزره، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكاً في أمره.

وروى أبو جعفر الطبري أيضاً في «التاريخ»، أن رجلاً قال لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، بم ورثت ابن عمك دون عمك؟ فقال علي عليه السلام: هاؤم ثلاث مرات، حتى اشرب الناس، ونشروا آذانهم، ثم قال: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب بمكة، وهم رهطه كلهم، يأكل الجذعة، ويشرب الفرق، فصنع مئداً من طعام، حتى أكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بقمح، فشربوا وزروا، وبقي الشراب كأنه لم يشرب، ثم قال: يا بني عبد المطلب، إني بُعثت إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، فأبكم ببائعي علي أن يكون أخي وصاحبي، ووارثي؟ فلم يقيم إليه أحد، فقامت إليه، وكنت من أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ذلك ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه، فيقول: اجلس، حتى كان في الثالثة، فضرب بيده على يدي، فعند ذلك ورثت ابن عمي دون عمي^(٢).

الأصل: وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لَمَّا آتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ أَدْعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدْعِهِ آبَاؤُكَ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْنِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: وَمَا نَسْأَلُونَ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرْوِقِهَا، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيثُونَ إِلَى خَيْرٍ، وَأَنْ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْ يُحَرِّبُ الْأَحْزَابَ، ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا بَيْتُهَا الشَّجَرَةُ، إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرْوِقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَا تَنْقَلَعُ بِعُرْوِقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقُصِفَتْ كَقُصْفِ أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْقَرَةً، وَأَلْقَتْ بِغُضَنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال رقم ٣٦٥٢.

وَالِهَ وَيَبْعُضُ أَغْصَانَهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ، قَالُوا عُلُوءًا وَاسْتِكْبَارًا: فَمَرَّمَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا، وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَّمَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّ دَوِيٍّ، فَكَادَتْ تَلْتَفِتُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُوًّا: فَمَرَّمَا هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصَدِيقًا بِنُبُوتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السَّخْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! بَعَثُونَنِي - وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، سَيِّمَاهُمْ سَيِّمَاتُ الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عُمَارُ اللَّيْلِ، وَمَنَارُ النَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُخَيِّونَ سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يَفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

الشرح: الملا الجماعة. ولا تفتنون: لا ترجعون. ومن يطرح في القلب، كعُتْبَةٍ وشَيْءِ ابْنِي ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة، المكنى أبا جهل وغيرهم، طرخوا في قلب بدر بعد انقضاء الحرب، ومن يحزب الأحزاب، أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية.

والْقَصْفُ والقصيف: الصوت. وسيماهم: علامتهم، ومثله «سيمياء».

ومعنى قوله ﷺ: «قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»، أن قلوبهم ملتدة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصبة بالعبادة.

وأما أمر الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ، فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض، قد ذكره المحدثون في كتبهم، وذكره المتكلمون في معجزات الرسول الله ﷺ، والأكثر رورا الخبر فيها على الوضع الذي جاء في خطبة أمير المؤمنين، ومنهم من يروي ذلك مختصراً أنه دعا شجرة فأقبلت تأخذ إليه الأرض خذاً.

وقد ذكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» حديث الشجرة، ورواه أيضاً محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي على وجه آخر، قال محمد بن إسحاق: كان رُكَّانَ بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدَّ قریش كلها، فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا رُكَّانَ، ألا تتقي الله، وتقبل ما أَدْعُوكَ إليه؟» قال: لو أعلم أن الذي تقول حقٌّ لا تبعثك، قال: «أفرايت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول لك حقٌّ؟» قال: نعم، قال: «فقم حتى أصارحك»، فقام رُكَّانَ، فلما بطش به رسول الله ﷺ

أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً، فقال: عُدْ يا محمد، فعادَ فصرعه، فقال: يا محمد، إن هذا لعجبٌ حينَ تصرُّعني، فقال رسول الله ﷺ: «وأعجب من ذلك إن شئت أريتك»، إن اتقيت الله، واتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: «أدهو لك هذه الشجرة التي تراها، فتأتي»، قال فاذُعُها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال: «ارجعي إلى مكانك»، فرجعت إلى مكانها، فرجع رُكَّانة إلى قومه، وقال: يا بني عبد مناف، ساجروا بصاحبكم أهل الأرض! فما رأيت أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى، والذي صنع^(١).

في إسلام أبي بكر وعلي عليه السلام

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع ملخص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ في كتابه المعروف بكتاب «العثمانية» في تفضيل إسلام أبي بكر علي إسلام علي عليه السلام؛ لأن هذا الموضع يقتضيه، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله ﷺ: «هل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا لأنهم استصغروا سنَّه، فاستحقروا أمر محمد رسول الله ﷺ حيث لم يصدقوه في دعواه إلا غلام صغير السن، وشُبَّه العُثمانيَّة التي قررها الجاحظ من هذه الشُبَّه نشأت، ومن هذه الكلمة تفرَّعت؛ لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة، وعلي أسلم ولم يبلغ الحلم، فكان إسلام أبي بكر أفضل.

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافي على الجاحظ في كتابه المعروف بـ«انقضاء العثمانية» ويتشعب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث في الإسلاميين إلى البحث في أفضلية الرجلين وخصائصهما، فإن ذلك لا يخلو عن فائدة جليلة، ونكتة لطيفة، لا يليق أن يخلو كتابنا هذا عنها؛ ولأن كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه، وفي الكتابة أقصد وأدخل، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله.

قال أبو عثمان: قالت العثمانية: أفضل الأئمة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبي قحافة لإسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد في عصره، وذلك أن الناس اختلفوا في أول الناس إسلاماً، فقال قوم: أبو بكر، وقال قوم: زيد بن حارثة، وقال قوم: خباب بن الارت.

وإذا تفقّدنا أخبارهم، وأحصينا أحاديثهم، وعددنا رجالهم، ونظرنا في صحّة أسانيدهم، كان الخبر في تقدّم إسلام أبي بكر أعمّ ورجاله أكثر، وأسانيده أصحّ، وهو بذاك أشهر، واللفظ فيه أظهر، مع الأشعار الصحيحة، والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته، وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها، وأصل مخرجها التباعد والاتفاق

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ١٢٨/٣.

والتواطؤ، ولكن ندع هذا المذهب جانباً، ونضرب عنه صفحاً، اقتداراً على الحجّة، ووثوقاً بالفلج والقوة، ونقتصر على أدنى نازل في أبي بكر، وننزل على حكم الخصم، فنقول: إنا وجدنا مَنْ يزعم أنه أسلم قبل زيد وخبّاب، ووجدنا من يزعم أنهما أسلما قبله، وأوسط الأمور عدلها، وأقربها من محبة الجميع، ورضا المخالف، أن نجعل إسلامهم كان معاً، إذ الأخبار متكافئة، والآثار متساوية على ما تزعمون، وليست إحدى القضيتين أولى في صحة العقل من الأخرى، ثم نستدل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث، وبما أبانه به الرسول صلى الله عليه وآله من غيره.

قالوا: فمما روي من تقدم إسلامه ما حدث به أبو داود وابن مهدي عن شعبة، وابن عينة: عن الجريري، عن أبي هريرة، قال أبو بكر: أنا أحقكم بهذا الأمر - يعني الخلافة - ألسن أول من صلى!

روى عباد بن صهيب، عن يحيى بن عمير، عن محمد بن المنكدر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة»، فقالوا: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت^(١).

وروى يعلى بن عبيد، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فسأله: مَنْ كان أول الناس إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت!

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقة فاذكّر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
الثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا
وقال أبو مخجن:

سبقت إلى الإسلام والله شاهد وكنت حبيباً بالعريش المشهر
وقال كعب بن مالك:

سبقت أخا تميم إلى دين أحمد وكنت لدى الغيران في الكهف صاحباً
وروى ابن أبي شيبّة، عن عبد الله بن إدريس ووكيع، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: قال النخعي: أبو بكر أول من أسلم.

وروى هيثم بن يعلى بن عطاء، عن عمرو بن عبسة، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بُعَكاظ، فقلت: مَنْ بايعك على هذا الأمر؟ فقال: بايعني حرٌّ وعبدٌ، فلقد رأيتني يومئذ وأنا رابع الإسلام.

قال بعض أصحاب الحديث: يعني بالحرّ أبا بكر وبالعبد بلالاً.

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٣٨٣).

وروى الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، قال: حدثني عمرو بن عبسة، أنه سأل النبي ﷺ وهو بُعَكاظ، فقال له: مَنْ تَبِعَكَ؟ قال: تَبِعَنِي حُرٌّ وَعَبْدٌ: أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ.

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشمي، عن عبد الملك بن عُمَيْر، عن أسيد بن صفوان، صاحب النبي ﷺ قال: لما قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ جَاءَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ! كُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ إِسْلَامًا^(١).

وروى عباد، عن الحسن بن دينار، عن بشر بن أبي زينب، عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: إِذَا لَقِيتَ الْهَاشِمِيِّينَ قَالُوا: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَإِذَا لَقِيتَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ، قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ^(٢).

قال أبو عثمان الجاحظ: قالت العثمانية: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا بِالْكُمْ لَمْ تَذْكُرُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ كَثْرَةَ مَقْدَمِهِ وَالرَّوَايَةَ فِيهَا

قُلْنَا: قَدْ عَلِمْنَا الرِّوَايَةَ الصَّحِيحَةَ، وَالشَّهَادَةَ الْقَائِمَةَ، أَنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ حَدَّثَ غَرِيرٌ، وَطِفْلٌ صَغِيرٌ، فَلَمْ نَكْذِبِ النَّاقِلِينَ، وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَلْحَقَ إِسْلَامَهُ بِإِسْلَامِ الْبَالِغِينَ؛ لِأَنَّ الْمَقْلَلُ زَعَمَ أَنَّهُ أَسْلَمَ. وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ، وَالْمَكْثَرُ زَعَمَ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ، فَالْقِيَاسُ أَنْ يُؤْخَذَ بِالْأَوْسَطِ بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ، وَبِالْأَمْرِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ حَقُّ ذَلِكَ مِنْ بَاطِلِهِ، بِأَنْ نَحْصِيَ سَنِيَهُ الَّتِي وَلِيَ فِيهَا الْخِلَافَةَ، وَبِسَنِي عُمَرَ، وَبِسَنِي عُثْمَانَ، وَبِسَنِي أَبِي بَكْرٍ، وَمَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَمَقَامِهِ بِمَكَّةَ عِنْدَ إِظْهَارِ الدَّعْوَةِ، فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ صَحَّ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، فَالتَّارِيخُ الْمَجْمَعُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قُتِلَ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعِينَ.

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي: لَوْلَا مَا غَلَبَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْجَهْلِ وَحُبِّ التَّقْلِيدِ، لَمْ نَحْتَجْ إِلَى نَقْضِ مَا احْتَجَّتْ بِهِ الْعُثْمَانِيَّةُ، فَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ كَافَّةً، أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ لِأَرْبَابِ مَقَالَتِهِمْ، وَعَرَفَ كُلُّ أَحَدٍ عُلُوَّ أَقْدَارِ شِيُوخِهِمْ وَعِلْمَائِهِمْ وَأَمْرَائِهِمْ، وَظُهُورَ كَلِمَتِهِمْ، وَقَهْرَ سُلْطَانِهِمْ وَارْتِفَاعَ تَقِيَّتِهِ عَنْهُمْ وَالْكَرَامَةَ، وَالْجَائِزَةَ لِمَنْ رَوَى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ فِي فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ، وَمَا كَانَ مِنْ تَأْكِيدِ بَنِي أُمِيَّةَ لَذَلِكَ، وَمَا وَلَدَهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنَ الْأَحَادِيثِ طَلِبًا لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَكَانُوا لَا يَأْلَوْنَ جَهْدًا فِي طَوْلِ مَا مَلَكُوا أَنْ يُخْمِلُوا ذِكْرَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدِهِ، وَيَطْقِنُوا نُورَهُمْ، وَيَكْتُمُوا فَضَائِلَهُمْ وَمَنَاقِبَهُمْ وَسَوَابِقَهُمْ، وَيَحْمِلُوا عَلَى شَتْمِهِمْ وَسِبِّهِمْ وَلَعْنِهِمْ عَلَى الْمَنَابِرِ، فَلَمْ

(١) أخرج ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق بما معناه: ٢٥١/٤٦.

(٢) يراجع ما تقدم.

يزل السيف يقطر من دمائهم، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، فكانوا بين قتيل وأسير، وشريد وهارب، ومستخف ذليل، وخائف مترقب، حتى إن الفقيه والمحدث والقاضي والمتكلم، ليتقدم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشد العقوبة، ألا يذكروا شيئاً من فضائلهم، ولا يرخصوا لأحد أن يطفئ بهم، وحتى بلغ من تقيّة المحدث أنه إذا ذكر حديثاً عن عليّ عليه السلام كنى عن ذكره، فقال: قال رجل من قريش، وفعل رجل من قريش، ولا يذكر علياً عليه السلام، ولا يتفوّه باسمه.

ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله، ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها، من خارجي مارق، وناصب حنيق، وثابت مستبهم، وناشي معاند، ومنافق مكذب، وعثماني حسود، يعترض فيها ويطعن، ومعتزلي قد نقض في الكلام، وأبصر علم الاختلاف، وعرف الشبه ومواضع القطع وضروب التأويل، قد التمس الحيل في إبطال مناقبه وتأول مشهور فضائله، فمرة يتأولها بما لا يحتمل، ومرة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقضي، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة، ووضوحاً واستنارة، وقد علمت أن معاوية يزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم - وذلك نحو ثمانين سنة - لم يدعوا جهداً في حمل الناس على شتمه ولغنه وإخفاء فضائله، وسر مناقبه ومسايقه.

روى خالد بن عبد الله الواسطي، عن حصين بن عبد الرحمن، عن هلال بن يساف، عن عبد الله بن ظالم، قال: لما بُيع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً عليه السلام، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة^(١)!

روى سليمان بن داود، عن شعبة، عن الحر بن الصباح، قال: سمعت عبد الرحمن بن الأحنس، يقول: شهدت المغيرة بن شعبة خطب فذكر علياً عليه السلام، فقال منه.

روى أبو كريب، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثنا صدقة بن المثنى التميمي عن رياح بن الحارث، قال: بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر، وعنده ناس إذ جاء رجل يقال له: قيس بن علقمة، فاستقبل المغيرة، فسب علياً عليه السلام.

روى محمد بن سعيد الأصفهاني، عن شريك، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام، قال: قال لي مروان: ما كان في القوم أذع عن صاحبنا من صاحبكم. قلت: فما بالكم تسبونه على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك^(٢).

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١٨٩/١، وأخرجه النسائي في مسنده رقم: ٨٢٠٨.

(٢) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف: ١٨٤.

روى مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي، عن ابن أبي سيف، قال: خطب مروان والحسن عليه السلام جالس فقال من علي عليه السلام، فقال الحسن: ويلك يا مروان! أهذا الذي تشتم شر الناس! قال: لا، ولكنه خير الناس.

وروى أبو غسان أيضاً، قال: قال عمر بن عبد العزيز: كان أبي يخطب فلا يزال مستمراً في خطبته، حتى إذا صار إلى ذكر علي وسبه تقطع لسانه، واصفر وجهه، وتغيرت حاله، فقلت له في ذلك، فقال: أوقد فطنت لذلك؟ إن هؤلاء لو يعلمون من علي ما يعلمه أبوك ما تبعنا منهم رجل^(١).

وروى أبو عثمان، قال: حدثنا أبو اليقظان، قال: قام رجل من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرفة، فقال: إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب^(٢).

وروى عمرو بن القناد، عن محمد بن فضيل، عن أشعث بن سوار، قال: سب عدي بن أوطاة علياً عليه السلام على المنبر، فبكى الحسن البصري وقال: لقد سب هذا اليوم رجلاً إنه لأخو رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة^(٣).

وروى عدي بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم، قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة ممّا يلي أبواب كنذة فخرج المغيرة فخطب، فحمد الله، ثم ذكر ما شاء أن يذكر، ثم وقع في علي عليه السلام، فضرب إبراهيم على فخذي أو ركبتي، ثم قال: أقبل علي، فحدثني فلانا لساناً في الجمعة، ألا تسمع ما يقول هذا^(٤)!

وروى عبد الله بن عثمان الثقفي، قال: حدثنا ابن أبي سيف، قال: قال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده: لا تذكر يا بني علياً إلا بخير، فإن بني أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة، فلم يزد الله بذلك إلا رفعة، إن الدنيا لم تبني شيئاً قط إلا رجعت على ما بنيت فهدمته، وإن الدين لم يبن شيئاً قط وهدمه^(٥).

وروى عثمان بن سعيد، قال: حدثنا مطلب بن زياد، عن أبي بكر بن عبد الله الأصبهاني، قال: كان دعي لبني أمية يقال له خالد بن عبد الله، لا يزال يشتم علياً عليه السلام، فلما كان يوم الجمعة، وهو يخطب الناس، قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه ليعلم ما هوا ولكنه

(١) أخرجه الشيخ مهدي فقيه في الإمام علي في آراء الخلفاء: ١٧٢.

(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ١٤٨/٧.

(٣) أنظر الغدير للأميني: ٢٦١/١٠، والإصابة: ٢٨٧/١ رقم ٢٩٧.

(٤) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير: ٧٢/٣.

(٥) أخرجه البري في الجوهر في نسب علي: ٩٥.

كان ختنه، وقد نكس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه، ثم قال: ويحكم! ما قال هذا الخبيث! رأيت القبر انصدع ورسول الله ﷺ يقول: كذبت يا عدو الله^(١)!

وروى القنّاد، قال: حدثنا أسباط بن نصر الهمداني، عن السدي، قال: بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت، إذ أقبل راكب على بعير، فوقف فسبّ علياً عليه السلام، فخفت به الناس ينظرون إليه، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقاص، فقال: اللهم إن كان سبّ عبداً لك صالحاً، فأر المسلمين خزيه، فما لبث أن نقرّ به بعيره فسقط، فاندقت عنقه.

وروى عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن موسى، عن فطر بن خليفة، عن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة رحمها الله فقالت لي: أيسبّ رسول الله ﷺ فيكم وأنتم أحياء! قلت: وأنى يكون هذا؟ قالت: أليس يسبّ علي عليه السلام ومن يحبه^(٢)!

روى العباس بن بكار الضبي، قال: حدثني أبو بكر الهذلي، عن الزهري، قال: قال ابن عباس لمعاوية، ألا تكف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير، فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه، فقال الناس: ترك السنة.

قال: وقد روي عن ابن مسعود إمّا موقوفاً عليه أو مرفوعاً، كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير، يجري عليها الناس فيتخذونها سنة، فإذا غير منها شيء قيل: غيرت السنة^(٣)!

قال أبو جعفر: وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولاً، أو ديناً لهوى فيحملون الناس على ذلك، حتى لا يعرفوا غيره، كنعو ما أخذ الناس الحجاج بن يوسف بقراءة عثمان، وترك قراءة ابن مسعود وأبي كعب، وتوعدّ على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بني أمية وطغاة مروان بولد علي عليه السلام وشيعته، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها، لإمساك الآباء عنها، وكفّ المعلمين عن تعليمها، حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبي ما عرفوها، ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان، لآلف العادة وطول الجهالة؛ لأنه إذا استولت على الرعية الغلبة، وطالت عليهم أيام التسلط، وشاعت فيهم المخافة، وشملتهم التقية، اتفقوا على التخاذل والتساکت، فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم، وتنقص من ضمائرهم، وتنقص من

(١) أنظر تاريخ دمشق: ٣٤٨/٢٠.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ٤٤٥/١٢، رقم: ٧٠١٣، وأخرجه الطبراني في الكبير: ٣٢٣/٢٣.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٧/٣)، و«شعب الإيمان» (٦٩٥١)، ومعمر بن راشد في «جامعه» (٢٠٧٤٢)، والشاشي في «مسنده» (٦١٣).

مراثيهم، حتى تصير البذعة التي أحدثوها غامرة للسنة التي كانوا يعرفونها، ولقد كان الحجاج ومن ولاءه، كعبد الملك والوليد ومن كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أمية على إخفاء محاسن علي عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته، وإسقاط أقدارهم، أحرص منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبي؛ لأن تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم، وفساد أمرهم، وانكشاف حالهم، وفي اشتهار فضل علي عليه السلام وولده إظهار محاسنهم بوارهم، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم، فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله، وحملوا الناس على كتمانها وسترها، وأبى الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلا استنارة وإشراقاً، وحبهم إلا شغفاً وشدة، وذكرهم إلا انتشاراً وكثرة، وحبّتهم إلا وضوحاً وقوة، وفضلهم إلا ظهوراً، وشأنهم إلا علواً، وأقدارهم إلا إعظاماً، حتى أصبحوا بإهانتهم إياهم أعزاء، وبإمانتهم ذكرهم أحياء، وما أرادوا به وبهم من الشر تحول خيراً، فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه ما لم يتقدمه السابقون، ولا ساواه فيه القاصدون، ولا يلحقه الطالبون، ولولا أنها كانت كالقبلة المنصوبة في الشهرة، وكالسنن المحفوظة في الكثرة، لم يصل إلينا منها في دهرنا حرف واحد، إذا كان الأمر ما وصفناه.

قال: فأما ما احتج به الجاحظ بإمامة أبي بكر، بكونه أول الناس إسلاماً، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً، لاحتج به أبو بكر يوم السقيفة، وما رأيناه صنع ذلك لأنه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح، وقال للناس: قد رضيتم لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا منهما من شئتم، ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، ولو كان احتجاجاً صحيحاً لادعى واحد من الناس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره، بكونه سبق إلى الإسلام، وما عرفنا أحداً ادعى له ذلك، على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدة من الرجال، منهم علي بن أبي طالب، وجعفر أخوه، وزيد بن حارثة، وأبو ذر الغفاري، وعمرو بن عبسة السلمي، وخالد بن سعيد بن العاص، وخباب بن الأرت، وإذا تأملنا الروايات الصحيحة، والأسانيد القوية والثيقة، وجدناها كلها ناطقة بأن علياً عليه السلام أول من أسلم.

فأما الرواية عن ابن عباس أن أبا بكر أولهم إسلاماً فقد روي عن ابن عباس خلاف ذلك، بأكثر مما روي وأشهر، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حماد، عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى، عن أبي داود الطيالسي، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس، أنه قال: أول من صلى من الرجال علي عليه السلام (١).

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/١٩٠.

وروى الحسن البصري، قال: حدثنا عيسى بن راشد، عن أبي بصير، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: فرض الله تعالى الاستغفار لعلي عليه السلام في القرآن على كل مسلم، بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^(١)، فكل من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعلي عليه السلام.

وروى سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: السَّبَّاق ثلاثة: سبق يوشع بن نون إلى موسى، وسبق صاحب «يس» إلى عيسى، وسبق علي بن أبي طالب إلى محمد عليه وعليهم السلام^(٢).

فهذا قول ابن عباس في سبق علي عليه السلام إلى الإسلام، وهو أثبت من حديث الشعبي وأشهر، على أنه قد روي عن الشعبي خلاف ذلك من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند عن الشعبي، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «هذا أول من آمن بي وصدقني وصلى معي»^(٣).

قال: فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة في الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها، فمنها ما روى شريك بن عبد الله، عن سليمان بن المغيرة، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: أول شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ أنني قدمت مكة مع عمومة لي وناس من قومي، وكان من أنفسنا شراء عطر، فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب، فانتبهنا إليه، وهو جالس إلى زمزم، فبينا نحن عنده جلوساً، إذ أقبل رجل من باب الصفا، وعليه ثوبان أبيضان، وله وفرة إلى أنصاف أذنيه جعدة، أشم أفتى، أدعج العينين، كث اللحية، براق الشبايا، أبيض تعلوه حمرة، كأنه القمر ليلة البدر، وعلى يمينه غلام مُراهق أو محتلم، حسن الوجه، تقفوههم امرأة، قد سترت محاسنها، حتى قصدوا نحو الحجر، فاستلمه واستلمه الغلام، ثم استلمته المرأة، ثم طاف بالبيت سبعا، والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استقبل الحجر، فقام ورفع يديه وكبر، وقام الغلام إلى جانبه، وقامت المرأة خلفها، فرفعت يديها، وكبرت، فأطال القنوت، ثم ركع وركع الغلام والمرأة، ثم رفع رأسه فأطال، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع، فلما رأينا شيئاً ننكره، لا نعرفه بمكة، أقبلنا على العباس، فقلنا: يا أبا الفضل، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم، قال: أجل والله، قلنا: فمن هذا؟ قال: هذا ابن أخي، هذا محمد بن عبد الله، وهذا الغلام ابن أخي أيضاً، هذا علي بن أبي طالب،

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار بما معناه: ٨/٢٤.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١٨٤).

وهذه المرأة زوجة محمد، هذه خديجة بنت خويلد، والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين، إلا هؤلاء الثلاثة^(١).

ومن حديث موسى بن داود، عن خالد بن نافع، عن عُقَيْف بن قيس الكِنْدِيِّ، وقد رواه عن عُقَيْف أيضاً، مالك بن إسماعيل النهدي والحسن بن عَنبِسة الورّاق وإبراهيم بن محمد بن ميمونة، قالوا جميعاً: حَدَّثَنَا سَعِيد بن جُشَم، عن أسد بن عبد الله البَجَلِيِّ، عن يحيى بن عُقَيْف بن قيس، عن أبيه، قال: كنتُ في الجاهلية عطاراً، فقدمت مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينما أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شابٌ كأن في وجهه القمر، حتى رمى ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصفت قدميه يصلي، فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية، فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها، فقامت خلفهما، فاهوى الشاب راکعاً، فركعا معه، ثم اهوى إلى الأرض ساجداً، فسجدا معه، فقلت للعباس: يا أبا الفضل، أمر عظيم! فقال: أمر والله عظيم! أتدري مَنْ هذا الشاب؟ قلت: لا، قال هذا ابن أخي، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أتدري مَنْ هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، أتدري من المرأة؟ قلت: لا، قال: هذه ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى، هذه خديجة زوج محمد هذا، وإن محمداً هذا يذكر أن إلهه إله السماء والأرض، وأمره بهذا الدين، فهو عليه كما ترى، ويزعم أنه نبي، وقد صدقه على قوله علي بن عمه هذا الفتى، وزوجته خديجة، هذه المرأة، والله ما أعلم على وجه الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة: قال عُقَيْف: فقلت له: فما تقولون أنتم؟ قال: ننتظر الشيخ ما يصنع! يعني أبا طالب أخاه^(٢).

وروى عُبَيْد الله بن موسى، والفضل بن ذكين، والحسن بن عطية، قالوا: حَدَّثَنَا خالد بن طهّمان، عن نافع بن أبي نافع، عن معقل بن يسار، قال: كنت أوصي النبي ﷺ، فقال لي: هل لك أن تعود فاطمة؟ قلت: نعم يا رسول الله، فقام يمشي متوكئاً عليّ، وقال: أما إنه سيحمل ثقلها غيرك، ويكون أجرها لك، قال: فوالله كأنه لم يكن عليّ من ثقل النبي ﷺ شيء، فدخلنا على فاطمة عليها السلام، فقال لها ﷺ: «كيف تجدينك؟» قالت: لقد طال أسفي، واشتد حُزْني، وقال لي النساء: زوجك أبوك فقيراً لا مال له! فقال لها: أما ترصنين أني زوجتك أقدم أمي سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حِلماً! قالت: بلى رَضِيت يا رسول الله^(٣).

(١) أخرجه مولى محمد صالح في شرح أصول الكافي: ٣٧٦/٦.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم: ٨٣٩٤.

(٣) أخرجه السيد جعفر مرتضى في الصحيح من السيرة: ٢٨١/٥.

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد وعبد السلام بن صالح، عن قيس بن الربيع، عن أبي أيوب الأنصاري، بالفاظه أو نحوها.

وروى عبد السلام بن صالح، عن إسحاق الأزرق، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، أن رسول الله ﷺ لما زوج فاطمة، دخل النساء عليها، فقلن: يا بنت رسول الله، خطبك فلان وفلان، فردهم عنك، وزوجك فقيراً لا مال له، فلما دخل عليها أبوها ﷺ رأى ذلك في وجهها، فسألها فذكرت له ذلك، فقال: يا فاطمة، إن الله أمرني فأنكحتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم جُلماً، وما زوجتك إلا بأمر من السماء، أما علمت أنه أخي في الدنيا والآخرة^(١)!

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظهير، عن السدي، أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة عليها السلام، فردهما رسول الله ﷺ، وقال: لم أومر بذلك، فخطبها علي عليه السلام، فزوجه إياها، وقال لها: زوجتك أقدم الأمة إسلاماً. وذكر تمام الحديث. قال: وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة، منهم أسماء بنت عميس، وأم أيمن، وابن عباس وجابر بن عبد الله.

قال: وقد روى محمد بن عبد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جده أبي رافع، قال: أتيت أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أراد الانصراف، قال لي ولأناس معي: ستكون فتنة، فاتقوا الله، وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فاتبعوه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «أنت أول من آمن بي، وأول من يضافحني يوم القيامة، وأنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين، وأنت أخي ووزير، وخير من أترك بعدي، تقضي ديني وتنجز موعدي»^(٢).

قال: وقد روى ابن أبي شيبه، عن عبد الله بن نمير، عن العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، قال: سمعت علي بن أبي طالب، يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها غيري إلا كذاب، ولقد صليت قبل الناس سبع سنين^(٣).

وروت معاذة بنت عبد الله العدوية، قالت: سمعت علياً عليه السلام، يخطب على منبر البصرة، ويقول: أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم^(٤).

وروى حبة بن جوين العرنبي أنه سمع علياً عليه السلام، يقول: أنا أول رجل أسلم مع

(١) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ١٤٩/٤٣.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٣٣٥/٣١.

(٣) أخرجه السيد محمد باقر الصدر في فلك في التاريخ: ١٠٧.

(٤) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٣٧٠/٧.

رسول الله ﷺ . رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن حبة بن جوين^(١).

وروى عثمان بن سعيد الخزاز، عن علي بن حرار، عن علي بن عامر، عن أبي الحجاج، عن حكيم مولى زاذان، قال: سمعت علياً ﷺ، يقول: صليت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: أمرت به^(٢).

وروى إسماعيل بن عمرو، عن قيس بن الربيع، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله، قال: صلى رسول الله ﷺ يوم الإثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء بعده. وفي الرواية الأخرى، عن أنس بن مالك: استنبي النبي ﷺ يوم الإثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء بعده^(٣).

وروى أبو رافع أن رسول الله ﷺ صلى أول صلاة صلاها غداة الإثنين، وصلت خديجة آخر نهار يومها ذلك، وصلى علي ﷺ يوم الثلاثاء غداً ذلك اليوم^(٤).

قال: وقد روي بروايات مختلفة كثيرة متعددة، عن زيد بن أرقم، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، أن علياً ﷺ: أول من أسلم، وذكر الروايات والرجال بأسمائهم^(٥).

وروى سلمة بن كهيل، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر في الكتاب أن رسول الله ﷺ قال: «أولكم وروداً علي الحوض أولكم إسلاماً، علي بن أبي طالب»^(٦).

وروى ياسين بن محمد بن أيمن، عن أبي حازم، مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: سمعتُ عمر بن الخطاب وهو يقول: كفوا عن علي بن أبي طالب، فإنني سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول فيه خصالاً، لو أن خصلة منها في جميع آل الخطاب، كان أحب لي مما طلعت عليه الشمس، كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة مع نفي من أصحاب رسول الله ﷺ نطلبه، فأنتهينا إلى باب أم سلمة، فوجدنا علياً متكئاً على نجاف

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢٢١/٣، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه: ٢٣٣/٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١٢٠، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم: ٢١.

(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢٢٤/٣.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير رقم: ٩٥٢، وأخرجه الطبري في تاريخه: ٥٥/٢.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢٥/٣٨.

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٩١/٤).

الباب، فقلنا: أردنا رسول الله ﷺ، فقال: هو في البيت، رويدكم! فخرج رسول الله ﷺ، فقال: هو في البيت، رويدكم! فخرج رسول الله ﷺ فسيرنا حوله، فأتكأ على علي عليه السلام، وضرب يده على منكبه، فقال: أبشريا علي بن أبي طالب، إنك مخاصم، وأنتك تخصم الناس بسبع لا يجاريك أحد في واحدة منهم، أنت أول الناس إسلاماً، وأعلمهم بأيام الله...^(١) وذكر الحديث.

قال: وقد روى أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ مثل هذا الحديث.

قال: روى أبو أيوب الأنصاري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد صلت الملائكة علي وعلى علي عليه السلام، سبع سنين»^(٢)، وذلك أنه لم يصل معي رجل فيها غيره.

قال أبو جعفر: فأما ما رواه الجاحظ من قوله ﷺ: «إنما تبعني حرّ وهبد»، فإنه لم يسم في هذا الحديث أبا بكر وبلالاً، وكيف وأبو بكر لم يشتر بلالاً إلا بعد ظهور الإسلام بمكة، فلما أظهر بلال إسلامه عذبه أمية بن خلف! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله ﷺ الدعوة، ولا في ابتداء أمر الإسلام، وقد قيل: إنه عليه السلام إنما عني بالحرّ علي بن أبي طالب، وبالعبد زيد بن حارثة^(٣).

وروى ذلك محمد بن إسحاق، قال: وقد روي إسماعيل بن نصر الصفار، عن محمد بن ذكوان، عن الشعبي، قال: قال الحجاج للحسن، وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب: ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول! هو أول من صلى إلى القبلة، وأجاب دعوة رسول الله ﷺ، وإنّ لعلي منزلة من ربه، وقربة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردها أحد. فغضب الحجاج غضباً شديداً، وقام عن سريره، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا^(٤).

قال الشعبي: وكنا جماعة ما منا إلا من نال من علي عليه السلام مقاربة للحجاج، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله.

وروى مُخْرِز بن هشام، عن إبراهيم بن سلمة، عن محمد بن عبيد الله، قال: قال رجل للحسن: ما لنا لا نراك تُثنى على علي وتقرّظه! قال: كيف وسيف الحجاج يقطر دماً! إنه لأول من أسلم، وحسبكم بذلك!

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/١١٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٧٩).

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٣١).

(٣) أنظر تاريخ دمشق: ٢٠٩/٧.

(٤) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢٣٤/٣.

قال: فهذه الأخبار.

وأما الأشعار المروية فمعروفة كثيرة منتشرة، فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيباً للوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط:

وإنَّ وليَّ الأمر بعد محمدٍ عليّ وفي كلِّ مواطنٍ صاحبُهُ
وصيُّ رسول الله حقًّا وصنُّوه وأوَّل مَنْ صَلَّى وَمَنْ لَانَ جَانِبُهُ
وقال خزيمة بن ثابت في هذا:

وصيُّ رسول الله مِنْ دُونِ أَهْلِهِ وفارمُهُ مُذْ كَانَ فِي سَالِفِ الزَّمَنِ
وأوَّل مَنْ صَلَّى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ سوى خيرة النَّسْوَانِ والله ذو مَنَنِ
وقال أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، حين بويع أبو بكر:

ما كنت أحسب أنَّ الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حَسَنِ
أليس أوَّل مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِهِمْ وأعلم النَّاسَ بِالْأَحْكَامِ وَالسُّنَنِ
وقال أبو الأسود الدؤلي يهتد طلحة والزبير:

وإنَّ عليًّا لكم مُضْجِرٌ بِمِثْلِهِ الْأَسَدُ الْأَسْوَدُ
أما إنه أوَّلُ الْعَابِدِينَ بِمِثْلِهِ وَالله لَا يَعْبُدُ
وقال سعيد بن قيس الهمداني يرتجز بصفين:

هذا عليٌّ وابنُ عمِّ المصطفى. أوَّل مَنْ أَجَابَهُ فِيمَا رَوَى
هو الإمام لا يبالِي مَنْ غَوَى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي:

فحُوطُوا عليًّا وانصروه فإنَّه وصيُّ وفي الإسلام أوَّلُ أوَّلٍ
وإنَّ تخذلوه والحوادث جَمَّةٌ فليس لكم عن أرضكم منحولٌ

قال: والأشعار كالأخبار، إذا امتنع في مجيء القبيلين التواطؤ والاتفاق، كان ورودهما حجة.

فأما قول الجاحظ: فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معاً، فقد أبطل بهذا ما احتج به لإمامة أبي بكر، لأنه احتج بالسُّبْق، وقد عدل الآن عنه.

قال أبو جعفر: ويقال لهم: لسنا نحتاج من ذكر سبق علي عليه السلام إلا مجامعتكم إيانا على أنه أسلم قبل الناس، ودعواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة لا بحجة.

فإن قلتم: ودعوتكم أنه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجة!

قلنا: قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم، ولو كان طفلاً لكان في الحقيقة غير مسلم، لأن اسم

الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين، وإذا أطلقتم وأطلقنا اسم الإسلام، فالأصل في الإطلاق الحقيقة، كيف وقد قال النبي ﷺ، «أنت أول من آمن بي، وأنت أول من صدقني»^(١). وقال لفاطمة: «زوجتك أقدمهم سلماً - أو قال: إسلاماً -»^(٢) فإن قالوا: إنما دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام على جهة العرض لا التكليف.

قلنا: قد وافقتمونا على الدعاء، وحكم الدعاء حكم الأمر والتكليف. ثم ادعيتم أن ذلك كان على وجه العرض، وليس لكم أن تقبلوا الدعاء عن وجهه إلا لحجة.

فإن قالوا: لعله كان على وجه التأديب والتعليم، كما يعتمد مثل ذلك مع الأطفال!

قلنا: إن ذلك إنما يكون إذا تمكن الإسلام بأهله، أو عند النشوء عليه والولادة فيه، فأما في دار الشرك فلا يقع مثل ذلك، لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم، على أنه ليس من سنة النبي ﷺ دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم، قبل أن يبلغوا الحلم.

وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله وتقليد أبيه، والمضي على من منشئه ومولده، وقد كانت منزلة النبي ﷺ حينئذ منزلة ضيق وشدة ووحدة، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلا من ثبت الإسلام عنده بحجة، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة.

فإن قالوا: إن علياً عليه السلام كان يألف النبي ﷺ، فوافقه على طريق المساعدة له.

قلنا: إنه وإن كان يألفه أكثر من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته، ولم يكن الإلف ليخرجه عما نشأ عليه، ولم يكن الإسلام مما غُذِيَ به وكرر على سمعه، لأن الإسلام هو خلق الأنداد والبراءة ممن أشرك بالله، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل.

ومن العجيب قول العباس لعفيف بن قيس: ننتظر الشيخ وما يصنع! فإذا كان العباس وحمزة ينتظران أبا طالب، ويصدران عن رأيه، فكيف يخالفه ابنه، ويؤثر القلة على الكثرة، ويفارق المحبوب إلى المكروه، والعز إلى الذل، والأمن إلى الخوف، عن غير معرفة ولا علم بما فيه!

فأما قوله: إن المقلل يزعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين، والمكثير يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين، فأول ما يقال في ذلك: إن الأخبار جاءت في سنة علي عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه في قسمين:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

القسم الأول: الذين قالوا: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، حدثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسدي، عن إسحاق بن بشر القرشي، عن الأوزاعي، عن حمزة بن حبيب، عن شذاد بن أوس، قال: سألت خباب بن الارت عن إسلام علي، فقال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، ولقد رأيته يصلي قبل الناس مع النبي ﷺ وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، أن أول من أسلم علي بن أبي طالب، وهو ابن خمس عشرة سنة.

القسم الثاني: الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة، رواه أبو قتادة الحراني، عن أبي حازم الأعرج، عن حذيفة بن اليمان، قال: كنا نبعد الحجارة، ونشرب الخمر وعلي من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلي مع النبي ﷺ ليلاً ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه رسول الله ﷺ، ما يذبت عنه إلا علي ﷺ. وروى ابن أبي شيبه عن جرير بن عبد الحميد، قال: أسلم علي وهو ابن أربع عشرة سنة^(١).

القسم الثالث: الذين قالوا: أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة، رواه إسماعيل بن عبد الله الرقي، عن محمد بن عمر، عن عبد الله بن سمعان، عن جعفر بن محمد ﷺ، عن أبيه عن محمد بن علي ﷺ، أن علياً حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة. وروى عبد الله بن زياد المدني، عن محمد بن علي الباقي ﷺ، قال: أول من آمن بالله علي بن أبي طالب، وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة^(٢).

القسم الرابع: الذين قالوا: إنه أسلم وهو ابن عشر سنين. رواه نوح بن دراج، عن محمد بن إسحاق، قال: أول ذكر آمن وصدق بالنبوة علي بن أبي طالب ﷺ، وهو ابن عشر سنين، ثم أسلم زيد بن حارثة، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ست وثلاثين سنة فيما بلغنا^(٣).

القسم الخامس: الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن تسع سنين، رواه الحسن بن عتبة الوراق، عن سليم مولى الشعبي، قال: أول من أسلم من الرجال علي بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين، وكان له يوم قبض رسول الله ﷺ تسع وعشرون سنة^(٤).

قال شيخنا أبو جعفر: فهذه الأخبار كما تراها، فلما أن يكون الجاحظ جهلها، أو قصد العناد.

(١) أخرجه الشيه الأميني في الغدير: ٢٢٨/٣.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار بما معناه: ٤٩٧/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه بما معناه: ٦٠/٢.

(٤) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢٣٣/٣.

فأما قوله: «فالقياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الروايتين»، فنقول: إنه أسلم وهو ابن سبع سنين. فإن هذا تحكّم منه، ويلزمه مثله في رجل ادّعى قبل رجل عشرة دراهم، فأنكر ذلك وقال: إنما يستحقّ قبلي أربعة دراهم، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم، ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم: كان كافراً، وقال قوم: كان إماماً عادلاً أن نقول: عدل الأقبول أوسطها وهو منزلة بين المنزلتين، فنقول: كان فاسقاً ظالماً، وكذلك في جميع الأمور المختلف فيها.

فأما قوله: وإنما يُعرف حقّ ذلك من باطله، بأن نحصى سني ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسني الهجرة، ومقام النبي ﷺ بمكة بعد الرسالة إلى أن هاجر، فيقال له: لو كانت الروايات متفقة على هذه التواريخ، لكان لهذا القول مساع، ولكن الناس قد اختلفوا في ذلك، فقيل: إن رسول الله ﷺ أقام بمكة بعد الرسالة خمس عشرة سنة، رواه ابن عباس، وقيل ثلاث عشرة سنة، وروي عن ابن عباس أيضاً، وأكثر الناس يروونه. وقيل عشر سنين، رواه عروة بن الزبير، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن المسيّب. واختلفوا في سنّ رسول الله ﷺ، فقال، قوم: كان ابن خمس وستين، وقيل كان ابن ثلاث وستين، وقيل: كان ابن ستين. واختلفوا في سنّ عليّ عليه السلام، فقيل: كان ابن سبع وستين، وقيل: كان ابن خمس وستين. وقيل ابن ثلاث وستين، وقيل: ابن ستين، وقيل ابن تسع وخمسين.

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذه الحال! وإنما الواجب أن يرجع إلى إطلاق قولهم: أسلم عليّ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقاً إلا على البالغ، كما لا يطلق اسم الكافر إلا على البالغ، على أن ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً، ويولد له الأولاد، فقد روت الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله إلا باثنتي عشرة سنة، وهذا يوجب أنه احتلم وبلغ من أقلّ من إحدى عشرة سنة.

وروي أيضاً أن محمد بن عبد الله بن العباس، كان أصغر من أبيه عليّ بن عبد الله بن العباس بإحدى عشرة سنة، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله ﷺ غير مسلم على الحقيقة، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام، لأنه كما يومئذ ابن عشر سنين. رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين.

قال الجاحظ: فإن قالوا: فلعله وهو ابن سبع سنين أو ثماني سنين، قد بلغ من فطنته وذكائه وصحة لُبّه وصدق خُدسه وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرّب الأمور، ولا فاتح الرجال، ولا نازع الخصوم، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به!

قيل لهم: إنما نتكلم على ظواهر الأحوال، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال، فإننا وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثمان - ما لم يعلم باطن أمره وخاصّة طبعه - حكم الأطفال، وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه والذي نعرف من حال أفناء جنسه بلعلّ وعسى، لانا وإن كنّا لا ندري، لعلّه قد كان ذا فضيلة في الفطنة فلعلّه قد كان ذا نقص فيها!

هذا على تجويز أن يكون عليّ عليه السلام في الغيب قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلام البالغ، غير أن الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الذين أسلموا وهم في مثل سنّه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن، وتلقين القيم، ورياضة السائس.

فأما عند التحقيق، فإنّه لا تجويز لمثل ذلك، لأنه لو كان أسلم، وهو ابن سبع أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرق ما بين الرسل والسحرة، وفرق ما بين خبر النبي والمنجم، وحتى عرف كيد الأريب، وموضع الحجة، وبعد غور المتنبي، كيف يلبس على العقلاء، وتستمال عقول الدفماء، وعرف الممكن في الطبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاق ممّا يحدث بالأسباب، وعرف قدر القوى وغاية الحيلة ومنتهى التّمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلا الخالق سبحانه، وما يجوز على الله في حكمته ممّا لا يجوز، وكيف التحفظ من الهوى والاحتراس من الخداع، لكان كونه على هذه الحال وهذه مع فرط الصّبا والحدّاث وقلة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف ممّا عليه تركيب هذه الخلقة، وليس يصل أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبئ، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها، والأسباب التي وصفناها وفصلناها، ولو كان عليّ عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجة على العامة، وآية تدلّ على النبوة، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يحتجّ بها، ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد وحجة على الغائب. ولولا أن الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنّه أتاه الحكم مصيياً، وأنه أنطق عيسى في المهد ما كانا في الحكم ولا في المغيب، إلا كسائر الرسل، وما عليه جميع البشر. فإذا لم ينطق لعليّ عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبر به مجيء الحجة القاطعة والمشاهدة القائمة، فالمعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطباع عمّيه حمزة والعباس، وهما أمسّ بمعدن جماع الخير منه، أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه، وسادة رهطه. ولو أن إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعّميه حمزة والعباس، ما كان عندنا في أمره إلا مثل ما عندنا فيه.

أجاب شيخنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلّه مبنيّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بيّنا أن أسلم بالغاً ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة، على أنّا لو نزلنا على حكم الخصوم، وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية، وهو أنّه أسلم وهو ابن عشر

لم يلزم ما قاله الجاحظ، لأن ابن عشر قد يستجمع عقله، ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيراً من الأمور المعقولة، ومتى كان الصبي عاقلاً مميزاً كان مكلفاً بالعقلية، وإن كان تكليفه بالشرعيات موقوفاً على حد آخر وغاية أخرى، فليس بمنكر أن يكون عليّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة، فلزمه الإقرار بالنبوة، وأسلم إسلام عالم عارف، لا إسلام مقلد تابع، وإن كان ما نسقه الجاحظ وعدّه من معرفة السحر والتجوم والفصل بينهما وبين النبوة، ومعرفة ما يجوز في الحكمة ممّا لا يجوز، وما لا يحدثه إلا الخالق، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقُدرة، ومعرفة التمويه والخديعة، والتليس والمماكرة، شرطاً في صحة الإسلام لما صحّ إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب، وإنما التكليف لهؤلاء بالجمال ومبادئ المعارف لا بدقائيقها والغامض منها، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخصوم، وإنما يفتقر إلى صحة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة، ألا ترى أن طفلاً لو نشأ في دار لم يعاشر الناس بها، ولا فاتح الرجال، ولا نازع الخصوم، ثم كمل عقله، وحصلت العلوم البديهة عنده، لكان مكلفاً بالعقلية!

فأما توقّعه أن علياً عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن، وتلقين القيم، ورياضة السائنس، فلمعري إن محمداً عليه السلام كان حاضنه وقيمه وسائسه، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبي طالب، ولا عن إخوته طالب وعقيل وجعفر، ولا عن عمومته وأهل بيته، وما زال مخالطاً لهم، ممتزجاً بهم، مع خدمته لمحمد عليه السلام، فما باله لم يميل إلى الشرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله، وهم كثير ومحمد عليه السلام واحد! وأنت تعلم أن الصبي إذا كان له أهل ذوو كثرة، وفيهم واحد يذهب إلى رأي مفرد، لا يوافقّه عليه غيره منهم، فإنه إلى ذوي الكثرة أميل، وعن ذي الرأي الشاذ المنفرد أبعد، وعلى أن علياً عليه السلام لم يولد في دار الإسلام، وإنما ولد في دار الشرك ورؤي بين المشركين، وشاهد الأصنام، وعابن بعينه أهله ورهطه يعبدونها، فلو كان في دار الإسلام لكان في القول مجالاً، ولقيل إنه ولد بين المسلمين، فإسلامه عن تلقين الظن وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيره، ولا خطر بباله سواه، فلما لم يكن ولد كذلك، ثبت أن إسلامه الإسلام المميز العارف بما دخل عليه. ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزيجه بقوله لها: زوجتك أقدمهم سلماً، ولا قرن إلى قوله: «وأكثرهم علماً، وأعظمهم حِلماً»، والحلم العقل، وهذان الأمران غاية الفضل، فلولا أنه أسلم إسلام عارف عالم مميز لما ضمّ إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بهما! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مثاباً عليه، ولا معاقباً به لو تركه، ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لما افتخر هو صلى الله عليه وآله به على رؤوس الأشهاد، ولا خطب على المنبر، وهو بين عدو ومحارب، وخاذل منافق، فقال: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق

الأكبر والفاروق الأعظم، صليت قبل الناس سبع سنين، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر، وآمنت قبل إيمانه! فهل بلغكم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو ادعاه لغيره، أو قال له: إنما كنت طفلاً أسلمت على تربية محمد ﷺ ذلك، وتلقينه إياك، كما يُعلّم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً! فلا فخر له في تعلم ذلك، وخصوصاً في عصر قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهران، وقد اعتورته الأعداء وهجته الشعراء، فقال فيه النعمان بن بشير:

لَقَدْ طَلَبَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعِيدٍ وَسَارَعَ فِي الضَّلَالِ أَبُو ثَرَابٍ
مَعَاوِيَةَ الْإِمَامُ وَأَنْتَ مِنْهَا عَلَى وَتَحٍ^(١) بِمَنْقَطَعِ السَّرَابِ
وَقَالَ فِيهِ أَيْضاً بَعْضُ الْخَوَارِجِ:

دَسَسْنَا لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ ابْنَ مُلْجَمٍ جِزَاءَ إِذَا مَا جَاءَ نَفْساً كِتَابُهَا
أَبَا حَسَنٍ خَذَهَا عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً بَكَفٍ كَرِيمٍ، بَعْدَ مَوْتِ ثَوَابُهَا
وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ يَمْدَحُ قَاتِلَهُ:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَاناً
إِنِّي لَا ذُكْرُهُ حِيناً فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَاناً

فلو وجد هؤلاء سبيلاً إلى دُخْضِ حِجَّةٍ فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه، لبدأوا بذلك، وتركوا ما لا معنى له.

وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الإسلام، فكيف لم يُردّ على هؤلاء الذين مدّحوه بالسبق شاعرٌ واحد من أهل حزبه! ولقد قال في أمّهات الأولاد قولاً خالف فيه عمر، فذكروه بذلك وعابوه، فكيف تركوا أن يعيروه بما كان يفتخر به ممّا لا فخر فيه عندهم، وعابوه بقوله في أمّهات الأولاد.

ثم يقال له: خَبَرْنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ - وَقَدْ أَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَلَمْ يَجْزِهِ يَوْمَ أُحُدٍ - هَلْ كَانَ يُمَيِّزُ مَا ذَكَرْتَهُ؟ وَهَلْ كَانَ يَعْلَمُ فَرْقَ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّي، وَيَفْصِلُ بَيْنَ السَّحَرِ وَالْمُعْجِزَةِ، إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا عَدَدْتَ وَفَصَّلْتَ!

فإن قال: نعم، وتجاسر على ذلك، قيل له: فعليّ عليه السلام بذلك أولى من ابن عمر، لأنّه أذكى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء، وأنى يُشكّ في ذلك، وقد رويتم أنّه لم يميّز بين الميزان والعود بعد طول السن، وكثرة التجارب، ولم يميّز أيضاً بين إمام الرشد وإمام الغي، فإنه امتنع من بيعة عليّ عليه السلام. وطرق على الحجاج بابه ليلاً ليبيع لعبد الملك، كيلاً يبيت تلك الليلة بلا

(١) الوتح: القليل النافه من الشيء. القاموس، مادة (وتح).

إمام، زعم. لأنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية»^(١)، وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترذاله حاله، أن أخرج رجله من الفراش، فقال: أصفق بيدك عليها، فذلك تمييزه بين الميزان والعود، وهذا اختياره في الأئمة، وحال عليّ عليه السلام في ذكائه وفطنته، وتوقّد حسّه، وصدق حدسه، معلومة مشهورة، فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التي سردها الجاحظ ونسّقها، وأظهر فصاحته وتشدّدقّه فيها، فعليّ بمعرفة ذلك أحقّ، وبصحة إسلامه أولى.

وإن قال: لم يكن ابن عمر يعلم ويعرف ذلك، فقد أبطل إسلامه، وطعن في رسول الله ﷺ حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق، لأنه ﷺ كان قال: «لا أجزى إلاّ البالغ العاقل»، ولذلك لم يجزه يوم أحد.

ثم يقال له: إنّ ما نقوله في بلوغ عليّ عليه السلام الحد الذي يحسن فيه التكليف العقليّ بل يجب - وهو ابن عشر سنين - ليس بأعجب من مجيء الولد لسنة أشهر، وقد صنّح ذلك أهل العلم، واستنبطوه من الكتاب، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة. وكذلك مجيء الولد لسنتين خارج أيضاً عن التعارف والعادة، وقد صحّحه الفقهاء والناس.

ويروى أن معاذاً لما نهى عمر عن رجم الحامل تركها حتى ولدت غلاماً قد نبتت ثنيتاه، فقال أبوه: ابني وربّ الكعبة! فثبت ذلك سنةً يعمل بها الفقهاء، وقد وجدنا العادة تقضي بأنّ الجارية تحيض لاثنتي عشرة سنة، وأنه أقلّ سنّ تحيض فيه المرأة، وقد يكون في الأقلّ نساء يحضن لعشر ولتسع، وقد ذكر ذلك الفقهاء، وقد قال الشافعيّ في اللعان: لو جاءت المرأة بحمل وزوجها صبيّ له دون عشر سنين، لم يكن ولداً له، لأنّ من لم يبلغ عشر سنين من الصّبيان لا يولد له، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له، وكان بينهما إلعان إذا لم يقرّ به.

وقال الفقهاء أيضاً: إن نساء تهامة يحضن لتسع سنين، لشدة الحرّ ببلادهنّ.

قال الجاحظ: ولو لم يعرف باطل هذه الدّعوى من أثر التقوى، وتحفّظ من الهوى، إلا بترك عليّ عليه السلام ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على خصمه، وقد نازع الرجال وناوى الأكفاء، وجامع أهل الشورى، لكان كافياً، ومتى لم تصحّ لعليّ عليه السلام هذه الدّعوى في أيامه، ولم يذكرها أهل عصره، فهي عن ولده أعجز، ومنهم أضعف!

ولم يُنقل أنّ عليّاً عليه السلام احتجّ بذلك في موقف، ولا ذكره في مجلس، ولا قام به خطيباً،

(١) أخرجه الأميني في الغدير: ٣٦٠ / ١٠.

ولا أدلى به واثقاً، لا سيما وقد رضيَ الرسول ﷺ عندكم مفزَعاً ومعلّماً، وجعله للناس إماماً. ولا ادعى له أحد ذلك في عصره، كما لم يدّعه لنفسه، حتى يقول إنسان واحد: الدليل على إمامته أن النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام أو كلفه التصديق قبل بلوغه، ليكون ذلك آية للناس في عصره، وحقّة له ولوده من بعده، فهذا كان أشدّ على طلحة والزبير وعائشة من كل ما ادّعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إن مثل الجاحظ مع فضله وعلمه، لا يخفى عليه كذب هذه الدّعوى وفسادها، ولكنه يقول ما يقوله تعصّباً وعناداً، وقد روى الناس كافة، افتخاراً، علي عليه السلام بالسّبق إلى الإسلام، وأن النبي ﷺ استنّبى يوم الإثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء، وأنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين، وأنه ما زال يقول: أنا أوّل من أسلم، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته. والأمر في ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدّمنا منه طرفاً، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخفت بإسلام علي عليه السلام، ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدّث غريب، وطفل صغير، ومن العجّب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله، ليُصدّرا عن رأيه، ثم يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة، يؤثر القلّة على الكثرة، والدّلّ على العزّة، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة. وكيف ينكر الجاحظ والعثمانيّة أن رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام وكلفه التصديق!

وقد روي في الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاماً، وأن يدعو له بني عبد المطلب، فصنع له الطعام، ودعاهم له، فخرجوا ذلك اليوم، ولم ينذرهم صلى الله عليه وآله لكلمة قالها عمّه أبو لهب، فكلفه في اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام، وأن يدعوهم ثانية، فصنعه، ودعاهم فأكلوا، ثم كلمهم ﷺ فدعاهم إلى الدين، ودعاه معهم لأنه من بني عبد المطلب، ثم ضمّن لمن يؤازره منهم وينصره على قوله، أن يجعله أخاه في الدين، ووصيه بعد موته، وخليفته من بعده، فامسكوا كلّهم وأجابوه هو وحده، وقال: أنا أنصرك على ما جئت به، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لما رأى منهم الخذلان، ومنه النصر، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة، وعانين منهم الإباء ومنه الإجابة: هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي^(١)، فقاموا يسخرون ويضحكون، ويقولون لأبي طالب: أطع ابنك، فقد أمره عليك، فهل يكلف عمل الطعام ودعاء القوم صغير مميّز وغير عاقل! وهل يؤتمن على سرّ النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع! وهل يُدعى

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٥٤٣)، وذكره في «كتر العمال» (٣٦٣٧١) ونسبه للطبري.

في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب! وهل يضع رسول الله ﷺ يده في يده، ويعطيه صفة يمينه، بالإخوة والوصية والخلافة إلا وهو أهل لذلك، بالغ حد التكليف، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه! وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه، ولم يلصق بأشكاله، ولم ير مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، وهو كأحدهم في طبقة، كبعضهم في معرفته!

وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته، فيقال: دعاه داعي الضبا وخاطر من خواطر الدنيا، وحملته الغيرة والحدثة على حضور لهوهم والدخول في حالهم، بل ما رأيناه إلا ماضياً على إسلامه، مصمماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدق إسلامه بعفاهه وزهده، ولصق برسول الله ﷺ من بين جميع من حضرته، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته، وقد قهر شهوته، وجاذب خواطره، صابراً على ذلك نفسه، لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة، وقد ذكر هو ﷺ في كلامه وخطبه بدء حاله، وافتتاح أمره، حيث أسلم لما دعا رسول الله ﷺ الشجرة، فأقبلت تخذ^(١) الأرض^(٢)، فقالت قريش: ساحر خفيف السحرا فقال عليّ عليه السلام: يا رسول الله، أنا أول من يؤمن بك، آمنت بالله ورسوله وصدقتك فيما جئت به، وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تصديقاً لنبوتك، وبرهاناً على صحة دعوتك^(٣)، فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الإيمان وأوثق عُقدة، وأحكم مِرّة! ولكن خنق العثمانية وغيظهم، وعصية الجاحظ وانحرافه مما لا حيلة فيه. ثم لينظر المنصف وليدع الهوى جانباً، ليعلم نعمة الله على عليّ عليه السلام حيث أسلم على الوضع الذي أسلم عليه، فإنه لولا الألفاف التي خص بها، والهداية التي منحها، لما كان إلا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وآله وأهله، فقد كان ممازجاً له كتمازجته، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه، ولم يستجب منهم أحد له إلا بعد حين. ومنهم من لم يستجب له أصلاً، فإن جعفرأ ﷺ كان ملتصقاً به، ولم يُسلم حينئذ، وكان عتبة بن أبي لهب ابن عمه وصهره زوج ابنته ولم يصدقه، بل كان شديداً عليه، وكان لخديجة بنون من غيره، ولم يسلموا حينئذ، وهم ربائبه ومعه في دار واحدة. وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصره، والمحامي عنه، ومن لولاه لم تقم له قائمة، ومع ذلك لم يُسلم في أغلب الروايات، وكان العباس عمه وصنو أبيه، وكالقرين له في الولادة والمنشأ والتربية، ولم يستجب له إلا بعد حين طويل، وكان أبو لهب عمه، وكدمه ولحمه، ولم يسلم، وكان شديداً عليه، فكيف ينسب إسلام عليّ عليه السلام إلى الإلف والتربية

(١) تخذ: تشق. اللسان، مادة (خدد).

(٢) أخرج نحوه الدارمي في كتاب: المقدمة، باب: ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به (١٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٠٥).

(٣) أخرجه الأмини في الغدير: ٢٨٧/٢.

والقراية واللحمة والتلقين والحضانة، والدار الجامعة، وطول العشرة والأنس والخلوة! وقد كان كل ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم، ولم يهتد أحد منهم إذ ذاك، بل كانوا بين من جحد وكفر ومات على كفره، ومن أبطأ وتأخر، وسبق بالإسلام وجاء سُكَيْتًا^(١)، وقد فاز بالمنزلة غيره.

وهل يدل تأمل حال علي عليه السلام مع الإنصاف إلا على أنه أسلم، لأنه شاهد الأعلام، ورأى المعجزات، وشتم ريح النبوة، ورأى نور الرسالة، وثبت اليقين في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح، لا بتقليد ولا حمية، ولا رغبة ولا رهبة، إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة.

قال الجاحظ: فلو أن علياً عليه السلام كان بالغاً حيث أسلم، لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخباب بن الأرت أفضل من إسلامه، لأن إسلام المقتضب الذي لم يعتد به ولم يعود، ولم يمرن عليه، أفضل من إسلام الناشئ الذي ربي فيه، ونشأ وحبب إليه، وذلك لأن صاحب التربية يبلغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الروية والخاطر، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس، وزيد وخباب وأبو بكر يعانون من كلفة النظر ومؤنة التأمل ومشقة الانتقال من الدين الذي قد طال الفهم له ما هو غير خاف. ولو كان علي حيث أسلم بالغاً مقتضياً كغيره ممن عدنا، كان إسلامهم أفضل من إسلامه، لأن من أسلم وهو يعلم أن له ظهراً كأبي طالب، وردءاً كبني هاشم، وموضعاً في بني عبد المطلب، ليس كالحليف والمولى، والتابع والعيسف^(٢)، وكالرجل من عرض قريش. أولست تعلم أن قريشاً خاصة وأهل مكة عامة لم يقدروا على أذى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ما كان أبو طالب حياً! وأيضاً فإن أولئك اجتمع مع فراق الإلف ومشقة الخواطر، وعلي عليه السلام كان بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يشاهد الأعلام في كل وقت، ويحضر منزل الوحي، فالبراهين له أشد انكشافاً، والخواطر على قلبه أقل اعتلاجاً، وعلى قدر الكلفة والمشقة يعظم الفضل ويكثر الأجر.

قال أبو جعفر رحمه الله: ينبغي أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفضل، ويقفوا على قول الجاحظ والأصم في نصرة العثمانية واجتهادهما في القصد إلى فضائل هذا الرجل، وتهجينها، فمرة يبطلان معناها، ومرة يتوصلان إلى حظ قدرها، فلينظر في كل باب اعتراضاً فيه، أين بلغت

(١) السُكَيْت: الذي يجيء في آخر الحلبة، اللسان، مادة (سكت).

(٢) العيسف: الأجبر، والعبد المستعان به. القاموس، مادة (عسف).

حيلتهما، وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجعهما! أليس إذا تأملتها علمت أنها الفاظ ملفقة بلا معنى، وأنها عليها شجى وبلاء! وإلا فما عسى أن تبلغ حيلة الحاسد ويغني كيد الكائد الشانيء لمن قد جلّ قدره عن النقص، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس! وأين قول الجاحظ، من دلائل السماء، وبراہین الأنبياء، وقد علم الصغير والكبير، والعالم والجاهل، ممن بلغه ذكرُ عليٍّ عليه السلام، وعلم مبعث النبي ﷺ أن علياً عليه السلام لم يولد في دار الإسلام، ولا عُذّي في حجر الإيمان، وإنما استضافه رسول الله ﷺ إلى نفسه سنة القحط والمجاعة، وعمره يومئذ ثمانين سنين، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرائيل بالرسالة، فدعاه وهو بالغ كامل العقل إلى الإسلام، فأسلم بعد مشاهدة المعجزة، وبعد إعمال النظر والفكرة، وإن كان قد ورد في كلامه أنه صلى سبع سنين قبل الناس كلهم، فإنما يعني ما بين الثمان والخمس عشرة، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة، ولا ادعاء نبوة، وإنما كان رسول الله ﷺ يتعبد على ملة إبراهيم ودين الحنيفية، ويتحنث^(١)، ويجانب الناس، ويعتزل ويطلب الخلوة، وينقطع في جبل حراء، وكان عليٌّ عليه السلام معه كالتابع والتلميذ، فلما بلغ الحلم، وجاءت النبي ﷺ الملائكة، وبشّرت بالرسالة، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة، فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضياً!

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في الفضيلة لما كان يمرن عليه من التعبد مع رسول الله ﷺ قبل الدعوة، لتكون طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله ﷺ وأمثاله من المعصومين، لأن العصمة عند أهل العذل لطف يمنع من اختص به من ارتكاب القبيح، فمن اختص بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل، فوجب أن يكون ثوابه أنقص من ثواب من أطاع مع تلك اللطاف!

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره، وقد جاء في الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء، واستنبيء النبي ﷺ يوم الإثنين، فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته، ولا تطاول الوقت عليه لتخف محنته، ويسقط ثقل تكليفه، بل بان فضله، وظهر حسن اختياره لنفسه، إذا أسلم في حال بلوغه، وعانى نوازغ طبعه، ولم يؤخر ذلك بعد سماعه.

وقد غمر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكوراً، ورئيساً معروفاً، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار، ويتذاكرون الأخبار، ويشربون الخمر، وقد كان سمع دلائل النبوة وحجج الرسل، وسافر إلى بلدان، ووصلت إليه الأخبار، وعرف دعوى

(١) يتحنث: يتعبد الليالي ذوات العدد ويعتزل الأصنام. القاموس، مادة (حنث).

الكَهَنَةُ وَحِيلَ السَّحَرَةُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ انْكَشَافُ الْأُمُورِ لَهُ أَظْهَرَ وَالْإِسْلَامُ عَلَيْهِ أَسْهَلُ،
وَالْخَوَاطِرُ عَلَى قَلْبِهِ أَقْلٌ اعْتِلَاجاً، وَكُلُّ ذَلِكَ عَوْنٌ لِأَبِي بَكْرٍ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمُسْهَلٌ إِلَيْهِ سَبِيلُهُ،
وَلِذَلِكَ لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ»^(١) سَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنِ الْمَسْجِدِ وَمَوَاضِعِهِ،
فَصَدَّقَهُ وَبَانَ لَهُ أَمْرُهُ، وَخَفَّتْ مَوْثِقَتُهُ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالْبَيْتِ، فَخَرَجَ إِذَا إِسْلَامُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى
قَوْلِ الْجَاحِظِ مِنْ مَعْنَى الْمُقْتَضِبِ. وَفِي ذَلِكَ رَوَيْتُمْ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى
الْإِسْلَامِ إِلَّا وَكَانَ لَهُ تَرَدُّدٌ وَنَبْوَءٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتْلَعْشُمْ حَتَّى هَجَمَ بِهِ الْبَقِيْنُ إِلَى
الْمَعْرِفَةِ وَالْإِسْلَامِ»، فَأَيَّنَ هَذَا وَإِسْلَامُ مِنْ خُلِّيٍّ وَعَقْلُهُ، وَالْجَبِيءُ إِلَى نَظَرِهِ، مَعَ صَغَرِ سَنَةِ،
وَاعْتِلَاجِ الْخَوَاطِرِ عَلَى قَلْبِهِ وَنَشَاتِهِ، فِي ضِدِّ مَا دَخَلَ فِيهِ، وَالْغَالِبُ عَلَى أَمْثَالِهِ وَأَقْرَانِهِ حُبُّ
اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ، فَلَجَأَ إِلَى مَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ دَلَائِلِ الدَّعْوَةِ، وَلَمْ يَتَأَخَّرْ إِسْلَامَهُ فَيُلْزِمَهُ التَّقْصِيرَ
بِالْمَعْصِيَةِ، فَقَهَرَ شَهْوَتَهُ، وَغَالِبَ خَوَاطِرَهُ، وَخَرَجَ مِنْ عَادَتِهِ وَمَا كَانَ غُذْيَ بِهِ لَصَحَّةَ نَظَرِهِ،
وَلَطَافَةَ فِكْرِهِ وَغَامُضَ فَهْمِهِ، فَعَظُمَ اسْتِنْبَاطُهُ، وَرَجَحَ فَضْلُهُ، وَشَرُفَ قَدْرُ إِسْلَامِهِ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْ
الدُّنْيَا بِنَصِيبٍ، وَلَا تَنْعَمَ فِيهَا بِنَعِيمٍ حَدَثًا وَلَا كِبَرًا، وَحَمَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى، وَكَسَرَ شِرَّةَ حَدَاثِهِ
بِالتَّقْوَى، وَاشْتَغَلَ بِهِمُ الدِّينَ عَنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا، وَأَشْغَلَ هَمَّ الْآخِرَةِ قَلْبَهُ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِ رَغْبَتَهُ،
فَإِسْلَامُهُ هُوَ السَّبِيلُ الَّذِي لَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَمَا سَبِيلُهُ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَسَبِيلِ الْأَنْبِيَاءِ، لِيَعْلَمَ
أَنْ مَنَزَلَتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَنَزَلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، وَأَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، فَقَدْ كَانَ فِي سَبِيلِ
الْأَنْبِيَاءِ سَالِكًا، وَلَمَنْهَاجَهُمْ مُتَّبِعًا، وَكَانَتْ حَالُهُ كَحَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ أَهْلُ الْعِلْمِ ذَكَرُوا أَنَّهُ
لَمَّا كَانَ صَغِيرًا جَعَلَتْهُ أُمُّهُ فِي سَرَبٍ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَلَمَّا نَشَأَ وَدَرَجَ وَعَقَلَ قَالَ لِأُمِّهِ: مَنْ
رَبِّي؟ قَالَتْ: أَبُوكَ، قَالَ: فَمَنْ رَبُّ أَبِي؟ فَزَيَّرْتَهُ وَنَهَرْتَهُ، إِلَى أَنْ طَلَعَ مِنْ شَقِّ السَّرَبِ، فَرَأَى
كَوْكَبًا، فَقَالَ: هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَقْلَ قَالَ: لَا أَحَبُّ الْآفَلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ: هَذَا
رَبِّي، فَلَمَّا أَقْلَ قَالَ: لَشَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَقْلَتْ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ، إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي
لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ
﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٢)، وَعَلَى هَذَا كَانَ إِسْلَامُ
الصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَسْنَا نَقُولُ إِنَّهُ كَانَ مَسَاوِيًّا لَهُ فِي الْفَضِيلَةِ، وَلَكِنْ كَانَ مُقْتَدِيًّا بِطَرِيقِهِ عَلَى
مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وَأَمَّا اعْتِلَالُ الْجَاحِظِ بِأَنْ لَهُ ظَهْرًا كَأَبِي طَالِبٍ وَرَدًّا كَبْنِي هَاشِمٍ، فَإِنَّهُ يُوجِبُ عَلَيْهِ
أَنْ تَكُونَ مِخْنَةُ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٍ وَثَوَابُهُمَا وَفَضْلُ إِسْلَامِهِمَا أَعْظَمَ مِمَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِأَنَّ أَبَا

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥. (٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

طالب ظهره، وبني هاشم ردؤه، وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حظ قدر علي عليه السلام إلا بحظه من قدر رسول الله ﷺ! ولم يكن أحد أشد على رسول الله ﷺ من قراباته، الأدنى منهم فالأدنى، كأبي لهب عمه وامرأة أبي لهب، وهي أم جميل بنت خرب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف، ثم ما كان من عقبه بن أبي مغيط، وهو ابن عمه، وما كان من النضر بن الحارث، وهو من بني عبد الدار بن قصي، وهو ابن عمه أيضاً، وغير هؤلاء ممن يطوف تعداده، وكلهم كان يطرح الأذى في طريقه، وينقل أخباره، ويرميه بالحجارة، ويرمي الكرش والفُرث عليه، وكانوا يؤذون علياً عليه السلام كأذاه، ويجتهدون في غمه ويستهزؤن به، وما كان لأبي بكر قرابة تؤذيه كقرابة علي، ولما كان بين علي وبين النبي ﷺ من الاتحاد والإلف والاتفاق، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله ﷺ خوفاً من سيفه، ولأنه صاحب الدار والجيش، وأمره مطاع، وقوله نافذ، فخافوا على دمائهم، منه، فاتَّقَوْه، وأمسكوا عن إظهار بغضه، وأظهروا بغض علي عليه السلام وشأنه، فقال رسول الله ﷺ في حقه في الخبر الذي روي في جميع الصحاح: «لا يحبُّك إلا مؤمن، ولا يُبغضك إلا منافق»^(١).

وقال كثير من أعلام الصحابة - كما روي في الخبر المشهور بين المحدثين: «ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغض علي ابن أبي طالب»^(٢). وأين كان ظهر أبي طالب عن جعفر، وقد أزعجه الأذى عن وطنه، حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر، أيتوهم الجاحظ أن أبا طالب نصر علياً، وخذل جعفرًا!

قال الجاحظ: ولأبي بكر فضيلة في إسلامه أنه كان قبل إسلامه كثير الصدق، عريض الجاه، ذا يسار وغمي، يعظم لماله، ويُسْتَفاد من رأيه، فخرج من عز الغنى وكثرة الصدق إلى ذل الفاقة وعجز الوحدة، وهذا غير إسلام من لا حراك به، ولا عز له، تابع غير متبوع، لأن من أشد ما يتلى الكريم به، السب بعد التحية، والضرب بعد الهبة، والعُسر بعد اليسر. ثم كان أبو بكر دعية من دعاء الرسول، وكان يتلوه في جميع أحواله، فكان الخوف إليه أشد، والمكروه نحوه أسرع، وكان ممن تحسن مطالبته، ولا يستحيي من إدراك الثأر عنده، لنباهته، وبعد ذكره، والحدث الصغير يزدرى ويحتقر لصغر سنه وخمول ذكره.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧٣٦)، والنسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨).

(٢) أخرجه مطولاً: الحاكم في «المستدرک» (٤٦٤٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢١٢٥).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما ما ذُكر من كثرة المال والصدق، واستفاضة الذكر وبعد الصّيت وكبر السن، فكلُّه عليه لا له، وذلك لأنه قد عِلِمَ أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظ الصديق والوفاء بالذّمام والتهيب لذي الثروة واحترام ذي السنّ العالية، وفي كلّ هذا ظهر شديد، وسند وثقة يعتمد عليها عند المحن، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه، واستحيا منه، وكان ذلك سبباً لنجاته والعفو عنه، عَلى أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام إن لم يكن شهره سنّه، فقد شهره نسبه وموضعه من بني هاشم، وإن لم يستفيض ذكره بقاء الرجال، وكثرة الأسفار استفاض بأبي طالب، فأنتم تعلمون أنه ليس تيم في بعد الصّيت كهاشم، ولا أبو قحافة كأبي طالب، وعلى حَسَب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذي السنّ ويبعد صيت الحدث على الشيخ، ومعلوم أيضاً أن علياً على أعناق المشركين أثقل، إذ كان هاشمياً، وإن كان أبوه حامي رسول الله ﷺ، والمانع لحوزته، وعليّ هو الذي فتح على العرب باب الخلاف، واستهان بهم، بما أظهر من الإسلام والصلاة، وخالف ربه وعشيرته، وأطاع ابن عمّه فيما لم يعرف من قبل، ولا عهد له نظير كما قال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾^(١). ثم كان بعد صاحب رسول الله ﷺ، ومشتكى حزنه، وأنيسه في خلوته، وجليسه وأليفه في أيامه كلّها، وكلّ هذا يوجب التحريض عليه، ومعاداة العرب له، ثم أنتم معاشر العثمانيّة، تُثبِتُونَ لأبي بكر فضيلةً بصحبة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب، ودخوله معه في الغار، فقلتم: مرتبة شريفة وحالة جلييلة، إذ كان شريكه في الهجرة، وأنيسه في الوحشة، فأين هذه من صُحبة علي عليه السلام له في خلوته، وحيث لا يجد أنيساً غيره، ليله ونهاره، أيام مقامه بمكة يعبد الله معه سرّاً، ويتكلّف له الحاجة جَهراً، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه، ويشفق عليه ويحوطه، وكالولد يبرّ والده، ويعطف عليه. ولما سئلت عائشة مَنْ كان أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، قالت: أما من الرجال فعليّ، وأما من النساء ففاطمة^(٢).

قال الجاحظ: وكان أبو بكر من المفتونين المعذبين بمكة قبل الهجرة، فضربه نوفل ابن خويلد بابن العدويّة مرتين، حتى أدماه وشده مع طلحة بن عبيد الله في قرن، وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، ولذلك كانا يُدعيان القرينين، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً، ويلوغ منزله شديداً، ولو كان يوماً واحداً لكان عظيماً، وعليّ بن أبي طالب رافه وادع، ليس بمطلوب ولا طالب، وليس أنه لم يكن في طبعه

(١) سورة يس، الآية: ٦.

(٢) ذكره الجرجاني في «تاريخ جرجان» (١/٢١٣).

الشَّهامة والنَّجدة، وفي غريزته البَسالة في الشَّجاعة، لكنه لم يكن قد تَمَّت أَدَاتُهُ، ولا استكملت آتُهُ، ورجال الطلب وأصحاب الثَّار يُغْمَصون ذا الحَدَاثة ويزدرون بذِي الصَّبَا والغَرارة، إلى أن يلحق بالرجال، ويخرج من طَبْع الأَطفال.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمَّا القولُ فممكِن والدَّعوى سهلة، سَيِّما على مثل الجاحظ، فإنَّه ليس على لسانه من دينه وعَقْله رَقِيب، وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد، فمعناه نَزْر، وقوله لغو، ومطلبه سَجْع، وكلامه لعبٌ ولهو، يقول الشيء وخلافه، ويُخَسِّنُ القول وضدَّه، ليس له من نفسه واعظ ولا لدَّعواه حدٌّ قائم، وإلَّا فكيف تجاسر على القول بأنَّ علياً حينئذٍ لم يكن مطلوباً ولا طالباً، وقد بيَّنا بالأخبار الصحيحة، والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملاً منابذاً بلسانه وقلبه لمشركي قريش، ثَقِيلاً على قلوبهم، وهو المخصوص دون أبي بكر بالحصار في الشَّعب، وصاحب الخَلُوات برسول الله ﷺ في تلك الظلمات، المتجرِّع لفصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما، والمصطلي لكلِّ مكروه والشَّريك لنبيِّه في كلِّ أذى، قد نهض بالجنل الثَّقيل، وبان بالأمر الجليل، ومَن الذي كان يخرج ليلاً من الشَّعب على هيئة السارق، ويخفي نفسه، ويضائل شخصه، حتى يأتي إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبراء قريش، كمطعم بن عدِيٍّ وغيره، فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح، وهو على أشدَّ خوف من أعدائهم، كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دمه. أعليُّ كان يفعل ذلك أيام الحصار في الشَّعب، أم أبو بكر؟ وقد ذكر هو ﷺ حاله يومئذٍ، فقال في خطبة له مشهورة: فتعاقدوا ألاَّ يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطرونا إلى جبل وعر، مؤمننا يَرْجُو الثواب، وكافُرنا يحامي عن الأصل، ولقد كائت القبائلُ كُلُّها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارة والميرة^(١)، فكانوا يتوقَّعون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا يروُن وجهاً ولا فرجاً، قد اضمحلَّ عزمهم، وانقطع رجاؤهم، فَمَن الذي خلص إليه مكروه تلك المحن بعد محمد ﷺ إلَّا عليُّ ﷺ وحده! وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه الفضيلة، مِن تقصِّي معانيها، وبلوغ غاية كُنْهها، وفضيلة الصابر عندها! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين، حتى انفرجت عنهم بقصة الصحيفة، والقصة مشهورة.

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول في عليٍّ ﷺ: إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً لم يكن مطلوباً ولا طالباً، وهو صاحب الفراش الذي قَدَّى رسول الله ﷺ بنفسه، ووقاه

(١) المير: جَلَبُ الطعام. القاموس، مادة (مير).

بمهجته، واحتمل السيوف ورضح الحجارة دونه. وهل ينتهي الواصف وإن أطنب، والمادح وإن أسهب، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة، والإيضاح بمزية هذه الخصيصة! فأما قوله: إن أبا بكر عذب بمكة، فإننا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا بعبد أو عسيف، أو لمن لا عشيرة له تمنعه، فأنتم في أبي بكر بين أمرين: تارة تجعلونه دخیلاً ساقطاً، وهجيناً رذیلاً مستضعفاً ذليلاً، وتارة تجعلونه رئيساً متبّعاً، وكبيراً مطاعاً، فاعتمدوا على أحد القولين لنكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم. ولو كان الفضل في الفتنة والعذاب، لكان عمار وخبّاب وبلال وكلّ معذب بمكة أفضل من أبي بكر، لأنهم كانوا من العذاب في أكثر ممّا كان فيه، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾^(١)، نزلت في خبّاب وبلال، ونزل في عمار قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ أَكْثَرَةً وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٢)، وكان رسول الله ﷺ يمرّ على عمار وأبيه وأمه، وهم يعدّون، يعدّ بهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم، فيقول: «صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة»^(٣)، وكان بلال يقلب على الرّمضاء، وهو يقول: أحد أحدا وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكراً، ولقد كان لعليّ عليه السلام عنده يد غراء، إن صرخ ما رويتموه في تعذيبه، لأنه قتل نوفل بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بدر، ضرب نوفلاً فقطع ساقه، فقال: أذكرك الله والرحم! فقال: قد قطع الله كلّ رَجِمٍ وصهر إلا مَنْ كان تابِعاً لمحمّد، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسه، وصمد لعمر بن عثمان التميميّ، فوجده يروم الهرب، وقد ارتجّ عليه المسلك، فضربه على شراسيف^(٤) صدره، فصار نصفه الأعلى بين رجله، وليس أن أبا بكر لم يطلب بثأره منهما، ويجتهد، لكنّه لم يقدر على أن يفعل فعل عليّ عليه السلام، فبان عليّ عليه السلام بفعله دونه.

قال الجاحظ: ولأبي بكر مراتب لا يشركه فيها عليّ ولا غيره، وذلك قبل الهجرة فقد علم الناس أن علياً عليه السلام إنما ظهر فضله، وانتشر صيته، وامتحن ولقي المشاق منذ يوم بدر، وأنه إنما قاتل في الزمان الذي استوفى فيه أهل الإسلام، وأهل الشرك، وطمعوا في أن يكون الحرب بينهم سجالاً، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذباً ومطروداً مشرداً، في الزمان الذي ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة، ولذلك قال أبو بكر في خلافته: طوبى لمن مات في فاقة الإسلام! يقول: في ضعفه.

(١) سورة النحل، الآية: ٤١. (٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/١٤٠)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/١٦٢).

(٤) الشراسيف: جمع شرسوف: وهو غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف. اللسان، مادة (شرسف).

قال أبو جعفر رحمه الله: لا أشك أن الباطل خان أبا عثمان، والخطأ أقعده، والخذلان أصاره إلى الحيرة، فما علم وعرف حتى قال ما قال، فزعم أن علياً عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاق، وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بدر، ونسي الحصار في الشعب، وما مني به منه، وأبو بكر وادع رافه، يأكل ما يريد، ويجلس مع من يحب، مخلص سربه، طيبة نفسه، ساكناً قلبه، وعليه يقاسي الغمرات، ويكابد الأهوال، ويجوع ويظمأ، ويتوقع القتل صباحاً ومساءً، لأنه كان هو المتوصل المحتال في إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرّاً، ليقم به رمق رسول الله ﷺ وبني هاشم، وهم في الحصار، ولا يأمن في كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله ﷺ بالقتل، كأبي جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها، ولقد كان يجيع نفسه ويطعم رسول الله ﷺ زاده، ويظمي نفسه ويسقيه ماءه، وهو كان المعلل له إذا مرض، والمؤنس له إذا استوحش، وأبو بكر بنجوة عن ذلك لا يمسه مما يمسه ألم، ولم يلحقه مما يلحقهم مشقة، ولا يعلم بشيء من أخبارهم وأحوالهم، إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل، ثلاث سنين، محرمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج والتصرف في أنفسهم، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة، ونسي هذه الخصيصة، ولا نظير لها! ولكن لا يبالي الجاحظ بعد أن يسوغ لفظه، وتنسق له خطابه، ما ضيع من المعنى، ورجع عليه من الخطأ!

فأما قوله: واعلموا أن العاقبة للمتقين، ففيه إشارة إلى معنى غامض قصده الجاحظ - يعني أن لا فضيلة لعلي عليه السلام في الجهاد، لأن الرسول كان أعلمه أنه منصور، وأن العاقبة له - وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولمزاته، وليس بحق ما قاله، لأن رسول الله ﷺ أعلم أصحابه جملة أن العاقبة لهم، ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يقتل، لا علياً ولا غيره، وإن صح أنه كان أعلمه أنه لا يقتل، فلم يعلمه أنه لا يقطع عضو من أعضائه، ولم يعلمه أنه لا يمسه ألم الجراح في جسده، ولم يعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد. وعلى أن رسول الله ﷺ قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر - وهو يومئذ بمكة - أن العاقبة لهم، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك، فإن لم يكن لعلي والمجاهدين فضيلة في الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم ذلك، فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال المشاق قبل الهجرة لإعلامه إياهم بذلك، فقد جاء في الخبر أنه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر، وأنه قال له: أرسلت إلى هؤلاء بالذبح، وإن الله تعالى سيفتئنا أموالهم، ويملكنا ديارهم، فالقول في الموضعين متساو ومتفق.

قال الجاحظ: وإن بين المحنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي ﷺ مقرنين لأهل

مكة ومشركي قريش، ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والأطام^(١) والشجاعة والصبر والمواساة، والإيثار والمحاماة والعدد الدثر، والفعل الجزل، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يُفْتَنُونَ وَيُشْتَمُونَ، ويضربون ويشردون، ويجوعون ويعطشون، مقهورين لا حراك بهم، وأذلاء لا عز لهم، وفقراء لا مال عندهم، ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم، لفرقاً واضحاً، ولقد كانوا في حال أحوجت لوطاً وهو نبي إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «عجبت من أخي لوط، كيف قال: أو آوي إلى ركن شديد، وهو يأوي إلى الله تعالى»^(٣) ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ولا شهراً ولا شهرين، ولا عاماً ولا عامين، ولكن الستين بعد السنين. وكان أغلظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، لأنه أقام بمكة ما أقام رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة، وهو أوسط ما قالوا في مقام النبي ﷺ.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما نرى الجاحظ احتج لكون أبي بكر أغلظهم وأشدّهم محنة، إلا بقوله: لأنه أقام بمكة مدة مقام الرسول الله ﷺ بها، وهذه الحجة لا تخصّ أبا بكر وحده، لأن علياً ﷺ أقام معه هذه المدة، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخبّاب وغيرهم، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحده بحجة تدلّ على أنه كان أغلظ الجماعة، وأشدّهم محنة بعد رسول الله ﷺ، فاحتجاج في نفسه فاسد.

ثم يقال له: ما بالك أهملت أمر مبيت عليّ ﷺ على الفراش بمكة ليلة الهجرة هل نسيته أم تناسيته؟ فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التي متى امتحنها الناظر، وأجال فكره فيها، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أن رسول الله ﷺ مجيع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم قصدوا إلى معالجتته، وتعاقدوا على أن يبيتوه في فراشه، وأن يضربوه بأسياف كثيرة، بيد كلّ صاحب قبيلة من قريش سيف منها، ليضيع دمه بين الشعوب، ويتفرّق بين القبائل، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش، وتحالفوا على تلك الليلة، واجتمعوا عليها، فلما علم رسول الله ﷺ ذلك من أمرهم، دعا أوثق الناس عنده، وأمثلهم في نفسه، وأبذلهم في ذات الإله لمهجته، وأسرعهم إجابة إلى طاعته، فقال له: «إن قريشاً قد تحالفت على أن تبيتني هذه الليلة، فامض إلى فراشي، ونم في مضجعي، والتفت في بُردي الحضرمي ليروا أنني لم أخرج،

(١) الأطام: الحصون المبنية بالحجارة. اللسان، مادة (أطم).

(٢) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٣) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الأحاديث: ٩٢.

وإني خارج إن شاء الله. فمنعه أولاً من التحرز وإعمال الحيلة، وصده عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكاييد والجهات التي يحتاط بها الناس لنفوسهم، والجهاء إلى أن يعرض نفسه لظلمات السيوف الشحيذة من أيدي أرباب الخنق والغيلة، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً طيبة بها نفسه، ونام على فراشه صابراً محتسباً، واقياً له بمهجته، ينتظر القتل، ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتبسها صابر، ولا يبلغها طالب، «والجود بالنفس أقصى غاية الجود»، ولولا أن رسول الله ﷺ علم أنه أهل لذلك، لَمَا أَهَلَهُ، ولو كان عنده نقص في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمه، واختير لذلك، لكان من اختاره ﷺ منقوضاً في رأيه، مضراً في اختياره، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام، وكلهم مجمعون على أن الرسول ﷺ عمل الصواب، وأحسن في الاختيار.

ثم في ذلك - إذا تأمله المتأمل - وجوه من الفضل:

منها أنه وإن كان عنده في موضع الثقة، فإنه غير مأمون عليه ألا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء.

ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسر وثقة عند من اختاره، فغير مأمون عليه الجبن عند مفاجأة المكروه، ومباشرة الأهوال، فيفر من الفراش، فيفطن لموضع الحيلة، ويطلب رسول الله ﷺ فيظفر به.

ومنها أنه وإن كان ثقة ضابطاً للسر، شجاعاً نجداً، فلعله غير محتمل للمبيت على الفراش، لأن هذا أمر خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع، بل هو أشد مشقة من المكتوف الممنوع، لأن المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل له إلى الهرب، وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه، ولا يهرب ولا يدافع.

ومنها أنه وإن كان ثقة عنده، ضابطاً للسر، شجاعاً محتملاً للمبيت على الفراش، فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة، والعذاب النازل بساحته، حتى ييوح بما عنده، ويصير إلى الإقرار بما يعلمه، وهو أنه أخذ طريق كذا فيطلب فيؤخذ، فلهذا قال علماء المسلمين: إن فضيلة علي عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عن استسلامه للذبح، ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقلنا: إن محنة علي أعظم، لأنه قد روي أن إسحاق تلقى أمره أن يضطجع، وبكى على نفسه، وقد كان أبوه يعلم أن عنده في ذلك وقفة، ولذلك قال له: «فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى؟»^(١)، وحال علي عليه السلام بخلاف ذلك، لأنه ما تلقى ولا تتنع، ولا تغير لونه ولا اضطربت أعضاؤه، ولقد كان أصحاب النبي ﷺ

يُشيرون عليه بالرأي المخالف لما كان أمر به، وتقدم فيه، فيتركه ويعمل بما أشاروا به، كما جرى يوم الخندق في مصانعة الأحزاب بثلاث تمر المدينة، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه، وهذه كانت قاعدته معهم، وعادته بينهم، وقد كان لعلي عليه السلام أن يعتل بعلته، وأن يقف ويقول: يا رسول الله، أكون معك أحبيك من العدو، وأذب بسيفي عنك، فلست مستغنياً في خروج عن مثلي، ونجعل عبداً من عبيدنا في فراشك، قائماً مقامك، يتوهم القوم - برؤيته نائماً في بُردك - أنك لم تخرج، ولم تفارق مركزك، فلم يقل ذلك، ولا تحبس ولا توقف، ولا تلعث، وذلك لعلم كل واحد منهما صلى الله عليه وآله أن أحداً لا يصبر على ثقل هذه المحنة، ولا يتورط هذه الهلكة، إلا مَنْ خَصَّه الله تعالى بالصبر على مشقتها والفوز بفضيلتها، وله من جنس ذلك أفعال كثيرة، كيوم دعا عمرو بن عبد ود المسلمين إلى المبارزة، فأحجم الناس كلهم عنه، لما علموا من بأسه وشدته، ثم كرر النداء، فقام علي عليه السلام، فقال: أنا أبرز إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه عمرو! قال: نعم، وأنا علي! فأمره بالخروج إليه، فلما خرج قال صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(١)، وكيوم أخذ حيث حصى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبطال قريش وهم يقصدون قتله، فقتلهم دونه، حتى قال جبريل عليه السلام: «يا محمد إن هذه هي المواساة»، فقال: «إنه مني وأنا منه»، فقال جبريل: «وأنا منكما»^(٢). ولو عدنا أيامه ومقاماته التي شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهينا.

قال الجاحظ: فإن احتج محتج لعلي عليه السلام بالمبيت على الفراش، فبين الغار والفراش فرق واضح، لأن الغار وصحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله قد نطق به القرآن، فصار كالصلاة والزكاة وغيرهما مما نطق به الكتاب، وأمر علي عليه السلام ونومه على الفراش، وإن كان ثابتاً صحيحاً، إلا أنه لم يذكر في القرآن، وإنما جاء مجيء الروايات والسير، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا فرق غير مؤثر، لأنه قد ثبت بالتواتر حديث الفراش، فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نص الكتاب، ولا يجحده إلا مجنون أو غير مخاليط لأهل الملة، أرايت كون الصلوات خمساً، وكون زكاة الذهب ربع العشر، وكون خروج الريح ناقضاً للطهارة، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه؟ هل هو مخالف لما نص في الكتاب عليه من الأحكام! هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي بكر في الكتاب، وإنما قال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾^(٣)، وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخير وما ورد في السيرة، وقد قال أهل التفسير: إن قوله تعالى: ﴿وَيَتَذَكَّرُ اللَّهُ وَأَلَّهُ خَيْرَ الْمَذْكُورِينَ﴾^(٤) كناية عن

(١) أخرجه محمد هادي اليوسفي في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٤٩١/٢.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤١).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

عليّ عليه السلام، لأنه مكر بهم، وأول الآية: يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ^(١)، أنزلت في ليلة الهجرة، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش، ومكر الله تعالى ومنام عليّ عليه السلام على الفراش، فلا فرق بين الموضعين في أنهما مذكوران كناية لا تصريحاً. وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَاتٍ اللَّهِ﴾^(٢)، أنزلت في عليّ عليه السلام ليلة المبيت على الفراش، فهذه مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، لا فرق بينهما.

قال الجاحظ: وفرق آخر، وهو أنه لو كان مبيت عليّ عليه السلام على الفراش، جاء مجيء كون أبي بكر في الغار، لم يكن له في ذلك كبير طاعة، لأن الناقلين نقلوا أنه صلى الله عليه وآله قال له: «نَمْ فَلَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ»^(٣)، ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في صحبته إياه وكونه معه في الغار مثل ذلك، ولا قال له: أنفق وأعتق، فإنك لن تفتقر، ولن يصل إليك مكروه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا هو الكذب الصراح، والتحريف والإدخال في الرواية ما ليس منها، والمعروف المنقول أنه عليه السلام قال له: «أَذْهَبْتُ فَاظْطَجَعْتُ فِي مَضْجَعِي، وَتَغَشَّيْتُ بِرِدِّي الْحَضْرَمِي، فَإِنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي، وَلَا يَشْهَدُونَ مَضْجَعِي، فَلَعَلَّهُمْ إِذَا رَأَوْكَ يَسْكِنُهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَصْبَحُوا، فَإِذَا أَصْبَحَتْ فَاغْدُ فِي آدَاءِ أَمَانَتِي»^(٤)، ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنما ولده أبو بكر الأصم، وأخذه الجاحظ، ولا أصل له، ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه، وقد وقع الاتفاق على أنه ضرب ورمي بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تضور^(٥)، وأنهم قالوا له: رأينا تضورك، فإننا كنا نرمي محمداً ولا يتضور، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل، فهب أنه أئمن القتل، كيف يأمن من الضرب والهوان، ومن أن ينقطع بعض أعضائه، وبأن سلمت نفسه! أليس الله تعالى قال لنيته: ﴿يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْعَلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٦) ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشج وجهه،

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/٥٦٧).

(٤) أخرجه السيد جعفر مرتضى في الصحيح من السيرة: ٣٦/٤.

(٥) التضور: التلوح والصياح من وجع الضرب أو الجوع. اللسان، مادة (ضور).

(٦) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وأدُميت ساقه، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة، وكذلك المكروه الذي أومن علي عليه السلام منه - وإن كان صَحَّ ذلك في الحديث - إنما هو مكروه القتل.

ثم يقال له: وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً في كونه في الغار، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّانٌ﴾^(١)، وَمَنْ يَكُنْ اللَّهُ مَعَهُ فَهُوَ آمِنٌ لَا مُحَالَةَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، فكيف قلت: ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك! فكل ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عما أورده، فنقول له: هذا ينقلب عليك في النبي صلى الله عليه وآله لأن الله تعالى وعده بظهور دينه، وعاقبة أمره، فيجب على قولك ألا يكون مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه، ولا ما يصيبه من الأذى إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح في عِنته.

قال الجاحظ: وَمَنْ جَعَدَ كُونَ أَبِي بَكْرٍ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ كَفَرَ، لأنه جَعَدَ نَصْرَ الكتاب، ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّانٌ﴾ من الفضيلة لأبي بكر، لأنه شريك رسول الله ﷺ في كُونَ الله تعالى معه وإنزال السكينة، قال كثير من الناس: إنه في الآية مخصوص بأبي بكر، لأنه كان محتاجاً إلى السكينة لما تداخله من رقة الطبع البشري، والنبي ﷺ كان غير محتاج إليها، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى، فلا معنى لنزول السكينة عليه، وهذه فضيلة ثالثة لأبي بكر.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إن أبا عثمان يجرّ على نفسه ما لا طاقة له به من مطاعن الشيعة، ولقدك ان في غُنية عن التعلّق بما تعلّق به، لأن الشيعة تزعم أن هذه الآية، بأن تكون طعنًا وعيباً على أبي بكر، أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له، لأنه لما قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ دلّ على أنه قد كان حزن وقنط وأشفق على نفسه، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة، لأن الله تعالى لا ينهى عن الطاعة، فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه، وقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّانٌ﴾ أي إن الله عالم بحالنا وما نضمّره من اليقين أو الشك، كما يقول الرجل لصاحبه: لا تضمرن سوءاً ولا تتويّن قبيحاً، فإن الله تعالى يعلم ما نسرّه وما نعلنه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا أَدْفَنُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(٢)، أي هو عالم بهم، وأما السكينة فكيف يقول: إنها ليست راجعة إلى النبي ﷺ وبعدها قوله: ﴿وَأَبْكَدُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٣)، أترى المؤيّد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله ﷺ!

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

وقوله: إنه مستغن عنها، ليس بصحيح ولا يستغني أحد عن الطاف الله وتوفيقه وتأيده وتثبيت قلبه، وقد قال الله تعالى في قصة حنين: ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِكُمْ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾^(١).

وأما الصحبة فلا تدل إلا على المرافقة والاصطحاب لا غير، وقد يكون حيث لا إيمان، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾^(٢)، ونحن وإن كنا نعتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصحيح السليم وفضيلته التامة، إلا أننا لا نحتج له بمثل ما احتج به الجاحظ من الحجج الواهية، ولا نتعلق بما يجر علينا دواهي الشيعة ومطاعنها.

قال الجاحظ: وإن كان المبيت على الفراش فضيلة، فأين هي من فضائل أبي بكر أيام مكة، من عثق المعتمين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين، مع فرق ما بين الطاعتين، لأن طاعة الشاب الغرير والحدث الصغير الذي في عز صاحبه عزه، ليست كطاعة الحليم الكبير الذي لا يرجع تسويد صاحبه إلى رهطه وعشيرته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما كثرة المستجيبين، فالفضل فيها راجع إلى المجيب لا إلى المجاب، على أننا قد علمنا أن من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممن استجاب لنوح عليه السلام، وثواب نوح أكثر، لصبره على الأعداء، ومقاساة خلافهم وعنتهم. وأما إنفاق المال، فأين مِحنة الغني من محنة الفقير! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غني، إن جاع أكل، وإن أعيا ركب، وإن عري ليس، قد وثق بيساره واستغنى بماله، واستعان على نوائب الدنيا بثروته، ممن لا يجد قوت يومه، وإن وجد لم يستأثر به، فكان الفقر شعاره، وفي ذلك قيل: الفقر شعار المؤمن. وقال الله تعالى لموسى: ﴿يَا مُوسَى إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا، فَقُلْ: مَرْحَبًا بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ﴾^(٣)، وفي الحديث: «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»^(٤)، وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم احشروني في زمرة الفقراء»^(٥)، ولذلك أرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً، وكان بالفقر سعيداً، فقامى مِحنة الفقر ومكابدة الجوع، حتى شد الحجر على بطنه، وحسبك بالفقر فضيلة في دين الله لمن صبر عليه، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها، وإنما هو شعار أهل الآخرة.

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٢٥، ٢٦. (٢) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٤٦٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٣٧/٢).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل (٢٣٥٣)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: منزلة الفقراء (٤١٢٢).

(٥) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١٦٧/١).

وأما طاعة علي عليه السلام ، وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن في عز محمد عزه وعز رهطه ، بخلاف طاعة أبي بكر ، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عبيدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة ، بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانت لأن في دولته دولتهم ، وفي نصرته استجداد ملك لهم ، وهذا يجر إلى الإلحاد ، ويفتح باب الزندقة ، ويُفضي إلى الطعن في الإسلام والنبوة .

قال الجاحظ : وعلى أنا لو نزلنا إلى ما يريدونه ، جعلنا الفراش كالغار ، وخلصت فضائل أبي بكر في غير ذلك عن معارض.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : قد بينا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الضحبة في الغار ، بما هو واضح لمن أنصف ، ونزيد ما هنا تأكيداً بما لم نذكره فيما تقدم ، فنقول : إن فضيلة المبيت على الفراش على الضحبة في الغار لوجهين :

أحدهما : أن علياً عليه السلام قد كان أنس بالنبي صلى الله عليه وآله وحصل له بمصاحبه قديماً أنس عظيم ، والنف شديد ، فلما فارقه غُدم ذلك الأنس ، وحصل به أبو بكر ، فكان ما يجده علي عليه السلام من الوحشة وألم الفرقة موجباً زيادة ثوابه ، لأن الثواب على قدر المشقة .

وثانيهما : أن أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة ، وقد كان خرج من قبل فرداً ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ، ومحجوب نفسه ، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازي فضيلة من احتمل المشقة العظيمة ، وعرض نفسه لوقوع السيوف ، ورأيه لرضخ الحجارة ، لأنه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب .

قال الجاحظ : ثم الذي لقي أبو بكر في مسجده الذي بناه على بابه في بني جُمح ، فقد كان بنى مسجداً يصلي فيه ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، وكان له صوت رقيق ، ووجه عتيق ، وكان إذا قرأ بكى ، فيقف عليه المارة من الرجال والنساء والصبيان والعبيد ، فلما أودى في الله ، ومنع من ذلك المسجد ، استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله في الهجرة فأذن له ، فأقبل يريد المدينة ، فتلقاه الكنانى ، فعقد له جواراً ، وقال : والله لا أدع مثلك يخرج من مكة ، فرجع إليها وعاد لصنيعه في المسجد ، فمشت قريش إلى جاره الكنانى ، وأجلبوا عليه ، فقال له : دع المسجد وادخل بيتك ، واصنع فيه ما بدا لك .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كيف كانت بنو جُمَح تُوْذِي عثمان بن مظعون وتضربه، وهو فيهم ذو سَطْوَة وَقْدَر، وتترك أبا بكر يبنّي مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم، وأنتم الذين روّيتم عن ابن مسعود أنه قال: «ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب»، والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر، فكيف هذا!

وأما ما ذكرتم من رقة صوته وعَتَاق وجهه، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدي وغيره أن عائشة رأت رجلاً من العرب خفيف العارضين، معروق الخدين، غائر العينين، أجناً^(١) لا يمسك إزاره، فقالت: ما رأيت أشبه بأبي بكر من هذا؟ فلا نراها دلّت على شيء من الجمال في صفته!

قال الجاحظ: وحيث ردّ أبو بكر جوار الكناني، وقال: لا أريد جاراً سوى الله، لقي من الأذى والذل والاستخفاف والضرب ما بلغكم، وهذا موجود في جميع السير، وكان آخر ما لقي هو وأهله في أمر الغار، وقد طلبته قريش وجعلت فيه مائة بعير، كما جعلت في النبي ﷺ، فلقي أبو جهل أسماء بنت بكر، فسألها فكتمتها، فلطمها حتى رمت قرطاً كان في أذنها.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا الكلام ومُخَر السكران سواء، في تقارب المخرج، واضطراب المعنى، وذلك أن قريشاً لم تقدر على أذى النبي ﷺ، وأبو طالب حيّ يمنعه، فلما مات طلبته لتقتله، فخرج تارة إلى بني عامر، وتارة إلى ثقيف، وتارة إلى بني شيبان، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستراً، حتى أجره مطعم بن عدي، ثم خرج إلى المدينة، فبذلت فيه مائة بعير لشدة حنقها عليه حين فاتها، فلم تقدر عليه، فما بالها بذلك في أبي بكر مائة بعير أخرى، وقد كان ردّ الجوار، وبقي بينهم فرداً لا ناصر له ولا دافع عنده، يصنعون به ما يريدون! إما أن يكونوا أجهل البرية كلاً أو يكون العثمانية أكذب جيل في الأرض وأوقحه وجهاً! فهذا مما لم يذكر في سيرة ولا روي في أثر، ولا سمع به بشر، ولا سبق الجاحظ به أحداً!

قال الجاحظ: ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه، حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن، لأنه ساعة أسلم دعا إلى الله وإلى رسوله.

(١) الجنأ: ميل في الظهر، وقيل: في العنق. اللسان، مادة (جنأ).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما أعجب هذا القول ، إذ تدعي العثمانية لأبي بكر الرّفق في الدّعاء وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه في منزله ابنه عبد الرحمن ، فما قدر أن يدخله في الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كرهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه ، ولا كان لأبي بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطيعه فيما يأمره به ، ويدعوه إليه ، كما روي أن أبا طالب فقد النبي ﷺ يوماً ، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه ، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبان النبي ﷺ ، فوجده قائماً في بعض شعاب مكة يصلي ، وعليّ ﷺ معه عن يمينه ، فلما رآهما أبو طالب ، قال لجعفر : تقدّم وصلّ جناح ابن عمك ، فقام جعفر عن يسار محمد ﷺ ، فلما صاروا ثلاثة تقدّم رسول الله ﷺ وتأخّر الأخوان ، فبكى أبو طالب ، وقال :

إِنَّ عَلِيًّا وَجَعَفَرًا ثَقَفَيَّ عِنْدَ مُلِمِّ الْخَطُوبِ وَالنُّوْبِ
لَا تَخْذُلَا وَانصُرَا ابْنَ عَمِّكُمَا أَخِي لَأَمِّي مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَبِي
وَاللّٰهُ لَا أَخْذُلُ النَّبِيَّ وَلَا يَخْذُلُهُ مِنْ بَنِي ذُو حَسَبٍ

فتذكر الرواة أن جعفرأ أسلم منذ ذلك اليوم ، لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره ، وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن في الإسلام حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة ، وخرج يوم أحد في عسكر المشركين ينادي : أنا عبد الرحمن بن عتيق ، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره ، حتى أسلم عام الفتح ، وهو اليوم الذي دخلت فيه قريش في الإسلام طوعاً وكرهاً ، ولم يجد أحد منها إلى ترك ذلك سبيلاً ، وأين كان رفق أبي بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبي قحافة وهما في دار واحدة هلاً رفق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم ! وقد علمتم أنه بقي على الكفر إلى يوم الفتح ، فأحضره ابنه عند النبي ﷺ وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة^(١) ، فنفر رسول الله ﷺ منه ، وقال : غيروا هذا ، فخضبوه ، ثم جاؤوا به مرة أخرى ، فأسلم^(٢) . وكان أبو قحافة فقيراً مدقعاً سيء الحال ، وأبو بكر عندهم كان مثرياً فائض المال ، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنفقة والإحسان ، وقد كانت امرأة أبي بكر أم عبد الله ابنه - واسمها نملة بنت عبد العزى بن أسعد بن عبد بن ود العامرية - لم تسلم ، وأقامت على شركها بمكة ، وهاجر أبو بكر وهي كافرة ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿وَلَا تُمَيِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾^(٣) ، فطلقها أبو بكر ، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامراته فهو عن غيرهم من الغرماء أعجز ، ومن لم يقبل منه أبوه وابنُه وامراته

(١) الثغامة : نبت أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به . اللسان ، مادة (ثغم).

(٢) أخرج نحوه مسلم ، كتاب : اللباس والزينة ، باب : استحباب خضاب الشيب (٢١٠٢) ، والنسائي ، كتاب : الزينة ، باب : النهي عن الخضاب بالسواد (٥٠٧٦) ، وأبو داود ، كتاب : الترجل باب : في الخضاب (٤٢٠٤) .

(٣) سورة الممتحنة ، الآية : ١٠ .

لا برفق واحتجاج، ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقلّ قبولاً منه، وأكثر خلافاً عليه!

قال الجاحظ: وقالت أسماء بنت أبي بكر: ما عرفتُ أبي إلا وهو يدين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلم، فدعانا إلى الإسلام، فما رمنا حتى أسلمنا، وأسلم أكثر جلسائه، ولذلك قالوا: مَنْ أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممّن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد، بل غنّوا الكثرة في القدر، لأنه أسلم على يديه خمسة من أهل الشورى، كلهم يصلح للخلافة، وهم أكفاء عليّ عليه السلام، ومنازعوه الرياسة والإمامة، فهؤلاء أكثر من جميع الناس.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبرونا مَنْ هذا الذي أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبي بكر؟ إذا كانت امرأته لم تسلم وابنه عبد الرحمن لم يسلم، وأبو قحافة لم يسلم، وأخته أمّ قُرّة لم تسلم، وعائشة لم تكن قد ولدت في ذلك الوقت، لأنها ولدت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وآله بخمس سنين، ومحمد بن أبي بكر ولد بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة، لأنه ولد في حجة الوداع، وأسماء بنت أبي بكر التي قد روى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنت أربع سنين - وفي رواية مَنْ يقول: بنت ستين - فمن الذي أسلم من أهل بيته يوم أسلم! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة! وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من رهطه ولا من أثرابه ولا من جلسائه، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة، ولا أنس وكيد! وكيف ترك أبو بكر عُثبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، لم يدخلهما في الإسلام برفقه وحسن دعائه، وقد زعمتم أنهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه! وما باله لم يدخل جبير بن مطعم في الإسلام، وقد ذكرتُم أنه أدبه وخرّجه، ومنه أخذ جبير العلم بأنساب قريش ومآثرها! فكيف عجز عن هؤلاء الذين عذّناهم، وهم منه بالحال التي وصفنا، ودعا من لم يكن بينه وبينه أنس ولا معرفة، إلا معرفة عيان! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب، وقد كان شكله، وأقرب الناس شبهاً به في أغلب أخلاقه! ولئن رجعتُم إلى الإنصاف لتعلمن أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول الله صلى الله عليه وآله لهم، وعلى يديه أسلموا، ولو فكرتم في حسن التآتي في الدعاء، ليصححن لأبي طالب في ذلك على شركه أضعاف ما ذكرتُموه لأبي بكر، لأنكم رويتُم أن أبا طالب قال لعليّ عليه السلام: يا بني الزمه، فإنه لن يدعوكَ إلا إلى خير، وقال لجعفر: صل جناح ابن عمك، فأسلم بقوله، ولاجله أصفق^(١) بنو عبد مناف على نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من بني مخزوم، وبني سَهْم، وبني جُمَح،

(١) أي أطبقوا: القاموس، مادة (صفق).

ولأجله صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب، وبدعائه وإقباله على محمد ﷺ أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد، فهو أحسن رفقاء، وأيمن نقيبة^(١) من أبي بكر وغيره، وإنما منعه عن الإسلام أن ثبت أنه لم يسلم إلا تقيّة، وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد، وهو عبد الرحمن، فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلة الأذى لرسول الله ﷺ، وفيه أنزل: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهَ وَيَلْكُ أَيْمَنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢)، وإنما يعرف حسن رفق الرجل وتأثيره بأن يصلح أولاً أمر بيته وأهله، ثم يدعو الأقرب فالأقرب، فإن رسول الله ﷺ لما بُعث كان أول من دعا زوجته خديجة، ثم مكفوله وابن عمه علياً ﷺ، ثم مولاه زيداً، ثم أم أيمن خادمتها، فهل رأيتم أحداً ممن كان يأوي إلى رسول الله ﷺ لم يسارع! وهل الثالث^(٣) عليه أحد من هؤلاء! فهكذا يكون حسن التأني والرفق في الدعاء! هذا ورسول الله مقلّ، وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى، وأبو بكر عندكم كان مؤسراً، وكان أبوه مقتراً، وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله، والموسر في فطرة العقول أولى أن يتبع من المقتّر، وإنما حُسن التأني والرفق في الدعاء ما صنعه مُضْعَب بن عمير لسعد بن مُعَاذ لما دعاه، وما صنع سعد بن مُعَاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وما صنع بُرَيْدَة بن الحصيْب بأسلم لما دعاهم، قالوا: أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه، وأسلم بنو عبد الأشهل بدعائه سَعْد في يوم واحد، وأما من لم يسلم ابنه ولا امرأته، ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيئات أن يوصف ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأني والأناة!

قال الجاحظ: ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المعذبين في الله، وهم ست رقاب، منهم بلال، وعامر بن فهيرة، وزنيرة النهدية، وابنتها. ومرّ بجارية يعذبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه، وأعتقها، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۙ﴾^(٤)، إلى آخر السورة.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما بلال وعامر بن فهيرة، فإنما أعتقهما رسول الله ﷺ، روى ذلك الواقدي وابن إسحاق وغيرهما، وأما باقي مواليتهم الأربعة، فإن سامحناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدة بغض مواليتهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها، فأي فخر في هذا! وأما الآية فإن ابن عباس قال في تفسيرها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۙ﴾^(١) فسنيرُهُ لِلْيُسْرَى^(٢)، أي لأن يعود.

(١) النقية: النفس، وقيل: الخليفة. اللسان، مادة (نقب).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٧.

(٣) الثالث: أبطأ. اللسان، مادة (لوث).

(٤) سورة الليل، الآيات: ٥، ٧.

وقال غيره: نزلت في مُضْعَب بن عمير.

قال الجاحظ: وقد علمتم ما صنع أبو بكر في ماله، وكان ماله أربعين ألف درهم، فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه، ولم يكن خفيف الظهر، قليل العيال والنسل، فيكون فاقد جميع اليسارين، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم، ويعول والديه وما ولدا، ولم يكن النبي ﷺ قبل ذلك عنده مشهوراً، فيخاف العار في ترك مواساته، فكان إنفاقه على الوجه الذي لا نجد في غاية الفضل مثله، ولقد قال النبي ﷺ: «ما نفعتي مالٌ كما نفعتني مال أبي بكر»^(١).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله، أخبرونا على أي نوائب الإسلام أنفق هذا المال، وفي أي وجه وضعه؟ فإنه ليس بجائر أن يخفى ذلك ويدرس حتى يفوت حفظه، وينسى ذكره، وأنتم فلم تقفوا على شيء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها في ذلك العصر مائة درهم. وكيف يدعي له الإنفاق الجليل، وقد باع من رسول الله ﷺ بعيرين عند خروجه إلى يثرب، وأخذ منه الثمن في مثل تلك الحال، وروى ذلك جميع المحدثين، وقد رويت أيضاً أنه كان حيث كان بالمدينة غنياً موسراً، ورويت عن عائشة أنها قالت: هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم، وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢)، قلتم: هي في أبي بكر ومسطح بن أثانة، فأين الفقر الذي زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة! ورويت أن الله تعالى في سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة. وأن النبي ﷺ رآهم ليلة الإسراء، فسأل جبرائيل عنهم فقال: هؤلاء ملائكة تأسوا بأبي بكر بن أبي قحافة صديقك في الأرض، فإنه سينفق عليك ماله، حتى يخلل عباءه في عنقه، وأنتم أيضاً رويت أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾^(٣)، الآية لم يعمل بها إلا علي بن أبي طالب وحده^(٤)، مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده، وأبو بكر في الحال التي ذكرنا من السعة أمسك عن مناجاته، فعاتب الله المؤمنين في ذلك، فقال: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً فَإِذَا لَرَّ قَعْلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٥)، فجعله سبحانه ذنباً يتوب عليهم منه، وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة، فكيف سخّث نفسه بإنفاق أربعين ألفاً، وأمسك عن مُناجاة الرسول، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين!

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر (٣٦٦١)، وابن ماجه، كتاب:

المقدمة، باب: فضل أبي بكر الصديق (٩٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٣٩٧).

(٢) سورة النور، الآية: ٢٢. (٣) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٤) أنظر مسند أبي يعلى: ١/٣٢٢ رقم ٤٠٠، وصحيح ابن حبان: ١٥/٣٩٠. وتفسير الطبري: ٢٨/

٢٧.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

وأما ما ذكر من كثرة عياله ونفقته عليهم، فليس في ذلك دليل على تفضيله، لأن نفقته على عياله واجبة، مع أن أرياب السيرة ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئاً، وأنه كان أجيراً لابن جُدعان على مائدته يطرد عنها الذبان.

قال الجاحظ: وقد تعلمون ما كان يلقي أصحاب النبي ﷺ يبطن مكة من المشركين، وحسن صنيع كثير منهم، كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه ففلق هامته، وأبو جهل يومئذ سيد البطحاء ورئيس الكُفر، وأمنع أهل مكة، وقد عرفتم أن الزبير سل سيفه، واستقبل به المشركين، لما أُرِجِفَ أن محمداً ﷺ قد قُتِلَ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم: لا يُعبد الله سراً بعد اليوم، وأن سعداً ضرب بعض المشركين بلخي جمل، فأراق دمه، فكل هذه الفضائل لم يكن لعلي بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِ﴾^(١)، فإذا كان الله تعالى قد فضل من أنفق قبل الفتح، لأنه لا هجرة بعد الفتح، على من أنفق بعد الفتح، فما ظنكم بمن أنفق من قبل الهجرة، ومن لذن مبعث النبي ﷺ إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المعلومه، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على علي بن أبي طالب، ولسنا ننكر غير ذلك، وننكر تعصب الجاحظ للعثمانية، وقصده إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والإبطال. وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل عظيم، ومقام جليل، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله ﷺ، وأما فضل عمر فغير منكر، وكذلك الزبير وسعد، وليس فيما ذكر ما يقتضي كون علي عليه السلام مفضولاً لهم أو لغيرهم، إلا قوله: «وكل هذه الفضائل لم يكن لعلي عليه السلام فيها ناقة ولا جمل»، فإن هذا من التعصب البارد، والحيثف الفاحش، وقد قدمنا من آثار علي عليه السلام قبل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص، ما هو أفضل وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء، على أن أرياب السيرة يقولون: إن الشجرة التي شجها سعد، وإن السيف الذي سلّه الزبير، هو الذي جلب الحصار في الشعب على النبي ﷺ وبني هاشم، وهو الذي سير جعفر وأصحابه إلى الحبشة، وسلّ السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ^(١)، فتبين أن التكليف له أوقات، فمنها وقت لا يصلح فيه سلّ السيف، ومنها وقت يصلح فيه ويجب، فأما قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ﴾^(٢)، فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبي بكر إنفاق المال. وأيضاً فإن الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفرداً، وإنما قرن به القتال، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحزب، فلا تشمل الآية، وكان عليّ عليه السلام صاحب قتال وإنفاق قبل الفتح، أما قتاله فمعلوم بالضرورة، وأما إنفاقه فقد كان على حسب حاله وفقره، وهو الذي أطعم الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورة كاملة من القرآن، وهو الذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهماً سرّاً ودرهماً علانية ليلاً، ثم أخرج منها في النهار درهماً علانية، فأنزل فيه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْإِثْرِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾^(٣)، وهو الذي قدم بين يدي نجواه صدقة دون المسلمين كافة، وهو الذي تصدق بخاتمه وهو راع، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٤).

قال الجاحظ: والحجة العظمى للقائلين بتفضيل عليّ عليه السلام قتله الأقران، وخوضه الحرب، وليس له في ذلك كبير فضيلة، لأن كثرة القتل والمشي بالسيف إلى الأقران، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل، وكان دليلاً على الرياسة والتقدم، لوجب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة، وابن عفرأ، والبراء بن مالك من الفضل ما ليس لرسول الله ﷺ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ولم يحضر الحرب يوم بدر، ولا خالط الصفوف. وإنما معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران، ويجنّد الأبطال، وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز، وهو الرئيس أو ذو الرأي، والمستشير في الحرب، لأن للرؤساء من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة، وعليه مدار الأمور، وبه يستبصر المقاتل، ويستنصر، وباسمه ينهزم العدو، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفر هو لم يغن ثبوت الجيش كله، وكانت الثبرة عليه، ولو ضيع القوم جميعاً وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له، ولهذا لا يضاف النصر والهزيمة إلا إليه، ففضل أبي بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من جهاد عليّ عليه السلام ذلك اليوم، وقتله أبطال قريش.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: لقد أعطي أبو عثمان مقولاً، وحُرم معقولاً، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجدّ، ولم يذهب به مذهب اللّعب والهزل، أو على طريق التفاسيح والتشادق وإظهار القوّة، والسيلاطة وذلاّقة اللسان وحدة الخاطر والقوّة على جدال الخصوم، ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسول الله ﷺ كان أشجع البشر، وأنه خاض الحروب، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الألباب، وبلغت القلوب الحناجر، فمنها يوم أُحد، ووقوفه بعد أن فر المسلمون بأجمعهم، ولم يبق معه إلا أربعة: عليّ، والزبير، وطلحة، وأبو دجانة، فقاتل ورمى بالنبل حتى فنيّت نبله، وانكسرت سيّته^(١) قوسه، وانقطع وتره، فأمر عكاشة بن مخصن أن يوترها، فقال: يا رسول الله: لا يبلغ الوتر، فقال: أوتر ما بلغ. قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق أوترت حتى بلغ، وطويت منه شبراً على سيّته القوس، ثم أخذها فما زال يرميهم، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطمت. وبارز أبي بن خلف، فقال له أصحابه: إن شئت عطف عليه بعضنا! فأبى، وتناول الحربه من الحارث بن الصّمة ثم انتقض بأصحابه، كما ينتقض البعير، قالوا: فتطايّرنا عنه تطايّر الشعارير^(٢)، فطعنه بالحربة، فجعل يخور كما يخور الثور، ولو لم يدلّ على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى: ﴿إِذَا تُصِغِرُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾^(٣)، فكونه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون، هاريين، دليل على أنّه ثبت ولم يفر، وثبت يوم حُنين في تسعة من أهله ورهطه الأذنين، وقد فر المسلمون كلّهم والنفر التسعة محدقون به: العباس أخذ بحكّمة بغلته، وعليّ بين يديه مصليّ سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله ﷺ يمتّنة ويُسرة، وقد انهزم المهاجرون والأنصار، وكلّما فرّوا أقدم هو ﷺ وصمّم مستقديماً، يلقي السيوف والنبال بنحره وصدره، ثم أخذ كفّاً من البطحاء، وخصب المشركين، وقال: شاهت الوجوه! والخبر المشهور عن عليّ عليه السلام، وهو أشجع البشر: «كنا إذا اشتدّ البأس، وخيبي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ ولذنا به»^(٤).

فكيف يقول الجاحظ: إنه ما خاض الحرب، ولا خالط الصّفوف! وأي فزّة أعظم من فزّة من نسب رسول الله ﷺ إلى الإحجام واعتزال الحرب! ثم أي مناسبة بين أبي بكر ورسول الله ﷺ في هذا المعنى ليقسّه وينسبه إلى رسول الله ﷺ صاحب الجيش والدعوة، ورئيس الإسلام والملة، والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسيادة، وإليه الإيماء والإشارة، وهو الذي أحقّ قریشاً والعرب، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم،

(١) سيّته القوس: طرف قابها، وقيل: رأسها. اللسان، مادة (سي).

(٢) الشعارير: لعبة للصبيان، القاموس، مادة (شعر).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

(٤) ذكره الأثير في «النهاية» (١/٨٩)، مادة (بأس).

ثم وترهم فيما بعد بقتل رؤسائهم وأكابرهم! وحق لمثله إذا تنحى عن الحرب واعتزلها أن يتنحى ويعتزل، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء، إذا كان الجيش منوطاً بهم وبيقاتهم، فمتى هلك الملك هلك الجيش، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه، وإن عطب جيشه فإنه يستجد جيشاً آخر، ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه، وخطأوا الإسكندر لما بارز قوسراً ملك الهند، ونسبوه إلى مجانية الحكمة ومفارقة الصواب والحزم، فليقل لنا الجاحظ: أي مدخل لأبي بكر في هذا المعنى؟ ومن الذي كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل؟ وهل هو إلا واحد من غرض المهاجرين، حكمه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وغيرهما! بل كان عثمان أكثر منه صيتاً، وأشرف منه مركباً، والعيون إليه أطمع، والعدو إليه أحنق وأكلب، ولو قتل أبو بكر في بعض تلك المعارك، هل كان يؤثر قتله في الإسلام ضعفاً، أو يحدث فيه وهناً أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفى آثارها، وينطمس منارها! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله ﷺ في مجانية الحروب واعتزالها، نعوذ بالله من الخذلان! وقد علم العقلاء كلهم ممن له بالسيرة معرفة، وبالأثار والأخبار ممارسة، حال حروب رسول الله ﷺ كيف كانت، وحاله ﷺ فيها كيف كان، ووقوفه حيث وقف، وحربه حيث حارب، وجلوسه في العرش يوم جلس، وإن وقوفه ﷺ وقوف رياسة وتدبير، ووقوف ظهر وسند، يتعرف أمور أصحابه، ويحرس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم، وتخلّفه عن التقدّم في أوائلهم، لأنهم متى علموا أنه في آخرهم اطمأنّت قلوبهم، ولم تتعلق بأمره نفوسهم، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوهم، ولا يكون لهم فئة يلجأون إليها، وظهر يرجعون إليه، ويعلمون أنه متى كان خلفهم تفقد أمورهم، وعلم مواقفهم، وأوى كل إنسان مكانه في الحماية والنكاية وعند المنازلة في الكرّ والحيلة، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم، وأحمى وأحرس لبيضتهم^(١)، ولأنه المطلوب من بينهم، إذ هو مدبر أمورهم، ووالي جماعتهم، ألا ترون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف، وأن صلاح الحرب في وقوفه، وأن فضيلته في ترك التقدّم في أكثر حالاته، فللرئيس حالات:

الأولى: حالة يتخلّف ويقف آخر ليكون سنداً وقوة، وردءاً وعدة، وليتولّى تدبير الحرب، ويعرف مواضع الخلل.

والحالة الثانية: يتقدّم فيها في وسط الصف ليقوي الضعيف، ويشجع الناكس.

وحالة ثالثة: وهي إذا اصطدم الفيلقان، وتكافح السيفان، اعتمد ما تقتضيه الحال من

(١) البيضة: أصل القوم ومجتمعهم، اللسان مادة (بيض).

الوقوف حيث يستصلح، أو من مباشرة الحرب بنفسه، فإنها آخر المنازل، وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجدة، وفَسَالَةُ الجبان المموه.

فأين مقام الرئاسة العظمى لرسول الله ﷺ! وأين منزلة أبي بكر ليسوي بين المنزلتين، ويناسب بين الحاليتين!

ولو كان أبو بكر شريكاً لرسول الله ﷺ في الرسالة، وممنوحاً من الله بفضيلة النبوة، وكانت قريش والعرب تطلبه كما تطلب محمداً ﷺ، وكما يدبر من أمر الإسلام وتسيير العساكر وتجهيز السرايا، وقتل الأعداء، ما يدبره محمد ﷺ، لكان للجاحظ أن يقول ذلك، فأما وحاله حاله، وهو أضعف المسلمين جناحاً، وأقلهم عند العرب ترة، لم يرم قط بسهم، ولا سل سيفاً، ولا أراق دمماً، وهو أحد الأتباع، غير مشهور ولا معروف، ولا طالب ولا مطلوب، فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزله مقام رسول الله ﷺ ومنزله! ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فرآه أبو بكر، فقام مغبطاً عليه، فسل من السيف مقدار أصبع، يريد البروز إليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، شم سيفك وأمتعنا بنفسك»^(١)، ولم يقل له: «وأمتعنا بنفسك» إلا لعلمه بأنه ليس أهلاً للحرب وملاقة الرجال، وأنه لو بارز لقتل.

وكيف يقول الجاحظ: لا فضيلة لمباشرة الحرب، ولقاء الأقران، وقتل أبطال الشرك! وهل قامت عمدة الإسلام إلا على ذلك! وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك! أترأه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ يُنْفِئُونَ مَرْصُومًا﴾^(٢) والمحبة من الله تعالى هي إرادة الثواب، فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً، كان أحب إلى الله، ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً فعلي عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله، لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص، لم يفر قط بإجماع الأمة، ولا بارزه قرن إلا قتله.

أترأه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾^(٤)، ثم قال سبحانه مؤكداً لهذا البيع والشراء: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥)، وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾^(٦).

(١) ذكره المحب الطبري في «الرياض النضرة» (٤٦/٢).

(٢) سورة الصف، الآية: ٤. (٣) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١. (٥) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

فمواقف الناس في الجهاد على أحوال، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض، فمن دلف إلى الأقران، واستقبل السيوف والأسنة، كان أثقل على أكتاف الأعداء، لشدة نكايته فيهم، ممن وقف في المعركة، وأعان ولم يُقدِّم، وكذلك مَنْ وقف في المعركة، وأعان ولم يُقدِّم، إلا أنه بحيث تناله سهام والنبل أعظم غناءً، وأفضل ممن وقف حيث لا يناله ذلك، ولو كان الضعيف والجبال يستحقان الرياسة بقلّة بسط الكف وترك الحرب، وأن ذلك يشاكل فعل النبي ﷺ، لكان أوفر الناس حظاً في الرياسة، وأشدّهم لها استحقاقاً حسّان بن ثابت، وإن بطل فضل عليّ ﷺ في الجهاد، لأن النبي ﷺ كان أقلّهم قتالاً، كما زعم الجاحظ ليبطلن على هذا القياس فضل أبي بكر في الإنفاق، لأن رسول الله ﷺ كان أقلّهم مالاً

وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش، ونظرت السّير، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمداً ﷺ وتقصد قُصده، وتروم قتله، فإن أعجزها وفاتها طلبت علياً ﷺ، وأرادت قتله، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً، وأقربهم منه قريباً، وأشدّهم عنه دفعاً، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد ﷺ وكسروا شوكته، إذ كان أعلى مَنْ ينصر في البأس والقوة والشجاعة والتجدة والإقدام واليسالة. ألا ترى إلى قول عتبة بن ربيعة يوم بدر، وقد خرج هو وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، فأخرج إليه الرسول نفراً من الأنصار، فاستنسبهم فانتسبوا لهم، فقالوا: ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا: يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا، فقال النبي ﷺ لأهله الأذنين: «قوموا يا بني هاشم، فانصروا حقكم الذي أتاكم الله على باطل هؤلاء، قم يا علي، قم يا حمزة، قم يا عبيدة»^(١).

ألا ترى ما جعلت هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد، لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر، ألم تسمع قول هند ترثي أهلها:

مَا كَانَ عَنْ عُثْبَةَ لِي مِنْ صَبْرٍ أَبِي وَعَمِّي وَشَفِيقِ صُدْرِي

أَخِي الَّذِي كَانَ كَضَوْءِ الْبَدْرِ بِهِمْ كَسَرَتْ يَا عَلِيّ ظَهْرِي

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة، وشرك في قتل أبيها عتبة، وأما عمّاه شيبة، فإن حمزة تفرد بقتله.

وقال جبير بن مطعم لوحشي مولاة يوم أحد: إن قتلت محمداً فانت حرّ، وإن قتلت علياً فانت حرّ وإن قتلت حمزة فانت حرّ، فقال: أما محمد فسيمنعه أصحابه، وأما عليّ فرجل حذر كثير الالتفات في الحرب، ولكني سأقتل حمزة، فقعد له وزّره^(٢) بالحرّبة فقتله.

ولما قلنا من مقاربة حال عليّ ﷺ في هذا الباب لحال رسول الله ﷺ ومُناسبتها إياها

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم: ٢٦٦٥.

(٢) زَرَقَه: رماه. القاموس، مادة (زرق).

ما وجدناه في السَّيَر والأخبار، من إشفاق رسول الله ﷺ وحذره عليه، ودعائه له بالحفظ والسلامة، قال ﷺ يوم الخندق، وقد برز عليّ إلى عمرو، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه: «اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليّ علياً»^(١) ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢)، ولذلك ضنّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مراراً، في كلِّها يحجمون ويُقدِّم عليّ، فيسأل الإذن له في البراز حتّى قال له رسول الله ﷺ: «إنه عمرو!»، فقال: «وأنا عليّ»، فأدناه وقبله بعمامته، وخرج معه خطوات كالمودّع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه، ثم لم يزل صلى الله عليه وآله رافعاً يديه إلى السماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون ضُموت حوله، كأنما على رؤوسهم الطير، حتّى ثارت الغبرة، وسمعوا التكبير من تحتها، فعلموا أنّ علياً قتلَ عمراً، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون تكبيرة سمعها مَنْ وراء الخندق من عساكر المشركين، ولذلك قال حذيفة بن اليمان: لو قُسمت فضيلة عليّ عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم^(٣). وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٤)، قال: بعليّ بن أبي طالب^(٥).

قال الجاحظ: على أنّ مشي الشجاع بالسيف إلى الأقران، ليس على ما توقّعه من لا يعلم باطن الأمر، لأنّ معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرها الناس، وإنّما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته، فربّما كان سبب ذلك الهوج، وربّما كان الفرارة والحدّاث، وربّما كان الإحراج والحميّة، وربّما كان لمحبة النفخ والأحدوثة، وربّما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم والسخيّ والبخيل.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال للجاحظ: فعلى أيّها كان مشي عليّ بن أبي طالب إلى الأقران بالسيف؟ فأبما قلت من ذلك بانّت عداوتك لله تعالى ولرسوله، وإن كان مشيه ليس على وجه ممّا ذكرت، وإنّما كان على وجه النّصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة،

(١) أخرجه الأميني في الغدير: ٢١٢/٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) أخرجه الأميني في الغدير: ٢١٢/٧.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

(٥) أنظر الغدير: ٢١٢/٧، والدر المثور: ١٩٢/٥.

والجهاد في سبيل الله، وإعزاز الدين، كنت بجميع ما قلت معانداً، وعن سبيل الإنصاف خارجاً، وفي إمام المسلمين طاعناً، وإن تطرق مثل هذا الوهم على عليّ عليه السلام ليتطرق مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الذين نصرُوا رسول الله ﷺ بأنفسهم ووقوه بمهجهم، وفدوه بأبنائهم وآبائهم، فلعل ذلك كان لعل من العلل المذكورة، وفي ذلك الطعن في الدين، وفي جماعة المسلمين.

ولو جاز أن يتوهم هذا في عليّ عليه السلام وفي غيره، لما قال رسول الله ﷺ حكاية عن الله تعالى لأهل بدر: «أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١)، ولا قال لعليّ عليه السلام: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(٢)، ولا قال: «أوجب طلحة»^(٣).

وقد علمنا ضرورة من دين رسول الله ﷺ تعظيمه لعليّ عليه السلام تعظيماً دينياً، لأجل جهاده ونصرتة، فالطاعن في رسول الله ﷺ، إذ زعم أنه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله تعالى، بل لأمر آخر من الأمور التي عددها، ويعتد على التفوه بها إغواء الشيطان وكيد، والإفراط في عداوة من أمر الله بمحبته، ونهى عن بغضه وعداوته.

أترى رسول الله ﷺ خفي عليه من أمر عليّ عليه السلام ما لاح للجاحظ والعثمانية، فمدحه وهو غير مستحق للمدح!

قال الجاحظ: فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتاله طاعة، وفراره معصية، لأن نفسه معتدلة، كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعاً، وفراره طباعاً.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال له: فلعل إنفاق أبي بكر على ما تزعم أربعين ألف درهم لا ثواب له، لأن نفسه ربما تكون غير معتدلة، لأنه يكون مطبوعاً على الجود والسخاء، ولعل خروجه مع النبي ﷺ يوم الهجرة إلى الغار لا ثواب له فيه، لأن أسبابه كانت له مهتجة، ودواعيه غالبية، محبة الخروج، وبغض المقام، ولعل رسول الله ﷺ في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات الخمس في جوف الليل، وتديره أمر الأمة لا ثواب له فيه، لأنه قد تكون

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر وقصة حاطب (٢٤٩٤).

(٢) أنظر ينابيع المودة: ٢٨١/١، والطرائف لابن طاووس: ٣٥ رقم ٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الدرر (١٦٩٢)، وأحمد في مسنده (١٤٢٠).

نفسه غير معتدلة، بل يكون في طباعه الرياسة وحبها، والعبادة والالتذاذ بها، ولقد كنا نعجب من مذهب أبي عثمان أن المعارف ضرورة، وأنها تقع طباعاً، وفي قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه، فزعم أنه ربما يكون جهاد علي عليه السلام وقتله المشركين لا ثواب له فيه، لأنه فعله طبعاً، وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التولد.

قال الجاحظ: وَوَجْهٌ آخَرُ أَنَّ عَلِيًّا لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُ شِيعَتُهُ، مَا كَانَ لَهُ بَقْتُلُ الْأَقْرَانِ كَبِيرِ فَضِيلَةٍ، وَلَا عَظِيمِ طَاعَةٍ، لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «سَتَقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ»^(١)، فَإِذَا كَانَ قَدْ وَعَدَهُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ فَقَدْ وَثِقَ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَقْرَانِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مَنْصُورٌ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلُهُمْ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ جِهَادُ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرِ أَعْظَمَ طَاعَةً مِنْهُ.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا راجع على الجاحظ في النبي ﷺ، لأن الله تعالى قال له: ﴿وَاللَّهُ يَقْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢)، فلم يكن له في جهاده كبير طاعة، وكثير طاعة، وكثير من الناس يروي عنه ﷺ: «اقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(٣) فوجب أن يبطل جهادهما، وقد قال للزبير: «سَتَقَاتِلُ عَلِيًّا، وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ»^(٤)، فأشعره بذلك أنه لا يموت في حياة رسول الله ﷺ، وقال في الكتاب العزيز لطلحة: ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٥)، قالوا: نزلت في طلحة، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده، فوجب ألا يكون لهما كبير ثواب في الجهاد، والذي صحَّ عندنا من الخبر وهو قوله: «سَتَقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ»، أنه قال لما وضعت الحرب أوزارها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ووضعت الجزية، ودانت العرب قاطبة.

قال الجاحظ: ثم قصد الناصرون لعلي، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم، وليسوا هناك! فمنهم عمرو بن عبدود تركتموه أشجع من عامر بن الطفيل

(١) تقدم تخريجه. (٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر وعمر كليهما (٣٦٦٢)، وأحمد في مسنده (٢٢٧٣٤).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٥١٥/٢).

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس، وقد سمعنا بأحاديث حروب الفجار وما كان بين قريش ودؤس وحلف الفضول، فما سمعتُ لعمر بن عبدود ذكراً في ذلك.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمر عمرو بن عبدود أشهر وأكثر من أن يُحتج له، فلتلّمح كتب المغازي والسّير، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لما قتل، فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه، قال: وقال مسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن جُمح يكي عمرو بن عبد الله بن عبدود حين قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد أي قطع الخندق.

عمرو بن عبد كان أول فارس
سمحُ الخلائق ما جُدّ ذو مرة
ولقد علمتم حين ولّوا عنكم
حتى تكتفّ الكُماة وكلّهم
ولقد تكتفت الفوارس فارساً
سال النّزال هناك فارس غالب
فاذهب عليّ ما ظفرت بمثلها
نفسى الفداء لفارس من غالب
أعني الذي جزع المذاد ولم يكن

جزع المذاد وكان فارس مليل
يبغي القتال بشكّة لم ينكل
أن ابن عبد منهم لم ينجل
يبغي القتال له وليس بمؤتل
بجنوب سلع غير نكس أميل
بجنوب سلع لبيته لم ينزل
فخراً ولو لا قيت مثل المفضل
لاقى حمام الموت لم يتحلحل
قشلاً وليس لدى الحروب بزمل

وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، يعتذر من فراره عن عليّ بن أبي طالب، وتركه عمراً يوم الخندق ويكيه:

لعمرك ما ولّيت ظهري محمداً
ولكنني قلبت أمري فلم أجد
وقفت فلما لم أجد لي مقدماً
ثنى عطفه عن قرنيه حين لم يجد
فلا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً
ولا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً
فمن لطراد الخيل تُقدع بالقنا
هنالك لو كان ابن عمرو لزارها
كفتك عليّ لن ترى مثل موقف
فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها
وقال هُبيرة بن أبي وهب أيضاً، يرثي عمراً ويكيه:

وأصحابه جُبناً ولا خيفة القتل
لسيفي غناء إن وقفت ولا نبلي
صدرت كضرغام هزلز إلى شبل
مجالاً وكان الحزم والرأي من فغلي
فقد مت محمودة الشنا ما جُدّ الفعل
فقد كنت في حرب العدا مُرهف النّضل
وللبذل يوماً عند قرقرة البزل
وقرّجها عنهم فتى غير ما وغل
وقفت على شلّو المقدم كالفحل
أمنت بها ما عشت من زلة النّغل

لِفَارِسِهَا عَمْرُو، إِذَا نَابَ نَائِبُ
عَلِيٍّ، وَإِنْ الْمَوْتُ لَا شَكَّ طَالِبُ
لِفَارِسِهَا إِذْ خَامَ عَنْهُ الْكَتَائِبُ
بِثَرَبٍ، لَا زَالَتْ هُنَاكَ الْمَصَائِبُ
وَلِلْخَيْرِ يَوْمًا لَا مُحَالَةَ جَالِبُ

كَيْفَ الْعُبُورُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَنْظُرِ
وَلَقَدْ وَجَدَتْ جِيَادُنَا لَمْ تُقْصِرِ
ضَرْبُوكَ ضَرْبًا غَيْرَ ضَرْبِ الْحَسْرِ
يَا عَمْرُو أَوْ لَجْسِيمِ أَمْرٍ مُنْكَرِ

وَمُخْزُومٍ وَتَيْنِمٍ مَا تُقِيلُ
كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ
تَطَاوَلَهُ الْأَسِنَّةُ وَالنُّصُورُ
تَكْشَفَتْ الْمَقَانِبُ وَالْخُيُولُ
جُرَازًا لَا أَفْلُ وَلَا نَكُورُ
عَلَى عَفْرَاءٍ، لَا بَعْدَ الْقَتِيلِ

لَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا لَوْيَ بْنَ غَالِبٍ
وَفَارِسِهَا عَمْرُو إِذَا مَا يَسْرِقُهُ
عَشِيَّةً يَدْعُوهُ عَلِيٌّ وَإِنَّهُ
فِيَا لَهْفٍ نَفْسِي، إِنَّ عَمْرًا لَكَائِنُ
لَقَدْ أَحْرَزَ الْعَلِيَّا عَلِيٌّ بِقَتْلِهِ

وَقَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ يَذْكُرُ عَمْرًا:

أَمْسَى الْفَتَى عَمْرُو بْنُ عَبْدِ نَازِرٍ
وَلَقَدْ وَجَدَتْ سَيُوفُنَا مَشْهُورَةٌ
وَلَقَدْ لَقِيتُ غَدَاةَ بَدْرِ عُصْبَةٍ
أَصْبَحَتْ لَا تُدْعَى لِيَوْمٍ عَظِيمَةٍ

وَقَالَ حَسَانُ أَيْضًا:

لَقَدْ شَقِيتُ بَنُو جُمَحٍ بِنِ عَمْرُو
وَعَمْرُو كَالْحَسَامِ فَتَى قَرِيشٍ
فَتَى مِنْ نَسْلِ عَامِرٍ أَرِيحِي
دَعَاءُ الْفَارِسِ الْمَقْدَامِ لَمَّا
أَبُو حَسَنِ فَقَنَعَهُ حُسَامًا
فَفَادَرَهُ مَكْبًا مُسْلَجِيًّا^(١)

فهذه الأشعار فيه بل بعض ما قيل فيه.

وَأَمَّا الْأَثَارُ وَالْأَخْبَارُ، فَمَوْجُودَةٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَأَيَّامِ الْفُرْسَانِ وَوَقَائِعِهِمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَرْبَابِ هَذَا الْعِلْمِ يَذْكُرُ عَمْرًا إِلَّا قَالَ: كَانَ فَارِسَ قَرِيشٍ وَشَجَاعَهَا، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ حَسَانُ:

وَلَقَدْ لَقِيتُ غَدَاةَ بَدْرِ عُصْبَةٍ

لَأَنَّهُ شَهِدَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِذُرًّا، وَقَتَلَ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ فَرَّ مَعَ مَنْ فَرَّ، وَلَحِقَ بِمَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَالَ وَعَاهَدَ اللَّهُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ أَلَّا يَدْعُوهُ أَحَدٌ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَّا أَجَابَهُ. وَأَثَارُهُ فِي أَيَّامِ الْفُجَارِ مَشْهُورَةٌ تَنْطِقُ بِهَا كُتُبُ الْأَيَّامِ وَالْوَقَائِعِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ مَعَ الْفُرْسَانِ الثَّلَاثَةَ وَهُمْ: عُثْبَةُ وَبِسْطَامٌ وَعَامِرٌ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ غَارَاتٍ وَنَهْبٍ، وَأَهْلَ بَادِيَةٍ، وَقَرِيشَ أَهْلَ مَدِينَةٍ وَسَاكِنُو مَدَرٍ وَحَجَرٍ، لَا يَرُونَ الْغَارَاتِ، وَلَا يَنْهَبُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، وَهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الْمَقَامِ بِلَدَّتِهِمْ وَحِمَايَةِ حَرَمِهِمْ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَشْتَهَرِ اسْمُهُ كَاشْتَهَارِ هَؤُلَاءِ.

(١) مسلحاً: ممتداً. اللسان، مادة (سلحب).

ويقال له: إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك، فما باله لما جَزَعَ الخندق في ستة فرسان هو أحدهم، فصار مع أصحاب النبي ﷺ على أرض واحدة، وهم ثلاثة آلاف، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه، ولا سمح منهم أحد بنفسه، حتى وبّخهم وقرّعهم، وناداهم: أستم تزعمون أنه من قُتل منا فإلى النار، ومن قُتل منكم فإلى الجنة! أفلا يشتاقي أحدكم إلى أن يذهب إلى الجنة، أو يقدم عدوه إلى النار فجنبوا كلهم ونكلوا، وملّكهم الرعب والوهل، فإمّا أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم! وقد روى الناس كلهم الشعر الذي أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه، وأنه جال بفرسه واستدار وذهب يمينه، ثم ذهب يسره، ثم وقف تجاه القوم، فقال:

ولقد بححت من النداء
ووقفْتُ إذ جُبُن المشييع
وكذاك أنسي لسم أزل
إن الشجاعة في الفتى
فلما برز إليه عليّ أجابه، فقال له:

لا تعجلن فقد أنا
ذو نية وبصيرة
إنني لأرجو أن أقـ
من ضربة تفني ويـ
ك مجيب صوتك غير عاجز
يرجو الغداة نجاة فائز
يم عليك نائحة الجنائز
قى ذكرها عند الهزائم

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعض جهال الأنصاري، لما رجع رسول الله من بدر، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرًا: إن قتلنا إلا عجائز صُلُعا! فقال له النبي ﷺ: «لا تقل ذلك يا ابن أخ، أولئك الملا»^(١)

قال الجاحظ: وقد أكثروا في الوليد بن عُتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضر حرباً قط قبلها، ولا ذكر فيها.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كل من دون أخبار قريش وآثار رجالها، وصف الوليد بالشجاعة والبسالة، وكان مع شجاعته أنه يصارع الفتيان فيصرعهم، وليس لأنه لم يشهد حرباً

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٦/١٧).

قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعاً، فإنّ علياً عليه السلام لم يشهد قبل بدر حرباً، وقد رأى الناس آثاره فيها.

قال الجاحظ: وقد ثبت أبو بكر مع النبي ﷺ يوم أحد، كما ثبت علي، فلا فخر لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا ثباته يوم أحد: فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونه، وجمهورهم يروي أنه لم يبق مع النبي ﷺ إلا علي وطلحة والزبير، وأبو دجّانة، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامس وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم من أثبت سادساً، وهو المقداد بن عمرو، وروي يحيى بن سلمة بن كهيل قال: قلت لأبي: كم ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد؟ فقال: اثنان، قلت: من هما؟ قال: علي وأبو دجّانة.

وهب أنّ أبا بكر ثبت يوم أحد كما يدّعيه الجاحظ، أبجوز له أن يقول: ثبت كما ثبت علي، فلا فخر لأحدهما على الآخر، وهو يعلم آثار علي عليه السلام ذلك اليوم، وأنه قتل أصحاب الأولية من بني عبد الدار، منهم طلحة بن أبي طلحة، الذي رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه مردف كبشاً، فأوله وقال: كبش الكنية نقتله. فلما قتله علي عليه السلام مبارزة - وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم - كبر رسول الله ﷺ، وقال: «هذا كبش الكنية»^(١).

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله ﷺ، وقد فرّ الناس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قريش، فيقول: «يا علي، اكفني هذه»^(٢) فيحمل عليها فيهزمها، ويقتل عبيدها، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قبل السماء.

لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَا رِ وَلَا فَئِي إِلَّا عَلِي

وحتى قال النبي ﷺ عن جبرائيل ما قال.

أتكون هذه آثاره وأفعاله، ثم يقول الجاحظ: لا فخر لأحدهما على صاحبه!

﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٣).

قال الجاحظ: ولأبي بكر في ذلك اليوم مقام مشهور، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفراً في الحديد، يسأل المبارزة، ويقول: أنا عبد الرحمن بن عتيق! فنهض إليه أبو بكر يسعى بسيفه، فقال له النبي ﷺ: «شم سيفك وارجع إلى مكانك، ومتّعاً بنفسك»^(٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤١)، والحاكم في «المستدرک» (٢٥٨٨).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٢٨/٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٤) تقدم تخريجه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر، فإنه لو تسمعه الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب، لأن قول النبي ﷺ: «ارجع» دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه، وأنت تعلم حنو الابن على الأب وتبجيله له، وإشفاقه عليه وكفه عنه، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبي. وقوله له: «ومتعنا بنفسك»، إيذان له بأنه كان يقتل لو خرج، ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ، فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذي صلي بالحرب، ومشى إلى السيف بالسيف، فقتل السادة والقادة والفُرسان والرجالة!

قال الجاحظ: على أن أبا بكر - وإن لم تكن آثاره في الحرب كآثار غيره - فقد بذل الجهد، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوته، وإذا بذل المجهود فلا حال أشرف من حاله. قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما قوله إنه بذل الجهد، فقد صدق، وأما قوله: «لا حال أشرف من حاله»، فخطأ، لأن حال من بلغت قوته فأعملها في قتل المشركين أشرف من حال من نقصت قوته عن بلوغ الغاية، ألا ترى أن حال الرجل أشرف في الجهاد من حال المرأة، وحال البالغ الأيد أشرف من حال الصبي الضعيف!

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي رحمه الله في نقض العثمانية، اقتصرنا عليها هنا، وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه، إذا اقتضت الحال ذكره.

٢٣٩ - ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن عباس، وقد جاءه برسالة من عثمان، وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع، ليقل هتف الناس باسمه للخلافة، بعد أن كان سأل مثل ذلك من قبل

الأصل: فقال عليه السلام: يَا بَنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالْغَرْبِ، أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أَيْمًا.

الشرح: ينبع على «يفعل» مثل يحلم ويحكم: اسم موضع، كان فيه نخل لعل بن أبي طالب عليه السلام، وينبع الآن بلد صغير من أعمال المدينة.

وهتف الناس باسمه : نداؤهم ودعاؤهم ، وأصله الصوت ، يقال : هتف الحمام يهتف هتفاً ، وهتف زيد بعمره هتافاً ، أي صاح به ، وقوس هتافة وهتقى ، أي ذات صوت .

والناضح : البعير يُستقى عليه ، وقال معاوية لقيس بن سعد - وقد دخل عليه في رهط من الأنصار - : ما فعلت نواضحكم ! يهزأ به ، فقال : أنصبتها في طلب أبيك يوم بدر . والغرب : الدلو العظيمة .

قوله : «أقبل وأدبر» ، أي يقول لي ذلك ، كما يقال : للناضح ، وقد صرح العباس بن مرداس بهذه الألفاظ فقال :

أراك إذا أصبحت للقوم ناضحاً يقال له بالغرب أدبر وأقبل

قوله : «لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكون أثماً» ، يحتمل أن يريد بالغتُ واجتهدت في الدفاع عنه ، حتى خشيت أن أكون أثماً في كثرة مبالغتي واجتهادي في ذلك ، وإنه لا يستحق الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه ، وهذا تأويل من ينحرف عن عثمان ، ويحتمل أن يريد : لقد دفعتُ عنه حتى كدت أن ألقى نفسي في الهلكة ، وأن يقتلني الناس الذين ثاروا به ، فخفتُ الإثم في تغيري بنفسي وتوريطها في تلك الورطة العظيمة ، ويحتمل أن يريد : لقد جاهدت الناس دونه ودفعتهم عنه ، حتى خشيت أن أكون أثماً بما نلتُ منهم من الضرب بالسوط ، والدفع باليد ، والأعانة بالقول ، أي فعلت من ذلك أكثر مما يحب .

وصية العباس لعلي عليه السلام قبل موته

قرأتُ في كتاب صنفه أبو حيان التوحيدي في تقرير الجاحظ ، قال : نقلت من خط الصولي : قال الجاحظ : إن العباس بن عبد المطلب أوصى علي بن أبي طالب عليه السلام في عِلته التي مات فيها ، فقال : أي بني إني مُشفٍ^(١) على الظعن عن الدنيا إلى الله ، الذي فاقتني إلى عفوه وتجاوزة أكثر من حاجتي إلى ما أنصحك فيه ، وأشير عليك به ، ولكن العرق نبوض ، والرحم غروض ، وإذا قضيتُ حق العمومة ، فلا أبالي بعدُ إن هذا الرجل - يعني عثمان - قد جاءني مراراً بحديثك ، وناظرني ملايناً ومخاشناً في أمرك ، ولم أجِدْ عليك إلا مثل ما أجِدْ منك عليه ، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ما أجِدْ منك له ، ولستُ تؤثني من قلة علم ، ولكن من قلة قبول ، ومع هذا كله فالرأي الذي أودعك به أن تمسك عنه لسانك ويدك ، وهمزك وغمزك ، فإنه لا يبدوك ما لم تبدأه ، ولا يجيبك عما لم يبلغه ، وأنت المتجني وهو المتأني ، وأنت العائب وهو الصامت . فإن قلت : كيف هذا وقد جلس مجلساً أنا به أحق ، فقد قاربتُ ! ولكن ذاك بما كسبت يداك ، ونكص عنه عقيبك ، لأنك بالأمس الأدنى ، هرولت إليه تظن أنهم يحلون جيدك ،

(١) مشف : يقال أشفى على الهلاك : أشرف عليه . اللسان ، مادة (شفي) .

ويختمون أصبعك، ويطنون عقيبك، ويرؤن الرُّشد بك، ويقولون: لا بد لنا منك، ولا معدل لنا عنك، وكان هذا من هفواتك الكُبر، وهناتك التي ليس لك منها عذر، والآن بعد ماثللت عرشك بيدك، ونبذت رأي عمك في البيداء يتدهده^(١) في السَّافياء، خذ بأحزم ممّا يتوضّح به وجه الأمر، لا تشار هذا الرجل ولا تماره، ولا يبلغته عنك ما يُحنقه عليك، فإنه إن كاشفك أصاب أنصاراً، وإن كاشفته لم تر إلا ضراراً، ولم تستلج إلا عثاراً، واعرف مَنْ هو بالشام له، ومن هاهنا حوله من يطيع أمره، ويمثل قوله، لا تغترز بناسٍ يُطيفون بك، ويدعون الحنو عليك والحب لك، فإنهم بين مولى جاهل، وصاحب متمنٍ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضر، ولو ظن الناس بك ما تظن بنفسك لكان الأمر لك، والزمام في يدك، ولكن هذا حديث يوم مرض رسول الله ﷺ فات، ثم حرّم الكلام فيه حين مات، فعليك الآن بالعزوف عن شيء عرضك له رسول الله ﷺ، فلم يتم، وتصديت له مرة بعدة مرة فلم يستقم، ومن ساور الدهر غلب، ومن حرص على ممنوع تعب، فعلى ذلك فقد أوصيت عبد الله بطاعتك، وبعثته على متابعتك، وأوجرته محبتك، ووجدت عنده من ذلك ظني به لك، لا تؤثّر قوسك إلا بعد الثقة بها، وإذا أعجبتك فانظر إلى سيّتها^(٢)، ثم لا تفوق إلا بعد العلم ولا تغرق في النزاع إلا لتصيب الرمية، وانظر لا تطرف يمينك عينك، ولا تجن شمالك شينك، ودغني بآيات من آخر سورة الكهف، وقم إذا بدا لك.

قلت: الناس يستحسنون رأي العباس لعليّ عليه السلام في ألا يدخل في أصحاب الشورى وأما أنا فلاني استحسنه إن قصد به معنى، ولا أستحسنه إن قصد به معنى آخر، وذلك لأنه إن أجرى بهذا الرأي إلى ترفعه عليهم، وعلو قدره عن أن يكون مماثلاً لهم، أو أجرى به إلى زهده في الإمارة، ورغبته عن الولاية، فكل هذا رأى حسنٌ وصواب، وإن كان منزعه في ذلك إلى أنك إن تركت الدخول معهم، وانفردت بنفسك في دارك، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك، فإنهم يطلبونك، ويضربون إليك آباط الإبل، حتى يولوك الخلافة، وهذا هو الظاهر من كلامه، فليس هذا الرأي عندي بمستحسن، لأنه لو فعل ذلك لولوا عثمان أو واحداً منهم غيره، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبعثهم على طلبه، بل كان تأخره عنهم قرّة أعينهم، وواقعاً بإيثارهم، فإن قريشاً كلّها كانت تُبغضه أشدّ البغض، ولو عمر عمر نوح، وتوصل إلى الخلافة بجميع أنواع التوصل، كالزهد فيها تارة، والمناشدة بفضائله تارة، وبما فعله في ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلاً إلى بيوت الأنصار، وبما اعتمده إذ ذاك من تخلفه في بيته، وإظهار أنه قد انعكف على جمع القرآن، وبسائر أنواع الحيل فيها، لم تحصل له

(١) يتدهده: يتدحرج. القاموس، مادة (دهده).

(٢) سية القوس: طرف قابها، وقيل: رأسها. اللسان، مادة (سي).

إلا بتجريد السيف، كما فعل في آخر الأمر، ولست ألوّم العرب، لاسيّما قريشاً في بغضها له، وانحرافها عنه، فإنه وترها، وسفك دماءها، وكشف القناع في منابذتها، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد في النفوس، كما نشاهده اليوم عياناً، والناس كالناس الأول، والطبائع واحدة، فأحسب أنك كنت من ستين أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم، وقد قتل واحد من المسلمين ابنك أو أخاك، ثم أسلمت، أكان إسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشنأته؟ كلا. إن ذلك لغير ذاهب، هذا إذا كان الإسلام صحيحاً، والعقيدة محققة، لا كإسلام كثير من العرب، فبعضهم تقليداً، وبعضهم للطمع والكسب، وبعضهم خوفاً من السيف، وبعضهم على طريق الحمية والانتصار، أو لعداوة قوم آخرين من أضداد الإسلام وأعدائه.

واعلم أن كل دم أراقه رسول الله ﷺ بسيف علي عليه السلام وبسيف غيره، فإن العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب عليه السلام وحده، لأنه لم يكن في رهنه من يستحق في شرعهم وسنتهم وعاداتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلي وحده، وهذه عادة العرب إذا قتل منها قتلى طالبت بتلك الدماء القاتل، فإن مات، أو تعذرت عليها مطالبتة، طالبت بها أمثل الناس من أهله.

لما قتل قوم من بني تميم أخاً لعمر بن هند، قال بعض أعدائه يحرض عمرأ عليهم:

مَنْ مَبْلَغُ عَمْرَأَ بَانَ الْمَرْءُ لَمْ يُخْلَقْ صُبَارَةً^(١)

وَحَوَادِثُ الْإِيَّامِ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَّا الْحَجَارَةُ

هَـا إِنْ عَجَزَ أَمْسُهُ بِالسَّفْحِ اسْفَلْ مِنْ أَوَارَةٍ

تَسْفَى الرِّيحُ كَشْفُهُ حَبِيهِ^(٢) وَقَدْ سَلَبُوا إِزَارَةَ

فَاقْتُلْ زُرَّارَةَ لَا أَرَى فِي الْقَوْمِ أَمْثَلَ مِنْ زُرَّارَةَ

فأمره أن يقتل زُرارة بن عُدس رئيس بني تميم، ولم يكن قاتلاً أخا الملك ولا حاضراً قتله.

ومن نظر في أيام العرب ووقائعها ومقاتلتها عرف ما ذكرناه.

سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد رحمه الله، فقلت له: إني لأعجب من علي عليه السلام

كيف بقي تلك المدة الطويلة بعد رسول الله ﷺ، وكيف ما اغتيل وقتك به في جوف منزله، مع تلظي الأكباد عليه!

(١) الصُّبَارَةُ: الحجارة، وقيل: الحجارة المُلس. اللسان، مادة (صبر).

(٢) الكشع: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو من لدن السرة إلى المتن، اللسان، مادة (كشع).

فقال: لولا أنه أرغم أنفه بالثراب، ووضع خذّه في حضيض الأرض لقتل، ولكنه أخمل نفسه، واشتغل بالعبادة والصلاة والنظر في القرآن، وخرج عن ذلك الزي الأول، وذلك الشعار ونسي السيف، وصار كالفاتك يثوب ويصير سائحاً في الأرض، أو راهباً في الجبال، ولما أطاع القوم الذين ولّوا الأمر، وصار أدلّ لهم من الحذاء، تركوه وسكتوا عنه، ولم تكن العرب لتقدم عليه إلا بمواطأة من متولّي الأمر، وباطن في السرّ منه، فلما لم يكن لولاية الأمر باعثٌ وادعٍ إلى قتله وقّع الإمساك عنه، ولولا ذلك لقتل، ثم أجل بعد معقل حصين.

فقلت له: أحق ما يقال في حديث خالد؟ فقال: إن قوماً من العلوية يذكرون ذلك.

ثم قال: وقد روي أنّ رجلاً جاء إلى زفر بن الهذيل، صاحب أبي حنيفة، فسأله عما يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم، نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدّث! فقال: إنّه جائز، قد قال أبو بكر في تشهده ما قال، فقال الرجل: وما الذي قاله أبو بكر؟ قال: لا عليك، فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة، فقال: أخرجوه أخرجوه، قد كنت أحدث أنّه من أصحاب أبي الخطاب.

قلت له: فما الذي تقوله أنت! قال: أنا أستبعد ذلك وإن روته الإمامية.

ثم قال: أمّا خالد فلا أستبعد منه الإقدام عليه بشجاعته في نفسه، ولبغضه إياه، ولكني أستبعده من أبي بكر، فإن كان ذا ورع، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فذك، وإغصاب فاطمة وقتل عليّ عليه السلام، حاش لله من ذلك! فقلت له: أكان خالد يقدر على قتله؟ قال: نعم، ولم لا يقدر على ذلك، والسيف في عنقه، وعليّ أعزل غافل عما يراد به، قد قتله ابن ملجم غيلة، وخالد أشجع من ابن ملجم^(١)!

فسألته عما ترويه الإمامية في ذلك، كيف ألفاظه؟ فضحك وقال:

كم عالم بالشيء وهو يسائل

ثم قال: دعنا من هذا، ما الذي تحفظ في هذا المعنى؟ قلت: قول أبي الطيّب:

نَحْنُ أَذْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطْوِيلُ طَرِيقُنَا أَمْ يَطْوِلُ

وَكثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقٌ وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ

فاستحسن ذلك، وقال: لمن عجز البيت الذي استشهدت به؟ قلت: لمحمد بن هانيء المغربي، وأوله:

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْتَزِيدُ تَجَارِيماً كَمَ عَالَمٍ بِالشَّيْءِ وَهُوَ يَسْأَلُ!

(١) أنظر إرشاد القلوب: ٣٧٨/٢. والإيضاح لابن شاذان: ٨٠. والإستغاثة: ١٩.

فبارك عليّ مراراً، ثم قال: نترك الآن هذا ونتمم ما كنا فيه، وكنت أقرأ عليه في ذلك الوقت «جمهرة النسب» لابن الكلبي، فعدنا إلى القراءة، وعدلنا عن الخوض عما كان اعترض الحديث فيه.

٢٤٠ - ومن كلام له ﷺ اقتصر فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي ﷺ ثم لحاقه به

الأصل: فَبَعَلْتُ أَتْبَعُ مَا خَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ. في كلام طويل. قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ»، مِنْ الْكَلَامِ الَّذِي رُمِيَ بِهِ إِلَى غَايَتِي الْإِيْجَازِ وَالْفَصَاحَةِ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطِي خَبْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَكُنْتُ عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْعَجَبَةِ.

الشرح: العرج: منزل بين مكة والمدينة، إليه ينسب العرجي الشاعر، وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

قال محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»: لم يُعْلِمَ رسول الله ﷺ أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجرة إلا علي بن أبي طالب وأبا بكر بن أبي قحافة، أما علي، فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه، وأمره أن يبيت على فراشه، يُخَادِعُ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُ لِيَرَوْا أَنَّهُ لَمْ يَبْرُحْ فَلَا يَطْلُبُوهُ، حَتَّى تَبْعُدَ الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَأَنْ يَتَخَلَّفَ بَعْدَهُ بِمَكَّةَ حَتَّى يُوَدِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوَدَائِعَ الَّتِي عِنْدَهُ لِلنَّاسِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَوْدَعَهُ رِجَالًا مِنْ مَكَّةَ وَدَائِعَ لَهُمْ، لَمَّا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَمَانَتِهِ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَخَرَجَ مَعَهُ.

وسألت الثقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسني، رحمه الله فقلت: إذا كانت قريش قد مختصت رأيها، وألقى إبليس - كما روي - ذلك الرأي، وهو أن يضربوه بأسياف من أيدي جماعة من بطون مختلفة، ليضيع دمه في بطون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصبح! فإن الرواية جاءت بأنهم كانوا تسوروا الدار، فعابنوا فيها شخصاً مسجياً بالبرد الحضرمي الأخضر، فلم يشكوا أنه هو، فرصدوه إلى أن أصبحوا، فوجدوه علياً. وهذا طريف، لأنهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجى، وانتظارهم به النهار دليل على أنهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة!

فقال في الجواب: لقد كانوا هموا من النهار بقتله تلك الليلة، وكان إجماعهم على ذلك،

وعزمهم في حقه من بني عبد مناف، لأن الذين مَحَصُوا هذا الرأي واتفقوا عليه: النضر بن الحارث من بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء الثلاثة من بني أسد بن عبد العزى، وأبو جهل بن هشام، وأخوه الحارث، وخالد بن الوليد بن المغيرة، هؤلاء الثلاثة من بني مخزوم، ونيه ومنبه ابنا الحجاج، وعمرو بن العاص، هؤلاء الثلاثة من بني سَهْم، وأمّية بن خلف وأخوه أبي بن خلف، هذان من بني جُمَح، فَنَما هذا الخبرُ من الليل إلى عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس، فلقِيَ منهم قوماً، فنهاهم عنه، وقال: إن بني عبد مناف لا تمسك عن دمه، ولكن صفّوه في الحديد، واحبسوه في دار من دوركم، وتربّصوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء. وكان عُتْبة بن ربيعة سيّد بني عبد شمس ورئيسهم، وهم من بني عبد مناف، وبنو عمّ الرجل ورهطه، فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً، ثم تسوّروا عليه، وهم يظنون في الدار، فلما رأوا إنساناً مسجى بالبُرْد الأخضر الحضرمي لم يشكوا أنه هو، واثتمروا في قتله، فكان أبو جهل يذمهم^(١) عليه فيهمون ثم يحجمون. ثم قال بعضهم لبعض: ارموا بالحجارة، فرمّوه، فجعل عليّ يتصور منها، ويتقلب تأوهاً خفيفاً، فلم يزالوا كذلك في إقدام عليه وإحجام عنه، لما يريد الله تعالى من سلامته ونجاته، حتّى أصبح وهو وقيد^(٢) من رمي الحجارة، ولو لم يخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأقام بينهم بمكة، ولم يقتلوه تلك الليلة، لقتلوه في الليلة التي تليها، وإن شئت الحرب بينهم وبين عبد مناف، فإن أبا جهل لم يكن بالذي ليمسك عن قتله، وكان فاقداً البصيرة، شديد العزم على الولوغ في دمه!

قلت للنقيب: أفعلم رسول الله ﷺ وعليّ عليه السلام بما كان من نهى عُتْبة لهم؟ قال: لا، إنهما لم يعلمّا ذلك تلك الليلة، وإنما عرفاه من بعد، ولقد قال رسول الله ﷺ يوم بدر، لما رأى عتبه وما كان منه: «إن يكن في القوم خيرٌ ففي صاحب الجمل الأحمر»^(٣).

ولو قدرنا أن علياً عليه السلام علم ما قال لهم عُتْبة لم يسقط ذلك فضيلته في المبيت، لأنه لم يكن على ثقة من أنهم يقبلون قول عُتْبة، بل كان ظنُّ الهلاك والقتل أغلب.

وأما حالُ عليّ عليه السلام، فلما أدّى الودائع، خرج بعد ثلاث من هجرة النبي ﷺ، فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورّمت قدماء، فصادف^(٤) رسول الله ﷺ نازلاً بقباء على كُثُوم بن الهذم،

(١) يذمرهم: يحضهم. اللسان، مادة (ذمر).

(٢) الوقيد: البطيء الثقيل، أو الشديد المرض. اللسان، مادة (وقد).

(٣) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/١٦٣).

(٤) لم يكن الأمر محض مصادفة بل النبي أقام بقباء منتظراً علياً عليه السلام كما روي في بحار الأنوار:

فنزل معه في منزله . وكان أبو بكر نازلاً بقباء أيضاً في منزل حبيب بن يساف، ثم خرج رسول الله ﷺ ومعه من قباء، حتى نزل بالمدينة على أبي أيوب خالد بن يزيد الأنصاري، وابتنى المسجد.

٢٤١ - ومن خطبة له ﷺ في المسارعة إلى العمل

الأصل: فَأَعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدَبِّرُ يُدْعَى، وَالْمَسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطَعَ الْمَهْلُ، وَتَنْقُضِيَ الْمُدَّةُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ، فَأَخَذَ أَمْرُؤُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ قَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ، أَمْرُؤُ خَافَ اللَّهَ، وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ، أَمْرُؤُ الْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

الشرح: في نفس البقاء، بفتح الفاء، أي في سعيه، تقول: أنت في نفس من أمرك، أي في سعة. والصحف منشورة، أي وأنتم بعد أحياء، لأنه لا تطوى صحيفة الإنسان إلا إذا مات. والتوبة مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم، ولا مردودة عليكم إن فعلتم، كما ترد على الإنسان توبته إذا احتضر.

والمدير يدعى، أي مَنْ يدبر منكم، ويولّي عن الخير يدعى إليه، وينادي: يا فلان أقبل على ما يصلحك! والمسيء يُرْجَى، أي يرجى عوده وإقلاعه.

قبل أن يجمد العمل، استعارة مليحة، لأن الميت يجمد عمله ويقف، ويروي: «يخمد» بالخاء، من خمدت النار، والأول أحسن. وينقطع المهل، أي العمر الذي أمهلتكم فيه. وتصعد الملائكة، لأن الإنسان عند موته تصعد حفظته إلى السماء، لأنه لم يبق لهم شغل في الأرض.

قوله: «فأخذ امرؤ» ماضٍ يقوم مقام الأمر، وقد تقدّم شرح ذلك، والمعنى أن مَنْ يصوم ويصلي فإنما يأخذ بعض قوّة نفسه مما يلقي من المشقة. لنفسه أي عُدّة وذخيرة لنفسه يوم القيامة، وكذلك مَنْ يتصدق، فإنه يأخذ من ماله، وهو جار مجرى نفسه لنفسه.

وأخذ من حيٍّ لميت، أي من حال الحياة لحال الموت، ولو قال: من ميت لحيٍّ، كان جيّداً أيضاً، لأنّ الحيّ في الدنيا ليس بحيّ على الحقيقة، وإنما الحياة حياة الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهَيِّ الْحَيَّاتِ﴾^(١). وروي: «أمسكها بلجامها» بغير فاء.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

٢٤٢ - ومن خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام

الأصل: جُفَاءَ طَغَامٍ، عَيْدٌ أَقْزَامٍ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلْقَطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمُ وَيُدْرَبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، بِالْأَمْسِ يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشَبِّمُوا سُبُوفَكُمْ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ.

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهْلَ الْأَيَّامِ، وَخُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَائِكُمْ تُرْمَى!

الشرح: جفأ: جمع جانب، أي هم أحراب أجلاف. والطغام: أوفاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء. ويقال للأشرار واللثام: عيّد، وإن كانوا أحراراً.

والأقزام، بالزاي: رُذال وميفلتهم، والمسموع قَزَم، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء، لأنه في معنى المصدر، قال الشاعر:

وَهُمْ إِذَا الْخَيْلَ جَالُوا فِي كَتَائِبِهَا فَوَارِسُ الْخَيْلِ لَا مِيلٌ وَلَا قَزَمٌ

ولكنه عليه السلام قال: «أقزام» ليوافق بها قوله: «طغام»، وقد روي: «قِزَام»، وهي رواية جيدة، وقد نطقت العرب هذه اللفظة وقال الشاعر:

أَحْضَنُوا أَمَهُمْ مِنْ عَبِيدِهِمْ تِلْكَ أَفْعَالُ الْقِزَامِ الْوَكْعَةِ^(١)

وجُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، أي من كل ناحية. وتُلْقَطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ أي من فرقٍ مختلطة.

ثم وصف جهلهم وبعدهم عن العلم والدين، فقال: مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، أي يعلم الفقه والأدب، ويدرب، أي يعود اعتماد الأفعال الحسنة والأخلاق الجميلة.

ويُوَلَّى عَلَيْهِ، أي لا يستحقون أن يولّوا أمراً، بل ينبغي أن يحجر عليهم كما يحجر على الصبي والسفيه لعدم رشدِهِ. وروي: «ويؤلى عليه»، بالتخفيف. ويؤخذ على يديه، أي يمنع من التصرف.

(١) الوكع: ركوب الإبهام على السبابة من الرجل. اللسان، مادة (وكع).

قوله عليه السلام: «ولا الذين تبوءوا الدار والإيمان»، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين، لأن الذين تبوءوا الدار والإيمان الأنصار، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيداً، وأيضاً فإن لفظة «الأنصار» واقعة على كل من كان من الأوس والخزرج، الذين أسلموا على عهد رسول الله ﷺ، والذين تبوءوا الدار والإيمان في الآية، قوم مخصوصون منهم، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام فصار ذكر الخاص بعد العام، كذكره تعالى جبريل وميكائيل، ثم قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١)، وهما من الملائكة. ومعنى قوله: «تبوءوا الدار والإيمان» سكنوهما، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل، لكنهم لما ثبتوا عليه، واطمأنوا سقاه منزلاً لهم ومتبوأً، ويجوز أن يكون مثل قوله:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الرَّغْصِ مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً

ثم ذكر عليه السلام أن أهل الشام اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبونه، وهو عمرو بن العاص، وكرر لفظة «القوم»، وكان الأصل أن يقول: ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقربهم مما يحبون، فأخرجه مخرج قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢). والذي يحبه أهل الشام هو الانتصار على أهل العراق والظفر بهم، وكان عمرو بن العاص أقربهم إلى بلوغ ذلك، والوصول إليه بمكره وحيلته وخدائعه.

والقوم في قوله ثانياً: «أقرب القوم»، بمعنى الناس كأنه قال: واخترتم لأنفسكم أقرب الناس، مما تكرهونه، وهو أبو موسى الأشعري، واسمه عبد الله بن قيس، والذي يكرهه أهل العراق هو ما يحبه أهل الشام، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم، واستيلاء أهل الشام عليهم، وكان أبو موسى أقرب الناس إلى وقوع ذلك، وهكذا وقع لبلهه وغفلته وفساد رأيه، وبغضه علياً عليه السلام من قبل.

ثم قال: أنتم بالأمس، يعني في واقعة الجمل، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة عن نُضرتي، ويقول لهم: هذه هي الفتنة التي وعدنا بها، فقطعوا أوتار قسيكم. وشيموا سيوفكم، أي أغمدوها فإن كان صادقاً فما باله سار إلي، وصار معي في الصف، وحضر حرب صفين، وكثر سواد أهل العراق وإن لم يحارب، ولم يسل سيف، فإن من حضر في إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب، وإن كان كاذباً فيما رواه من خبر الفتنة فقد لزمته التهم وقُبِح الاختلاف إليه في الحكومة، وهذا يؤكد صحة إحدى الروايتين في أمر أبي موسى، فإنه قد اختلفت الرواية: هل حضر حرب صفين مع أهل العراق أم لا؟ فمن قال: حضر، قال: حضر ولم يحارب، وما طلبه اليمانيون من أصحاب علي عليه السلام ليجعلوه حكماً كالأشعث بن قيس

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧.

وغيره إلا وهو حاضرٌ معهم في الصف، ولم يكن منهم على مسافة، ولو كان على مسافة لما طلبوه، ولكان لهم قيمن حضر غناء عنه، ولو كان على مسافة لَمَا وافق عليّ عليه السلام على تحكيمه، ولا كان عليّ عليه السلام ممن يحكم من لم يحضر معه.

وقال الأكثرون: إنه كان معترلاً للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام.

فإن قلت: فلم لا يحملُ قوله عليه السلام: «فإن كان صادقاً فقد أخطأ بسيره غير مستكره» على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه وليفوضوا إليه أمر الحُكومة؟

قلت: لو حملنا كلامه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبي موسى، وكان الجواب عنه هيناً، وذلك لأن أبا موسى يقول: إنما أنكرت الحرب وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب، ولا أغري بالحرب، وإنما سرت للإصلاح بين الناس، وإطفاء نائرة الفتنة، فليس يناقض ذلك ما روته عن الرسول من خبر الفتنة، ولا ما قلته في الكوفة في واقعة الجمل: «قطعوا أوتار قسيكم».

قوله عليه السلام: «قادفوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس»، يقال لمن يرام كفه عن أمر يتناول له: ادفع في صدره، وذلك لأن من يقدم على أمر يبدنه فيدفع دافع في صدره حقيقة، فإنه يردّه أو يكاد، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوي.

قوله عليه السلام: «وخذوا مهل الأيام»، أي اغتتموا سعة الوقت. وخذوه مناهبةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت.

قوله عليه السلام: «وحوطوا قواصي الإسلام»: ما بُعد من الأطراف والنواحي.

ثم قال لهم: «ألا ترون إلى بلادكم تُغزى!»، هذا يدل على أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمر التحكيم، لأن معاوية بعد أن تم على أبي موسى من الخديعة ما تم استعجل أمره، وبعث السرايا إلى أعمال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

وتقول: قد رمي فلان صفاة فلان، إذا دهاه بداهية، قال الشاعر:

وَاللُّغْرُ يُسَوِّرُ قَوْسَهُ يَرْمِي صَفَاتِكَ بِالْمَعَابِلِ^(١)

وأصل ذلك الصخرة الملساء، لا يؤثر فيها السهام ولا يرميها الرامي، إلا بعد أن تَبَلَّ غيرها، يقول: قد بلغت غارات أهل الشام حدود الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف.

(١) المعابل: جمع مِعبلة، وهي نصل طويل عريض. اللسان، مادة (عبل).

نسب أبي موسى الأشعري

ونحن نذكر نسب أبي موسى وشيئاً من سيرته وحاله نقلاً من كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر المحدث، ونتبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور. قال ابن عبد البر:

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضارة بن حَرْب بن عامر بن عَنز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر، وهو نَبَت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كَهْلان بن سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وأمه امرأة من عَك، أسلمت وماتت بالمدينة، واختلف في أنه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا؟ والصحيح أنه ليس منهم، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله ﷺ، فوافق قدومهم قدوم أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة، فوافقوا رسول الله ﷺ بخير، فظن قوم أن أبا موسى قديم من الحبشة مع جعفر.

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة، وإنما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعريين، فرمت الريح سفينتهم إلى أرض الحبشة، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه، فكان قدومهم معاً، فظن قوم أنه كان من مهاجرة الحبشة.

قال: وولاه رسول الله ﷺ من مخاليف اليمن زَيْد، وولاه عمر البصرة، لما عزل المغيرة عنها، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها، وولاهها عبد الله بن عامر بن غريز، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ، وسكنها، فلما كره أهل الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها، ولوا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليّه، فأقره على الكوفة، فلما قتل عثمان عزله علي عليه السلام عنها، فلم يزل واجداً لذلك على علي عليه السلام، حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه، فقد روى حذيفة فيه كلاماً كرهت ذكره والله يغفر له.

قلت: الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البر ولم يذكره قوله فيه، وقد ذكره عنده بالدين، أما أنتم فتقولون ذلك، وأما أنا فأشهد أنه عدو الله ورسوله، وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين، أسر إليه رسول الله ﷺ أمرهم، وأعلمه أسماءهم.

وروي أن عماراً سئل عن أبي موسى، فقال: لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً، سمعته يقول: صاحب البرنس الأسود، ثم كلح كلوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط.

وروي عن سويد بن غفلة: قال: كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، فروي لي خبراً عن رسول الله ﷺ، قال: سمعته يقول: «إن بني إسرائيل اختلفوا، فلم يزل الاختلاف بينهم، حتى بعثوا حكمين ضالين ضللاً وأضلاً من اتبعهما، ولا ينفك أمراً

مَتَّى حَتَّى يَبْعَثُوا حَكَمِينَ يَضْلَانِ وَيُضْلَانِ مِنْ تَبِعَهُمَا^(١)، فَقَالَتْ لَهُ: احْذَرِ يَا أَبَا مُوسَى أَنْ تَكُونَ أَحَدَهُمَا! قَالَ: فَخَلَعَ قَمِيصَهُ، وَقَالَ: أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَبْرَأُ مِنْ قَمِيصِي هَذَا.

فَأَمَّا مَا تَعْتَقِدُهُ الْمُعْتَزِلَةُ فِيهِ، فَأَنَا أَذْكَرُ مَا قَالَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ مَتْوِيهِ فِي كِتَابِ «الْكَفَايَةِ» قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَمَّا أَبُو مُوسَى فَإِنَّهُ عَظُمَ جُرْمُهُ بِمَا فَعَلَهُ، وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الضَّرَرِ الَّذِي لَمْ يَخْفِ حَالُهُ، وَكَانَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْنُتُ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ مَعَاوِيَةَ أَوَّلًا وَعُمَرَ ثَانِيًا، وَأَبَا الْأَعْوَرِ السُّلَمِيَّ ثَالِثًا، وَأَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَابِعًا^(٢).

رَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي أَبِي مُوسَى: صَبَغَ بِالْعِلْمِ صَبْغًا وَسَلَخَ مِنْهُ سَلَخًا^(٣). قَالَ: وَأَبُو مُوسَى هُوَ الَّذِي رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَكَمَانِ ضَالَانِ، وَسَيَكُونُ فِي أُمَّتِي حَكَمَانِ ضَالَانِ، ضَالٌّ مِنْ اتَّبَعَهُمَا. وَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ أَحَدَهُمَا؟ فَقَالَ: لَا - أَوْ كَلَامًا، مَا هَذَا مَعْنَاهُ - فَلَمَّا بُلِيَ بِهِ، قِيلَ فِيهِ: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي تَوْبَتِهِ مَا ثَبَتَ فِي تَوْبَةِ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ قَدْ ذَكَرَ فِي آخِرِ كِتَابِ الْحَكَمِينَ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَرَضِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، فَقَالَ لَهُ: أَجِئْتَنَا عَائِدًا أَمْ شَامِتًا؟ فَقَالَ بَلْ عَائِدًا، وَحَدَّثَ بِحَدِيثٍ فِي فَضْلِ الْعِبَادَةِ^(٤).

قَالَ ابْنُ مَتْوِيهِ: وَهَذِهِ أَمَارَةٌ ضَعِيفَةٌ فِي تَوْبَتِهِ.

انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ مَتْوِيهِ، وَذَكَرْتُهُ لَكَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ مِنْ أَرْبَابِ الْكِبَائِرِ، وَحُكْمِهِ حُكْمُ أَمْثَالِهِ مِمَّنْ وَاقَعَ كَبِيرَةٌ وَمَاتَ عَلَيْهَا.

قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَاخْتَلَفَ فِي تَارِيخِ مَوْتِهِ، فَقِيلَ: سَنَةٌ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ، وَقِيلَ: سَنَةٌ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَقِيلَ: سَنَةٌ خَمْسِينَ، وَقِيلَ: سَنَةٌ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ. وَاخْتَلَفَ فِي قَبْرِهِ، فَقِيلَ: مَاتَ بِمَكَّةَ وَدُفِنَ بِهَا، وَقِيلَ: مَاتَ بِالْكُوفَةِ وَدُفِنَ بِهَا.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ: ٢٤١/٦.

(٢) أَنْظِرِ الْإِيضَاحَ لِابْنِ شَازَانَ: ٦٤، وَالْغَدِيرَ: ١٣١/١٢، وَكِتَابَ صَفِينٍ لِنَصْرِ: ٣٠٢ - ٦٣٦.

(٣) أَخْرَجَهُ الثَّقَفِيُّ فِي الْغَارَاتِ: ١/١٧٨ بِلَفْظٍ: صَبَغَ بِالْعِلْمِ صَبْغًا ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: ٨١/١، وَأَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ رَقْمًا: ٢٦٢.

٢٤٣ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد

الأصل: مَنْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ، بِخَبْرِكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حُكْمِ مَنْطِقِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَانِجُ الْاِغْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نَصَابِهِ، وَأَنْزَاخَ الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنِيِّهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ رِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرَوَايَةٍ، فَإِنْ رَوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ.

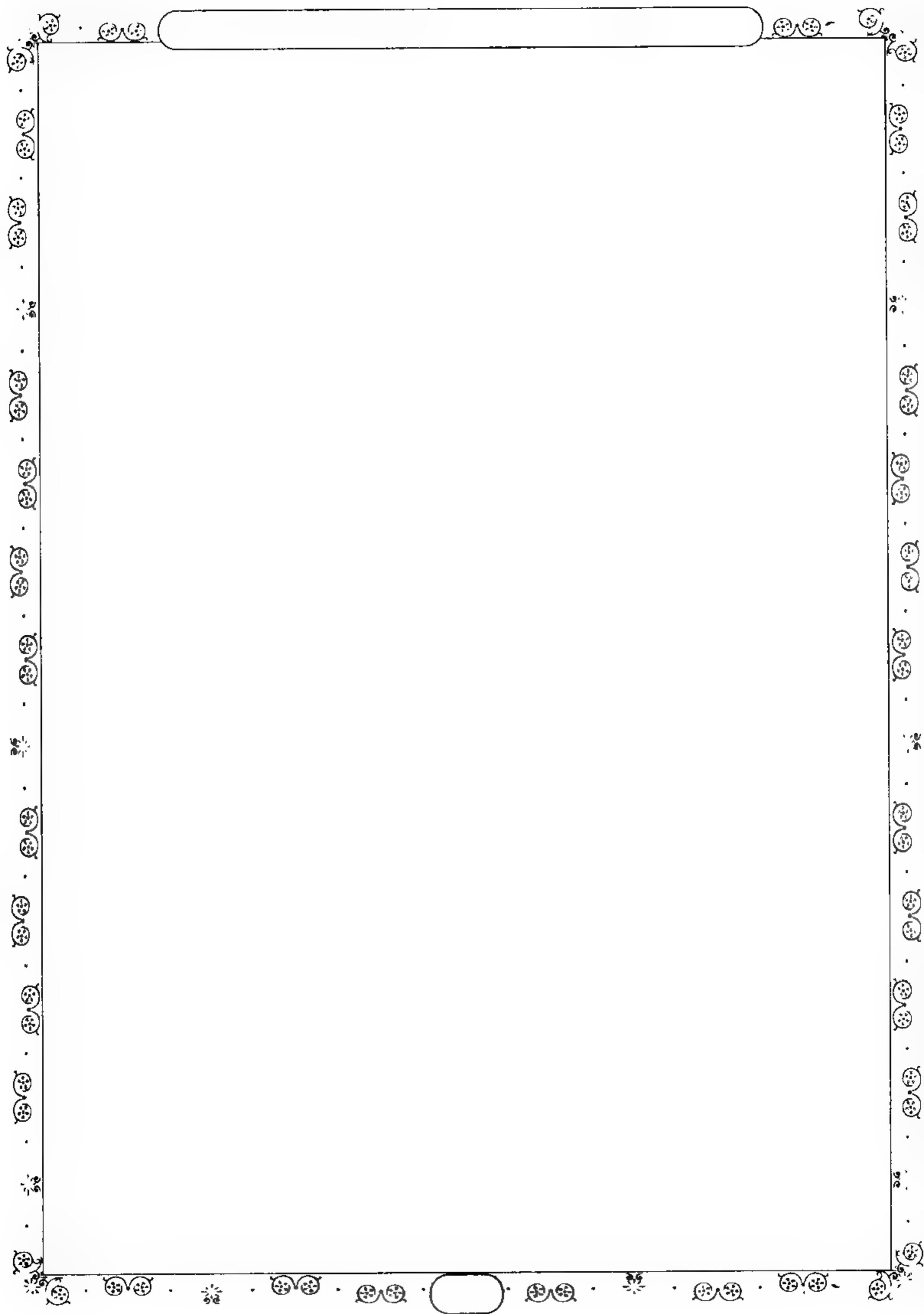
الشرح: يقول: بهم يحيا العلم ويموت الجهل، فسمّاهم حياة ذاك، وموت هذا، نظراً إلى السببية، بدلكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم، وبدلكم ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة على ما بطن من إخلاصهم، وبدلكم صمتهم وسكوئهم عما لا يعينهم، عن حكمة منطقهم.

ويروي: «وبدلكم صمتهم على منطقهم»، وليس في هذه الرواية لفظة «حكم». لا يخالفون الحق: لا يعدلون عنه، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب، فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه. ودعائم الإسلام: أركانه.

والولانج: جمع وليجة، وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه، ويعتصم به. وعاد الحق إلى نصابه: رجع إلى مستقره وموضعه: وانزاح الباطل: زال. وانقطع لسانه: انقطعت حجته.

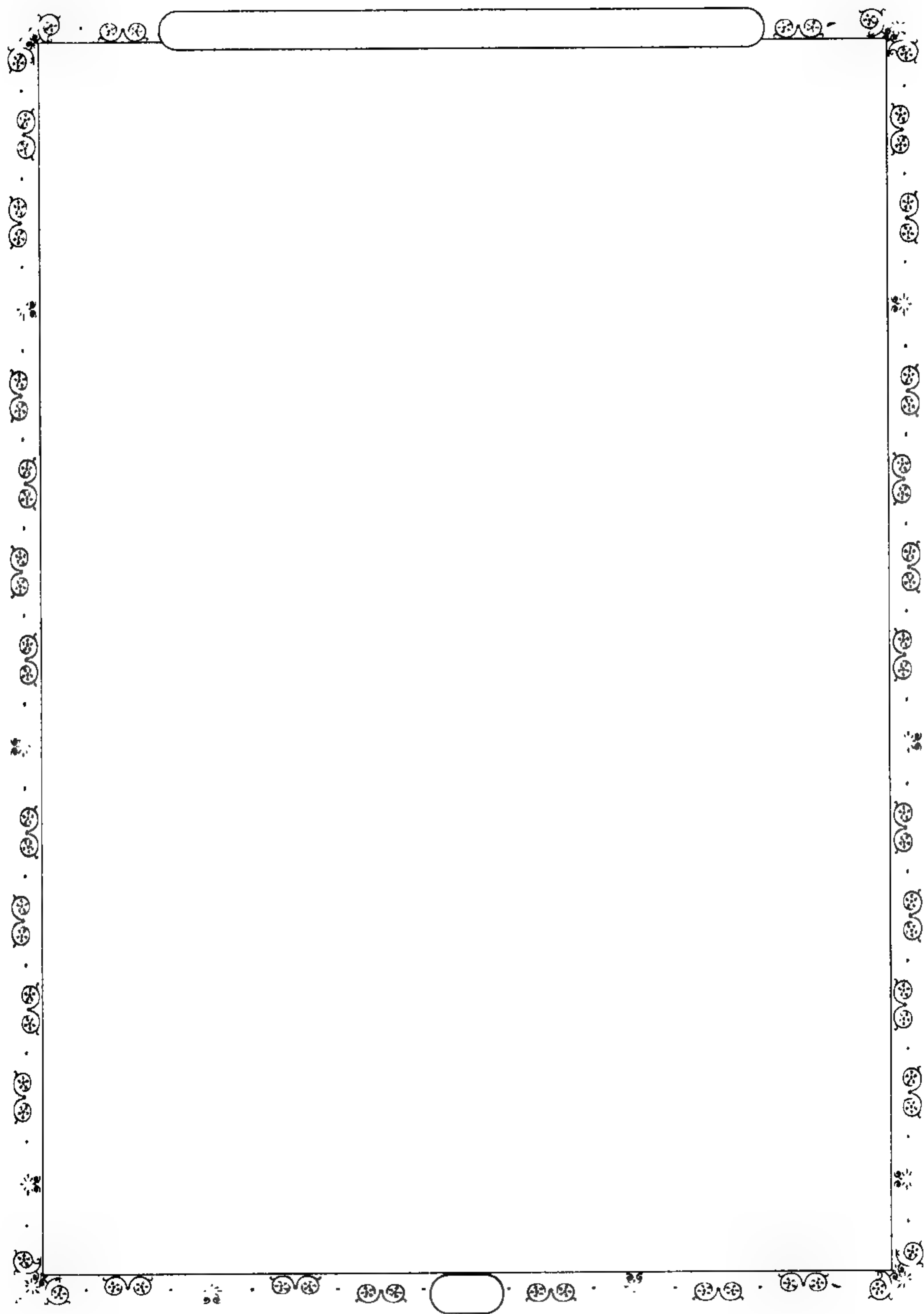
عقلوا الدين عقل رعاية، أي عرفوا الدين وعلموه معرفة من وعى الشيء وفهمه وأتقنه. ورعاية، أي وعوا الدين وحفظوه وحاطوه، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية، فإن من يروي العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدراك، أصالة لا تقليداً قليل.

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ويليهِ الجزء الرابع عشر



شرح نهج البلاغة

الجزء الرابع عشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باب الكتب والرسائل

الأصل: باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياء بلاده، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياء لأهل وأصحابه.

الشرح: لما فرغ من إيراد المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجاري مجرى الخطب من المواعظ والزواجر، شرع في إيراد باب من مختار كلامه عليه السلام، وهو ما كان جارياً مجرى الرسائل والكتب، ويدخل في ذلك العهود والوصايا. وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأول أشبه، نحو كلامه عليه السلام لشريح القاضي لما اشترى داراً، وكلامه لشريح بن هانيء لما جعله على مقدمته إلى الشام.

وسمي ما يكتب للولاة عهداً اشتقاقاً من قولهم: عهدت إلى فلان، أي أوصيته.

١ - من كتاب له عليه السلام

إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

الأصل: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةً الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَيْبَانِهِ.

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابَهُ. وَأَقِلُّ عِتَابَهُ، كَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَزَقُّ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ. وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ قَلْتُهُ غَضَبٍ، فَأَتَيْعَ لَهُ قَوْمٌ قَتَلُوهُ، وَيَا بَعْثِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ، وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجَلِ، وَقَامَتْ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَيَّ أَمِيرُكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ. إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح: قوله: «جبهة الأنصار»، يمكن أن يريد جماعة الأنصار، فإن الجبهة في اللغة الجماعة ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرافهم، لأن جبهة الإنسان أعلى أعضائه، وليس يريد بالأنصار هاهنا بني قيلة، بل الأنصار هاهنا الأعوان.

قوله عليه السلام: «وسنام العرب»، أي أهل الرفعة والعلو منهم؛ لأن السنام أعلى أعضاء البعير.

قوله عليه السلام: «أكثر استعتابه وأقل عتابه»، الاستعتاب: طلب العُتْبَى، وهي الرضا، قال: كنت أكثر طلب رضا، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور، وأما طلحة والزبير فكانا شديدين عليه. والوجيف: سير سريع، وهذا مثل للمشمعين في الطعن عليه، حتى إن السير السريع أبطأ ما يسيران في أمره، والحذاء العنيف أرق ما يحرضان به عليه. ودار الهجرة: المدينة.

وقوله: «قد قلت بأهلها وقلعوا بها»، الباء هاهنا زائدة في أحد الموضعين، وهو الأول، وبمعنى «من» في الثاني، يقول: فارقت أهلها وفارقوها، ومنه قولهم: «هذا منزل قلعة» أي ليس بمستوطن. وجاشت: اضطربت. والمرجل: القدر.

ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام: «فكنت رجلاً من المهاجرين»، فإن في ذلك من التخلص والتبري ما لا يخفي على المتأمل، ألا ترى أنه لم يبق عليه في ذلك حجة لطاعن، حيث كان قد جعل نفسه كواحد من عرض المهاجرين، الذين بنفري يسير منهم انعقدت خلافة أبي بكر، وهم أهل الحل والعقد، وإنما كان الإجماع حجة لدخولهم فيه.

ومن لطيف الكلام أيضاً قوله: «فأتيح له قوم قتلوه»، ولم يقل: «أتاح الله له قوماً»، ولا قال: «أتاح له الشيطان قوماً»، وجعل الأمر مبهماً.

وقد ذكر أن خط الرضي رحمه الله «مستكرهين» بكسر الراء، والفتح أحسن وأصوب، وإن كان قد جاء: استكرهت الشيء بمعنى كرهته.

وقال الراوندي: المراد بدار الهجرة هاهنا الكوفة التي هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها، وليس بصحيح، بل المراد المدينة، وسياق الكلام يقتضي ذلك، ولأنه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم.

الإمام علي عليه السلام في طريقه إلى البصرة

وروى محمد بن إسحاق عن عمه عبد الرحمن بن يسار القرشي، قال: لما نزل علي عليه السلام الرَبْذَة متوجّهاً إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق، وكتب إليهم هذا الكتاب، وزاد في آخره:

فحسبي بكم إخواناً، وللدين أنصاراً، ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وروى أبو مخنف، قال: حدثني الضَّعْب، قال: سمعتُ عبد الله بن جُنادة يحدث أن علياً عليه السلام لما نزل الرِّبْدَة بعث هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص إلى أبي موسى الأشعري، وهو الأمير يومئذٍ على الكوفة، لينفر إليه الناس، وكتب إليه معه:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. أما بعد، فإنني قد بعثت إليك هاشم بن عُتبة لتُشخِّص إلي مَنْ قَبْلَكَ من المسلمين ليتوجَّهوا إلى قوم نكثوا بيعتي، وقتلوا شيعتي، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم، فاشخِّص بالناس إليّ معه حين يقدم عليك، فإنني لم أولك المصر الذي أنت فيه، ولم أقرّك عليه إلا لتكون من أعواني على الحق، وأنصاري على هذا الأمر، والسلام.

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال: لما قدّم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفة، استنفروا الناس، فدخل قومٌ منهم على أبي موسى ليلاً، فقالوا له: أشر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى علي عليه السلام، فقال: أما سبيلُ الآخرة فالزموا بيوتكم، وأما سبيلُ الدنيا فاشخصوا معهما. فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج. وبلغ ذلك المحمدين، فأغلظا لأبي موسى، فقال أبو موسى: والله إن بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقي وأعناقكما، ولو أردنا قتلاً ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان. فخرجوا من عنده، فلاحقا بعلي عليه السلام، فأخبراه الخبر.

وأما رواية أبي مخنف، فإنه قال: إن هاشم بن عُتبة لما قدّم الكوفة، دعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعري، فاستشاره، فقال: اتبع ما كتب به إليك. فأبى ذلك، وحبس الكتاب، وبعث إلى هاشم يتوعده ويخوفه.

قال السائب: فأتيتُ هاشماً فأخبرته برأي أبي موسى، فكتب إلى علي عليه السلام: لعبد الله علي أمير المؤمنين من هاشم بن عُتبة. أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنني قدمت بكتابك على امرئٍ مُشاقٍّ بعيد الوُدِّ، ظاهر الغلِّ والشنآن، فتهددني بالسجن، وخوفني بالقتل، وقد كتبتُ إليك هذا الكتاب مع المحلّ بن خليفة، أخي طيّئ، وهو من شيعتك وأنصارك، وعنده علم ما قبلنا، فأسأله عمّا بدا لك، واكتب إليّ برأيك والسلام.

قال: فلما قدّم المحلّ بكتاب هاشم على علي عليه السلام سلّم عليه، ثم قال: الحمد لله الذي أدّى الحق إلى أهله، ووضعه موضعه، فكرة ذلك قوم قد والله كرهوا نبوة محمد ﷺ، ثم بارزوه وجاهدوه، فردّ الله عليهم كيدهم في نحورهم، وجعل دائرة السوء عليهم. والله يا أمير

المؤمنين لنجاهد عنهم معك في كل موطن، حفظاً لرسول الله ﷺ في أهل بيته، إذ صاروا أعداء لهم بعده.

فرحب به علي عليه السلام، وقال له خيراً، ثم أجلسه إلى جانبه، وقرأ كتاب هاشم، وسأله عن الناس وعن أبي موسى، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما أثق به ولا آمنه على خلافتك، إن وجد من يساعده على ذلك. فقال علي عليه السلام: والله ما كان عندي بمؤتمن ولا ناصح، ولقد أردت عزله فأتاني الأشر، فسألني أن أقره، وذكر أن أهل الكوفة به راضون فأقرته^(١).

وروى أبو مخنف، قال: وبعث علي عليه السلام من الربيعة بعد وصول المحل بن خليفة، أخي طي، عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى، وكتب معهما:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، أما بعد يا بن الحائك، يا عاض أير أبيه، فوالله إني كنت لأرى أن بُعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلاً، ولا جعل لك فيه نصيباً، سيمنعك من ردة أمري والانتزاع^(٢) علي. وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبي بكر فخلهما والمصر وأهله، واعتزل عملنا مذووماً مدحوراً. فإن فعلت وإلا فإني قد أمرتهما أن يناداك على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين. فإذا ظهرا عليك قطعاًك إزباً، والسلام على من شكر النعمة، ووفى بالبيعة، وعمل برجاء العاقبة.

قال أبو مخنف: فلما أبطأ ابن عباس وابن أبي بكر عن علي عليه السلام، ولم يدر ما صنعا، رحل عن الربيعة إلى ذي قار فنزلها، فلما نزل ذا قار، بعث إلى الكوفة الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عبادة، ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة، فأقبلوا حتى كانوا بالقادسية، فتلقاهم الناس، فلما دخلوا الكوفة قرؤوا كتاب علي، وهو من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى من بالكوفة من المسلمين:

أما بعد، فإني خرجت مخرجي هذا، إما ظالماً، وإما مظلوماً، وإما باغياً، وإما مبنياً علي، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلا نقر إلي، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً استعيني. والسلام.

قال أبو مخنف: فحدثني موسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، قال: أقبلنا مع الحسن وعمار بن ياسر من ذي قار، حتى نزلنا القادسية، فنزل الحسن وعمار، ونزلنا معهما،

(١) أمالي المفيد: ٢٩٦.

(٢) التوثب علي، القاموس المحيط، مادة (نزو).

فاحتبى عَمَارٌ بحمائل سيفه، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم، ثم سمعته يقول: ما تركت في نفسي حزة أهم إلي من ألا تكون نبشنا عثمان من قبره، ثم أحرقناه بالنار.

قال: فلما دخل الحسن وعمار الكوفة، اجتمع إليهما الناس، فقام الحسن، فاستنفر الناس، فحمد الله وصلى على رسوله، ثم قال: أيها الناس، إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين، وأعدل من تعدلون، وأفضل من تفضلون، وأوفى من تبايعون، من لم يعبه القرآن، ولم تجهله السنة ولم تقعد به السابقة، إلى من قربه الله تعالى إلى رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرحم، إلى من سبق الناس إلى كل مآثرة، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون، فقرب منه وهم متباعدون، وصلى معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معه وهم محجّمون، وصدق معه وهم يكذبون. إلى من لم ترد له رواية ولا تكافأ له سابقة، وهو يسألكم النصر، ويدعوكم إلى الحق، ويأمركم بالمسير إليه، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه، ومثلوا بعماله، وانتهبوا بيت ماله. فاشخصوا إليه رحمكم الله، فمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر، واحضروا بما يحضر به الصالحون.

قال أبو مخنف: حدثني جابر بن يزيد، قال: حدثني تميم بن حذيم الناجي، قال: قدم علينا الحسن بن علي عليه السلام وعمار بن ياسر، يستنفران الناس إلى علي عليه السلام، ومعهما كتابه، فلما فرغا من قراءة كتابه، قام الحسن - وهو فتى حدث، والله إنني لأرثي له من حداثة سنه وصعوبة مقامه - فرماه الناس بأبصارهم وهم يقولون: اللهم سدّد منطلق ابن بنت نبينا! فوضع يده على عمود يتساند إليه، وكان عليلاً من شكوى به، فقال: الحمد لله العزيز الجبار، الواحد القهار، الكبير المتعال، ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(١). أحمده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، امتن علينا بنبوته، واختصه برسالته، وأنزل عليه وحيه، واصطفاه على جميع خلقه، وأرسله إلى الإنس والجن، حين عبثت الأوثان وأطيع الشيطان، وجحد الرحمن، فصلّى الله عليه وعلى آله وجزاه أفضل ما جزى المسلمين. أما بعد فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - أرشد الله أمره، وأعز نصره - بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإن في آجله ما تحبون إن شاء الله. ولقد علمتم أن علياً صلى مع رسول الله ﷺ وحده، وإنه يوم صدق به لفي

(١) سورة الرعد، الآية: ١٠.

عاشرة من سنّه، ثم شهد مع رسول الله ﷺ جميع مشاهدته. وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم، ولم يزل رسول الله ﷺ راضياً عنه، حتى غمّضه بيده وغسله وحده، والملائكة أعوانه، والفضل ابن عمّه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعِدّاته، وغير ذلك من أموره، كلّ ذلك من منّ الله عليه. ثم والله ما دعا إلى نفسه، ولقد تذاكّ الناس عليه تذاكّ الإبل الهيم عند ورودها، فبايعوه طائعين، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدّ أحدثه، ولا خلافٍ أتاه حسداً له ويغياً عليه. فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، والجِدّ والصبر والاستعانة بالله والخوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين. عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا عَصَمَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ تَقْوَاهُ، وَأَعَانَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ. وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ.

ثم مضى إلى الرُّحبة، فهيّا منزلاً لآبيه أمير المؤمنين.

قال جابر: فقلت لتميم: كيف أطاق هذا الغلام ما قد قصصته من كلامه؟ فقال: وَلَمَّا سَقَطَ عَنِّي مِنْ قَوْلِهِ أَكْثَرَ، وَلَقَدْ حَفَظْتُ بَعْضَ مَا سَمِعْتُ^(١).

قال: وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ ﷺ ذَا قَارٍ كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَخْبِرُكَ أَنَّ عَلِيًّا قَدْ نَزَلَ ذَا قَارٍ، وَأَقَامَ بِهَا مَرَعُوبًا خَائِفًا لِمَا بَلَغَهُ مِنْ عُذَّتِنَا وَجَمَاعَتِنَا، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَشْقَرِ، إِنْ تَقْدُمُ عُقْرٌ، وَإِنْ تَأْخُرُ نُحْرٌ، فَدَعْتُ حَفْصَةَ جَوَارِي لَهَا يَتَغَنَّيْنَ وَيَضْرِبْنَ بِالذَّفُوفِ، فَأَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَقْلُنَ فِي غَنَائِهِنَّ: مَا الْخَبَرُ مَا الْخَبَرُ، عَلَيَّ فِي السَّفَرِ، كَالْفَرَسِ الْأَشْقَرِ إِنْ تَقْدُمُ عُقْرٌ، وَإِنْ تَأْخُرُ نُحْرٌ.

وجعلت بنات الطُّلُقَاءِ يَدْخُلْنَ عَلَى حَفْصَةَ، وَيَجْتَمِعْنَ لِسَمَاعِ ذَلِكَ الْغَنَاءِ.

فبَلَغَ أُمُّ كُلْثُومُ بِنْتُ عَلِيٍّ ﷺ، فَلَبِست جَلَابِيهَا، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِنَّ فِي نِسْوَةٍ مَتَنَكِّرَاتٍ، ثُمَّ أَسْفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا، فَلَمَّا عَرَفَتْهَا حَفْصَةُ خَجَلَتْ، وَاسْتَرْجَعَتْ فَقَالَتْ أُمُّ كُلْثُومَ: لَتَن تَظَاهَرْتُمَا عَلَيْهِ مِنْذُ الْيَوْمِ، لَقَدْ تَظَاهَرْتُمَا عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيكُمَا مَا أَنْزَلَ!

فَقَالَتْ حَفْصَةُ: كَفَى رَحِمَكَ اللهُ! وَأَمَرَتْ بِالْكِتَابِ فَمَزَّقَتْ، وَاسْتَغْفَرَتْ اللهُ^(٢).

قال أبو مخنف: روى هذا جرير بن يزيد، عن الحكم، ورواه الحسن بن دينار، عن الحسن البصري.

(١) أنظر بحار الأنوار للمجلسي: ٨٩/٣٢ رقم ٦١.

(٢) أنظر مواقف الشيعة: ٢٣٨/٢.

وذكر الواقدي مثل ذلك، وذكر المدائني أيضاً مثله، قال: فقال سهل بن حنيف في ذلك هذه الأشعار:

عَذَرْنَا الرِّجَالَ بِحَرْبِ الرِّجَالِ فَمَا لِلنِّسَاءِ وَمَا لِلسُّبَابِ!
أَمَّا حَسْبُنَا مَا أَتَيْنَا بِهِ! لَكَ الْخَيْرُ مِنْ هَتْكَ ذَاكَ الْجِجَابِ
وَمَخْرَجُهَا الْيَوْمَ مِنْ بَيْتِهَا يُعْرِفُهَا الذَّنْبُ نَبْحُ الْكِلابِ
إِلَى أَنْ أَتَانَا كِتَابٌ لَهَا مَشُومٌ، فَيَا قُبْحَ ذَاكَ الْكِتَابِ!

قال: فحدثنا الكلبي، عن أبي صالح أن علياً عليه السلام، لما نزل ذا قار في قلعة من عسكره، صعد الزبير منبر البصرة، فقال: ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي، فأبيته بياتاً، وأصبحه صباحاً، قبل أن يأتيه المدد! فلم يجبه أحد، فنزل واجماً، وقال: هذه والله الفتنة التي كنا نحدث بها! فقال له بعض مواليه: رحمك الله يا أبا عبد الله! تسميها فتنة ثم نقاتل فيها! فقال: ويحك! والله إنا لنُبصر ثم لا نُضير. فاسترجع المولى ثم خرج في الليل فاراً إلى علي عليه السلام فأخبره، فقال: اللهم عليك به!

قال أبو مخنف: ولما فرغ الحسن بن علي عليه السلام من خطبته، قام بعده عمار، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أيها الناس، أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله، وقد بلاككم الله بحق دينكم، وحرمة أمتكم، فحق دينكم أوجب، وحرمة أعظم. أيها الناس، عليكم بإمام لا يؤذّب، وفقه لا يعلم، وصاحب بأس لا ينكل، وذو سابقة في الإسلام ليست لأحد، وإنكم لو قد حضرتموه بين لكم أمركم إن شاء الله.

قال: فلما سمع موسى خطبة الحسن وعمار، قام فصعد المنبر، وقال: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد، فجمعنا بعد الفرقة، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العدواة، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾^(٢). فاتقوا الله عباد الله، وضعوا أسلحتكم، وكفوا عن قتال إخوانكم.

أما بعد يا أهل الكوفة، إن تطيعوا الله باديّاً، وتطيعوني ثانياً، تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي إليكم المضطر، ويأمن فيكم الخائف. إن علياً إنما يستنفركم لجهاد أمتكم عائشة وطلحة والزبير حوارى رسول الله ومن معهم من المسلمين، وأنا أعلم بهذه الفتن أنها إذا أقبلت شبّهت، وإذا أدبرت أسفرت، إني أخاف عليكم أن يلتقي غاراً منكم فيقتلوا ثم يتركوا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

كالأحلاس الملقاء بنجوة من الأرض. ثم يبقى رجرة من الناس، لا يأمرؤن بالمعروف، ولا ينهؤن عن منكر. إنها قد جاءكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى! تترك الحليم حيران! كأنني أسمع رسول الله ﷺ بالأمس يذكر الفتن، فيقول: «أنت فيها قائماً خيراً منك قاعداً، وأنت فيها جالساً خيراً منك قائماً، وأنت فيها قائماً خيراً منك ساعياً»^(١). فثلموا سيوفكم وقصفوا^(٢) رماحكم، وانصلوا سهامكم، وقطعوا أوتاركم، وخللوا قريشاً ترتق فتقها، وترأب صدعها، فإن فعلت فلا نفسها ما فعلت، وإن أبت فعلى أنفسها ما جئت، سمئها في أديمها. استنصحنوني ولا تستغشوني، وأطيعوني ولا تعصوني، يتبين لكم رشدكم، ويضلى هذه الفتنة من جناها.

فقام إليه عمار بن ياسر، فقال: أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك! قال: نعم هذه يدي بما قلت، فقال: إن كنت صادقاً فإنما عناك بذلك وحدك، واتخذ عليك الحجة، فالزم بيتك ولا تدخل في الفتنة، أما إنني أشهد أن رسول الله ﷺ أمر علياً بقتال الناكثين، وسمى له فيهم من سقى، وأمره بقتال القاسطين، وإن شئت لأقيم لك شهوداً يشهدون أن رسول الله ﷺ إنما نهاك وحدك، وحذر من الدخول في الفتنة. ثم قال له: أعطني يدك على ما سمعت. فمد إليه يده، فقال له عمار: غلب الله من غالبة وجاهدها ثم جذبه فترل عن المنبر.

وروى محمد بن جرير الطبري في «التاريخ» قال: لما أتى علياً عليه السلام الخبر وهو بالمدينة بأمر عائشة وطلحة والزبير، وأنهم قد توجهوا نحو العراق، خرج يبادر، وهو يرجو أن يدرگهم ويردّهم، فلما انتهى إلى الرّبذة أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا، فأقام بالرّبذة أياماً، وأتاه عنهم أنهم يريدون البصرة، فسّر بذلك، وقال: إن أهل الكوفة أشد لي حُباً، وفيهم رؤساء العرب وأعلامهم. فكتب إليهم: إنني قد اخترتكم على الأمصار، وإنني بالأثر.

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله: كتب علي عليه السلام من الرّبذة إلى أهل الكوفة: أما بعد، فإنني قد اخترتكم، وأثرت النزول بين أظهركم، لما أعرف من مودتكم وحبكم لله ورسوله، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق، وقضى الذي عليه.

قال أبو جعفر: فأول من بعثه علي عليه السلام من الرّبذة إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، فجاء أهل الكوفة إلى أبي موسى، وهو الأمير عليهم ليستشيروه في الخروج إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال لهم: أما سبيل الآخرة فإن تعبدوا، وأما سبيل الدنيا فإن تخرجوا.

(١) ذكر نحوه المتقي الهندي في «كتر العمال» (٣١٤٩٨).

(٢) كسروها. القاموس المحيط، مادة (قصف).

وبلغ المحمدين قول أبي موسى الأشعري، فأتياه وأغلظا له، فأغلظ لهما، وقال: لا يحل لك القتال مع علي حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان.

وقالت أخت علي بن عدي، من بني عبد العزى بن عبد شمس، وكان أخوها علي بن عدي من شيعة علي عليه السلام، وفي جملة عسكره:

لاهم فاعقر بعلي جملته ولا تبارك في بعير حملة
الأ علي بن عدي ليس له

قال أبو جعفر: ثم أجمع علي عليه السلام على المسير من الريزة إلى البصرة، فقام إليه رفاع بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ قال: أما الذي نريد وننوي فإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه، قال، فإن لم يقبلوا، قال: ندعوهم ونعطيهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به، قال: فإن لم يرضوا! قال: ندعهم ما تركونا: قال: فإن لم يتركونا، قال: نمتنع منهم، قال: فنعم إذا.

وقام الحجاج بن عزيّة الأنصاري، فقال: والله يا أمير المؤمنين لأرضيئك بالفعل، كما أرضيتني منذ اليوم بالقول. ثم قال:

دراكها دراكها قبل الفؤث وانفر بنا واسم بنا نحو الصؤث
لا وألت نفسي إن خفت الموت

والله لتصرن الله عز وجل كما سمنا أنصاراً.

قال أبو جعفر رحمه الله: وسار علي عليه السلام نحو البصرة، ورايته مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمته عبد الله بن عباس، وعلى ميسرته عمر بن أبي سلمة، وعلي عليه السلام في القلب على ناقة حمراء، يقود فرساً كميئاً. فتلقاه بفيد غلام من بني سعد بن ثعلبة، يدعى مرة، فقال: من هؤلاء؟ قيل: هذا أمير المؤمنين، فقال: سفرة قانية، فيها دماء من نفوس قانية. فسمعها علي عليه السلام فدعاه، فقال: ما اسمك؟ قال: مرة، قال أمر الله عيشك! أكا من سائر اليوم؟ قال: بل عائف، فخلني سبيله. ونزل بفيد فأتته أسد وطبي، فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراركم، ففي المهاجرين كفاية.

وقدم رجل من الكوفة قيذاً، فأتى علياً عليه السلام، فقال له: من الرجل؟ قال: عامر بن مطرف، قال: الليثي؟ قال: الشيباني، قال: أخبرني عما وراءك؟ قال: إن أردت الصلح فأبو موسى حاصبك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب. فقال عليه السلام: ما أريد إلا الصلح إلا أن يرد علينا.

قال أبو جعفر: وقدم عليه عثمان بن حنيف، وقد نتف طلحة والزبير شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين، بعثني ذا لحية، وجئتك أمرد، فقال: أصبت خيراً وأجراً.

ثم قال: أيها الناس، إن طلحة والزبير بايعاني، ثم نكثاني بيعتي، وألبا علي الناس، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما علي، والله إنهما ليعلمان أنني لست بدونهما. اللهم فاحلل ما عقدا، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا.

قال أبو جعفر: وعاد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى علي عليه السلام، فلقياه وقد انتهى إلى ذي قار، فأخبراه الخبر، فقال علي عليه السلام لعبد الله بن العباس: اذهب أنت إلى الكوفة، فادع أبا موسى إلى الطاعة، وحذره من العصيان والخلاف، واستنفر الناس. فذهب عبد الله بن عباس حتى قدم الكوفة، فلقي أبا موسى، واجتمع الرؤساء من أهل الكوفة. فقام أبو موسى فخطبهم، وقال: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله صحبوه في مواطن كثيرة، فهم أعلم بالله ممن لم يصحبه، وإن لكم علي حقاً، وأنا مؤذيه إليكم، أمر ألا تستخفوا بسلطان الله، وألا تجترئوا على الله أن تأخذوا كل من قدم عليكم من أهل المدينة في هذا الأمر، فتردوه إلى المدينة، حتى تجتمع الأمة على إمام ترتضي به، إنها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جراثيم من جراثيم العرب، أغمدوا سيوفكم، وأنصلوا أسنتكم، واقطعوا أوتار قسيكم، حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

قال أبو جعفر رحمه الله: فرجع ابن عباس إلى علي عليه السلام، فأخبره، فدعا الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر، وأرسلهما إلى الكوفة، فلما قدماها كان أول من اتاهما مسروق بن الأجدع، فسلم عليهما، وأقبل على عمار، فقال: يا أبا اليقظان، علام قتلتم أمير المؤمنين؟ قال: على شتم أعراضنا، وضرب أبقارنا. قال: فوالله ما عاقبتكم بمثل ما عوقبتكم به، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين. ثم خرج أبو موسى فلقى الحسن عليه السلام فضمه إليه، وقال لعمار: أيا أبا اليقظان، أغدوت فيمن غدا على أمير المؤمنين، وأحللت نفسك مع الفجار؟ قال: لم أفعل، ولم تسوءني؟ فقطع عليهما الحسن، وقال لأبي موسى: يا أبا موسى. لم تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء، قال أبو موسى: صدقت بأبي وأمي! ولكن المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ستكون فتنة...»^(١) وذكر تمام الحديث. فغضب عمار وساء ذلك، وقال: أيها الناس، إنما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك له خاصة، وقام رجل من بني تميم فقال لعمار: اسكت أيها العبد! أنت أمس مع الغوغاء، وتسافه أميرنا اليوم! وثار زيد بن صوحان وطبقته، فانتصروا لعمار، وجعل أبو موسى يكف الناس ويردعهم عن الفتنة. ثم انطلق حتى صعد المنبر، وأقبل زيد بن صوحان

(١) تقدم تخريجه.

ومعه كتاب من عائشة إليه خاصة، وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامة، تثبّطهم عن نصرة عليّ، وتأمّره بلزوم الأرض، وقال: أيّها الناس، انظروا إلى هذه، أمّرت أن تقرّ في بيتها، وأمّرنا نحن أن نقاتل، حتى لا تكون فتنة، فأمرتنا بما أمّرت به، وركبت ما أمّرنا به، فقام إليه شبّث بن ربعي. فقال له: وما أنت وذاك أيّها العُمانيّ الأحق! سرقت أُمس بجُلّولاء فقطعك الله، وتسبّ أم المؤمنين! فقام زيد، وشال يده المقطوعة وأوما بيده إلى أبي موسى وهو على المنبر، وقال له: يا عبد الله بن قيس، أتردّ الفرات عن أمواجه! دغ عنك ما لست تدري، ثم قرأ: ﴿الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْثَلًا﴾ (١) الأيتين، ثم نادى: سيروا إلى أمير المؤمنين وصراط سيّد المرسلين، وانفروا إليه أجمعين. وقام الحسن بن عليّ عليه السلام، فقال: أيّها الناس، أجيئوا دعوة إمامكم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولوا النهى أمثل في العاجلة، وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا، وأعينونا على أمرنا، أصلحكم الله!

وقام عبد خير فقال: يا أبا موسى، أخبرني عن هذين الرجلين، ألم يبايعا علياً؟ قال: بلى، قال: أفأحدث عليّ حدثاً يحلّ به نقض بيعته؟ قال: لا أدري، قال: لا أدري ولا أتيت! إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري. أخبرني: هل تعلم أحداً خارجاً عن هذه الفرق الأربع: عليّ بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة رابعة بالحجاز قعود لا يجي بهم شيء، ولا يقاتل بهم عدوا فقال أبو موسى: أولئك خير الناس، قال عبد خير: اسكت يا أبا موسى، فقد غلب عليك غشك.

قال أبو جعفر: وأنت الأخبار علياً عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة، فقال للأشتر: أنت شفعت في أبي موسى أن أقرّه على الكوفة، فاذهب فأصلح ما أفسدت، فقام الأشتر، فشخص نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلا دعاهم، وقال: اتبعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فافتحمة وأبو موسى يومئذ يخطب الناس على المنبر، ويثبّطهم، وعمار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنحّ عن منبرنا، لا أم لك!

قال أبو جعفر: فروى أبو مريم الثَّقَفِيّ، قال: والله إنّي لفي المسجد يومئذ! إذ دخل علينا غلمان أبي موسى يشتدونّ ويبادرون أبا موسى: أيّها الأمير، هذا الأشتر قد جاء، فدخل القصر، فضرّبنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى من المنبر، وجاء حتى دخل القصر، فصاح به الأشتر: أخرج من قصرنا لا أم لك، أخرج الله نفسك! فوالله إنك لمن المنافقين قديماً. قال:

أجلني هذه العشيّة، قال: قد أجلتك، ولا تبيتن في القصر الليلة. ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشر، وقال: إن قد أخرجته وعزلته عنكم. فكف الناس حينئذ عنه.

قال أبو جعفر: فروى الشعبي، عن أبي الطفيل، قال: قال عليّ عليه السلام: يأتكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد، فوالله لقدت على نجفة ذي قار، فأحصيتهم واحداً واحداً، فما زادوا رجلاً، ولا نقصوا رجلاً^(١).

نبذة من حياة عائشة ونسبها

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع طرفاً من نسب عائشة وأخبارها، وما يقوله أصحابنا المتكلمون فيها، جرياً على عادتنا في ذكر مثل ذلك كلما مررنا بذكر أحد من الصحابة.

أما نسبها، فإنها ابنة أبي بكر، وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم، وأمها أم رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن شبيب بن دهمان بن الحارث بن تميم بن مالك بن كنانة. تزوجها رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة بستين - وقيل بثلاث - وهي بنت ست سنين - وقيل بنت سبع سنين - وبني عليها بالمدينة وهي بنت تسع، لم يختلفوا في ذلك.

وكانت تذكّر لجبير بن مطعم وتسمي له، وورد في الأخبار الصحيحة أن رسول الله ﷺ أري عائشة في المنام في سرقة حرير^(٢)، متوفى خديجة رضي الله عنها، فقال: إن يكن هذا من عند الله يفضيه، فتزوجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، وتزوجها في شوال، وأعرس بها بالمدينة في شوال، على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره إلى المدينة.

وقال ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»: كانت عائشة تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبها في شوال على أزواجهن، وتقول: هل كان في نسائه أحظى عنده مني وقد نكحني وبني عليّ في شوال^(٣)!

قلت: قرئ هذا الكلام على بعض الناس، فقال: كيف رأت الحال بينها وبين أحمائها وأهل بيت زوجها^(٤)!

(١) أنظر تاريخ الطبري: ٣/ ٥١٣ بعثة علي من ذي قار ابنة الحسن وعمار.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: نكاح الأبقار (٥٠٧٨)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٣٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٧٥٧).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٨٨٢/٤).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٨٨٢/٤).

وروي أبو عمر بن عبد البر، في الكتاب المذكور: أن رسول الله ﷺ توفي عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة، فكان سنّها معه تسع سنين، ولم ينكح بغيرها، واستأذنت رسول الله ﷺ في الكنية، فقال لها: اكتني بابنك عبد الله بن الزبير - يعني ابن أختها - فكانت كنيثها أم عبد الله، وكانت فقيهة عالمة بالفرائض والشعر والطب.

وروي أن النبي ﷺ، قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»^(١)، وأصحابنا يحملون لفظة النساء في هذا الخبر على زوجاته، لأن فاطمة عليها السلام عندهم أفضل منها، لقوله ﷺ: «إنها سيّدة نساء العالمين»^(٢).

وقد ثبت بصفوان بن المعطل السلمي في سنة ست، منصرف رسول الله ﷺ من غزاة بني المصطلق - وكانت معه - فقال فيها أهل الإفك ما قالوا، ونزل القرآن ببراءتها.

وقوم من الشيعة زعموا أن الآيات التي في سورة النور لم تنزل فيها، وإنما أنزلت في مارية القبطية، وما قدفت به مع الأسود القبطي. وجحدهم لإنزال ذلك في عائشة جحد لما يعلم ضرورة من الأخبار المتواترة. ثم كان من أمرها وأمر حفصة وما جرى لهما مع رسول الله ﷺ في الأمر الذي أسره على إحداهما ما قد نطق الكتاب العزيز به. واعتزل رسول الله ﷺ نساءه كلهن، واعتزلهما معهن ثم صالحهن، وطلق حفصة ثم راجعها، وجرت بين عائشة وفاطمة إبلغات، وحديث يوغر الصدور، فتولد بين عائشة وبين علي عليه السلام نوع ضغينة، وانضم إلى ذلك إشارته على رسول الله ﷺ في قصة الإفك بضرب الجارية وتقريرها وقوله: «إن النساء كثير».

ثم جرى حديث صلاة أبي بكر بالناس، فتزعم الشيعة أن رسول الله ﷺ لم يأمر بذلك، وأنه إنما صلى بالناس عن أمر عائشة ابنته، وأن رسول الله ﷺ خرج متحاملاً وهو مثقل، فنتحاه عن المحراب. وزعم معظم المحدثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله ﷺ وقوله، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: نتحاه وصلى هو بالناس، ومنهم من قال: بل ائتم بأبي بكر كسائر الناس، ومنهم من قال: كان الناس يصلّون بصلاة أبي بكر، وأبو بكر يصلّي بصلاة رسول الله ﷺ^(٣).

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة (٢٤٣١)، والترمذي في الأطعمة، باب: ما جاء في فضل الثريد (١٨٣٤)، والنسائي في عشرة النساء، باب: حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض (٣٩٤٧)، وابن ماجه في الأطعمة، باب: فضل الثريد (٣٢٨٠).

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدرکه» (١٧٠/٣)، ونحوه الديلمي في الفردوس (١٤٥/٣).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٨٠/٣، باب ما روي في صلاة المأموم قائماً، وعبد الرزاق في المصنف رقم ٤٠٧٦.

ثم كان منها في أمر عثمان، وتضريب الناس عليه، ما قد ذكرناه في مواضعه، ثم تلا ذلك يوم الجمل.

واختلف المتكلمون في حالها وحال مَنْ حضر واقعة الجمل، فقالت الإمامية: كَفَر أصحابُ الجمل كُلُّهم، الرؤساء والأتباع. وقال قوم من الحشوية والعامة: اجتهدوا فلا إثم عليهم، ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ عليٍّ عليه السلام وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول: أصحاب الجمل أخطؤوا، ولكنه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند مَنْ قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية. وقال أصحابنا المعتزلة: كلُّ أهل الجمل هالكون إلا مَنْ ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشة مِمَّنْ ثبتت توبتها، وكذلك طلحة والزبير، أما عائشة فإنها اعترفت لعليٍّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ، وسأله العفو، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنها كانت تقول: ليتَّه كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة، كلُّهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - وثكلتهم - ولم يكن يومُ الجمل! وأنها كانت تقول: ليتني مِتَّ قبل يوم الجمل، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلَّ خمارها. وأما الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ لما أذكره عليٍّ عليه السلام ما أذكره. وأما طلحة فإنه مرَّ به - وهو صريع - فارس، فقال له: قف، فوقف، قال: من أيِّ الفريقين أنت؟ قال: من أصحاب أمير المؤمنين، قال: أقعدني، فأقعده، فقال: امدد يدك أبايعك لأمر المؤمنين، فبايعه.

وقال: شيوخنا: ليس لقائل أن يقول: ما يروي من أخبار الأحاد بتوبتهم لا يعارض ما علم قطعاً من معصيتهم. قالوا: لأنَّ التوبة إنما يحكم بها للمكلف على غالب الظنِّ في جميع المواضع، لا على القطع، ألا ترى أنا نجوز أن يكون من أظهر التوبة منافقاً وكاذباً، فبان أن المرجع في قبولها في كلِّ موضع إنما هو إلى الظنِّ، فجاز أن يعارض ما علم من معصيتهم بما بظنِّ من توبتهم.

٢ - ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة

الأصل: وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ يَتِّ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الشرح: موضع قوله: «من أهل مصر» نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً.

فإن قلت: كيف يكون تمييزاً وتقديره: وجزاكم الله متمدين أحسن ما يجزي المطيع، والتمييز لا يكون إلا جامداً، وهذا مشتق!

قلت: إنهم أجازوا كون التمييز مشتقاً في نحو قولهم: «ما أنت جارة»، وقولهم: «يا سيدي ما أنت من سيد».

وما يجوز أن تكون مصدرية، أي أحسن جزاء العاملين، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول، وتقديره أحسن الذي يجزي به العاملين.

٣ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه

الأصل: رُوِيَ أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحَارِثِ قَاضِيَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَرَى عَلَى عَهْدِهِ دَاراً بِشَمَائِنَ دِينَاراً، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحاً، وَقَالَ لَهُ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِشَمَائِنَ دِينَاراً، وَكُتِبَتْ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتُ فِيهِ شُهوداً. فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَتَنَظَّرْ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونَ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَذْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ.

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي حِينَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ، لَكُنْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِالدَّرْهَمِ فَمَا فَوْقَ، وَالنُّسخَةُ هَذِهِ:

«هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيْتٍ قَدْ أُرْجِعَ لِلرَّحِيلِ. اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْقَائِنِينَ، وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ. وَتَجَمَّعَ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودَ أَرْبَعَةٍ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي. وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. اشْتَرَى هَذَا الْمُفْتَرُّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالْدُخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَذْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ. فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاغَةِ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَتَبَعِ وَجْمِيرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَكَثُرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيْدَ، وَزَخَرَ وَنَجَّدَ، وَأَدْخَرَ وَأَعْتَقَدَ، وَنَظَرَ

بِرْغَمِهِ لِلْوَلَدِ - إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ الْعَرَضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ، ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(١).

شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مَنْ أَسْرَ الْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا.

الشرح: هو شَرِيحُ بن الحارث بن المتجع بن معاوية بن جَهْم بن ثُور بن عُفَيْر بن عَدِي بن الحارث بن مُرَّة بن أَدَد الكندي، وقيل إنه خَلِيفٌ لِكِنْدَةَ من بني الرائيش.

وقال ابنُ الكلبي: ليس اسم أبيه الحارث، وإنما هو شريح بن معاوية بن ثور.

وقال قوم: هو شَرِيحُ بن هانيء.

وقال قوم: هو شريح بن شَرَّاحِيل. والصحيح أنه شَرِيحُ بن الحارث، ويكنى أبا أمية. استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة، فلم يزل قاضياً ستين سنة، لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين في فِثْنَةِ ابنِ الزبير، امتنع فيها من القضاء، ثم استعفى الحجاج من العمل فأعفاه، فلزم منزله إلى أن مات، وعُمرُ عمرأ طويلاً، قيل: إنه عاش مائة سنة وثمانياً وستين، وقيل مائة سنة، وتوفي سنة سبع وثمانين.

وكان خفيف الروح، مزاحاً، فقدم إليه رجلان، فأقر أحدهما بما ادّعى به خصمه، وهو لا يعلم ف قضى عليه، فقال لشريح: مَنْ شهد عندك بهذا؟ قال: ابن أخت خالك.

وقيل: إنه جاءته امرأته تبكي وتتظلم على خصمها، فما رَق لها حتى قال له إنسان كان بحضرته: ألا تنظر أيتها القاضي إلى بكائها! فقال: إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاءً يكون.

وأقر علي عليه السلام شريحاً على القضاء: مع مخالفته له في مسائل كثيرة من الفقه مذكورة في كتب الفقهاء.

واستأذنه شريح وغيره من قضاة عثمان في القضية أول ما وقعت الفرقة، فقال: اقضوا كما كنتم تقضون حتى تكون للناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي.

وسخط علي عليه السلام مرة عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء، وأمره بالمقام بيانقيا - وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنها اليهود - فأقام بها مدة، حتى رضي عنه وأعادته إلى الكوفة.

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»: أدرك شريح الجاهلية، ولا يعد من الصحابة، بل من التابعين، وكان شاعراً محسناً، وكان سناطاً لا شعر في وجهه.

(١) سورة غافر، الآية: ٧٨.

قوله عليه السلام: «وخطّة الهالكين» بكسر الخاء، وهي الأرض التي يختطها الإنسان، أي يُعلم عليها علامة بالخطّ ليعمرها، ومنه خطط الكوفة والبصرة.

وزخرف البناء، أي ذهب جدرانها بالزخرف، وهو الذهب.

ونجد: فرش المنزل بالوسائد، والتّجّاد الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما، والتّنجيد: التزيين بذلك، ويجوز أن يريد بقوله: «نجد» رفع وعلا، من النّجد، وهو المرتفع من الأرض.

واعتقد: جعل لنفسه عُقدة كالضيعة أو الذخيرة من المال الصامت.

«واشخاصهم» مرفوع بالابتداء وخبره الجار المجرور المقدم، وهو قوله: «فعلى مبلبل أجسام الملوك». وموضع الاستحسان من هذا الفصل - وإن كان كله حسناً - أمران:

أحدهما: أنّه عليه السلام نظر إليه نظر مغضب، إنكاراً لابتياحه داراً بشمانين ديناراً، وهذا يدلّ على زهد شديد في الدنيا واستكثار للقليل منها، ونسبه هذا المشتري إلى الإسراف، وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام.

الثاني: أنه أملى عليه كتاباً زهدياً وعظيماً، مماثلاً لكتب الشروط التي تكتب في ابتياع الأملاك، فإنهم يكتبون: «هذا ما اشترى فلان من فلان، اشترى منه داراً من شارع كذا وخطّة كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة، فحدّ منها ينتهي إلى دار فلان، وحدّ آخر ينتهي إلى ملك فلان، وحدّ آخر ينتهي إلى ما كان يعرف بفلان، وهو الآن معروف بفلان، وحدّ آخر ينتهي إلى كذا. ومنه شروع باب هذه الدار، وطريقها: اشترى هذا المشتري المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمان مبلغة كذا وكذا ديناراً، أو درهماً، فما أدرك المشتري المذكور من درك فمرجوع به على من يُوجب الشرع الرجوع به عليه». ثم تكتب الشهود في آخر الكتاب: شهد فلان ابن فلان بذلك، وشهد فلان ابن فلان به أيضاً، وهذا يدلّ على أن الشروط المكتوبة الآن قد كانت في زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها، إلا أننا ما سمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط الفقهي إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام، ولا غرو فما زال سباقاً إلى العجائب والغرائب!

فإن قلت: لم جعل الشيطان المغوي في الحدّ الرابع؟

قلت: ليقول: وفيه شرع باب هذه الدار، لأنه إذا كان الحدّ إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال.

٤ - ومن كتاب له كتبه عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه

الأصل: فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ، فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَّتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشَّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَأَنْهَذَا بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَعْنِ بِمَنْ أَنْقَادَ مَعَكَ، عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكَارَةَ مَغِيْبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

الشرح: انهذ: أي انهض. وتقاعس، أي ابطأ وتأخر.

والمتكارة: الذي يخرج إلى الجهاد من غير نية وبصيرة، وإنما يخرج كارهاً مرتاباً، ومثل قوله عليه السلام: «إِنَّ الْمُتَكَارَةَ مَغِيْبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ» قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾^(١).

٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس، وهو عامل أذربيجان

الأصل: وَإِنْ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطَعْمَةٍ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْنَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلَا تُخَاطَرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْتَ مِنْ خُزَائِنِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلَا أَكُونَ شَرًّا وَلَا تِكَ لَكَ. وَالسَّلَامُ.

الشرح: قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم.

وأذربيجان: اسم أعجمي غير مصروف، الألف مقصورة، والذال ساكنة. قال حبيب: وأذربيجان احتيال، بعد ما كانت معرّس عبيرة ونكّال^(٢) وقال الشماخ:

تَذَكَّرْتُهَا وَهَنًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا قُرَى أَذَرَبَيْجَانَ الْمَسَالِحُ وَالْجَالُ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٢) البيت المعرّس الذي له عرس وهو الحائط يجعل بين حائطي البيت لا يبلغ به أقصاه. اللسان، مادة (عرس).

والنسبة إليه أذري بسكون الذال، هكذا القياس، ولكن المروي عن أبي بكر في الكلام الذي قاله عند موته: «ولتألمنَّ التَّوَمَ على الصُّوف الأذري» بفتح الذال.

والطَّعْمَةُ بضم الطاء المهملة: المأكلة، ويقال: فلان خبيث الطَّعْمَةُ، أي رديء الكسب. والطَّعْمَةُ بالكسر لهيئة التطعم، يقول: إنَّ عملك لم يسوِّغه الشرع والوالي من قبلي إياه، ولا جعله لك أكلاً، ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين، وفوقك سلطان أنت له رعية فليس لك أن تفتات في الرعية الذين تحت يدك، يقال: افتات فلان على فلان، إذا فعل بغير إذنه ما سبيله أن يستأذنه فيه، وأصله من الفؤت وهو السُّبُق، كأنه سبقه إلى ذلك الأمر.

وقوله: «ولا تخاطر إلا بوثيقة»، أي لا تُقدِّم على أمرٍ مخوفٍ فيما يتعلق بالمال الذي تتولاه إلا بعد أن تتوثق لنفسك، يقال: أخذ فلان بالوثيقة في أمره، أي احتاط.

ثم قال له: «ولعلي لا أكون شرَّ ولايك»، وهو كلام يطيب به نفسه ويسكن به جاشه؛ لأنَّ في أول الكلام إيحاشاً له، إذ كانت ألفاظه تدلُّ على أنَّه لم يره أميناً على المال، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة، أي ربما تحمد خلافتي وولايتي عليك، وتصادف مني إحساناً إليك، أي عسى ألا يكون شكرُك لعثمان ومن قبله أكثر من شكرِك لي، وهذا من باب وعدك الخفي، وتسميه العرب المَلْتُ.

وأول هذا الكتاب: «من عبد الله عليَّ أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس. أما بعد، فلولا هنات وهنات كانت منك، كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعلَّ أمراً كان يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله عزَّ وجلَّ، وقد كان من بيعة الناس إيتاي ما قد علمت، وكان من أمر طلحة والزبير ما قد بلغك، فخرجت إليهما، فأبلغت في الدُّعاء، وأحسنيت في البقية، وإن عملك ليس لك بطعمة...»، إلى آخر الكلام، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث بن قيس بعد انقضاء الجمل.

٦ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: إِنَّهُ بَابِعْنِي الْقَوْمَ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضاً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْنٍ أَوْ بَدْعَةٍ رَدَّوْهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاةُ اللَّهِ مَا تَوَلَّى.

وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةَ، لَئِنْ نَظَرْتُ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ، لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلَةٍ عَنْهُ، إِلَّا أَنْ تَجَنِّي، فَتَجَنَّ مَا بَدَأَ لَكَ! وَالسَّلَامُ.

الشرح: قد تقدّم ذكر هذا الكلام في أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام معاوية بجريير بن عبد الله البجلي، وقد ذكره أرباب السيرة كلهم، وأورده شيوخنا المتكلمون في كتبهم احتجاجاً على صحة الاختيار، وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأول الكتاب:

«أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمّتك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا...» إلى آخر الفصل.

والمشهور المروي: «فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة»، أي رغبة عن ذلك الإمام الذي وقع الاختيار له.

والمروي بعد قوله: «ولآه الله بعد ما تولّى»، «وأصلاه جهنّم وساءت مصيراً»، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضاً بيّعتي، فكان نقضهما كبريئتهما، فجاهدتكما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك، واستعنت بالله عليك، وقد أكثر في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل الناس فيه، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخذة الصبي عن اللبن، ولعمري يا معاوية إن نظرت بعقلك...» إلى آخر الكلام.

وبعده: «واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة، ولا تعرض بهم الشورى، وقد أرسلت جريراً بن عبد الله البجلي، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلا بالله».

واعلم أن هذا الفصل دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلمون؛ لأنه احتج على معاوية ببيعة أهل الحل والعقد له، ولم يراع في ذلك إجماع المسلمين كلهم، وقياسه على بيعة أهل الحل والعقد لأبي بكر، فإنه ما روعي فيها إجماع المسلمين؛ لأن سعد بن عباد لم يبايع، ولا أحد من أهل بيته وولده، ولأن علياً وبني هاشم ومن انضوى إليهم لم يبايعوا في مبدأ الأمر، وامتنعوا، ولم يتوقف المسلمون في تصحيح إمامة أبي بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأنه لا يقدح في إمامته عليه السلام امتناع معاوية من البيعة وأهل الشام، فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقيّة، وتقول: إنه ما كان يمكنه أن يصرح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال، ويقول له: أنا منصوب عليّ من رسول الله ﷺ، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفة فيهم بلا فصل، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدمين، وتفسد حاله مع الذين بايعوه من أهل المدينة، وهذا القول من الإمامية دعوى لو عضّدها دليل لوجب أن يقال بها، ويصار إليها، ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأصول التي تسوقهم إلى حمل هذا الكلام على التقيّة.

فأما قوله عليه السلام : «وقد أكثر في قتل عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله»، فيجب أن يذكر في شرحه ما يقول المتكلمون في هذه الواقعة.

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : هذا الكلام حق وصواب؛ لأن أولياء الدم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته، ثم يرفعوا خصومهم إليه، فإن حَكَمَ بالحق استديمت إمامته، وإن حادَ عن الحق انقضت خلافته، وأولياء عثمان الذين هم بثوهم لم يبايعوا علياً عليه السلام، ولا دخلوا تحت طاعته ثم، وكذلك معاوية ابن عم عثمان لم يبايع ولا أطاع، فمطالبتهم له بأن يقتلهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان.

فإن قلت : هب أن القصاص من قتل عثمان موقوف على ما ذكره عليه السلام، أما كان يجب عليه لا من طريق القصاص أن ينهي عن المنكر! وأنتم تذهبون إلى أن النهي عن المنكر واجب على مَنْ هو سَوْقة، فكيف على الإمام الأعظم!

قلت : هذا غير وارد هاهنا؛ لأن النهي عن المنكر إنما يجب قبل وقوع المنكر، لكيلا يقع، فإذا وقع المنكر، فأَيُّ نهْي يكون عنه! وقد نهى علي عليه السلام أهل مصر وغيرهم عن قتل عثمان قبل قتله مراراً، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغن شيئاً، وتفاقم الأمر حتى قُتل، ولا يجب بعد القتل إلا القصاص، فإذا امتنع أولياء الدم من طاعة الإمام لم يجب عليه أن يقتل من القاتلين؛ لأن القصاص حقهم، وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته. وقد قلنا نحن فيما تقدم : إن القصاص إنما يجب على مَنْ باشر القتل، والذين باشروا قتل عثمان قُتلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبهم بدم عثمان لم يباشروا القتل، وإنما كثروا السواد وحَصَرُوا عثمان في الدار، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعدوه، ومنهم مَنْ تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه، ومنهم مَنْ نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه، وكل هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشرع.

إرسال علي عليه السلام جريراً إلى معاوية

وقد ذكرنا فيما تقدم شرح حال جرير بن عبد الله البجلي في إرسال علي عليه السلام إياه إلى معاوية مستقصى. وذكر الزبير بن بكار في «الموفقيات»^(١) أن علياً عليه السلام لما بعث جريراً إلى معاوية، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه، قال : فقدمت على معاوية فوجدته يخطب الناس وهو حوله يكون حول قيمص عثمان وهو معلق على رُمح مخضوب بالدم، وعليه أصابع زوجته

(١) الموفقيات : كتاب في الحديث للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ).

ناثلة بنت الفرافصة مقطوعة، فدفعت إليه كتاب علي عليه السلام، وكان معي في الطريق رجل يسير بسيري، ويقيم بمقامي، فمثل بين يديه في تلك الحال وأنشده:

إِنَّ بَنِي عَمِّكَ عَبْدَ الْمُظْلَبِ هُمْ قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ كَذِبٍ
وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْوَثْبِ فَثِبْ

وقد ذكرنا تمام هذه الأبيات فيما تقدم.

قال ثم دفع إليه كتاباً من الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط، وهو أخو عثمان لأمه، كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سرّاً أولاً:

مُعَاوِيَ إِنَّ الْمُلْكَ قَدْ جُبَّ غَارِبُهُ

الأبيات التي ذكرنا فيما تقدم.

قال: فقال لي معاوية: أقم فإن الناس قد نفروا عند قتل عثمان حتى يسكنوا. فأقمت أربعة أشهر، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عُقبة، أولاً:

أَلَا أَبْلِغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مُلِيمٍ
قَطَعْتَ الذَّهَرَ كَالسُّدِّ الْمَعْنَى تُهَذِّرُ فِي دَمَشَقٍ وَلَا تَرِيمُ
وَأَنْتَ وَالْكِتَابُ إِلَى عَلِيٍّ كَذَابُغَةٌ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ
فَلَوْ كُنْتَ الْقَتِيلَ وَكَانَ حَيًّا لَشَمَّرَ لَا أَلْفٌ وَلَا سَوْوَمُ

قال: فلما جاءه هذا الكتاب وصل بين طومازين أبيضين، ثم طواهما وكتب عنوانهما.

«من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب».

ودفعهما إليّ، لا أعلم ما فيهما، ولا أظنهما إلا جواباً، وبعث معي رجلاً من بني عَبْس لا أدري ما معه، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة، واجتمع الناس في المسجد، لا يشكون أنها بيعة أهل الشام، فلما فتح علي عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً، وقام العباسي، فقال: مَنْ هَاهُنَا مِنْ أَحِبَّاءِ قَيْسٍ، وَأَخَصَّ مِنْ قَيْسٍ غُطْفَانٍ، وَأَخَصَّ مِنْ غُطْفَانٍ عَبْسًا؟ إني أحلف بالله لقد تركت تحت قميص عثمان أكثر من خمسين ألف شيخ خاضبي لحاهم بدموع أعينهم، متعاقدين متحالفين، ليقْتُلْنَ قَتْلَتَهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وإني أحلف بالله ليقْتَحِمْنَهَا عَلَيْكُمْ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ بِأَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِضْيَانِ الْخَيْلِ، فما ظنكم بعد بما فيها من الفُحُولِ. ثم دفع إلى علي عليه السلام كتاباً من معاوية ففتح فوجد فيه.

أَتَانِي أَمْرٌ فِيهِ لِلنَّفْسِ غَمَةٌ وَفِيهِ اجْتِدَاعٌ لِلْأَنْفِ أَصِيلُ
مِصَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَهَذَّةُ تَكَادُ لَهَا صُفْمُ الْجِبَالِ تَزُولُ

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم.

٧ - ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

الأصل: أَمَا بَعْدُ فَقَدْ أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقَتْهَا بِضَلَالِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ. وَكِتَابٌ أَمْرِي لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لَأْغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً.

الشرح: موعظة موصلة، أي مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا، وذلك عيب في الكتابة والخطابة، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً، أو يروي فيأتي بالبديع المستحسن، وهو في الحالين كليهما يُتَّفَق من كيسه، ولا يستعير كلام غيره.

والرسالة المحبرة: المزيّنة الألفاظ، كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلف والتصنع. والتنميق: التزيين أيضاً. وهَجَرَ الرَّجُل، أي هَذَى، ومنه قوله تعالى في أحد التفسيرين: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(١). واللأغط: ذو اللغظ، وهو الصوت والجلبة.

وخبَط البعير فهو خابط، إذا مشى ضالاً فخبط بيذه كل ما يلقاه، لا يتوقى شيئاً. وهذا الكتاب كتبه علي عليه السلام جواباً عن كتاب كتبه معاوية إليه في أثناء حرب صفين بل في أواخرها، وكان كتاب معاوية:

«من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أما بعد، فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)، وإنني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها، فاتق الله واذكر موقف القيامة، وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين، وإنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو تمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكتبهم الله على مناخرهم في النار»^(٣)، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين، بلة ما طحنت رَحَا حربه من أهل القرآن، وذو العبادة والإيمان، من شيخ كبير، وشاب غرير، كلهم بالله تعالى مؤمن، وله مخلص، ورسوله مقرّ عارف! فإن كنت أبا حسن إنما تحارب على الإمرة والخلافة، فلعمري لو صحت خلافتك

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠. (٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٣) رواه المجلسي في بحار الأنوار: ٨١/٣٣، والأميني في الغدير: ٣٥٧/١٠.

لكنك قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين، ولكنها ما صحت لك، أنى بصحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها، ولم يرتضوا بها! وخف الله وسطواته، واتق بأسه، ونكاله، وأغمض سيفك عن الناس، فقد والله أكلتهم الحرب، فلم يبق منهم إلا كالثمد في قرارة الغدير. والله المستعان:

فكتب علي عليه السلام إليه جواباً عن كتابه.

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: «أما بعد فقد أثنى منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة، نعمتها بضلالك، وأمضيها بسوء رأيك، وكتاب امرئ ليس له بصير يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجاب، وقاده الضلال فأتبعه، فهجر لا غطاً، وضل خابطاً، فأما أمرك لي بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها، وأستعيز بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالإثم. وأما تحذيرك إياي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام، فلعمري لو كنت الباغي عليك، لكان لك أن تحذرنى ذلك، ولكني وجدت الله تعالى يقول: ﴿فَقَبِلُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ حَقَّ تَفَيٍّ إِلَيْكَ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾^(١)، فنظرنا إلى الفتنتين، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها، لأن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام، كما لزمك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام، وكما لزمك يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام، وكما لزمك يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام. وأما شق عصا هذه الأمة، فأنا أحق أن أنهار عنه. فأما تخويفك لي من قتل أهل البغي، فإن رسول الله ﷺ أمرني بقتالهم وقتلهم، وقال لإصحابه: «إن فيكم من يقاقل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»^(٢)، وأشار إلي وأنا أولى من أتبع أمره.

وأما قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها! كيف وإنما هي بيعة واحدة، تلزم الحاضر والغائب، لا يثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن، والمروى فيها مداهن. فأربع على ظلعك، وانزع سربال غيئك، واترك ما لا جدوى له عليك، فليس لك عندي إلا السيف، حتى تفيء إلى أمر الله صاغراً، وتدخل في البيعة راغماً. والسلام.

الأصل: ومن هذا الكتاب: لأنها بيعة واحدة لا يثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن، والمروى فيها مداهن.

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدرکه» (٤٦٢١).

الشرح: لا يشئ فيها النظر، أي لا يعاود ولا يراجع ثانية. ولا يستأنف فيها الخيار: ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم؛ لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين، فيسقط الخيار فيها، الخارج منها طاعن على الأمة؛ لأنهم أجمعوا على أن الاختيار طريق الإمامة. والمروي فيها مدهن، أي الذي يرتني ويبطىء عن الطاعة ويفكر، وأصله من الروية. والمدهن: المنافق.

٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية

الأصل: أَمَا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَأَحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَضْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خِيَرَهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِيَّةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَأَنْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنْ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ يَتِّعَتَهُ. وَالسَّلَامُ.

الشرح: قد تقدم ذكر نسب جرير بن عبد الله البجلي.

وقوله عليه السلام: «فاحمل معاوية على الفضل»، أي لا تتركه متلكناً متردداً، يُظْمِعُكَ تَارَةً وَيُؤْيِسُكَ أُخْرَى، بل احمله على أمر قَيَّضَ، إمَّا الْيَتِّعَةَ، أَوْ أَنْ يَأْذَنَ بِالْحَرْبِ. وكذلك قوله: «وخذه بالأمر الجزم»، أي الأمر المقطوع به، لا تكن ممن يُقَدِّمُ رِجْلَهُ وَيُؤْخِرُ أُخْرَى، وأصل الجزم القطع.

وحرب مُجَلِيَّةٌ: تُجَلِّيُ الْمُقْهُورِينَ فِيهَا عَنْ دِيَارِهِمْ، أَيْ تُخْرِجُهُمْ. وسِلْمٌ مُخْزِيَةٌ، أي فاضحة، وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولاً من البيعة، فإذا دخل في السِّلْمِ فَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيهَا بِالْبَيْعَةِ، وَإِذَا بَايَعَ بَعْدَ الْامْتِنَاعِ، فَقَدْ دَخَلَ تَحْتَ الْهَضْمِ وَرَضِيَ بِالضُّمِّ، وذلك هو الخِزْيُ.

قوله «فأنبذ إليه» من قوله تعالى: ﴿فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾^(١) وأصله العهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين، ثم يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدهما إلى الآخر عهده، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدهما يوم الحرب وأبطله، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَاخَ أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ، وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَخْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَأَضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَغَيْرِ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ.

فَمَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حُوزَتِهِ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حَوْمَتِهِ، مُؤِمِّنًا يَتَّبِعِي بِذَلِكَ الْأَجَرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خَلَوْا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحَلْفِ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمِنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ، وَأَخْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَ بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَذْرِ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُوتَةِ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلَكِنْ أَجَالَهُمْ عَجَلَتْ، وَمَيَّتُهُ أُخِرَتْ.

فَبَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقَرَّنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يَذِلِّي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدَّعِي مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيْبِكَ وَشِقَاقِكَ، لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جَبَلٍ وَلَا سَهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبَ بِسُوءِكَ وَجَدَانَهُ، وَزَوْرَ لَا يَسْرُكَ لُقْيَانُهُ وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ

الشرح: قوله عليه السلام: «فأراد قومنا»، يعني قريشاً.

والاجتياخ: الاستئصال، ومنه الجائحة وهي السنة، أو الفتنة التي تجتاح المال أو النفس.

قوله: «ومنعونا العذب»، أي العيش العذب. لا أنهم منعواهم الماء العذب، على أنه قد نقل أنهم منعوا أيام الحصار في شعب بني هاشم من الماء العذب. ومذكور ذلك.

قوله: «وأخلصونا الخوف»، أي ألزمناه. والجلس: كساء رقيق يكون تحت بردعة البعير.

وأحلاس البيوت: ما يُبَسِّط تحت حُرِّ الثياب، وفي الحديث: «كن جُلَسَ بيتك»^(١)، أي لا تخالط الناس واعتزل عنهم، فلما كان الجُلَسَ ملازماً ظهر البعير، وأحلاس البيوت ملازمة لها، قال: «وأحلسونا الخوف»، أي جعلوه لنا كالجُلَسِ الملازم.

قوله: «واضطرونا إلى جبل وعر»، مثل ضَرْبِهِ عليه السلام لخشونة مقامهم وشظف منزلهم، أي كانت حالتنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وعر، ويجوز أن يكون حقيقة لا مثلاً، لأن الشعب الذي حصروهم فيه مضيق بين جبلين.

قوله: «فعزم الله لنا»، أي قضى الله لنا، ووقفنا لذلك، وجعلنا عازمين عليه.

والحَوْزَةُ: الناحية، وحوزة الملك: يَبْضَتُهُ.

وحومة الماء والرمل: معظمه.

والرمي عنها: المناضلة والمحاماة، ويروى: «والرمي من وراء حرمة»، والضمير في «حوزته» و«حومته» راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ذكره، وهو قوله: «نبينا» ويروى «والرمتنا».

وقال الراوندي: «وهُمُوا بنا الهموم»، أي همُّوا نزول الهمِّ بنا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وليس ما قاله بجيد بل «الهموم» منصوب ما هنا على المصدر، أي همُّوا بنا هموماً كثيرة، وهمُّوا بنا أي أرادوا نهبنا، كقوله تعالى: «وَهَمَّ بِهَا»^(٢)، على تفسير أصحابنا، وإنما أدخل لام التعريف في الهموم، أي همُّوا بنا تلك الهموم التي تعرفونها، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر في الصدور من تنكيرها، أي تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين في أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع.

وقوله: «وفعلوا بنا الأفاعيل»، يقال لمن أثروا أثراً منكراً: فعلوا بنا الأفاعيل، وقيل أن يقال ذلك في غير الضرر والأذى، ومنه قول أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف وهو يذكر حمزة بن عبد المطلب يوم بدر: «ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل».

قوله: «يحامي عن الأصل»، أي يدافع عن محمد ويذبُّ عنه حميةً ومحافظة على النسب.

قوله: «خَلُّوْنا نحن فيه»، أي خالٍ والحلف: العهد.

واحمرَّ البأس، كلمة مستعارة، أي اشتدت الحرب حتى احمرت الأرض من الدم، فجعل البأس هو الأحمر مجازاً، كقولهم: الموت الأحمر.

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥١٦٣).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

قوله: «وأحجم الناس»، أي كَفُّوا عن الحرب وَجَبُّوا عن الإقدام، يقال: حَجَمْتُ فلاناً عن كذا أَحْجَمُهُ بالضمُّع فأَحْجَمُ هُوَ، وهذه اللفظة من النوادر، كقولهم: «كَيْتَهُ فَاكَبْ».

ويوم مؤنة بالهمز، ومؤنة: أرض معروفة.

وقوله: «وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ لَذَكَرْتُ اسْمَهُ»، يعني به نفسه.

قوله: «إِذْ صَرْتُ يَقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي» إشارة إلى معاوية في الظاهر، وإلى مَنْ تَقَدَّمَ عليه من الخلفاء في الباطن، والدليل عليه قوله: «التي لَا يُذَلِّي أَحَدَ بِمِثْلِهَا»، فأطلق القول إطلاقاً عاماً مستغرقاً لكل الناس أجمعين.

ثم قال: «إِلَّا أَنْ يَدَّعِي مَدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ»، أي كل من ادَّعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب؛ لأنه لو كان صادقاً لكان عليٌّ عليه السلام يعرفه لا محالة، فإذا قال عن نفسه: إِنَّ كُلَّ دَعْوَةٍ تَخَالَفُ مَا ذَكَرْتُ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ صَحَّتْهَا، فمعناه أنها باطلة.

وقوله: «وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ»، فالظنُّ هاهنا بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿وَرَبَّاءُ الْمُجْرِئُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾^(١)، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنتَفِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، وليس المراد سلب العلم بل العلم بالسلب، كذلك ليس مراده عليه السلام سلب الظن الذي هو بمعنى العلم، بل ظن السلب، أي علم السلب، أي وأعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه، وكل ما يعلم الله انتفاءه فليس بثابت.

وقال الراوندي: قوله عليه السلام: «وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ»، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾^(٣).

والله يعلم كل شيء قبل وجوده، وإنما معناه: حتى نعلم جهادهم موجوداً، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثلاً لها، ولكن الراوندي يتكلم بكل ما يخطر له من غير أن يميز ما يقول.

وتقول: أدلى فلان بحجته، أي احتج بها، وفلان مُذِلٌّ بِرَحْمِهِ، أي مَتٌّ بها. وأدلى بماله إلى الحاكم: دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه، فأما الشفاعة فلا يقال فيها: «أدليت»، ولكن «دلوت بفلان» أي استشفعت به، وقال عمر لما استسقى بالعباس رحمه الله: «اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وقفية آبائه، وكُتِبَ رجاله، دلونا به إليك مستشفعين».

قوله عليه السلام: «فَلَمْ أَرَهُ يَسْعُنِي» أي لم أر أنه يحل لي دفعهم إليك. والضمير في «أَرَهُ» ضمير الشأن والقصة، و«أَرَهُ» من الرأي لا من الرؤية، كقولك: لم أر الرأي الفلاني.

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

ونزع فلان عن كذا، أي فارقه وتركه، ينزع بالكسر، والغني: الجهل والضلال.
والشقاق: الخلاف.

الوجدان: مصدر وجدت كذا، أي أصبته. والزور: الزائر.
واللقيان: مصدر لقيت، تقول: لقيته لقاءً ولقياناً.

ثم قال: «والسلام لأهله» لم يستجز في الدين أن يقول له: «والسلام عليك» لأنه عنده فاسق لا يجوز إكرامه، فقال: «والسلام لأهله»، أي على أهله.

ويجب أن نتكلم في هذا الفصل في مواضع:

منها ذكر ما جاء في السيرة من إجلاب قريش على رسول الله ﷺ وبني هاشم وحضرهم في الشعب.

ومنها: الكلام في المؤمنين والكافرين من بني هاشم الذين كانوا في الشعب محصورين معه ﷺ من هم. ومنها: شرح قصة بدر. ومنها: شرح غزاة مؤتة.

قريش وبني هاشم

فأما الكلام في الفصل الأول فنذكر منه ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب «السيرة» والمغازي، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرخين، ومصنفه شيخ الناس كلهم.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: لم يسبق علياً عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد ﷺ أحد من الناس، اللهم إلا أن تكون خديجة زوجة رسول الله ﷺ. قال: وقد كان ﷺ يخرج ومعه عليّ مستخفين من الناس، فيصلّيان الصلوات في بعض شعاب مكة، فإذا أمسيا رجعا فمكثا بذلك ما شاء الله أن يمكثا، لا ثالث لهما. ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان، فقال لمحمد ﷺ: يا بن أخي، ما هذا الذي تفعله! فقال: «أي عمّ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسوله، ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال ﷺ - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عمّ أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعاني عليه». أو كما قال. فقال أبو طالب: إني لا أستطيع يا بن أخي أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت. فزعموا أنه قال لعليّ: أي بني، ما هذا الذي تصنع؟ قال: يا أبتاه، آمنتُ بالله ورسوله وصدقته فيما جاء به، وصليتُ إليه، واتبعت قول نبيه. فزعموا أنه قال له: أما إنه لا يدعوك - أولن يدعوك - إلا إلى خير، فالزمه.

قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فكان أول من أسلم، وصلى معه بعد عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ثم أسلم أبو بكر بن أبي قُحافة، فكان ثالثاً لهما، ثم أسلم عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد بن وقاص، فصاروا ثمانية، فهم الثمانية الذين سَبَقُوا النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، ثم أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد وأرقم بن أبي أرقم، ثم انتشر الإسلام بمكة، وفشا ذكره، وتحدث الناس به، وأمر الله رسوله أن يصدع بما أمر به، فكانت مدة إخفاء رسول الله ﷺ نفسه وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين - فيما بلغني.

قال محمد بن إسحاق: ولم تكن قريش تنكر أمره حيثئذ كل الإنكار، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فأعظموا ذلك وأنكروه، وأجمعوا على عداوته وخلافه، وحذب عليه عمه أبو طالب فمنعه، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يردّه عنه شيء. قال: فلما رأث قريش محاماة أبي طالب عنه وقيامه دونه، وامتناعه من أن يسلمه، مشى إليه رجال من أشراف قريش، منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن وائل، ونبیه ومثبه ابنا الحجاج، وأمثالهم من رؤساء قريش. فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آراءنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تُخَلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، يَظْهَرُ دِينَ اللَّهِ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرَّقَ الْأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، تَبَاعَدُوا وَتَضَاعَفَا، حَتَّى أَكْثَرَتْ قَرِيشُ ذِكْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهَا، وَتَذَامَرُوا فِيهِ، وَحَضُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَيْهِ، فَمَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَقَالُوا: يَا أبا طَالِبٍ، إِنَّ لَكَ سُنّاً وَشَرَفاً وَمَنْزِلَةً فِينَا، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَ عَنَّا، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَضْبِرُ عَلَى شَيْءٍ أَبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا، فإِذَا أَنْ تَكْفَهُ عَنَّا أَوْ نَنَازِلُهُ وَإِيَّاكَ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ. ثُمَّ انصرفوا، فعظم على أبي طالب فراق قومهم وعداوتهم، ولم تطب نفسه بإسلام ابن أخيه وخذلانه، فبعث إليه فقال: يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا - للذي قالوا - فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيقه. قال: فظن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لَعْمَهُ فِيهِ بَدَاءً، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعَفَ عَنْ نَصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ دُونَهُ، فَقَالَ: يَا عَمُّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلِيكَ. ثُمَّ اسْتَعْبَرُ بِأَكْيَأَ وَقَامَ، فَلَمَّا وَلَّى نَادَاهُ أَبُو طَالِبٍ: أَقْبِلْ يَا بَنَ أَخِي، فَأَقْبَلَ رَاجِعاً، فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ يَا بَنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتُ، فَوَاللَّهِ لَا أَسْلَمُكَ لَشَيْءٍ أَبَداً.

قال ابن إسحاق: وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قريش من حربه نداءً فاء بنصر

محمد ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
فانفذ لأمرك ما عليك مخافة
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي
وعرضت ديناً قد علمت بآئه
لولا الملامة أو حذاري سببة
لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً
حتى أوسد في الشراب دفيناً
وابشر وقر بذاك منه عيوننا
ولقد صدقت وكنت قبل أميناً
من خير أديان البرية ديناً

قال محمد بن إسحاق: ثم إن قريشاً حين عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه إليهم ورأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان أجمل فتى في قريش - فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أبهى فتى في قريش وأجمله، فخذ به إليك، فاتخذوه ولدأ فهو لك، وأسلم لنا هذا ابن أخيك الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك لنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال أبو طالب! والله ما أنصفوني! تعطوني ابنكم أعدوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل - وكان له صديقاً مصافياً - والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً! لعمرى قد جهدوا في التخلص مما تكره وأراك لا تُنصفهم! فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم علي! فاصنع ما بدا لك!

قال: فعند ذلك تنابد القوم وصارت الأحقاد، ونادى بعضهم بعضاً، وتذامروا بينهم على من في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمداً ﷺ. فوثبت كل قبيلة على من فيها منهم، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب، وقام في بني هاشم وبني عبد المطلب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الدفاع عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من أبي لهب، فإنه لم يجتمع معهم على ذلك، فكان أبو طالب يرسل إليه الأشعار، ويناشده النصر، منها القطعة التي أولها:

حديث عن أبي لهب أتانا
وكائفه على ذاككم رجال
ومنها القطعة التي أولها:

أظننت عني قد خذلت وغالني
منك الغوائل بعد شيب المكبر
ومنها القطعة التي أولها:

تستعرض الأقوام توسيعهم
عذراً وما إن قلت من عذر

قال محمد بن إسحاق: فلم يؤثر عن أبي لهب خير قط إلا ما يروي أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، لما وثب عليه قومه ليعذبوه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم، فاستجار بأبي

طالب، وأمّ أبي طالب مخزومية، وهي أمّ عبد الله والد رسول الله ﷺ فأجاره، فمشى إليه رجال من بني مخزوم وقالوا له: يا أبا طالب، هَبْكَ منعتَ منا ابنَ أخيك محمّداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا! قال: إنّه استجار بي وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فارتفعت أصواتهم وأصواته، فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها، فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، لا تزالون بتوثبون عليه في جواره من بين قومه! أمّا والله لنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا: بل ننصرف عمّا تكره أيا أبا عُتبة. فقاموا فانصرفوا، وكان ولياً لهم ومعيناً على رسول الله ﷺ وأبي طالب، فاتّقوه وخافوا أن تحمله الحميّة على الإسلام، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال، وأمل أن يقوم معه في نصرة رسول الله ﷺ، فقال يحرضه على ذلك:

وإنّ امرأ أبو عُتَيْبَةَ عَمُّهُ
ولا تقبلنّ الدهرَ ما عشتَ خَطَّةً
أقول له وأين مِنْهُ نصيحتي
وولّ سبيل العجز غيرك منهم
وحارب فإنّ الحربَ نصف ولن ترى
كذبتهم ويبت الله نُبْرًا محمّداً
وقال يخاطب أبا لهب أيضاً:

عَجِبْتُ لِعَلِمِ يا بن شَيْبَةَ عَازِبٍ
يقولون شايِع مَنْ أراد محمّداً
أضاميم^(٢) إما حاسد ذو خيانة
فلا تركبنّ الدهر منه ذمامةً
ولا تتركنه ما حبيتَ لمعظم
يدوّد العدا عن ذروة هاشميّة
فإنّ له قُرْبى لديك قريبةً
ولكنّه من هاشم ذي صميمها
وزاحم جميع الناس عنه وكنّ له

وأحلام أقوامٍ لديك سيخاف
بظلم وقمّ في أمره بخلاف
وأما قريب عنك غير مصاف
وأنت امرؤ من خير عبد مناف
وكنّ رجلاً ذا نجدة وعفاف
إلا فُهِم في الناس خيرٌ إلّا ف
وليس بذئ جلف ولا بمُضاف
إلى أبحر فوق البحور طواف
وزيراً على الأعداء غير مُجاف

(١) نُبْرَى محمّداً: نسلب كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢١٧).

(٢) الأضاميم: جماعات الخيل. استعير هنا لجماعات المشركين. القاموس، مادة (ضمم).

وإن غضبت منه قريش فقل لها بني عَمْنَا ما قومُكُمْ بضعافٍ
وما بالَكُمْ تَغشَوْنَ منه ظِلَامَةً وما بالِ أَحْقَادِ هَناكَ خَوَافِي
فما قومُنا بالقومِ يَخشَوْنَ ظِلْمَنا وما نحنُ فيما ساءَهم بِخِفافٍ
ولكننا أهلُ الحَفائِظِ والنَّهْيِ وعزُّ ببطحاءِ المشاعِرِ وافٍ

قال محمد بن إسحاق: فلما طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب، وارتد كثير عن الدين باللسان لا بالقلب، كانوا إذا عذبوهم يقولون: نشهد أن هذا الله، وأن الآلات والعزى هي الآلهة، فإذا خلوا عنهم عادوا إلى الإسلام، فحبسوهم وأوثقوهم بالقد. وجعلوهم في حر الشمس على الصخر والصفاء، وامتدت أيام الشقاء عليهم ولم يصلوا إلى محمد ﷺ لقيام أبي طالب دونه، فأجمعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم صحيفة يتعاقدون فيها ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، فكتبوها وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم، وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطلب، فدخلوا كلهم مع أبي طالب في الشعب، فاجتمعوا إليه، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه.

قال محمد بن إسحاق: فضاق الأمر ببني هاشم وعدموا القوت، إلا ما كان يحمل إليهم سرّاً وخفية، وهو شيء قليل لا يُنسيك أرماقهم، وأخافتهم قريش، فلم يكن يظهر منهم أحد، ولا يدخل إليهم أحد، وذلك أشد ما لقي رسول الله ﷺ وأهل بيته بمكة.

قال محمد بن إسحاق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ألا يصل إليهم شيء إلا القليل سرّاً ممن يريد صلتهم من قريش، وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد - وهي عند رسول الله محاصرة في الشعب - فتعلق به، وقال: أتحمل الطعام إلى بني هاشم! والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة! فجاءه أبو البختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، فقال: ما لك وله! قال: إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البختري: يا هذا، إن طعاماً كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها! خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال كل منهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحي بغير فضربه به فشجّه ووطئه وطأ شديداً.

فانصرف وهو يكره أن يعلم رسول الله ﷺ وبني هاشم بذلك، فيشتموا، فلما أراد الله تعالى من إبطال الصحيفة، والفرج عن بني هاشم من الضيق والأزل الذي كانوا فيه، قام هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي في ذلك أحسن قيام، وذلك أن أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي

من أمه، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلاً ببني هاشم، وكان ذا شرف في قومه بني عامر بن لؤي، فكان يأتي بالبعير ليلاً وقد أوقره طعاماً، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب، حتى إذا أقبل به فم الشعب فمنع بخطامه من رأسه، ثم يضربه على جنبه، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به مرة أخرى، وقد أوقره تمرأ، فيصنع به مثل ذلك.

ثم أنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يواصلون ولا يزارون! أما إنني أحلف لو كان أخواك أبو الحكم بن هشام ودعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك أبداً. قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع! إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمْتُ في نقض هذه الصحيفة القاطعة. قال: قد وجدت رجلاً، قال: مَنْ هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم، أرضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً وجهداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدن قريشاً إلى مساء تكم في غيره سريعة. قال: ويحك! ماذا أصنع! إنما أنا رجل واحد، قال قد وجدت ثانياً، قال: مَنْ هو؟ قال: أنا، قال: ابغني ثالثاً، قال: قد وجدت، قال: مَنْ هو؟ قال: زهير بن أمية، قال أنا، قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم، قال: وهل مِنْ أَحَدٍ يعين على هذا؟ قال: نعم وذكرهم، قال: فابغنا خامساً، فمضى إلى زُمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلّمه، فقال: وهل يعين على ذلك من أحد؟ قال: نعم، ثم سَمَى له القوم، فاتعدوا خُطم الحُجُون ليلاً بأعلى مكة، فأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم وأكون أولكم يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية، عليه حلة له. فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!

وكان أبو جهل في ناحية المسجد، فقال: كذبت والله لا تشق! فقال زُمعة بن الأسود لأبي جهل: والله أنت أكذب، ما رضينا والله بها حين كُتِبَتْ. فقال أبو البختري معه: صدق والله زُمعة، لا نرضى بها ولا نقر بما كتب فيها! فقال المطعم بن عدي: صدقاً والله، وكذب مَنْ قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو مثل قولهم، فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وقام معطم بن عدي إلى الصحيفة فحفظها وشققها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا ما كان من «باسمك اللهم» قالوا: وأما كاتبها منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يذكرون. فلما مزقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشعب.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً على نصر رسول الله ﷺ وحمایته والقیام دونه، حتی مات فی أول السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله ﷺ فطمعت فيه قريش حينئذ، ونالت منه، فخرج عن مكة خائفاً يطلب أحياء العرب، يعرض عليهم نفسه، فلم يزل كذلك حتى دخل مكة في جوار المطعم بن عدي، ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة^(١).

قال: ومن شعر أبي طالب الذي يذكر فيه رسول الله ﷺ وقيامه دونه:

أرقت وقد تصوّبت النجوم	وبت ولا تسالمك الهموم
لظلم عشيرة ظلموا وعقوا	وغب عقوقهم لهم وخيم
هم انتهكوا المحارم من أخيه	وكل فعالهم دنس ذميم
وراموا خطة جوراً وظلماً	وبعض القول ذو جنف ملیم
لتخرج هاشماً فتكون منها	بلاقع بطن مكة فالخطيم
فمهلاً قومنا لا تركبونا	بمظلمة لها خطب جسيم
فيندم بعضكم ويذل بعض	وليس بمفلح أبداً ظلوم
أرادوا قتل أحمد زاعميه	وليس بقتله منهم زعيم
ودون محمّد منا ندي	هم العرنيين والعصو الضميم

ومن ذلك قوله:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ	خلوف الحديث، ضعيف السبب
وإن كان أحمد قد جاءهم	بصدق ولم يأتهم بالكذب
فإنا ومن حج من ركب	وكعبة مكة ذات الحجب
تنالون أحمد أو تصطلوا	ظباة الرماح وخذ القضب
وتفتروا بين أبياتكم	صدور العوالي وخيلاً شرب
تراهن من بين ضايفي السبب	قصير الجزام طويل اللبب
عليها صناديد من هاشم	هم الأنجبون مع المنتجب

وروى عبد الله بن مسعود، قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتلى بدر، وأمر بطرحهم في القليب، جعل يتذكر من شعر أبي طالب بيتاً فلا يحضره، فقال له أبو بكر: لعلة قوله يا رسول الله:

(١) أنظر مناقب أهل البيت عليهم السلام لحيدر الشيرواني: ٥٨.

وإنا لعمرُ الله إنَّ جَدَّ جَدُّنا لتلتبسُن أسيافُنا بالأمائل
فسرَّ بظفروه بالبيت، وقال: إي لعمر الله، لقد التبت. ومن شعر أبي طالب قوله:
ألا أبليغَا عَنِّي لُؤْيَا رِسَالَةً بحق وما تغني رسالةً
بني عَمَّنَا الأذنين فيما يخصُّهُم وإخواننا من عبدِ شمس ونوفل
أظَاهرْتُم قوماً علينا سَفَاهَةً وأمرًا غويًّا من غُواةٍ وَجُهْلٍ
يقولون لو أَنَا قَتَلْنَا مُحَمَّدًا أَقَرَّتْ نواصِي هاشم بالتذلل
كذبتُم وربَّ الهذِي تَدْمَى نَحْوَرُهُ بمكة، والبيت العتيق المُقْبَل
تَنالُونَهُ، أو تصطلوا دونَ نَيْلِهِ صوارمَ تَفْري كُلَّ عُضْوٍ ومفصل
فمهلًا ولَمَّا تنتج الحربُ بكَرْها بخيلٍ تمام، أو بأخر مُفْجِل
وتلقوا بيع الأبطحين مُحَمَّدًا على رُبوةٍ في رأسِ عَنقَاءٍ عَيْطِل^(١)
وتأوي إليه هاشم، إن هاشمًا عَرانين كعبٍ آخرُ بَعْدَ أوَّل
فإن كنتم ترجون قتلَ مُحَمَّدٍ فروموا بما جَمَعْتُم نَقْلَ يَذْبُل
فإنَّا سنحويه بكلِّ طَيْرَةٍ وذِي مَيْعةٍ نَهْدِ المراكِلِ هَيْكَلٍ
وكلَّ رُدَيْنِي ظمَاءٍ كعوبِهِ وعُضْبِ كَلِماضِ العَمَامَةِ مِفْصَلٍ

قلت: كان صديقنا علي بن يحيى البطريق رحمه الله، يقول: لولا خاصّ النبوة وسرّها لما كان مثلُ أبي طالب - وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها - يمدح ابنَ أخيه مُحَمَّدًا، وهو شابٌّ قد رُبِّي في حجره وهو يتيمة ومكفولة، وجارٍ مجرى أولاده بمثل قوله:

وتلقوا ربيعَ الأبطحين مُحَمَّدًا على رُبوةٍ في رأسِ عَنقَاءٍ عَيْطِلٍ
وتأوي إليه هاشم، إن هاشمًا عَرانين كعبٍ آخرُ بَعْدَ أوَّلٍ
ومثل قوله:

وأبيضُ يُشْتَسْقَى الغمامُ بوجهِهِ ثِمَالُ اليتامَى عِصْمَةٌ للأراملِ
يُطِيفُ به الهَلَاكُ من آلِ هاشم فهم عنده في نعمةٍ وفواضلٍ

فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذُنَّابي من الناس، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء، فإذا تصوّرت أنه شعر أبي طالب، ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمد ﷺ، وهو شابٌّ مستجير به، معتصم بظله من قريش، قد ربّاه في حجره غلاماً، وعلى عاتقه طفلاً، وبين يديه

(١) العيطل: الطويلة العنق في حسن جسم، القاموس، مادة (عطل).

شاباً، يأكل من زاده، ويأوي إلى داره، علمت موضع خاصية النبوة وسرها، وأن أمره كان عظيماً، وأن الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً.

وقرأت في «أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب» رحمه الله^(١)، قال: كان أبو طالب إذا رأى رسول الله ﷺ أحياناً يبكي ويقول: إذا رأيته ذكرت أخي، وكان عبد الله أخاه لأبويه، وكان شديد الحب والحنو عليه، وكذلك كان عبد المطلب شديد الحب له، وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله ﷺ الليالي إذا عرف مضجعه، يقيمه ليلاً من منامه، ويضع ابنه علياً مكانه، فقال له علي ليلة: يا أبت، إني مقتول، فقال له:

اصبرن يا بُني فالصبر أخجى	كل حي مصيره لشئوب
قدّر الله والبلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغر ذي الحسب الثا	قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالتبل تبري	فمصيب منها، وغير مصيب
كل حي وإن تملئ بعمر	أخذ من مذاقها بنصيب

فاجاب علي عليه السلام، فقال له:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد	ووالله ما قلت الذي قلت جازعا
ولكنني أحببت أن ترى نضرتي	وتعلم أنني لم أزل لك طائعا
سأسعى لوجه الله في نصر أحمد	نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً

الفصل الثاني: في تفسير قوله عليه السلام «مؤمننا يبغي بذلك الأجر»، وكافرنا يحامي عن الأصل، ومن أسلم من قريش خلواً منا نحن فيه لحلف يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه فهم من القتل بمكان آمن»، فنقول: إن بني هاشم لما حُصروا في الشعب بعد أن منعوا رسول الله ﷺ من قريش، كانوا صنفين: مسلمين وكفاراً، فكان علي عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمين. واختلف في جعفر بن أبي طالب: هل حُصر في الشعب معهم أم لا؟ فقليل: حُصر في الشعب معهم، وقيل: بل كان قد هاجر إلى الحبشة، ولم يشهد حصار الشعب، وهذا هو القول الأصح. وكان من المسلمين المحصورين في الشعب مع بني هاشم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وهو وإن لم يكن من بني هاشم إلا أنه يجري مجراهم؛ لأن بني المطلب وبني هاشم كانوا يداً واحدة، لم يفرقوا في جاهلية ولا إسلام.

(١) أنظر الغدير لم أعثر عليه. لم أعثر عليه للأميني: ٣٥٧/٧.

وكان العباس رحمه الله في حصار الشعب معهم إلا أنه كان على دين قومه، وكذلك عقيل بن أبي طالب، وطالب بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وكان شديداً على رسول الله ﷺ، يُبغضه ويَهْجُوهُ بالأشعار، إلا أنه كان لا يرضى بقتله، ولا يقار قريشاً في دمه، محافظة على النسب - وكان سيّد المحصورين في الشعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب، وهو الكافل والمحامي.

واختلف الناس في إيمان أبي طالب، فقالت الإمامية وأكثر الزيدية: ما مات إلا مسلماً. وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك، منهم الشيخ أبو القاسم البلخي وأبو جعفر الإسكافي وغيرهما.

وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعمامة من شيوخنا البصريين وغيرهم: مات على دين قومه ويروون في ذلك حديثاً مشهوراً، أن رسول الله ﷺ قال له عند موته: «قُلْ يَا عَمَّ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا خُذْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى»^(١)، فقال: لولا أن تقول العرب: إن أبا طالب جَزَع عند الموت لأقررت بها عينك.

وروي أنه قال: أنا على دين الأشياخ^(٢).

وقيل إنه قال: أنا على دين عبد المطلب^(٣). وقيل غير ذلك.

وروي كثير من المحدثين أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٤) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ^(٥) الآية، أنزلت في أبي طالب، لأن رسول الله استغفر له بعد موته.

وروي أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٥) نزلت في أبي طالب.

(١) أخرج البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله (١٣٦٠)، ومسلم، في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. (٢٤)، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن الاستغفار للمشركين (٢٠٣٥).

(٢) أنظر تفسير ابن كثير: ٣١.

(٣) أنظر أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٤، وبحار الأنوار: ١٥٥/٣٥.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٦.

ورروا أن علياً عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، فقال له: إن عمك الفضال قد قضى، فما الذي تأمرني فيه؟

واحتجوا بأنه لم يتقل أحد عنه أنه رآه يصلي، والصلاة هي المفرقة بين المسلم والكافر^(١)، وأن علياً وجعفرأ لم يأخذا من تركته شيئاً، ورووا عن النبي ﷺ أنه قال «إن الله قد وعدني بتخفيف عذابه لما صنع في حقي، وإنه في ضحضاح من نار»^(٢).

ورروا عنه أيضاً أنه قيل له: لو استغفرت لأبيك وأمك! فقال: «لو استغفرت لهما لاستغفرت لأبي طالب، فإنه صنع إلي ما لم يصنعا، وإن عبد الله وآمنة وأبا طالب جمرات من جمرات جهنم»^(٣).

فأما الذين زعموا أنه كان مسلماً، فقد رووا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبرائيل: إن الله مشفعك في ستة: بطن حملتك، آمنة بنت وهب، وصُلب أنزلك، عبد الله بن عبد المطلب، وججر كفلك، أبي طالب، وبيت آواك، عبد المطلب، وأخ كان لك في الجاهلية - قيل: يا رسول الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخياً يطعم الطعام، ويجود بالتوال - وثذي أرضعتك، حليلة بنت أبي ذؤيب»^(٤).

قلت: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد عن هذا الخبر، وقد قرأته عليه: هل كان لرسول الله ﷺ أخ من أبيه أو من أمه أو منهما في الجاهلية، فقال: لا، إنما يعني أخاً له في المودة والصحبة، قلت له: فمن هو؟ قال: لا أدري.

قالوا: وقد نقل الناس كافة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية»^(٥). فوجب بهذا أن يكون آباؤه كلهم منزّهين عن الشرك، لأنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين.

(١) سيأتي الجواب من المصنف عن ذلك.

(٢) أخرج البخاري نحوه، كتاب: المناقب، باب: قصة أبي طالب (٣٨٨٣)، ومسلم، في كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبي لأبي طالب (٢٠٩)، وأحمد، كتاب: مسند بني هاشم، باب: حديث العباس (١٧٦٦).

(٣) لم أجده.

(٤) أنظر كتاب أبو طالب حامي الرسول للعسكري: ٢٠٥، ذكر نحوه ابن حجر في «السان الميزان» (٨٧٧).

(٥) رواه المجلسي في بحار الأنوار: ١٥٦/٣٥.

قالوا: وأما ما ذكر في القرآن من إبراهيم وأبيه آزر، وكونه كان ضالاً مشركاً، فلا يقدح في مذهبنا؛ لأن آزر كان عم إبراهيم، فأما أبوه فتارخ بن ناحور، وسُمِّي العمُّ أبا، كما قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾^(١)، ثم عدّ فيهم إسماعيل وليس من آبائه، ولكنه عمه.

قلت: وهذا الاحتجاج عندي ضعيف؛ لأن المراد من قوله ﷺ: «نقلنا من الأصلاب الظاهرة إلى الأرحام الزكية» تنزيه آبائه وأجداده وأمهاته عن السفاح لا غير، هذا مقتضى سياقة الكلام؛ لأن العرب كان يعيب بعضها بعضاً باختلاط المياه واشتباه الأنساب ونكاح الشبهة.

وقولهم: لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين، يقال لهم: لم قلتم: إنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهري الأصلاب! فإنه لا منافاة بين طهارة الأصلاب وعبادة الصنم، ألا ترى أنه لو أراد ما زعموه لما ذكر الأصلاب والأرحام، بل جعل عوضها العقائد. واعتذارهم عن إبراهيم وأبيه يقدح في قولهم في أبي طالب؛ لأنه لم يكن أبا محمد ﷺ، بل كان عمه، فإذا جاز عنهم أن يكون العم - وهو آزر - مشركاً كما قد اقترحوه في تأويلهم، لم يكن لهم حجة من هذا الوجه على إسلام أبي طالب.

واحتجوا في إسلام الآباء بما روي عن جعفر بن محمد ﷺ أنه قال: يبعث الله عبد المطلب يوم القيامة وعليه سبعمائة الأنبياء وبهاء الملوك.

وروي أن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا رسول الله، ما ترجو لأبي طالب؟ فقال: «أرجو له كل خير من الله عز وجل»^(٢).

وروي أن رجلاً من رجال الشيعة، وهو أبان بن محمود كتب إلى علي بن موسى الرضا ﷺ: جعلت فداك! إني قد شككت في إسلام أبي طالب! فكتب إليه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) الآية، وبعدها إنك إن لم تقم بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار^(٤).

وقد روي عن علي بن محمد الباقر ﷺ أنه سئل عما يقوله الناس: إن أبا طالب في ضحضاح من نار، فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

(٢) رواه المجلسي في البحار: ١٥٦/٣٥، وأنظر كتاب إيمان أبي طالب للشيخ المفيد: ٢٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٤) أنظر بحار الأنوار: ١١٠/٣٥، والغدير: ٣٨١/٧.

الأخرى لرجح إيمانه. ثم قال: ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحج عن عبد الله وأبيه أبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم^(١)!

وروي أن أبا بكر جاء بأبي قحافة إلى النبي ﷺ عام الفتح يقوده، وهو شيخ كبير أعمى، فقال رسول الله: ألا تركت الشيخ حتى نأتيه! فقال: أردت يا رسول الله أن يأجره الله! أما والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحاً بإسلام عمك أبي طالب مني بإسلام أبي، التمس بذلك قرة عينك، فقال: صدقت^(٢).

وروي أن علي بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا، فقال: واعجباً! إن الله تعالى نهي رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحب أبي طالب حتى مات^(٣).

ويروي قوم من الزيدية أن أبا طالب أسند المحدثون عنه حديثاً ينتهي إلى أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: سمعت أبا طالب يقول بمكة: حدثني محمد بن أخي أن ربه بعثه بصلّة الرّحم، وأن يعبدّه وحده لا يعبد معه غيره، ومحمد عندي الصادق الأمين^(٤).

وقال قوم: إن قول النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»^(٥) إنما عني به أبا طالب^(٦).

وقالت الإمامية: إن ما يرويه العامة من أن علياً عليه السلام وجعفرأ لم يأخذا من تركه أبي طالب شيئاً حديث موضوع، ومذهب أهل البيت بخلاف ذلك، فإن المسلم عندهم يرث الكافر، ولا يرث الكافر المسلم، ولو كان أعلى درجة منه في النسب.

قالوا: وقوله ﷺ: «لا توارث بين أهل ملتين»^(٧)، نقول بموجبه، لأن التوارث تفاعل،

(١) أنظر مناقب أهل البيت للمولى حيدر الشيرواني: ٥١.

(٢) أنظر بحار الأنوار: ١١٤/٣٥، وكتاب أبو طالب حامي الرسول للعسكري: ١٨١.

(٣) رواه النعماني في شرح الأخبار: ٢٢١/٣، والأمين في الغدير: ٣٨٠/٧.

(٤) رواه الكراجكي في كنز الفوائد: ٨١، وابن حجر في الإصابة: ١٩٨/٧.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلّة، باب: ما جاء في رحمة اليتيم (١٩١٨)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: من ضم اليتيم (٥١٥٠)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث أبي مالك (٢٢٣١٣).

(٦) رواه علي بن يونس في الصراط المستقيم: ٣٣٦/١.

(٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الفرائض، باب: لا يتوارث أهل ملتين (٢١٠٨)، وأبو داود، كتاب: الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر (٢٩١١)، وابن ماجه، كتاب: الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام (٢٧٣١)، بلفظ: لا يتوارث أهل ملتين.

ولا تفاعل عندنا في ميراثهما، واللفظ يستدعي الطرفين، كالتضارب لا يكون إلا من اثنين، قالوا: وحُبُّ رسول الله ﷺ لأبي طالب معلوم مشهور، ولو كان كافراً ما جاز له حبه، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١) الآية^(٢).

قالوا: وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله ﷺ لعقيل: «أنا أحبك حُبِّين: حباً لك وحباً لحبِّ أبي طالب فإنه كان يحبك»^(٣).

قالوا: وخطبة النكاح مشهورة، خطبها أبو طالب عند نكاح محمد ﷺ خديجة، وهي قوله: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله أخِي مَنْ لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً، وحزماً وعقلاً، ورأياً ونُبلاً، وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظلٌّ زائل، وعاريةٌ مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصِّدَاق فعلي، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل».

قالوا: افتراه يعلم نبأ الشائع وخطبه الجليل، ثم يعانده ويكذبه، وهو من أولى الألباب! هذا غير سائغ في العقول.

قالوا: وقد روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان، وأظهروا الكفر فاتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسر الإيمان، وأظهر الشرك، فاتاه الله أجره مرتين»^(٤).

وفي الحديث المشهور: إن جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب: «أخرج منها فقد مات ناصرك»^(٥).

قالوا: وأما حديث الضحضاح من النار، فإنما يرويه الناس كلهم عن رجل واحد، وهو المغيرة بن شعبة، وبغضه لبني هاشم وعلى الخصوص لعلي عليه السلام مشهور معلوم، وقصته وفسقه أمر غير خاف^(٦).

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢. (٢) أنظر بحار الأنوار: ١٥٧/٣٥.

(٣) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرک» (٦٤٦٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٣/٩)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٨٣٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٤٣/٤).

(٤) رواه الحر العاملي في الوسائل: ٢٣١/١٦ رقم ٢١٤٣٨، والراوندي في الخرائج: ١٠٧٨/٣.

(٥) رواه جملي من الحفاظ أنظر ينابيع المودة للقندوزي: ٤٥٥/١، والبحار: ٢٩٣/٣٨، والصراط المستقيم: ٢٢٦/١.

(٦) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٥٨/٣٥.

وقالوا: وقد رُويَ بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب، وبعضها عن أبي بكر بن أبي قحافة، أن أبا طالب ما مات حتى قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والخبر مشهور أن أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفياً، فأصغى إليه أخوه العباس، ثم رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، والله لقد قالها عمك، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته^(١). وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال: ما مات أبو طالب حتى أعطى رسول الله ﷺ من نفسه الرضا^(٢).

قالوا: وأشعار أبي طالب تدلّ على أنه كان مسلماً، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمننا إقراراً بالإسلام، ألا ترى أن يهودياً لو توسط جماعة من المسلمين، وأنشد شعراً قد ارتجله ونظمه يتضمن الإقرار بنبوّة محمد ﷺ، لكننا نحكم بإسلامه كما لو قال: أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ! فمن تلك الأشعار قوله:

يُرْجُونَ مِنَّا خُطَّةً دُونَ نَبِيلِهَا	ضِرَابٌ وَطَعَنُ بِالْوَشِيحِ الْمَقُومِ
يُرْجُونَ أَنْ نَسْخِيَ بِقَتْلِ مُحَمَّدٍ	وَلَمْ تَخْتَضِبْ سَمْرُ الْعَوَالِي مِنَ الدِّمِ
كَذِبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ حَتَّى تُفْلَقُوا	جَمَاجِمَ تُلْقَى الْحَطِيمِ وَزَمَزَمِ
وَتُقَطَّعَ أَرْحَامٌ وَتَنْسَى حَلِيلَةً	حَلِيلًا، وَيُغْشَى مُحَرَّمٌ بَعْدَ مُحَرَّمِ
عَلَى مَا مَضَى مِنْ مَقْتِكُمْ وَعَقُوقِكُمْ	وَعُشْيَانِكُمْ فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ مَائِمِ
وَزَلَمَ نَبِيٌّ جَاءَ يَدْعُو إِلَى الْهَدْيِ	وَأَمْرٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ قَيِّمِ
فَلَا تَحْسِبُونَا مُسْلِمِيهِ فَمِثْلُهُ	إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ ^(٣)

ومن شعر أبي طالب في أمر الصحيفة التي كتبها قريش في قطيعة بني هاشم:

أَلَا أبلغَا عَنِّي عَلَى ذَاتِ بَيْنِهَا	لَوْيَا وَخُصًّا مِنْ لَوْيِ بَنِي كَعْبِ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا	رَسُولًا كَمُوسَى خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ
وَأَنْ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةٌ	وَلَا حَيْفَ فَيَمْنِ خَضَهُ اللَّهُ بِالْحَبِّ
وَأَنَّ الَّذِي رَقَشْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ	يَكُونُ لَكُمْ يَوْمًا كِرَاجِيَةِ السُّقْبِ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ الزُّبَى	وَيَصْبَحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَذِي ذَنْبِ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْغَوَاةِ وَتَقْطَعُوا	أَوَاصِرَنَا بَعْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْقُرْبِ

وتستجلبوا حرباً عواناً وربما
فلسنا وبيت الله نُسليم أحمدا
ولما تبين مِنّا ومنكم سِوالفُ
بمعترك ضيف ترى قصد القنا
كان مجال الخيل في حَجراته
اليس أبونا هاشم شدّ أزرة
ولسنا نملّ الحرب حتى تملّنا
ولكننا أهل الحفايظ والنهي
ومن ذلك قوله:

فلا تُسفِها أحلامكم في محمّد
تمنّيتم أن تقتلوه وإنما
وإنكم والله لا تقتلونه
زعمتم بأنا مسلمون محمّداً
من القوم مفضال أبيّ على العدا
أمين حبيب في العباد مسوم
يرى الناس برهاناً عليه وهيبة
نبيّ أتاه الوحي من عند ربّه
ومن ذلك قوله - وقد غضب لعثمان بن مظعون الجُمحيّ، حين عذّبه قريش ونالت منه:

أمن تذكّر دهر غير مأمون
أم من تذكّر أقوام ذوي سفه
ألا يرون - أذلّ الله جمعهم
ونمنع الضيم من يبغى مضامنا
ومرهمفات كأن المِلح خالطها
حتى تُقرّ رجال لا حلوم لها
أو تؤمنوا بكتاب مُنزّل عجب

قالوا: وقد جاء في الخبر أن أبا جهل بن هشام جاء مرّة إلى رسول الله ﷺ وهو ساجد
وبيده حَجَر يريد أن يرضخ به رأسه، فلصق الحَجَر بكفّه فلم يستطع ما أراد، فقال أبو طالب في
ذلك من جملة أبيات:

أمر على من ذاقه حَلَبُ الحربِ
لِعِزاء من عَضّ الزمان ولا كرب
وأيدٍ أترت بالمهتدة الشهبِ
به والضباغ العُرج تعكف كالشرب
وغمغمة الأبطال معركة الحرب
وأوصى بنيه بالطّعان وبالضرب!
ولا نشتكى ممّا ينوب من النُكْبِ
إذا طار أرواح الكُماة من الرُعبِ

ولا تُثبِعوا أمر الغواة الأشائم
أمانيتكم هذي كأحلام نائم
ولما تروا قُطف اللّحي والجماجم
ولما نقاذف دونه ونزاحم
تمكّن في الفرعين من آل هاشم
بخاتم ربّ قاهر في الخواتم
وما جاهل في قومه مثل عالم
ومن قال لا يقرع بها سنّ نادم
ومن ذلك قوله - وقد غضب لعثمان بن مظعون الجُمحيّ، حين عذّبه قريش ونالت منه:

أصبحت مكتئباً تبكي كمحزون
يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين
أنا غضبنا لعثمان بن مظعون
بكل مطرِد في الكفّ مسنون
يُشقى بها الداء من هام المجانين
بعد الصّعوبة بالإسماح واللين
على نبيّ كموسى أو كذي النون

قالوا: وقد جاء في الخبر أن أبا جهل بن هشام جاء مرّة إلى رسول الله ﷺ وهو ساجد
وبيده حَجَر يريد أن يرضخ به رأسه، فلصق الحَجَر بكفّه فلم يستطع ما أراد، فقال أبو طالب في
ذلك من جملة أبيات:

أفبقوا بني عَمَنَّا وانتَهُوا
وإلا فلأنني إذا خائف
كما ذاق مَنْ كان من قَبْلِكُم
ومنها:

وأعجبُ من ذاك في أمرِكُم
بكفَ الذي قام من حينه
فأثبتته الله في كَفِّه
قالوا: وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنه كان يقول: أسلم أبو طالب والله بقوله:

نصرتُ الرسولَ رسولَ الملِكِ
أذبُّ وأحمي رسولَ الإلهِ
وما إن أدبُ لأعدائِهِ
ولكن أزيروا لهم سامياً
قالوا: وقد جاء في السيرة، وذكره أكثر المؤرخين، أن عمرو بن العاص لما خرج إلى بلاد الحبشة ليكيده جعفر بن أبي طالب وأصحابه عند النجاشي، قال:

وما البينُ مِنِّي بمستنكرٍ
أريدُ النجاشي في جعفرٍ
أقيمُ بها نخوة الأصغرِ
بما استطعت في الغيب والمحضرِ
ولولا رضا آللات لم تمطرِ
وإن كان كالأذهب الأحمرِ
قالوا: فكان عمرو يُسمى الشانيء ابن الشانيء، لأن أباه كان إذا مرَّ عليه رسول الله ﷺ بمكة يقول له: والله إني لأشؤك، وفيه أنزل: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١). قالوا: فكتب أبو طالب إلى النجاشي شعراً يحرضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عما يقوله عمرو فيه وفيهم، من جملة:

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفرٌ وعمرو وأعداء النبي الأقارب!

(١) الفتيق: الفعل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب. القاموس المحيط، مادة (فتق).

(٢) سورة الكوثر، الآية: ٣.

وهل نال إحسان النجاشي جعفراً وأصحابه، أم عاق عن ذاك شاغباً!
في آيات كثيرة.

قالوا: وروي عن علي عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بني الزم ابن عمك، فإنك تسلم به
من كل بأس عاجل وأجل، ثم قال لي:

إن الوثيقة في لزوم محمّد
ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله:

إن علياً وجعفراً ثقتي
عند ملّم الزمان والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما
أخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا أخذل النسبي ولا
يخذله من بني ذو حَسَب

قالوا: وقد جاءت الرواية أن أبا طالب لما مات جاء علي عليه السلام إلى رسول الله ﷺ،
فأذنه بموته، فتوجّع عظيماً وحزن شديداً، ثم قال له: امض فتولّ غسله، فإذا رفعته على سريريه
فأعلمني، ففعل، فاعترضه رسول الله ﷺ وهو محمول على رؤوس الرجال، فقال: وصلتك
رحم يا عمّ، وجُزيت خيراً! فلقد رَيت وكفّلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً، ثم تبعه إلى
حفرته، فوقف عليه، فقال: أما والله لأستغفرنّ لك ولا شفعنّ فيك شفاعاً يعجب لها
الثقلان^(٢).

قالوا: والمسلم لا يجوز أن يتولّى غسل الكافر، ولا يجوز للنبي أن يرقّ لكافر، ولا أن
يدعوه بخير، ولا أن يعدّه بالاستغفار والشفاعة، وإنما تولّى علي عليه السلام غسله؛ لأن طالباً
وعقيلاً لم يكونا أسلما بعد، وكان جعفر بالحبشة، ولم تكن صلاة الجنائز شرعت بعد، ولا
صلى رسول الله ﷺ على خديجة، وإنما كان تشييع ورقة ودعاء.

قالوا: ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة، وكان يكنى أبا يعلى:

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد
وكن مظهراً للدين وفقت صابراً
وحُظ من أتى بالحق من عند ربه
بصدق وعزم لا تكن حمز كافراً
فقد سرّني إذ قلت إنك مؤمن
فكن لرسول الله في الله ناصراً
وباد قريشاً بالذي قد أتيت
جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٢٠/٣٥ ح ٦٢.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره بما معناه: ٤٠٩/٢ وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٦٣/٣٥.

قالوا: ومن شعره المشهور:

أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ قَرَمَ أَعَزُّ مَسْوَدٌ^(١)
لَمَسَوْدِينَ أَكْأَرَمٌ طَابُوا وَطَابَ الْمَوْلَدُ
نَعَمَ الْأَرُومَةُ أَصْلُهَا عَمِرُوا الْخِضَمَ الْأَوْحَدُ
هَشَمَ الرَّبِيعَةَ فِي الْجِفَا نَ وَعِيشُ مَكَّةَ أَنْكَدُ
فَجَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّةٌ فِيهَا الْخَبِيزَةُ تُثْرَدُ

ولنا السقاية للحجيج بها يُعَاثُ الْعُنْجَدُ^(٢)

وَالْمَأَزِمَانِ وَمَا حَوِثُ عَرَفَاتُهَا وَالْمَسْجِدُ
أَنْتَ تَضَامٌ وَلَمْ أُمُتْ وَأَنَا الشُّجَاعُ الْعِرْبِدُ^(٣)
وَبِطَاخٍ مَكَّةَ لَا يَرَى فِيهَا نَجِيعٌ أَسْوَدُ
وَبَنُو أَبِيكَ كَأَنَّهُمْ أَسَدُ الْقَرِينِ تَوَقَّدُ
وَلَقَدْ عَهْدْتُكَ صَادِقاً فِي الْقُرُولِ لَا تَتَزِيدُ
مَا زِلْتَ تَنْطِقُ بِالصُّوَا بِ وَأَنْتَ طِفْلٌ أَمْرَدُ

قالوا: ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمداً، ويسكن جاشه، ويأمره بإظهار

الدعوة:

لَا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ حَقِّ تَقُومَ بِهِ أَيْدِ تَصُولُ وَلَا سَلَقَ بِأَصْوَاتِ
فَإِنْ كَفَّكَ كَفَى إِنْ بَلَيْتَ بِهِمْ وَدُونَ نَفْسِكَ نَفْسِي فِي الْمَلَمَاتِ
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ، وَيُقَالُ إِنَّهَا لَطَالِبُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

إِذَا قِيلَ مَنْ خَيْرُ هَذَا الْوَرَى قَبِيلاً وَأَكْرَمُهُمْ أَشْرَةً؟
أَنَافَ لِعَبِيدٍ مَنَافٍ أَبٌ وَفَضَّلَهُ هَاشِمَ الْعِمْرَةَ
لَقَدْ حَلَّ مَجْدَ بَنِي هَاشِمٍ مَكَانَ التَّمَائِمِ وَالنُّثْرَةِ
وَخَيْرَ بَنِي هَاشِمٍ أَحْمَدُ رَسُولَ الْإِلَهِ عَلَى فَتْرَةٍ^(٤)

ومن ذلك قوله:

(١) الْقَرَمُ: السيد المعظم. اللسان، مادة (قرم).

(٢) الْعُنْجَدُ: الزبيب. اللسان، مادة (عنجد).

(٣) الْعِرْبِدُ: الشديد، وقيل: الحية الخيثة. اللسان، مادة (عربد).

(٤) أَخْرَجَهُ نَجْمُ الدِّينِ الْعَسْكَرِيُّ فِي أَبُو طَالِبٍ حَامِي الرِّسُولِ: ٤٠.

لقد أكرم الله النبي محمداً وشق له من اسمه ليُجلَّه
فأكرم خلق الله في الناس أحمد
فدُّوا العرش محمود وهذا محمد
وقوله أيضاً، وقد يروي لعلِّي عليه السلام :

يا شاهد الله عليّ فاشهد
أني على دين النبي أحمد
من ضلّ في الدين فإني مهتد^(١)

قالوا: فكلّ هذه الأشعار قد جاءت مجيء التواتر؛ لأنه إن لم تكن آحادها متواترة، فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك، وهو تصديق محمد صلى الله عليه وآله، ومجموعها متواتر، كما أنّ كلّ واحدة من قتلات عليّ عليه السلام الفرسان منقولة آحاداً، ومجموعها متواتر، يفيدنا العلم الضروريّ بشجاعته، وكذلك القول فيما روي من سخاء حاتم، وحلم الأحنف ومعاوية، وذكاء إياس وخلاعة أبي نواس، وغير ذلك، قالوا: واتركوا هذا كلّ جانباً، ما قولكم في القصيدة اللامية التي شهرتها كشهرة «قفا نبك» وإن جاز الشك فيها أوفى شيء من أبياتها، جاز الشك في «قفا نبك» وفي بعض أبياتها، ونحن نذكر منها ما هنا قطعة وهي قوله:

أعوذ بربّ البيت من كلّ طاعن
علينا بسوء أو يلوح بباطل
ومن فاجر يفتابنا بمغيبة
ومن ملحق في الدين ما لم نحاول
كذبُكم وبيت الله يُبْزَى محمد
ولمّا نطاعنْ دونه ونناضل
وننصره حتى نصرعْ دونه
ونذقل عن أبنائنا والحلائل
وحتى نرى ذا الرذع يركب رذعه
من القطعن فعل الأنكب المتحامل
نهوض الرّوايا تحت ذات الصّلاصل
وإنّا وبيت الله من جدّ جدنا
لكذبُكم وبيت الله يُبْزَى محمد
بكلّ فتى مثل الشّهاب سَمِيدع
وما ترك قوم لا أبالك سيّداً
وإنّا وبيت الله من جدّ جدنا
بكلّ فتى مثل الشّهاب سَمِيدع
وما ترك قوم لا أبالك سيّداً
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه
ثمّال البيتامي عِصْمَة للأرامل
يلوّد به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان صدق لا يخيس شعيرة
لذيّنا، ولا يعبا بقول الأباطل!

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥٣/٣٣.

(٢) السَّمِيدع: الكريم السيد الجميل الجسيم الموطأ الأكتاف، وقيل: هو الشجاع. اللسان، مادة (سمدع).

لعمري لقد كلّفت وجداً بأحمدٍ وأحبيته حبّ الحبيب المواصل
وجُدْتُ بنفسي دونه فحميته ودافعتُ عنه بالذرى والكواهل
فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها وشيئاً لمن عادى وزين المحافل
وأَيَّده ربّ المعباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطل^(١)

وورد في السيرة والمغازي أنّ عتبة بن ربيعة أو شيبه لما قطع رجل عبدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر أشبل عليه عليّ وحمزة فاستنقذاه منه وخطبا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش، فألقياه بين يدي رسول الله ﷺ، وإنّ مخ ساقه ليسيل، فقال: يا رسول الله، لو كان أبو طالب حياً لعلم أنّه قد صدق في قوله:

كذبتُم وبيتِ الله تُخلي محمداً ولما نطاعنُ دُونه ونُناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقالوا: إنّ رسول الله ﷺ استغفر له ولأبي طالب يومئذٍ، وبلغ عبدة مع النبي ﷺ إلى الصُّفراء فمات فدفن بها^(٢).

قالوا: وقد روي أنّ أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ في عام جذب، فقال: أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبيّ يرتضع، ولا شارف يجترّ ثم أنشده:

أتيناك والعذراء تَدْمى لبائها وقد شغلت أم الرضيع عن الطُفل
وألقي بكفّيه الفتى لاستكانة من الجوع حتى ما يُمرُّ ولا يُخلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العاميّ والعِلْهَزِ الْفَسْلِ^(٣)
وليس لنا إلا إليك فرارُنا وأبى فرارُ الناس إلا إلى الرسل!

فقام النبي ﷺ يجزّ رداءه، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هينئاً، مريعاً سحاً سجالاً، غدقاً طبقاً قاطباً دائماً، درأً تحيي به الأرض، وتنبت به الزرع، وتدرّ به الضرع، واجعله سقياً نافعاً عاجلاً غير راث». فوالله، مارده رسول الله ﷺ يده إلى نحره حتى ألقت السّماء أرواقها، وجاء الناس يضجّون: الغرق الغرق

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٣/٧٤، وذكره ابن كثير في السيرة النبوية: ١/٤٩١.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٣٨/٢٥٨.

(٣) العِلْهَز: طعام من الدّم والوبر كان يتخذ في المجاعة. القاموس، مادة (علّهز).

يا رسول الله! فقال: «اللهم حوّلنا ولا علينا»^(١)، فأنجاب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل.

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه، ثم قال: «الله درّ أبي طالب! لو كان حيّاً لقرّت عينه. من يُشيدنا قوله؟» فقام عليّ فقال: يا رسول الله، لعلك أردت:
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه

قال: «أجل»، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر^(٢)، ثم قام رجل من كنانة فأنشده:

لَكَ الْحَمْدُ وَالْحَمْدُ مِمَّنْ شَكَرَ	سُقِينَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطَرُ
دَعَا اللَّهَ خَالِقَهُ دَعْوَةً	إِلَيْهِ، وَأَشْخَصَ مِنْهُ الْبَصَرُ
فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَا سَاعَةً	أَوْ أَقْصَرَ حَتَّى رَأَيْنَا الدَّرَرَ
دِفَاقَ الْعَزَالِي وَجَمِّ الْبِعَاقِ	أَغَاثَ بِهِ اللَّهُ غُلِيًّا مُضَرَّ
فَكَانَ كَمَا قَالَه عُمُّهُ	أَبُو طَالِبٍ ذُو رِوَاءٍ غُرَّرَ
بِهِ يَسْتَرِ اللَّهُ صَوْبَ الْغَمَامِ	فَهَذَا الْعِيَانِ وَذَاكَ الْخَبَرُ
فَمَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَلْقَ الْمَزِيدَ	وَمَنْ يَكْفُرِ اللَّهَ يَلْقَ الْفَيْزَ

فقال رسول الله: «إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت»^(٣).

قالوا: وإنما لم يظهر أبو طالب الإسلام ويجاهر به؛ لأنه لو أظهره لم ينتهياً له من نضرة النبي ﷺ ما نهياً له، وكان كواحد من المسلمين الذين اتبعوه، نحو أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما ممن أسلم، ولم يتمكن من نضرتة والقيام دونه حينئذ، وإنما تمكن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات في الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام، كما لو أن إنساناً كان يُبطن التشيع مثلاً، وهو في بلد من بلاد الكرامة، وله في ذلك البلد وجاهة وقدم، وهو يظهر مذهب الكرامة، ويحفظ ناموسه بينهم بذلك، وكان في ذلك البلد نفر يسير من الشيعة لا يزالون يُنالون بالأذى والضرر من أهل ذلك البلد ورؤسائه، فإنه ما دام قادراً على إظهار مذهب أهل البلد، يكون أشدّ تمكناً من المدافعة والمحاماة عن أولئك النفر، فلو أظهر ما يجوز من التشيع، وكاشف أهل البلد بذلك، صار حكمه حكم واحد من أولئك النفر، ولحقه من الأذى والضرر ما يلحقهم، ولم يتمكن من الدفاع أحياناً عنهم كما كان أولاً.

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦٤/٢٢)، وابن عدي في «الكامل» (٤٠٨/٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٩٢/٢، وأخرجه البخاري في صحيحه: ١٥/٢ بما معناه.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦٥/٢٢).

قلت: فأما أنا فإن الحال ملتبسةٌ عندي، والأخبار متعارضة، والله أعلم بحقيقة حاله كيف كانت.

ويقف في صدري رسالة النفس الزكية إلى المنصور، وقوله فيها: فأنا ابنُ خير الأخيار، وأنا ابنُ شرِّ الأشرار، وأنا ابنُ سيِّدِ أهل الجنة، وأنا ابنُ سيِّدِ أهل النار. فإن هذه شهادة منه على أبي طالب بالكُفر، وهو ابنه وغيرُ متهم عليه، وعهده قريب من عهد النبي ﷺ، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلاً.

وجملة الأمر أنه قد روي في إسلامه أخبار كثيرة، وروي في موته على دين قومه أخبار كثيرة، فتعارض الجرح والتعديل، فكانَ كتعارض البيتين عند الحاكم، وذلك يقتضي التوقف، فأنا في أمره من المتوقفين.

فأما الصلاة وكونه لم يُنقل عنه أنه صلى، فيجوز أن يكون لأن الصلاة لم تكن بعد قد فرضت، وإنما كانت نفلاً غير واجب، فمن شاء صلى، ومن شاء ترك، ولم تفرض إلا بالمدينة. ويمكن أن يقول أصحاب الحديث: إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه، فالترجيح عند أصحاب أصول الفقه لجانب الجرح؛ لأن الجرح قد اطلع على زيادة لم يطلع عليها المعدل.

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول: إن هذا إنما يقال ويذكر في أصول الفقه في طعن مفضل في مقابلة تعديل مجمل، مثاله أن يروي شعبة مثلاً حديثاً عن رجل، فهو بروايته عنه قد وثقه، ويكفي في توثيقه له أن يكون مستور الحال، ظاهره العدالة، فيطعن فيه الذارقطني مثلاً بأن يقول: كان مدلساً، أو كان يرتكب الذنب الفلاني، فيكون قد طعن طعناً مفضلاً في مقابلة تعديل مجمل، وفيما نحن فيه وبصده الروايتان متعارضتان تفصيلاً لا إجمالاً؛ لأن هؤلاء يروون أنه تلفظ بكلمتي الشهادة عند الموت، وهؤلاء يروون أنه قال عند الموت: أنا على دين الأشياخ.

وبمثل هذا يجاب على مَنْ يقول من الشيعة: روايتنا في إسلامه أرجح؛ لأننا نروي حكماً إيجابياً ونشهد على إثبات، وخصومنا يشهدون على النفي، ولا شهادة على النفي، وذلك أن الشهادة في الجانبين معاً، إنما هي على إثبات، ولكنه إثبات متضاد.

وصنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في إسلام أبي طالب، وبعثه إليّ، وسألني أن أكتب عليه بخطي نظماً أو نثراً، أشهد فيه بصحة ذلك، وبوثاقة الأدلة عليه، فتحرّجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً، لما عندي من التوقف فيه، ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالب، فإنني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دِعامَة. وأعلم أن حقّه واجب على كل مسلم في الدنيا إلى أن تقوم الساعة، فكتبت على ظاهر المجلّد:

وَلَوْلَا أَبُو طَالِبٍ وَابْنُهُ
فَذَاكَ بِمَكَّةَ أَوَى وَحَامِي
تَكْفُلَ عَبْدُ مَنْفٍ بِأَمْرِ
فَقُلْ فِي ثَبِيرٍ مَضَى بَعْدَ مَا
فَلِلَّهِ ذَا فَاتِحًا لِلْهَدَى
وَمَا ضَرَّ مَجْدَ أَبِي طَالِبٍ
كَمَا لَا يَضُرُّ إِيَاءَ الصَّبَا
لَمَّا مُثِّلَ الَّذِينَ شَخْصًا فَقَامَا
وَهَذَا بِيَشْرَبَ جَسَّ الْجَمَامَا
وَأَوْدَى فَكَانَ عَلَيَّ تَمَامَا
قَضَى مَا قَضَاهُ وَأَبْقَى شَمَامَا
وَلِلَّهِ ذَا لِمَعَالِي خِتَامَا
جَهَوْلٌ لَنَا أَوْ بِصِيرٌ تَعَامِي
حَ مَنَ ظَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ الظَّلَامَا^(١)
فَوْقَيْتَهُ حَقُّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، وَلَمْ أَجْزَمْ بِأَمْرِ عِنْدِي فِيهِ وَقْفَةً.

في غزوة بدر

الفصل الثالث: في شرح القصة في غزاة بدر، ونحن نذكر ذلك من كتاب «المغازي»
لمحمد بن عمر الواقدي، ونذكر ما عساه زاده محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»، وما زاده
أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في «تاريخ الأشراف».

قال الواقدي: بلغ رسول الله ﷺ أن عِيرَ قُرَيْشٍ قد فصلت من مكة تريد الشام، وقد
جمعت قريش فيها أموالها، فندب لها أصحابه، وخرج يعترضها على رأس ستة عشر شهراً من
مهاجره ﷺ، فخرج في خمسين ومائة - ويقال في مائتين - فلم يلق العير، وفاتته ذاهبة إلى
الشام... وهذه غزاة ذي العُشيرة، رجع منها إلى المدينة فلم يلق حرباً، فلما تحين انصراف
العير من الشام قافلة ندب أصحابه لها، وبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن
نُفَيْل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتجسسان خبر العير، حتى نزلوا على كشد الجهني
بالموضع المعروف بالنخبار، وهو من وراء ذي المروة على الساحل، فأجارهما وأنزلهما، فلم
يزالا مقيمين في خباء وبر حتى مرت العير، فرفعهما على نَشْرٍ^(٢) من الأرض، فنظرا إلى القوم
وإلى ما تحمل العير، وجعل أهل العير يقولون لكشد: يا كشد، هل رأيت أحداً من عيون
محمد؟ فيقول: أعوذ بالله، وأنى لمحمد عيون بالنخبار! فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم
خرجا، وخرج معهما كشد خفياً، حتى أوردهما ذا المروة، وساحت العير فأسرعت، وسار
بها أصحابها ليلاً ونهاراً، فرقاً من الطلب، وقدم طلحة وسعيد المدينة في اليوم الذي لقي
رسول الله ﷺ قريشاً ببدر، فخرجا يعترضان رسول الله ﷺ، فلقيا بتربان - وتربان بين

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣٣٠ / ٧، وأخرجه نجم الدين العسكري في أبو طالب حامي
الرسول: ٩٢.

(٢) النَّشْرُ: المكان المرتفع. القاموس المحيط، مادة (نشز).

مَلَّلَ والسَّالَةَ عَلَى الْمُحَجَّةِ، وَكَانَتْ مَنْزِلَ عُرْوَةَ ابْنِ أَذْيَنَةَ الشَّاعِرِ - وَقَدِمَ كَشَدَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ أَخْبَرَ طَلْحَةَ وَسَعِيدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا صَنَعَ بِهِمَا، فَجَبَاهُ وَأَكْرَمَهُ، وَقَالَ: أَلَا أَقْطَعُ لَكَ يَنْبُعًا؟ قَالَ: إِنِّي كَبِيرٌ، وَقَدْ نَفَدَ عَمْرِي، وَلَكِنْ أَقْطَعُهَا لابْنِ أَخِي، فَأَقْطَعُهَا لَهُ.

قَالُوا: وَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ: هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ: لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَغْنُمَكُمْوهَا. فَأَسْرَعَ مَنْ أَسْرَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لِيُسَاهِمَ أَبَاهُ فِي الْخُرُوجِ، فَكَانَ مَعَهُ سَاهِمُ أَبَاهُ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ، فَقَالَ سَعْدُ لِأَبِيهِ: إِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ الْجَنَّةِ أَثَرْتُكَ بِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو الشَّهَادَةَ فِي وَجْهِ هَذَا، فَقَالَ خَيْثَمَةُ: أَثَرْنِي وَقَرَّ مَعَ نَسَائِكَ، فَأَبَى سَعْدُ، فَقَالَ خَيْثَمَةُ: إِنَّهُ لَا بَدَّ لِأَحَدِنَا مِنْ أَنْ يَقِيمَ، فَاسْتَهْمَا، فَخَرَجَ سَهْمُ سَعْدٍ، فَقَتِلَ بَيْدَرٌ. وَأَبْطَأَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِّ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَرَهُوا خُرُوجَهُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ كَثِيرٌ وَاخْتِلَافٌ، وَبَعْضُهُمْ تَخَلَّفَ مِنْ أَهْلِ النَّبَاتِ وَالْبَصَائِرِ، لَمْ يَظُنُّوا أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ، إِنَّمَا هُوَ الْخُرُوجُ لِلْغَنِيمَةِ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ لَمَّا تَخَلَّفُوا، مِنْهُمْ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ أَسِيدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَرَّكَ وَأَظْهَرَكَ عَلَى عَدُوِّكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْكَ رَغْبَةً بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ، وَلَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَلَاقِي عَدُوًّا، وَلَا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّهَا الْعِيرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقْتَ».

قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَكَانِ الْمَعْرُوفِ بِالْبُقْعِ وَهِيَ بِيُوتُ السُّقْيَا، وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِبُيُوتِ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَ عَسْكَرُهُ هُنَاكَ، وَعَرَضَ الْمَقَاتِلَةَ، فَعَرَضَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَأَسِيدُ بْنُ ظُهَيْرٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَرَدَّهُمْ وَلَمْ يُجْزِهِمْ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَأَيْتُ أَخِي عَمِيرَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَارَى، فَقُلْتُ: مَالِكَ يَا أَخِي؟ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَسْتَصْغِرَنِي، فِيرَدَّنِي، وَأَنَا أَحِبُّ الْخُرُوجَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ. قَالَ: فَعَرَضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَصْغَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ، فَبَكَى عَمِيرٌ، فَأَجَازَهُ^(١).

قَالَ: فَكَانَ سَعْدُ يَقُولُ: كُنْتُ أَعْقِدُ لَهُ حِمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ، فَقَتِلَ بَيْدَرٌ وَهُوَ ابْنُ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً.

قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ ﷺ بِيُوتُ السُّقْيَا أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْ بَثْرِهِمْ: وَشَرِبَ ﷺ مِنْهَا، كَانَ أَوَّلَ مَنْ شَرِبَ وَصَلَّى عِنْدَهَا، وَدَعَا يَوْمَئِذٍ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ

(١) أَخْرَجَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٦/٦٩)، وَالْبَزَارِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» (١١٠٦)، وَابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (٣/١٤٩)، وَاللَّفْظُ لَهُ.

وخليلك ونبيتك، دعاك لأهل مكة، وإني محمد عبدك ونبيك، أدعوك لأهل المدينة، أن تبارك لهم في صاعهم ومُدَّهم وثمارهم، اللهم حَبِّب إلينا المدينة، واجعل ما بها من الوباء بِخُتْمٍ^(١). اللهم إني حرمت ما بين لابتيها، كما حرَّم إبراهيم خليلك مكة^(٢).

قال الواقدي: وَخُتْمٌ عَلَى مِيلِينَ مِنَ الْجُحْفَةِ.

وقدَّم رسول الله ﷺ أمامه عدي بن أبي الزغباء وبسيس بن عمرو، وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، لقد سَرَّني منزلك هذا، وعرضك فيه أصحابك، وتفاءلت به، إنَّ هذا منزلنا في بني سلَمة، حيث كان بيتنا وبين أهل حُسيكة ما كان.

قال الواقدي: هي حُسيكة الذباب، والذباب: جبل بناحية المدينة، وكان بحُسيكة يهود، وكان لهم بها منازل.

قال عبد الله بن عمرو بن حرام فعرضنا يا رسول الله هاهنا أصحابنا، فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح، ورددنا مَنْ صَغُرَ عن حمل السلاح، ثم سرنا إلى يهود حُسيكة، وهم أعزُّ يهود كانوا يومئذ، فقتلناهم كيف شئنا، فذَلَّتْ لنا سائرُ يهود إلى اليمن، وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقي نحن وقريش، فيقرَّ الله عينك منهم.

قال الواقدي: وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله بخُرباء، فقال له أبوه عمرو بن الجموح: ما ظننت إلا أنكم قد سِرْتُم، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يعرض الناس بالبقيع، فقال عمرو: نعم الفأل! والله إني لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حُسيكة. قال: فإنَّ رسول الله ﷺ قد غيَّرَ اسمه، وسمَّاه السقيا. قال: فكانت في نفسي أن أشتريها، حتى اشتراها سعدُ بن أبي وقاص بَبَكْرَيْن، ويقال بسبع أواق، فذكر للنبي ﷺ أن سعداً اشتراها، فقال: «بيع البيع»^(٣)!

قال الواقدي: فراح رسول الله ﷺ من بيوت السَّقِيَا، لاثنتي عشرة ليلة مضت من رَمَضان، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة، وتخلَّف ثمانية، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم، فكانت الإبل سبعين بعيراً، وكانوا يتعاقبون الإبل: الاثنان، والثلاثة، والأربعة، فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد - ويقال زيد بن حارثة

(١) خُتْمٌ: موضع بيت مكة والمدينة تصب فيه عين هناك. اللسان، مادة (خمم).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فضل المدينة (١٣٦٥)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا رأى الباكورة من الثمر (٣٤٥٤)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق (١٥٩٦).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٥/٤).

مكان مرثد - يتعاقبون بعيراً واحداً، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة، موالى النبي ﷺ على بعير، وكان عبيدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث، ومسطح بن أثانة على بعير لعبيدة بن الحارث ناضح ابتاعه من أبي داود المازني، وكان معاذ وعوف ومعوذ بنو عفرأ ومولاهم أبو الحمراء على بعير، وكان أبي بن كعب وعمارة بن حزام وحارثة بن النعمان على بعير.

وكان خراش بن الصمة وقطبة بن عامر بن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير، وكان عتبة بن غزوان وطليب بن عمير على جمل لعتبة بن غزوان يقال له العيس، وكان مصعب بن عمير وسويبط بن خرمة ومسعود بن ربيع على جمل لمصعب، وكان عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود على بعير، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازني وسليط بن قيس على جمل لعبد الله بن كعب، وكان عثمان بن عفان وقدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون والسائب بن عثمان على بعير يتعاقبون، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف على بعير، وكان سعد بن معاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوس والحارث بن أنس على جمل لسعد بن معاذ ناضح يقال له الذئبال، وكان سعيد بن زيد، وسلمة بن سلامة بن وقش وعباد بن بشر ورافع بن يزيد على ناضح لسعيد بن زيد، ما تزودوا إلا صاعاً من تمر.

قال الواقدي: فروى معاذ بن رفاعه، عن أبيه، قال: خرجت مع النبي ﷺ إلى بدر، وكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيراً، فكنت أنا وأخي خلاد بن رافع على بكر لنا ومعنا عبيدة بن يزيد بن عامر، فكنا نتعاقب، فسيرنا حتى إذا كنا بالروحاء إذ مر بنا بكرنا وبرك علينا وأعياء، فقال أخي: اللهم إن لك عليّ نذراً، لئن رددتنا إلى المدينة لأنحرته، فمر بنا النبي ﷺ ونحن على تلك الحال، فقلنا: يا رسول الله، برك علينا بكرنا، فدعا بماء فتمضمض وتوضأ في إناء، ثم قال: افتحاه، ففعلنا فصبه في فيه، ثم على رأسه ثم على عنقه ثم على حاركه^(١)، ثم على سنامه، ثم على عجزه، ثم على ذنبه، ثم قال: اركبا، ومضى رسول الله ﷺ فلحقناه أسفل من المنصرف، وإن بكرنا لينفر بنا، حتى إذا كنا بالمصلّى راجعين من بدر، برك علينا، فنحره أخي، فقسم لحمه وتصدق به.

قال الواقدي: وقد روي أن سعد بن عبادة حمل في بدر على عشرين جملاً.

قال: وروي عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال: فخرجنا إلى بدر مع رسول الله ﷺ ومعنا سبعون بعيراً، فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على بعير، وكنت أنا من أعظم أصحاب النبي ﷺ عنه غناء، وأرجلهم رجلة، وأزماهم لسهم، لم أركب خطوة ذاهباً ولا راجعاً.

(١) الحارك: أعلى الكاهل. القاموس، مادة (حرك).

قال الواقدي: وقال رسول الله ﷺ حين فصل من بيوت السُّقيا: «اللهم إنهم حُفَاءٌ فاحملهم، وعِراءٌ فاكسهم، وجِيعٌ فاشبعهم، وعالةٌ فأغنهم من فضلك»^(١)، فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً، للرجُل البعير والبعيران، واكتسى مَنْ كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزوادهم، وأصابوا فداء الأسرى، فأغنى به كلَّ عائل.

قال: واستعمل رسول الله ﷺ على المشاة قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبدول - وأمره النبي ﷺ حين فصل من بيوت السقيا أن يعدَّ المسلمين، فوقف لهم بيتر أبي عبيدة يعدهم، ثم أخبر النبي ﷺ، وخرج من بيوت السقيا، حتى سلك بطن العقيق، ثم سلك طريق المكيِّين، حتى خرج على بطحاء بن أزر، فنزل تحت شجرة هناك، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك، فبنى منها مسجداً، فصلَّى فيه رسول الله ﷺ، وأصبح يوم الإثنين وهو هناك، ثم صار إلى بطن مَلَل وتُربان بين الحفيرة وملل.

قال الواقدي: فكان سعد بن أبي وقاص، يقول: لما كنا بتُربان، قال لي رسول الله ﷺ: «يا سعد، انظر إلى الطَّيِّب، فأفوق له بسهم»، وقام رسول الله ﷺ فوضع رأسه بين منكبي وأذني، ثم قال: «اللهم سدِّد رميته»^(٢) - قال: فما أخطأ سهمي عن نحره، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وخرجت أعدُو فأخذته وبه رَمَقٌ فذكَّيته، فحملناه حتى نزلنا قريباً، وأمر به رسول الله ﷺ فقسَّم بين أصحابه.

قال الواقدي: وكان معهم فرسان: فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، وفرس للمقداد بن عمرو البهراني، حليف بني زُهرة، ويقال فرس للزبير، ولم يكن إلا فرسان لاختلاف عندهم، أن المقداد له فرس، وقد روى عن ضباعة بنت الزبير عن المقداد، قال: كان معي يوم بذر فرس يقال له سبحة. وقد روى سعد بن مالك الغنوي عن آبائه أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي شهد بدرًا على فرس له يقال له السيل.

قال الواقدي: ولحقت قريش بالشام في غيرها، وكانت ألف بعير، وكان فيها أموال عظام، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير، حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه، وكان يقال: إن فيها لخمسين ألف دينار. وقالوا: أقل، وإن كان ليقال: إن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة إمَّا مال لهم أو مال مع قوم قُراض.

(١) أخرجه أبو داود كتاب: الجهاد، باب: نفل السرية تخرج من العسكر (٢٧٤٧)، والحاكم في المستدرک (٢٥٩٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٥٣٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣١٤)، والهيثم في مجمع الزوائد (١١٣/٦)، والبزار في مسنده (١٢١٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٢٠٤٨).

على النصف، وكان عامة العير لهم، ويقال: بل كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهباً، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا مثقال.

قال الواقدي: وحدثني هشام بن عمار بن أبي الحويرث، قال: كان لبني عبد مناف فيها عشرة آلاف مثقال، وكان متجرهم إلى غزاة من أرض الشام.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن جعفر، عن أبي عون مولى المشور، عن مخزومة بن نوفل، قال: لما لحقنا بالشام أدركنا رجلاً من جذام، فأخبرنا أن محمداً قد كان عرض لعيرنا في بدأتنا، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجعتنا، قد حالف علينا أهل الطريق ووادعهم. قال مخزومة: فخرجنا خائفين نخاف الرصد، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فصلنا من الشام.

قال الواقدي: وكان عمرو بن العاص مع العير، وكان يحدث بعد ذلك يقول: لما كنا بالزرقاء - والزرقاء بالشام من أذرعات على مرحلتين - ونحن منحديرون إلى مكة لقينا رجلاً من جذام، فقال: قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه، فقلنا: ما شعرنا، قال: بلى، فأقام شهراً، ثم رجع إلى يثرب، وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفون فهو الآن أخرى أن يعرض لكم، إنما يعدكم الأيام عدداً، فاحذروا على عيركم، وارثوا آراءكم، فوالله ما أرى من عدد ولا كراع ولا خلقة. فأجمع القوم أمرهم، فبعثوا ضمضم بن عمرو، وكان في العير، وقد كانت قريش مرت به وهو بالساحل، معه بكران، فاستأجروه بعشرين مثقالاً، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أن محمداً قد عرض لعيرهم، وأمره أن يجذع^(١) بعيره إذا دخل، ويحول رحله، ويشق قميصه من قبله وذبره، ويصيح: الغوث الغوث! ويقال: إنما بعثوه من تبوك، وكان في العير ثلاثون رجلاً من قريش، فيهم عمرو بن العاص، ومخزومة بن نوفل.

قال الواقدي: وقد كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل مجيء ضمضم بن عمرو رؤيا أفزعها، وعظمت في صدرها، فأرسلت إلى أخيها العباس، فقالت: يا أخي، لقد والله رأيت رؤيا أفزعني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم علي ما أحدثك منها، رأيت راكباً أقبل على بعير حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: يا آل غدر، أنفروا إلى مصارعكم في ثلاث، فصرخ بها ثلاث مرات، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد، والناس يتبعونه إذ مثل به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها ثلاثاً، ثم أخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلته منها قلدة.

(١) الجذع: قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة. القاموس، مادة (جذع).

قال الواقدي: وكان عمرو بن العاص يحدث بعد ذلك فيقول: لقد رأيت كل هذا، ولقد رأيت في دارنا فُلقة من الصخرة التي انفلقت من أبي قيس، ولقد كان ذلك عبرة، ولكن الله لم يرِدْ أن نُسلم يومئذٍ، لكنه أخر إسلامنا إلى ما أراد.

قلت: كان بعض أصحابنا يقول: لم يكفِ عمراً أن يقول: رأيت الصخرة في دور مكة عياناً، فيخرج ذلك مخرج الاستهزاء باطناً على وجه النفاق واستخفافه بعقول المسلمين زعم، حتى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصُّراح فيقول: إن الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذٍ.

قال الواقدي: قالوا: ولم يدخل داراً ولا بيتاً من دور بني هاشم ولا بني زهرة من تلك الصخرة شيء! قال: فقال العباس: إن هذه لرؤيا، فخرج مغتماً، حتى لقي الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان له صديقاً - فذكرها له واستكتمه، ففشا الحديث في الناس، قال العباس: فغدوت أطوف بالبيت، وأبو جهل في رَهْط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة، فقال أبو جهل: ما رأت عاتكة هذه؟ فقلت: وما ذاك؟ فقال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم بأن تتبنا رجالكم حتى تتبنا نساءكم! زعمت عاتكة أنها رأت في المنام كذا وكذا - للذي رأت - فسترتبص بكم ثلاثاً، فإن يكن ما قالت حقاً فيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن، نكتب عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب! فقال له العباس: يا مصفر استه، أنت أولى بالكذب واللؤم منا! فقال أبو جهل: إنا استبقنا المجد وأنتم قتلتم: فينا السقاية، فقلنا: لا نبالي، تسقون الحجاج، ثم قتلتم: فينا الحجابة، فقلنا: لا نبالي تحجبون البيت، ثم قتلتم: فينا النذوة، قلنا: لا نبالي يكون الطعام فتطعمون الناس. ثم قتلتم: فينا الرقادة، فقلنا: لا نبالي، تجمععون عندكم ما ترفدون به الضعيف، فلما أطعمنا الناس وأطعمتم، وازدحمت الركب واستبقنا المجد، فكنا كفرسي رهان، قتلتم: منا نبي، ثم قتلتم: منا نية! فلا والآلات والعزى لا كان هذا أبداً!

قلت: لا أرى كلام أبي جهل منتظماً؛ لأنه إذا سلم للعباس أن هذه الخصال كلها فيهم، وهي الخصال التي تشرف بها القبائل بعضها على بعض، فكيف يقول: لا نبالي لا نبالي! وكيف يقول: فلما أطعمنا للناس وأطعمتم، وقد كان الكلام منتظماً، لو قال: ولنا بإزاء هذه المفاخر كذا وكذا، ثم يقول بعد ذلك: استبقنا المجد فكنا كفرسي رهان، وازدحمت الركب، ولم يقل شيئاً ولا عدّ مآثره، ولعل أبا جهل قد قال ما لم ينقل.

قال الواقدي: قال العباس: فوالله ما كان مني غير أنني جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً، فلما أمسيت لم تبق امرأة أصابتها ولادة عبد المطلب إلا جاءت، فقلن لي: أرضيت بهذا الفاسق الخبيث يقع في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم! ولم تكن لك عند ذلك غيره! فقلت: والله ما قلت إلا لأنني لا أبالي به، ولايم الله لأعرضن له غداً، فإن عاد كفيئكن

إياه. فلما أصبحوا من ذلك اليوم الذي رأت فيه عاتكة ما رأت، قال أبو جهل: هذه ثلاثة أيام ما بقي. قال العباس: وغدوث في اليوم الثالث، وأنا حديد مغضب، أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه، وأذكر ما أحفظني به النساء من مقالاتهن، فوالله إني لأمشي نحوه - وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر - إذ خرج نحو باب بني سَهْم يشتد، فقلت: ما باله لعنه الله! أكل هذا قَرَقاً من أن أشاتم! فإذا هو قد سمع صوت ضَمْضَم بن عمرو وهو يقول: يا معشر قريش، يا آل لُؤَيٍّ بن غالب، اللطيمة قد عرض لها محمد في أصحابه! الغوث الغوث! والله ما أرى أن تدركوها، وضَمْضَم ينادي بذلك في بطن الوادي، وقد جَدَعَ أذني بعيره وشق قميصه قُبلاً ودُبِراً، وحول رحله، وكان يقول: لقد رأيتني قبل أن أدخل مكة وإني لأرى في النوم وأنا على راحلتي كأن وادي مكة يسيل من أسفله إلى أعلاه دعاً، فاستيقظت فزعاً مذعوراً، فكرهتها لقريش، ووقع في نفسي أنها مصيبة في أنفسهم.

قال الواقدي: وكان عمير بن وهب الجُمَحِيّ يقول: ما رأيت أعجب من أمر ضَمْضَم قط، وما صرّح على لسانه إلا شيطان! كأنه لم يملكنا من أمورنا شيئاً، حتى نفرنا على الصُّغْب، والذلّول، وكان حكيم بن حزام يقول: ما كان الذي جاءنا فاستنفرنا إلى العير إنساناً إلا هو إلا شيطان، قيل: كيف يا أبا خالد؟ قال: إني لأعجب منه، ما ملكنا من أمرنا شيئاً.

قال الواقدي: فجهز الناس وشغل بعضهم عن بعض، وكان الناس بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة، وسرّ بنو هاشم. وقال قائلهم: كلا، زعمتم أنّا كذبت عاتكة! فأقامت قريش ثلاثاً تتجهّز - ويقال: يومين - وأخرجت أسلحتها واشتروا سلاحاً، وأعان قريشهم ضعيفهم، وقام سُهَيْل بن عمرو في رجال من قريش، فقال: يا معشر قريش، هذا محمد والصُّبَاة معه من شبّانكم وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيبتكم، فمن أراد ظهراً فهذا ظهري، ومن أراد قوة فهذه قوة. وقام زمعة بن الأسود، فقال: إنه والآلات والعزى ما نزل بكم أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم، فأوعبوا ولا يتخلف منكم أحد، ومن كان لا قوة له فهذه قوة، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروءكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم. وقال طُعَيْمَة بن عديّ: يا معشر قريش، والله ما نزل بكم أمر أجَل من هذه! أن يستباح عيركم، ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم، والله ما أعرف رجلاً ولا امرأة من بني عبد مناف له نش فصاعداً، إلا وهو في هذه العير، فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقويه. فحمل على عشرين بغيراً وقوى بهم، وخلفهم في أهلهم بمعونة. وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحضا الناس على الخروج، ولم يدعوا إلى قوة ولا حُمْلان، فقبل لهما: ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان؟ قالوا: والله ما لنا مال، وما المال إلا لأبي سفيان. ومشى نوفل بن معاوية الديلمي

إلى أهل القوة من قريش، وكلّمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج، فكلم عبد الله بن أبي ربيعة، فقال: هذه خمسمائة دينار تضعها حيث رأيت، وكلّم حُوَيْطِب بن عبد العزى، فأخذ منه مائتي دينار أو ثلاثمائة، ثم قوي بها في السلاح والظهر.

قال الواقدي: وذكروا أنه كان لا يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعثاً، فمشت قريش إلى أبي لهب، فقالوا له: إنك سيّد من سادات قريش، وإنك إن تخلفت عن النفير يعتبر بك غيرك من قومك، فاخرج أو ابعث رجلاً، فقال: والآلات والعزى لا أخرج ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال: أقم يا أبا عتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك! وخاف أبو جهل أن يُسلم أبو لهب، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث، وما منع أبا لهب أن يخرج إلا الإشفاق من رؤيا عاتكة، كان يقول: إنما رؤيا عاتكة أخذ باليد، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه دين، فقال: اخرج وديني عليك لك، فخرج عنه^(١).

وقال محمد بن إسحاق في المغازي: كان دين أبي لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم، فمطله بها وأفلس، فتركها له على أن يكون مكانه، فخرج مكانه.

قال الواقدي: وأخرج عتبة وشيبة دروعاً لهما، فنظر إليهما مولاهما عدّاس وهما يصلحان دروعهما وآلة حربهما، فقال: ما تريدان؟ فقالا: ألم تر إلى الرجل الذي أرسلناك إليه بالعنب في كرمنا بالطائف؟ قال: نعم، قال: نخرج فنقاتله، فبكى، وقال: لا تخرجا، فوالله إنه لنبي، فأيا فخرجا، وخرج معهما فقتل بيدر معهما.

قلت: حديث العنب في كرم ابني ربيعة بالطائف قد ذكره أرباب السيرة، وشرحه الطبري في التاريخ، قال: لما مات أبو طالب بمكة طمعت قريش في رسول الله ﷺ ونالت منه ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب، فخرج من مكة خائفاً على نفسه مهاجراً إلى ربه يؤم الطائف، راجياً أن يدعو أهلها إلى الإسلام فيجيئوه، وذلك في شوال من سنة عشر من النبوة، فأقام بالطائف عشرة أيام، وقيل شهراً، لا يدع أحداً من أشراف ثقيف إلا جاءه وكلمه، فلم يجيئوه، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم، ويلحق بمجاهل الأرض ويحيث لا يعرف، وأغروا^(٢) به سفهاءهم، فرمّوه بالحجارة، حتى إن رجله لتذميان، فكان معه زيد بن حارثة، فكان يقيه بنفسه، حتى لقد شجّ في رأسه.

والشيعة تروي أن علي بن أبي طالب كان معه أيضاً في هجرة الطائف، فانصرف رسول الله ﷺ عن ثقيف وهو محزون، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب ابني

(١) أنظر مغازي الواقدي: ٢٦، وتاريخ الطبري: ١٣٧/٢، والسيرة النبوية لابن كثير: ٤٧٨/٢.

(٢) أولعّوهم بإيذائه. اللسان، مادة (غرو).

عمرو بن عمير، وهم يومئذ سادة ثقيف، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله وإلى نصرته والقيام معه على قومه، فقال له أحدهم: أنا أمرط يباب الكعبة، إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلّمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لانت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت كاذباً على الله ما ينبغي أن أكلّمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يش من خير ثقيف، واجتمع عليه صبيانهم وسفهاؤهم، وصاحوا به وسبّوه وطرّدوه، حتى اجتمع عليه الناس يغبّجون منه، والجؤوه بالحجارة والطرّد والشتم إلى حائط لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما يومئذ في الحائط، فلما دخل الحائط رجع عنه سفهاء ثقيف، فعمد إلى ظل حَبَلَة^(١) منه فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف.

قال الطبري^(٢): فلما اطمأن به قال - فيما ذكر لي: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني! إلى بعيد فيتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، فإن لم يكن منك غضب عليّ فلا أبالي! ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك»^(٣)!

فلما رأى عُتبة وشيبة ما لقي تحركت له رجليهما، فدعّوا غلاماً نصرانياً لهما، يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، وقل له فليأكل منه، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه، فوضع يده فيه، فقال: بسم الله، وأكل، فقال عدّاس: والله إن هذه الكلمة لا يقولها أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصراني من أهل نينوى، قال: «أين قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» قال: وما يدريك من يونس بن متى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي»^(٤). فأكبّ عدّاس على يديه ورجليه ورأسه يقبلها، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما قالا: ويلك يا عدّاس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه! قال: يا سيدي، ما في الأرض خير من هذا، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي.

(١) أي شجرة عنب، اللسان، مادة (حبل).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٨١/٢.

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥/٦)، وابن عدي في «الكامل» (١٦٢٣).

(٤) أخرجه أبو حاتم في «الثقات» (٧٨/١).

قال الواقدي: واستقسمت قريش بالأزلام^(١) عند هُبَل للخروج، واستقسم أمية بن خلف وعُتْبة وشيبة بالآمر والناهي، فخرج القُدْح الناهي، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل، فقال: ما استقسمت ولا نتخلف عن غيرنا.

قال الواقدي: لما توجه زمعة بن الأسود خارجاً، فكان بذي طوى أخرج قداحه، واستقسم بها، فخرج الناهي عن الخروج، فلقى غيظاً، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فكسرها، وقال: ما رأيت كالיום قدحاً أكذب! ومر به سهيل بن عمرو وهو على تلك الحال، فقال: ما لي أراك غضبان يا أبا حَكِيم؟ فأخبره زمعة، فقال: امض عنك أيها الرجل، قد أخبرني عمير بن وهب أنه لقيه مثل الذي أخبرني، فمضوا على هذا الحديث.

قال الواقدي: وحدثني موسى بن ضمرة بن سعيد، عن أبيه، قال: قال أبو سفيان بن حرب لضمضم: إذا قدمت على قريش فقل لها: لا تستقسم بالأزلام.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن أبي بكر بن سليم بن أبي خيثمة، قال: سمعتُ حَكِيم بن حزام يقول: ما توجهتُ وجهاً قط كان أكره إليّ من مسيري إلى بدر، ولا بان لي في وجه قط ما بان لي قبل أن أخرج، ثم قال: قدم ضمضم، فصاح بالتفكير فاستقسم بالأزلام، كل ذلك يخرج الذي أكره، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مَر الظُهران، فنخر ابنُ الحنظلية جُزوراً منها بها حياة، فما بقي خباء من أخيه العسكر إلا أصابه من دمها، فكان هذا بين، ثم همتُ بالرجوع، ثم أذكر ابن الحنظلية وشؤمه، فيردني حتى مضيت لوجهي. وكان حَكِيم يقول: لقد رأينا حين بلغنا الشية البيضاء - وهي الشية التي تهبطك على فح وأنت مُقبل من المدينة - إذا عدّاس جالس عليها. والناس يمرون، إذ مرّ علينا ابنا ربيعة، فوثب إليهما، فأخذ بأرجلهما في غرّهما، وهو يقول: بأبي أنتما وأمي! والله إنه لرسولُ الله صلى الله عليه، وما تُساقان إلا إلى مصارعكما! وإن عينيه لتسيل دمعاً على خديه، فأردت أن أرجع أيضاً، ثم مضيت. ومر به العاص بن منبه بن الحجاج، فوقف عليه حين ولّى عُتْبة وشيبة، فقال: ما يُبكيك؟ قال: يبكيني سيدي - أو سيّدا أهل الوادي - يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله ﷺ! فقال العاص: وإن محمداً لرسول الله! فانتفض عدّاس انتفاضة واقشعر جلده، ثم بكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة. قال: فأسلم العاص بن منبه، ومضى وهو على الشك، حتى قُتل مع المشركين على شك وارتياب. ويقال: رجع عدّاس ولم يشهد بديراً، ويقال: شهد بديراً وقتل.

قال الواقدي: والقول الأول أثبت عندنا.

(١) الأزلام: سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية. القاموس، مادة (زلم).

قال الواقدي: وخرج سعد بن معاذ معتمراً قبل بدر، فنزل على أمية بن خلف، فأتاه أبو جهل، وقال: أترك هذا وقد آوى محمداً وأذننا بالحرب! فقال سعد بن معاذ: قل ما شئت، أما إن طريق غيركم علينا، قال أمية بن خلف: مه! لا تقل هذا لأبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي. قال سعد بن معاذ: وأنت تقول ذلك يا أمية؟ أما والله لسمعت محمداً يقول: لأقتلن أمية بن خلف، قال أمية: أنت سمعته؟ قال سعد بن معاذ: فقلت: نعم، قال: فوقع في نفسه، فلما جاء التفسير أبي أمية أن يخرج معهم إلى بدر، فأتاه عتبة بن أبي معيط وأبو جهل، ومع عتبة منجمره فيها بخور، ومع أبي جهل مكحلة وميزود^(١)، فدخلها عتبة تحته، فقال: تبخر، فإنما أنت امرأة، وقال أبو جهل: اكتحل فإنما أنت امرأة. فقال أمية: ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي، فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة دينار من نعم بني قشير، فغنمه المسلمون يوم بدر، فصار في سهم خبيب بن يساف.

قال الواقدي: وقالوا: ما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث بن عامر، وقال: ليت قريشاً تعزم على القعود وأن مالي في العير تلف ومال بني عبد مناف أيضاً. فيقال له: إنك سيد من ساداتها، أفلا تردعها عن الخروج؟ قال: إني أرى قريشاً قد أزمعت على الخروج، ولا أرى أحداً به طرُق تخلف إلا من علة، وأنا أكره خلافها، وما أحب أن تعلم قريش ما أقول، على أن ابن الحنظلية رجل مشؤوم على قومه، ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب، ولقد قسم الحارث مالاً من ماله بين ولده، ووقع في نفسه أنه لا يرجع إلى مكة، وجاءه ضمضم بن عمرو، وكانت للحارث عنده أباد، فقال: أبا عامر، إني رأيت رؤيا كرهتها، وإني لكاليقظان على راحلتي وأراكم أن واديكم يسيل دماً من أسفله إلى أعلاه، فقال الحارث: ما خرج أحد وجهاً من الوجوه أكره له من وجهي هذا، قال: يقول ضمضم: والله إني لأرى لك أن تجلس، فقال: لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة، فاطو هذا الخبر أن تعلمه قريش، فإنها تتهم كل من عوقها عن المسير - وكان ضمضم قد ذكر هذا الحديث للحارث بطن ياجج - قالوا: وكرهت قريش أهل الرأي منهم المسير، ومشى بعضهم إلى بعض، وكان ممن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر، وأميه بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام وأبو البختري، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه، حتى بكتهم أبو جهل بالجبن، وأعانه عتبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بن كلدة، وحضوهم على الخروج، وقالوا: هذا فعل النساء. فأجمعوا المسير، وقالت قريش: لا تدعوا أحداً من عدوكم خلفكم.

قال الواقدي: ومما استدل به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعتبة وشيبة، أنه ما عرض رجل منهم حملاًناً، ولا حملوا أحداً من الناس، وإن كان الرجل ليأتيهم حليفاً أو

(١) الميزود: الميل. اللسان، مادة (رود).

عديداً، ولا قوة له، فيطلب الحملان منهم، فيقولون: إن كان لك مال وأحييت أن تخرج فافعل وإلا فأقم، حتى كانت قريش تعرف ذلك منهم.

قال الواقدي: فلما اجتمعت قريش إلى الخروج والمسير، ذكروا الذي بينهم وبين بني بكر من العداوة، وخافوهم على من يخلفونه، وكان أشدهم خوفاً عُتبة بن ربيعة، وكان يقول: يا معشر قريش، إنكم وإن ظفرتُم بالذي تريدون، فلأن لا نأمن على من نخلف، إنما نخلف نساء ولا ذرية ومن لا طعم به فارتؤوا آراءكم، فتصوّر لهم إبليس في صورة سراقه بن جعشم المدلجي فقال: يا معشر قريش، قد عرفتم شرفي ومكاني في قومي، أنا لكم جار أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فطابت نفس عُتبة، وقال له أبو جهل: فما تريد؟ هذا سيد كنانة، هو لنا جار على من نخلف، فقال عتبة: لا شيء، أنا خارج.

قال الواقدي: وكان الذي بين بني كنانة وقريش أن ابناً لحفص بن الأحنف أحد بني مُعيط بن عامر بن لؤي، خرج يبني ضالّة، وهو غلام في رأسه ذؤابة، وعليه حُلّة، وكان غلاماً وضيئاً، فمرّ به عامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح بن يعمر، أحد رؤساء بني كنانة - وكان بضجنان - فقال: من أنت يا غلام؟ قال: ابن لحفص بن الأحنف، فقال: يا بني بكر، ألكم في قريش دم؟ قالوا: نعم، قال: ما كان رجل يقتل هذا برجله إلا استوفى، فاتبعه رجل من بني بكر فقتله بدم له في قريش، فتكلّمت فيه قريش، فقال عامر بن يزيد: قد كانت لنا فيكم دماء، فإن شتّم فأدّوا ما لنا قبلكم ونؤدّي إليكم ما كان فينا، وإن شتّم فإنما هو الدّم، رجل برجل، وإن شتّم فتجاووا عنا فيما قبلنا، ونتجافى عنكم فيما قبلكم. فهان ذلك الغلام على قريش، وقالوا: صدق! رجل برجل، فلهوا عنه أن يطلبوا بدمه، فبينما أخوه مكرز بن حفص بمرّ الظهران، إذ نظر عامر بن يزيد وهو سيد بني بكر على جمل له، فلما رآه قال: ما أطلب أثراً بعد عين! وأناخ بعيره، وهو متوشح سيفه، فعلاه به حتى قتله، ثم أتى مكة من الليل، فعلق سيف عامر بن يزيد بأستار الكعبة، فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد، فعرفوا أن مكرز بن حفص قتله، وقد كانت تسمع من مكرز في ذلك قولاً، وجزعت بنو بكر من قتل سيدها، فكانت معدّة لقتل رجلين من قريش سيّدين أو ثلاثة من ساداتها، فجاء النّفير وهم على هذا الأمر، فخافوهم على من تخلف بمكة من ذراريهم، فلما قال سراقه ما قال، وهو ينطق بلسان إبليس شجّع القوم.

قال الواقدي: وخرجت قريش سراعاً، وخرجوا بالقيان والدّفوف، سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزة مولاة أسود بن المطلب، وفلانة مولاة أمية بن خلف، يغنّين في كلّ منهل، وينحرون الجُزر، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحرايب، وخرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلاً، وقادوا مائة فرس، بطراً ورتاء الناس، كما ذكر الله تعالى في كتابه، وأبو جهل يقول: أبطنّ محمد أن يصيب منا ما أصاب بنخلة وأصحابه، سيعلم أنمنع غيرنا أم لا!

قلت: سرية نخلة سرية قبل بدر، وكان أميرها عبد الله بن جحش قتل فيها عمرو بن الحضرمي، حليف بن عبد شمس، قتله واقد بن عبد الله التميمي، رماه بسهم فقتله، وأسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، واستاق المسلمون العير، وكانت خمسمائة بعير فخمسها رسول الله ﷺ، وقسم أربعمائة فيمن شهدا من المسلمين، وهم مائتا رجل، فأصاب كل رجل بعيران.

قال الواقدي: وكانت الخيل لأهل القوة منهم، وكان في بني مخزوم منها ثلاثون فرساً، وكانت الإبل سبعمائة بعير، وكان أهل الخيل كلهم دارع، وكانوا مائة، وكان في الرجال دروع سوى ذلك.

قال الواقدي: وأقبل أبو سفيان بالعير، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة، واستبطؤوا ضمضاً والتفيراً، فلما كانت الليلة التي يُصبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبل بوجوها إلى ماء بدر، وكانوا باتوا من وراء بدر آخر ليلتهم، وهم على أن يُصبحوا بدرأ، إن لم يعترض لهم، فما أقرتهم العير حتى ضربوها بالعُقل على أن بعضها ليثنى بعقالين، وهي ترجع الحنين، توارداً إلى ماء بدر، وما إن بها إلى الماء من حاجة، لقد شربت بالأمس، وجعل أهل العير يقولون: إن هذا شيء ما صنعه الإبل منذ خرجنا، قالوا: وغشينا تلك الليلة ظلمة شديدة حتى ما نبصر شيئاً.

قال الواقدي: وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء ورذاً على مجدي بدرأ يتجسسان الخبر، فلما نزل ماء بدر، وأناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء، ثم أخذا أسقيتهما، يسقيان من الماء، فسمعا جاريتين من جوارى جهينة، يقال لإحدهما برزة وهي تلزم صاحبتهما في درهم، كان لها عليها وصاحبتهما تقول: إنما العير غداً أو بعد غد قد نزلت، ومجدي بن عمر يسمعهما، فقال: صدقت، فلما سمع ذلك بسبس وعدي انطلقا راجعين إلى النبي ﷺ حتى أتياه بعرق الظبية، فأخبراه الخبر.

قال الواقدي: وحدثني كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده - وكان أحد البكائين - قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد سلك فجع الرُّوحاء موسى النبي ﷺ في سبعين ألفاً من بني إسرائيل وصلُّوا في المسجد الذي بعرق الظبية»^(١).

قال الواقدي: وهي من الرُّوحاء على ميلين ممّا يلي المدينة، إذا خرجت على يسارك. قال الواقدي: وأصبح أبو سفيان ببدر، قد تقدم العير وهو خائف من الرُّصد فقال: يا مجدي، هل أحسست أحداً! تعلم والله ما بمكة قرشي ولا قرشية له نُش فصاعداً - والنش

(١) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرک» (٤١٦٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩٦١٨).

نصف أوقية وزن عشرين درهماً - إلا وقد بعث به معنا! ولئن كتمتْنَا شأن عدونا لا يصالحك رجلٌ من قريش ما بلّ بخر صوفة. فقال مجدي: والله ما رأيت أحداً أنكره، ولا بينك وبين يثرب من عدو، ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا، وما كنت لأخفيه عنك، إلا أنني قد رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان - وأشار إلى مناخ عدي وبسبس - فأناخا به، ثم استقيا بأسقيتهما، ثم انصرفا. فجاء أبو سفيان مناخهما، فأخذ أبعاراً من أبعار بعيريهما ففتها، فإذا فيها نوى، فقال: هذه والله علائف يثرب! هذه والله عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلا قريباً، فضرب وجه غيره، فساحل بها، وترك بدراناً يساراً وانطلق سريعاً، وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل يطعمون الطعام مَنْ أتاهم، وينحرون الجزور، فبينما هم كذلك في مسيرهم إذ تخلف عتبة وشيبة، وهما يترددان.

قال أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب! لقد خشيتُ منها، قال الآخر: فاذكرها، وذكرها، فأدركهما أبو جهل، فقال: ما تتحدثون به؟ قالا: نذكر رؤيا عاتكة، قال يا عجباً من بني عبد المطلب! لم يرضوا أن تتبنا علينا رجالهم حتى تنبأت علينا النساء! أما والله لئن رجعنا إلى مكة لنفعلن بهم ولنفعلن! قال عتبة: إن لهم أرحاماً وقراة قريبة. ثم قال أحدهما لصاحبه: هل لك أن ترجع؟ قال أبو جهل: أترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم تاركهم بأعينكم! أنظنان أن محمداً وأصحابه يلاقونكم! كلا والله، إن معي من قومي مائة وثمانين كلهم من أهل بيتي يحلون إذا أحللت، ويرحلون إذا رحلت، فارجعا إن شئتما. قالا: والله لقد هلك وأهلك قومك.

ثم قال عتبة لأخيه شيبة: إن هذا رجل مشؤوم - يعني أبا جهل - وإنه لا يمسه من قرابة محمد ما يمسننا، مع أن محمداً معه الولد فارجع بنا ودع قوله.

قلت: مراده بقوله «مع أن محمداً معه الولد»، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، كان أسلم وشهد بدراناً مع رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: فقال شيبة: والله تكون علينا سبة يا أبا الوليد أن نرجع الآن بعد ما سرنا فمضينا. ثم انتهى إلى الجحفة عشاء، فنام جهم بن الصلت بن مخزومة بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال: إني لأرى بين النائم واليقظان، أنظر إلى رجل أقبل على فرسٍ معه بعير له، حتى وقف عليّ، فقال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود، وأمّية بن خلف، وأبو البختري، وأبو الحكم، ونوفل بن خويلد، في رجال سَمّاهم من أشرف قريش، وأسر سهيل بن عمرو، وفرّ الحارث بن هشام عن أخيه، قال: وكان قائلاً يقول: والله إني لأظنهم الذين يخرجون إلى مصارعهم. ثم قال: أراه ضرب في لبة بعيره فأرسله في العسكر، فقال أبو جهل: وهذا نبي آخر من بني عبد مناف! ستعلم غداً مَنْ المقتول، نحن أو محمد وأصحابه! وقالت

قريش لجُهم: إنما يلعب بك الشيطان في منامك، فسترى غداً خلافاً ما رأيت! يُقتل أشراف محمد ويؤسرون. قال: فخلا عتبة بأخيه شيبة، فقال له: هل لك في الرجوع؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتكة، ومثل قول عدّاس، والله ما كذبنا عدّاس، ولعمري لئن كان محمد كاذباً إنّ في العرب لمن يكفيناه، ولئن كان صادقاً إنّنا لأسعد العرب به لِلْحَمَةِ. فقال شيبة: هو على ما تقول، أفرجع من بين أهل العسكر؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال: ما تريدان؟ قالوا: الرجوع، ألا ترى إلى رؤيا عاتكة، وإلى رؤيا جُهم بن الصلت مع قول عدّاس لنا! فقال: لا تُخذلان والله قومكما وتقطعان بهم. قالوا: هلكت والله وأهلكت قومك! فمضيا على ذلك.

قال الواقدي: فلما أفلت أبو سفيان بالعر، ورأى أنّ قد أحرزها وأمن عليها، أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس - وكان مع أصحاب العير - خرج معهم من مكة، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع، ويقول: قد نجت عيركم وأموالكم، فلا تحرّزوا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم، وقد نجاها الله. فإن أبوا عليك فلا يأتون خَصْلَةً واحدة، يردّون القيان. فعالج قيس بن امرئ القيس قريشاً، فأبت الرجوع. قالوا: أما القيان فسنردّهن، فردّوهن من الجحفة.

قلت: لا أعلم مراد أبي سفيان برّد القيان، وهو الذي أخرجهنّ مع الجيش يوم أُخذ يحرضن قريشاً على إدراك الثار، ويغنين، ويضربن الدفوف، فكيف نهى عن ذلك في بدر وفعله في أحد! وأقول: مَنْ تأمل الحال علم أنّ قريشاً لم يمكن أن تتصرّ يوم بدر؛ لأنّ الذي خالطها من التخاذل والتواكل وكراهية الحرب وحبّ الرجوع وخوف اللقاء وخُفوق الهِمَم وفتور العزائم، ورجوع بني زُهرة وغيرهم من الطريق، واختلاف آرائهم في القتال، يكفي بعضه في هلاكهم وعدم فلاحهم، لو كانوا قد لقوا قوماً جُبّاء، فكيف وإنما لقوا الأوس والخزرج، وهم أشجع العرب، وفيهم عليّ بن أبي طالب ﷺ وخمزة بن عبد المطلب، وهما أشجع البشر، وجماعة من المهاجرين أنجاد أبطال، ورئيسهم محمد بن عبد الله، رسول الله ﷺ، الداعي إلى الحق والعدل والتوحيد، المؤيد بالقوة الإلهية، دع ما أضيف إلى ذلك من ملائكة السماء، كما نطق به الكتاب!

قال الواقدي: ولحق الرسول أبا سفيان بالهذة - والهذة على سبعة أميال من عُقبة عُسفان، على تسعة وثلاثين ميلاً من مكة - فأخبره بمضي قريش، فقال: واقوماء! هذا عمل عمرو بن هشام، يكره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس وبغى، والبغى منقصة وشؤم، والله لئن أصاب أصحاب محمد التغير ذلّنا إلى أن يدخل مكة علينا.

قال الواقدي: وقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نردّ بدرأ - وكانت بدر موسماً من مواسم العرب في الجاهلية، يجتمعون بها وفيها سوق - تسمع بنا العرب وبمسيرنا، فنقيم على بذر ثلاثاً،

ننحر الجزر ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، فلن تزال العرب تهابنا أبداً.

قال الواقدي: وكان الفرات بن حيان العجلي أرسلته قريش حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها، وما قد حشدت. فحالف أبا سفيان في الطريق، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر، ولزم الفرات بن حيان المحجة، فوافى المشركين بالجحفة، فسمع كلام أبي جهل، وهو يقول: لا ترجع، فقال: ما بأنفسهم عن نفسك رغبة! وإن الذي يرجع بعد أن رأى ثاره من كئيب لضعيف، فمضى مع قريش، فترك أبا سفيان، وجرح يوم بدر جراحات كثيرة، وهرب على قدميه، وهو يقول: ما رأيت كالיום أمراً أنكدا! إن ابن الحنظلية لغير مبارك الأمر.

قال الواقدي: وقال الأخنس بن شريق - واسمه أبي، وكان حليفاً لبني زهرة: يا بني زهرة، قد نجى الله عيركم، وخلّص أموالكم، ونجى صاحبكم مخزومة بن نوفل، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله، وإنما محمد رجل منكم، ابن أختكم، فإن يك نبياً فأنتم أسعد به، وإن يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من أن تُلوا قتل ابن أختكم، فارجعوا واجعلوا خبثها لي، فلا حاجة لكم أن تخرجوا في غير ما يهتمكم، ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعني أبا جهل - فإنه مهلك قوم، سريع في فسادهم، فأطاعته بنو زهرة، وكان فيهم مطاعاً، وكانوا يتيمنون به، فقالوا: فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع؟ فقال الأخنس: نسير مع القوم، فإذا أمسيت سقطت عن بعيري، فيقولون: نحل الأخنس، فإذا أصبحوا فقالوا: سيروا، فقولوا: لا نفارق صاحبنا، حتى نعلم أحي هو أم ميت، فندفنه، فإذا مضوا رجعنا إلى مكة. ففعلت بنو زهرة ذلك، فلما أصبحوا بالأبواء راجعين تبين للناس أن بني زهرة رجعوا فلم يشهدوا زهري البتة، وكانوا مائة، وقيل: أقل من مائة وهو أثبت. وقال قوم: كانوا ثلاثمائة ولم يثبت ذلك.

قال الواقدي: وقال عدي بن أبي الزغباء منحدره من بدر إلى المدينة، وانتشرت الركاب عليه، فجعل عدي يقول:

أقم لها صدورها يا بنيس
إن مطايا القوم لا تُخبس
وحملها على الطريق أكيس
قد نصّر الله وفرّ الأخنس

قال الواقدي: وذكر أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، إن بني عدي خرجوا من النفي حتى كانوا بثنية لفت، فلما كان في السحر عدلوا في الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان، فقال: كيف رجعتم يا بني عدي! ولا في العير ولا في النفي! قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع، فرجع من رجوع ومضى من مضى، فلم يشهدا أحد من بين عدي. ويقال: إنه لاقاهم بمر الظهران، فقال تلك المقالة لهم.

قال الواقدي: وأما رسول الله ﷺ، فكان صبيحة أربع عشرة من شهر رمضان بعرق

الظبية، فجاء أعرابي قد أقبل من تهامة، فقال له أصحاب النبي ﷺ: هل لك علم بأبي سفيان بن حرب؟ قال: ما لي بأبي سفيان علم، قالوا: تعال، فسلم على رسول الله ﷺ، قال: أوفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: فأيكم رسول الله؟ قالوا: هذا، فقال: أنت رسول الله؟ قال: نعم، قال: فما في بطن ناقتي هذه إن كنت صادقاً؟ فقال سلمة بن سلامة بن وقش: نكحتها وهي حُبلى منك! فكره رسول الله ﷺ مقالته، وأعرض عنه^(١).

قال الواقدي: وسار رسول الله ﷺ حتى أتى الرُّوحاء ليلة الأربعاء، للنصف من شهر رمضان، فقال لأصحابه: هذا سجاسج - يعني وادي الروحاء - هذا أفضل أودية العرب.

قال الواقدي: وصلى رسول الله ﷺ بالروحاء، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وثره لعن الكفرة، ودعا عليهم، فقال: «اللهم لا تفلتن أبا جهل بن هشام فِرْعَوْن هذه الأمة، اللهم لا تفلتن زُمعة بن الأسود، اللهم أسخن عين أبي زُمعة! اللهم أعم بصر أبي ديلة. اللهم لا تفلتن سهيل بن عمرو»^(٢) ثم دعا لقوم من قريش، فقال: «اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين»^(٣)، ولم يدع للوليد بن المغيرة يومئذ، وأسر ببدر، ولكنه لما رجع إلى مكة بعد بدر أسلم، وأراد أن يخرج إلى المدينة فحبس، فدعا له النبي ﷺ بعد ذلك.

قال الواقدي: وكان خبيب بن يساف رجلاً شجاعاً، وكان يأبى الإسلام، فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر خرج هو وقيس بن محرث - ويقال ابن الحارث - وهما على دين قومهما، فأدركا رسول الله ﷺ بالعقيق، وخبيب مقنّع في الحديد، فعرفه رسول الله ﷺ من تحت المغفر، فالتفت إلى سعد بن معاذ وهو يسير إلى جنبه، فقال: أليس بخبيب بن يساف؟ قال: بلى، فأقبل خبيب حتى أخذ ببطان ناقة رسول الله ﷺ، فقال له ولقيس بن محرث: ما أخرجكما؟ قال: كنت ابن اختنا وجارنا، وخرجنا مع قومنا للغنيمة، فقال ﷺ: «لا يخرجنا معنا رجل ليس على ديننا»، فقال خبيب: لقد علم قومي أنني عظيم الغناء في الحرب، شديد النكاية، فأقاتل معك للغنيمة ولا أسلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا ولكن أسلم ثم قاتل»^(٤).

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٧٦٧).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣٢/١٩.

(٣) أخرجه البخاري كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة (٦٧٥)، والنسائي، كتاب: التطبيق، باب: القنوت في صلاة الصبح (١٠٧٣)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في «القنوت» (١٢٤٤).

(٤) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة: ١٤٣٧/٢.

فلما كان بالروحاء جاء فقال: يا رسول الله، أسلمت لرب العالمين، وشهدت أنك رسول الله، فسر بذلك، وقال: امضيه، فكان عظيم الغناء في بذر وفي غير بدر. وأما قيس بن الحارث فأبى أن يسلم، فرجع إلى المدينة، فلما قدم النبي ﷺ من بذر أسلم وشهد أحداً فقتل.

قال الواقدي: ولما خرج رسول الله ﷺ صام يوماً أو يومين، ثم نادى مناديه: يا معشر العصاة، إني مفطر، فأفطروا، وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذلك: أفطروا فلم يفعلوا.

قلت: هذا هو سر النبوة وخاصيتها، إذا تأمل المتأملون ذلك، وهو أن يبلغ بهم حبه وطاعته وقبول قوله على أن يكلفهم ما يشق عليهم فيمثلوه امتثالاً صادراً عن حب شديد وحرص عظيم على الطاعة، حتى إنه لينسخه عنهم ويسقط وجوبه عليهم، فيكروهون ذلك ولا يسقطونه عن أنفسهم، إلا بعد الإنكار التام، وهذا أحسن من المعجزات الخارقة للعادات، بل هذا بعينه معجزة خارقة للعادة أقوى وأكد من شق البحر وقلب العصا حية!

قال الواقدي: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دؤن بدر، أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبر رسول الله ﷺ بمسيرهم، واستشار الناس فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قال: يا رسول الله، إنها قريش وعزها والله ما ذلت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك، فاتهب لذلك أهبت، وأعد عذته، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(١)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا.

قال الواقدي: برك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» - وإنما يريد الأنصار، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي»، فقام سعد بن معاذ، فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا! قال: أجل، قال: إنك عسى أن تكون خرجت عن أمر قد أوجي إليك، وإنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق، وأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل، ووصل من شئت، وخذ من أموالنا ما أردت، فما أخذته من أموالنا أحب إلينا مما تركت، والذي نفسي

بيده ما سلكت هذه الطريق قط، وما لي بها من علم، وإنا لا نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لضَبْرٌ عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك^(١).

قال الواقدي: وحدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد قال: قال سعد بن معاذ يومئذ: يا رسول الله، إنا قد خَلَقْنَا من قومنا قوماً ما نحن بأشدَّ حُباً لك منهم، ولا أطوعَ رغبة ونية في الجهاد، ولو ظنوا أنك يا رسول الله ملاقي عدواً ما تخلّفوا عنك، ولكن إنما ظنوا أنها العير. نبني لك عريشاً، فتكون فيه وتُعِدُّ عندك رواحلك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى، جلست على رواحلك، فلاحقت من وراءنا. فقال له النبي ﷺ خيراً، ثم قال: «أو يقضي الله خيراً يا سعد!»

قال الواقدي: فلما فرغ سعد من المشورة، قال رسول الله ﷺ: «سيرُوا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

قال الواقدي: وقالوا: لقد أَرَانَا رسول الله ﷺ مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فما عدا كل رجل منهم مصرعه^(٢)، قال: فعلم القوم أنهم يلاقون القتال، وأن العير تفلت، ورجا القوم النصر لقول النبي ﷺ.

قال الواقدي: فمن يومئذ عَقَد رسول الله ﷺ الألوية، وكانت ثلاثة، وأظهر السلاح، وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود، وسار فلقى سُفْيَانَ الضَمْرِي، ومع رسول الله ﷺ قتادة بن النعمان ومعاذ بن جبل، فقال رسول الله ﷺ: «من الرجل؟» فقال الضمري: بل ومن أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نخبرنا ونخبرك»، فقال الضمري: وذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الضمري: فاسألوا عما شئتم، فقال له ﷺ: «أخبرنا عن قريش»، قال الضمري: بلغني أنهم خرجوا يوم كذا من مكة، فإن كان الخبر صادقاً، فإنهم بجنُبِ هذا الوادي، ثم قال الضمري: فمن أنتم؟ فقال النبي ﷺ: «نحن من ماء»^(٣)، وأشار بيده نحو العراق، فجعل الضمري يقول: من ماء! من أي ماء؟ من العراق أم من غيره؟ ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه.

قال الواقدي: فبات الفريقان كل منهم لا يعلم بمنزل صاحبه، إنما بينهم قَوْزٌ من رمل.

قال الواقدي: ومَرَّ رسول الله ﷺ بجبَلَيْن، فسأل عنهما فقالوا: هذا مُسْلِح ومُخْرِيء،

(١) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١٥٨/١)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٤/٢).

(٢) أخرجه نحوه النسائي، كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٤٧)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (١٨٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١٥٩/١)، وابن هشام في السيرة النبوية (١٦٣/٣).

فقال: مَنْ ساكنهما؟ فقبل: بنو التار وبنو حراق، فانصرف عنهما وجعلهما يساراً. ولقيه بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء فأخبراه خبر قريش، ونزل رسول الله ﷺ وادي بذر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، فبعث علياً عليه السلام والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتحسسون على الماء، وأشار لهم إلى ظريب، وقال: أرجو أن تجدوا الخير عند القلب الذي يلي هذا الظريب، فاندفعوا تلقاءه، فوجدوا على تلك القلب روايا قريش فيها سُقَاؤهم، فأسروهم، وأفلت بعضهم، فكان مِمَّن عرف أنه أفلت عجير، فكان أول مَنْ جاء قريشاً بخبر النبي ﷺ وأصحابه، فنادى: يا آل غالب! هذا ابن أبي كبشة وأصحابه، وقد أخذوا سُقَاؤكم، فماج العسكر وكرهوا ما جاء به.

قال الواقدي: فكان حكيم بن حزام يحدث، قال: كنا يومئذ في خباء لنا على جُزُور نشوي من لحمها، فما هو إلا أن سمعنا الخبر، فامتنع الطعام منا، ولقي بعضنا بعضاً، ولقيني عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا خالد، ما أعلم أحداً يسير أعجب من مسيرنا، إن عيرنا قد نجث، وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغياً عليهم، فقلت: أراه لأمر حتم، ولا رأي لمن لا يطاع! هذا شؤم ابن الحنظلية، فقال عتبة: أبا خالد، أتخاف أن تبيتنا القوم؟ قلت: لانت آمن من ذلك، قال: فما الرأي يا أبا خالد؟ قلت: نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم.

قال عتبة: هذا الرأي، قال: فتحارستنا حتى أصبحنا، فقال أبو جهل: هذا عن أمر عتبة كره قتال محمد وأصحابه، إن هذا لهر العجب، اتظنون أن محمداً وأصحابه يعترضون لجمعكم والله لانتحين ناحية بقومي فلا يحرسنا أحد، فتنحى ناحية، وإن السماء لتمطر عليه، قال: يقول عتبة: إن هذا لهر النكد.

قال الواقدي: أخذ من السُّقَاء من على القلب يسار غلام سعيد بن العاص، وأسلم غلام منبه بن الحجاج، وأبو رافع غلام أمية بن خلف، فأتى بهم النبي ﷺ وهو قائم يصلي، فسألهم المسلمون، فقالوا: نحن سُقَاء قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهم، ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان وأصحاب العير، فضربوه، فلما أذلّ قوهم بالضرب، قالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، وهذا العير بهذا القوز، فكانوا إذا قالوا ذلك يُمسِكُون عَنْ ضربهم، فسَلَّمَ رسول الله ﷺ من صلاته، ثم قال: «إن صدقوكم ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم»^(١)! فقال أصحابه: إنهم يا رسول الله يقولون: إن قريشاً قد جاءت، فقال: «لقد صدقوكم! خرجت قريش تمنع عيرها وخافوكم عليها»^(٢)، ثم أقبل ﷺ على السُّقَاء، فقال:

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ١٤٢/٢، وذكره ابن كثير تفسيره: ٣٢٧/٢.

«أين قريش؟» فقالوا: خلف هذا الكثيب الذي ترى، قال: «كم هم؟» قالوا: كثير، قال: «كم عددهم؟» قالوا: لا ندري، قال: «كم ينحرون؟» قالوا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، فقال: القوم ما بين الألف والتسعمائة، ثم قال للسَّقاء: «كم خرج من أهل مكة؟» قالوا: لم يبق أحد به طعم إلا خرج، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»^(١)، ثم سألهم رسول الله ﷺ: «هل رجع منهم أحد؟» قالوا: نعم رجع بن أبي شريق بني زهرة، فقال ﷺ: «راشدهم، وما كان برشيد، وإن كان ما علمت لمعادياً لله ولكتابه»، ثم قال: «فأحد غيرهم؟» قالوا: نعم بنو عدي بن كعب، فتركهم رسول الله ﷺ ثم قال لأصحابه: «أشيروا علي في المنزل»، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أرايت منزلك هذا، أهو منزل أنزلَكَ الله، فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال: فإن هذا ليس بمنزل، انطلق بنا إلى أذنَى مياه القوم، فإنني عالم بها وبقلبها، فإن بها قليلاً قد عرفت عذوبة مائها، وماؤها كثير لا يترج، نبي عليها حوضاً، ونقذف فيها بالآنية فنشرب، ونقاتل، ونعور ما سواها من القُلُب^(٢).

قال الواقدي: فكان ابن عباس يقول: نزل جبريل على النبي ﷺ فقال: الرأي ما أشار به الحُباب فقال: يا حباب، أشرت بالرأي، ونهض، وفعل كل ذلك.

قال الواقدي: وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً - أي كثير الرمل - فأصاب المسلمين ما لبد الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدرُوا معه أن يرتحلوا منه، وإنما بين الطائفتين قَوْز من رمل.

قال الواقدي: وأصاب المسلمين تلك الليلة النُّعاس ألقى عليهم، فناموا ولم يصبهم من المطر ما يؤذيهم.

قال الزُّبير بن العوام: لقد سلَّط الله عليهم النُّعاس تلك الليلة، حتى إنني كنت لأتشدد، والنُّعاس يجلد بي الأرض فما أطيق إلا ذلك، فكان رسول الله ﷺ وأصحابه على مثل ذلك الحال. وقال سعد بن أبي وقاص: لقد رأيتني، وإن دقني بين ثديي، فما أشعر حتى أقع على جنبي.

وقال رفاعة بن رافع بن مالك: لقد غلبني النوم، فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل.

قال الواقدي: فلما تحول رسول الله ﷺ إلى المنزل بعد أن أخذ السَّقاء، أرسل عمار بن

(١) الأفلاذ: جمع فِلْدَة: وهي قطعة الكبد. اللسان، مادة (فلذ).

(٢) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/١٦١)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/١٦٨).

ياسر وعبد الله بن مسعود، فأطافا بالقوم، ثم رجعا إليه فقالا له: يا رسول الله، القوم مذعورون فرعون، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه، مع أن السماء تسح^(١) عليهم.

قال الواقدي: فلما أصبحوا قال منبه بن الحجاج - وكان رجلاً يبصر الأثر: هذا والله أثر ابن سمية، وابن أم عبد، أعرفهما، لقد جاءنا محمد بسفهاثنا وسفهاء أهل يثرب، ثم قال: لم يترك الجوع لنا مبيتاً لا بد أن نموت أو نُميتا

يا معشر قريش، انظروا غداً إن لقينا محمد وأصحابه، فاتقوا على شبانكم وفتيانكم، بأهل يثرب، فإننا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا من ضلالتهم ما فارقوا من دين آبائهم.

قال الواقدي: ولما نزل رسول الله ﷺ على القلب بُني له عريش من جريد، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً سيفه، فدخل النبي ﷺ وأبو بكر.

قلت: لأعجب من أمر العريش، من أين كان لهم، أو معهم من سعف النخل ما يبنون به عريشاً، وليس تلك الأرض - أعني أرض بدر - أرض نخل، والذي كان معهم من سعف النخل يجري مجرى السلاح كان يسيراً جداً! قيل إنه كان بأيدي سبعة منهم سباع عَوْضَ السيوف، والباقون كانوا بالسيوف والسهام والقسي، وهذا قول شاذ، والصحيح أنه ما خلا أحد منهم عن سلاح، اللهم إلا أن يكون معهم سعافات يسيرة، وظلل عليها بثوب أو ستر، وإلا فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجهاً!

قال الواقدي: وصفت رسول الله ﷺ أصحابه قبل أن تنزل قريش، فطلعت قريش ورسول الله ﷺ يصف أصحابه وقد أترعوا حوضاً يفرطون فيه من السحر، وقذفت فيه الآنية، ودفع رسول الله ﷺ رايته إلى مصعب بن عمير، فتقدم بها إلى الموضع الذي أمره أن يضعها، ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغارب، وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون، فاستقبلوا الشمس، ونزل بالعُدوة الدنيا من الوادي، ونزلوا بالعُدوة اليمانية، وهي القصوى، وجاءه رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن كان هذا عن وحي فامض له، وإلا فإني أرى أن تعلوا الوادي، فإني أرى ريحاً قد هاجت من أعلاها، وأراها بعثت بنصرك. فقال رسول الله ﷺ: «قد صففت صفوفني ووضعت رايتي، فلا أغبر ذلك»^(٢). ثم دعا رسول الله ﷺ، فأمدّه الله بالملائكة.

قال الواقدي: وروى عروة بن الزبير، قال: عدل رسول الله ﷺ الصفوف يومئذ، فتقدم سواد بن غزيرة أمام الصف، فدفع النبي ﷺ بقدح في بطنه، وقال: استوي يا سواد، فقال: أوجعتني والذي بعثك بالحق، أقذني، فكشف ﷺ عن بطنه، وقال: استقيذ فاعتنقه وقبله،

(١) نصب عليهم. القاموس المحيط، مادة (سح).

(٢) أخرجه الصالحى الشامى فى سبل الهدى: ٢٣/٤.

فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: خَضَر يا رسول الله من أمر الله ما قد ترى، وخَشِيت القتل، فأردت أن يكون آخرَ عهدي بك، وأن أعتقك^(١).

قال الواقدي: فحدثني موسى بن يعقوب، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير بن مُطعم، عن رجل من بني أؤد قال: سمعت علياً عليه السلام يخطب على منبر الكوفة، ويقول: بينا أنا أميح في قليب بدر جاءت ريح لم أر مثلها قط شدة، ثم ذهب فجاءت أخرى لم أر مثلها إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح أخرى لم أر مثلها إلا الأولىين، فكانت الأولى جبريل في ألف مع رسول الله ﷺ، والثانية ميكائيل في ألف عن يمينه، والثالثة إسرافيل في ألف عن يساره، فلما هزم الله أعداءه، حملني رسول الله ﷺ على فرس، فجرت بي، فلما جرت بي خررتُ على عنقها، فدعوت ربي، فأمسكني حتى استويت، ومالي وللخيل، وإنما كنت صاحب الحشم، فلما استويت طعنت فيهم بيدي هذه حتى اختضبت مني ذي يعني إبطه.

قلت: أكثر الرواة يروونه: «فحملني رسول الله على فرسه»، والصحيح ما ذكرناه، لأنه لم يكن لرسول الله ﷺ فرس يوم بدر، وإنما حضرها راكب بعير، ولكنه لما اصطدم الصفان، وقتل قوم من فرسان المشركين، حمل رسول الله ﷺ علياً عليه السلام على بعض الخيل المأخوذة منهم.

قال الواقدي: قالوا: كان على ميمنة رسول الله ﷺ أبو بكر، وكان على يساره علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان على ميمنة قريش هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعلى يسارهم عمرو بن عبد ود. قيل: كان زُمنة بن الأسود على يسارهم، وقيل: بل كان على خير المشركين، وقيل: الذي كان على الخيل الحارث بن هشام، وقال قوم: لم يكن هُبيرة على الميمنة، بل كان عليها الحارث بن عامر بن نوفل.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن صالح عن يزيد بن رومان وابن أبي حبيبة، قالوا: ما كان على ميمنة النبي ﷺ يوم بدر ولا على يساره أحد يسمي، وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم ما سمعنا فيها بأحد.

قال الواقدي: وهذا هو الثبوت عندنا قال: وكان لواء رسول الله ﷺ يومئذ الأعظم لواء المهاجرين مع مُصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحُبَاب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ، وكان مع قريش ثلاثة ألوية، لواء مع أبي عَزِيز، ولواء مع المنذر بن الحارث، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة.

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» بالفاظ قريبة منه (١٦٦١)، وذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (١٧٤/٣).

قال الواقدي: وخطب رسول الله ﷺ المسلمين يومئذ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه. وإن الصبر في البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم، تدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحدركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإنه تعالى يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١)، انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وما أعزكم به بعد الذلة، فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبون به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألقانا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، ويغفر الله لي وللمسلمين»^(٢).

قال الواقدي: ولما رأى رسول الله ﷺ قريشاً تصوب من الوادي، وكان أول من طلع زمة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه، فاستجال بفرسه، يريد أن يبتوا للقوم منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أنزلت علي الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تغاذل وتكذب رسولك. اللهم نصرَك الذي وعدتني. اللهم أجِهم الغداة»^(٣)! وطلع عتبة بن ربيعة على جملٍ أحمر، فقال رسول الله ﷺ: «إن بك في أحد من القوم خيرٌ فني صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا»^(٤).

قال الواقدي: وكان إيماء بن رخصة قد بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر حين مروا به أهداها لهم، وقال: إن أحببتهم أن يمدكم بسلاح ورجال فإننا معدون لذلك، مؤدون فعلنا، فأرسلوا: أن وصلتك رجم، قد قضيت الذي عليك، ولعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله - بزعم محمد - فما لأحد بالله طاقة.

قال الواقدي: فروى خفاف بن إيماء بن رخصة، قال: كان أبي ليس شيء أحب إليه من إصلاح بين الناس، موثقاً بذلك، فلما مرت به قريش أرسلني بعشر جزائر عشر هدية لها، فأقبلت

(١) سورة غافر، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣٣/١٩.

(٣) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/١٦٨).

(٤) أخرج نحوه في «مسنده» كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي (٩٥١)، والهشمي في «مجمع الزوائد» (٦/٧٦).

أسوقها، وتبني أبي، فدفعتها إلى قريش فقبلوها ووزعوها في القبائل، فمرّ أبي على عتبة بن ربيعة، وهو سيّد الناس يومئذ، فقال: يا أبا الوليد، ما هذا المسير؟ قال: لا أدري والله غلبت، قال: فأنت سيّد العشيرة، فما يمنعك أن ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك، وتحمل العير التي أصابوا بنخلة، فتوزّعها على قومك! فوالله ما يطلبون قبل محمد إلاّ هذا، والله يا أبا الوليد ما تقتلون بمحمد وأصحابه إلاّ أنفسكم!

قال الواقدي: وحديثي ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: ما سمعنا بأحد سار بغير مال إلاّ عتبة بن ربيعة.

قال الواقدي: وروى محمد بن جبير بن مطعم، قال: لما نزل القوم أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى قريش، فقال: ارجعوا، فلأن يلي هذا الأمر منّي غيركم أحبّ إليّ من أن تلوه منّي، وأن أليّه من غيركم أحبّ إليّ من أن أليّه منكم، فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصفاً، فلبّوه، والله لا تُنصرون عليه بعد أن عرض عليكم من النصف ما عرض. وقال أبو جهل: لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم، ولا نطلب أثراً بعد عين، ولا يعرض لغيرنا بعد هذا أبداً.

قال الواقدي: وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض، منهم حكيم بن حزام، فأراد المسلمون تنحيّتهم عنه، فقال النبي ﷺ: «دعوه»، فوردوا الماء، فشربوا، فلم يشرب منهم أحد إلاّ قتل، إلاّ ما كان من حكيم بن حزام.

قال الواقدي: فكان سعيد بن المسيّب، يقول: نجا حكيم من الدهر مرتين، لما أراد الله تعالى به من الخير، خرج رسول الله ﷺ على نفر من المشركين وهم جلّوس يريدونه، فقرأ «يس»، ونثر على رؤوسهم التراب، فما أفلت منهم أحد إلاّ قتل، ما عدا حكيم بن حزام. وورد الحوض يوم بدر مع من ورده مع المشركين، فما ورده إلاّ من قتل إلاّ حكيم بن حزام.

قال الواقدي: فلما اطمأنّ القوم بعثوا عُمير بن وهب الجُمحي، كان صاحب قِداح، فقالوا: احزّر لنا محمداً وأصحابه، فاستجال بفروسه حول العسكر، وصوّب في الوادي وصعد، يقول: عسى أن يكون لهم مدد أو كمين! ثم رجع فقال: لا مدد ولا كمين، والقوم ثلاثمائة، إن زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيراً ومعهم فرسان، ثم قال: يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يشرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منّة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم، ألاّ تروّئهم خُرْساً لا يتكلّمون، يتلمظون^(١) تلمظ الأفاعي! والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل رجلاً، فإذا أصابوا منكم عددهم، فما خير في العيش بعد ذلك! فرّوا رأيكم.

(١) تلمظ: أخرج لسانه فمسح شفّته. القاموس، مادة (لمظ).

قال الواقدي: وحدثني يونس بن محمد الظفري، عن أبيه، أنه قال: لما قال لهم عُمر بن وهب هذه المقالة، أرسلوا أبا أسامة الجشمي، وكان فارساً، فأطاف بالنبي ﷺ وأصحابه، ثم رجع إليهم، فقالوا له: ما رأيت؟ قال: والله ما رأيتُ جلدًا ولا عددًا ولا حلقة ولا كُرَاعًا، ولكني والله رأيت قومًا لا يريدون أن يردُّوا إلى أهلهم! رأيت قومًا مستميتين، ليست معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زُرُق العيون، كأنهم الحَصَا تحت الحَجَف^(١)، ثم قال: أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد، فصوب في الوادي ثم صد، ثم رجع إليهم، فقال: لا كمين ولا مدد! فرؤا رأيكم.

قال الواقدي: ولما سمع حكيم بن حزام ما قال عُمر بن وهب، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، أنت كبير قريش وسيدّها والمطاع فيها، فهل لك ألا تزال تُذكر فيها بخير آخر الدهر، مع ما فعلت يوم عكاظ! وعتبة يومئذ رئيس الناس، فقال: وما ذاك يا أبا خالد؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك، وما أصابه محمد من تلك العير ببطن نخلة، إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدّم والعير. فقال عتبة: قد فعلت، وأنت عليّ بذلك. ثم جلس عتبة على جملة، فسار في المشركين من قريش يقول: يا قوم أطيعوني، ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، واعصبوا هذا الأمر برأسي، واجعلوا جنبها فيّ، فإنّ منهم رجالاً قرابتهم قريبة، ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينكم شحناء وأضغاناً، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم، مع أنّه لا آمن أن تكون الدائرة عليكم، وأنتم لا تطلبون إلاّ دم القتل منكم، والعير التي أصيبت، وأنا أحتمل ذلك، وهو عليّ.

يا قوم إن يك محمد كاذباً يَكْفِيكموه ذؤبان العرب، وإن يك ملكاً كنتم في ملك ابن أخيك، وإن يك نبياً كنتم أسعد الناس به! يا قوم لا تردُّوا نصيحتي، ولا تسفّوها رأيي. فحسده أبو جهل حين سمع خطبته، وقال: إن يرجع الناس عن خطبة عتبة يكن سيد الجماعة وكان عتبة أنطق الناس، وأطولهم لساناً، وأجملهم جمالاً، ثم قال عتبة لهم: أنشدكم الله في هذه الوجوه التي كأنها المصابيح، أن تجعلوها أنداداً لهذه الوجوه التي كأنها وجوه الحيات! فلما فرغ عتبة من كلامه قال أبو جهل: إن عتبة يشير عليكم بهذا لأنّ محمداً ابن عمه، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه، امتلاً والله سخرُك يا عتبة وجئت حين التقت خلقنا البطان. الآن نخذل بيننا وتأمرونا بالرجوع! لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. فغضب عتبة، فقال: يا مصفراً أسيت، ستعلم أينما أجبن والام! وستعلم قريش من الجبان المفسد لقومه! وأنشد:

هـذاي وأمّرت أمّري فبشري بالثكل أم عمرو

قال الواقدي: وذهب أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، أخي عمرو بن الحضرمي المقتول

(١) الحَجَف: التروس من جلود بلا عقب ولا خشب. القاموس المحيط، مادة (حجف).

بنخلة، فقال له: هذا حليفك - يعني عتبة - يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثارك بعينك، وتخذل بين الناس! أقد تحمل دم أخيك، وزعم أنك قابل الدية، ألا تستحي؟ تقبل الدية وقد قدرت على قاتل أخيك! قم فانشد خُفرتك، فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف، ثم حثا على إسته التراب، وصرخ: واعمرأه! يخزي بذلك عتبة؛ لأنه حليفه من بين قريش، فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، وحلف عامر لا يرجع حتى يقتل من أصحاب محمد. وقال أبو جهل لعمير بن وهب: حرش بين الناس، فحمل عمير فناوش المسلمين، لأن ينفذ الصف، فثبت المسلمون على صفهم، ولم يزولوا، وتقدم ابن الحضرمي فشد على القوم، فنشبت الحرب.

قال الواقدي: فروى نافع بن جبير عن حكيم بن حزام، قال: لما أفسد الرأي أبو جهل على الناس، وحرش بينهم عامر بن الحضرمي فأقحم فرسه، كان أول من خرج إليه من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر، وكان أول قتيل قتل من الأنصار حارثة بن سراقة، قتله حيّان بن العرة.

قال الواقدي: وقال عمر بن الخطاب في مجلس ولايته: يا عمير بن وهب، أنت حاذرنا للمشركين يوم بذر، تصعد في الوادي وتصوب، كأنني أنظر إلى فرسك تحتك تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد! قال: إي والله يا أمير المؤمنين، وأخرى، أنا والله الذي حرشت بين الناس يومئذ، ولكن الله جاءنا بالإسلام، وهدانا له، وما كان فينا من الشرك أعظم من ذلك، قال عمر: صدقت.

قال الواقدي: وكان عتبة بن ربيعة كلم حكيم بن حزام، وقال: ليس عند أحد خلاف إلا عند ابن الحنظلية، فاذهب إليه، فقل له: إن عتبة يحمل دم حليفه، ويضمن العير. قال حكيم: فدخلت على أبي جهل، وهو يتخلق بخلق طيب، ودرعه موضوعة بين يديه، فقلت: إن عتبة بن ربيعة بعثني إليك، فأقبل عليّ مغضباً، ما وجد عتبة أحداً يرسله غيرك، فقلت: والله لو كان غيره أرسلني ما مشيت في ذلك، ولكني مشيت في إصلاح بين الناس - وكان أبو الوليد سيّد العشيرة - فغضب غضبة أخرى. قال: وتقول أيضاً سيّد العشيرة، فقلت: أنا أقوله، وقريش كلها تقوله، فأمر عامراً أن يصيح بخفرته، واكتشف، وقال: إن عتبة جاع، فاسقوه سويقاً، وجعل المشركين يقولون: عتبة جاع، فاسقوه سويقاً، وجعل أبو جهل يسرّ بما صنع المشركون بعتبة. قال حكيم: فجئت إلى منبه بن الحجاج فقلت له مثل ما قلت لأبي جهل، فوجدته خيراً من أبي جهل، قال نعمًا مشيت فيه وما دعا إليه عتبة، فرجعت إلى عتبة فوجدت قد غضب من كلام قريش، فنزل عن جملة، وقد كان طاف عليهم في عسكرهم يأمرهم بالكف عن القتال، فبابون، فحمي، فنزل فلبس دُرْعَه، وطلبوا له بَيْضَةً فلم يوجد في الجيش بَيْضَةٌ تسع رأسه من

عَظَمَ هامته، فلما رأى ذلك اعتَجَرَ، ثم برز راجلاً بين أخيه شيبه وبين ابنه الوليد بن عتبة فيينا أبو جهل في الصف على فرس أنثى، حاذاه عُتْبَةُ، وسلَّ سيفه، فقبل: هو والله يقتله، فضرب بالسيف عُرقوب فرس أبي جهل، فاكتسعت الفرس، وقال: انزل، فإن هذا اليوم ليس بيوم ركوب، ليس كل قومك راكباً، فنزل أبو جهل وعُتْبَةُ يقول: سيعلم أيُّنا شؤوم عشيرته الغداة! قال حكيم: فقلت: تالله ما رأيتُ كالיום!

قال الواقدي: ثم دعا عُتْبَةُ إلى المبارزة ورسول الله ﷺ في العريش، وأصحابه على صفوفهم، فاضطجع، فغشيه النوم، وقال: لا تقاتلوا حتى أؤذنكم، وإن كثبوكم فارمؤهم ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشؤكم. فقال أبو بكر: يا رسول الله قد دنا القوم، وقد نالوا مِنَّا، فاستيقظ، وقد أراه الله إياهم في منامه قليلاً، وقلل بعضهم في أعين بعض، ففرع رسول الله ﷺ وهو رافع يديه يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «اللهم إن تظهر علي هذه العصابة يظهر الشرك، ولا يقيم لك دين»^(١)، وأبو بكر يقول: والله لينصرك الله وليبيضن وجهك. قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، إني أشير عليك، وأنت أعظم وأعلم بالله من أن يشار عليك، إن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعدها فقال ﷺ: يا بن رواحة، ألا أنشد الله وعده، إن الله لا يخلف الميعاد! وأقبل عُتْبَةُ يعمد إلى القتال، فقال له حكيم بن حزام: مهلاً مهلاً يا أبا الوليد! لا تنه عن شيء وتكون أوله.

قال الواقدي: قال خُفاف بن إيماء: فرأيت أصحاب النبي ﷺ يوم بدر، وقد تصافت الناس وتزاحفوا، وهم لا يسألون السيوف، ولكنهم قد انتضوا القسي، وقد تترس بعضهم عن بعض بصفوف متقاربة، لا فرج بينها، والآخر من قد سلَّوا السيوف حين طلَعوا، فعجبت من ذلك، فسألت بعد ذلك رجلاً من المهاجرين، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ ألا نسل السيوف حتى يغشونا.

قال الواقدي: فلما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من الحوض: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه. فشَدَّ حتى دنا من الحوض، واستقبله حمزة بن عبد المطلب، فضربه فاطن قدمه، فزحف الأسود ليبر قسمه زعم، حتى وقف في الحوض فهذه برجله الصحيحة، وشرب منه، وأتبعه حمزة، فضربه في الحوض فقتله، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم.

(١) ذكره جعفر الطبري في الرياض النضرة (٣٥/٢)، وأخرج نحوه مسلم، كتاب: الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة (١٧٦٣)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (٢٠٨).

قال الواقدي: ودنا الناس بعضهم من بعض، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصف، ثم دعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم فتیان ثلاثة من الأنصار، وهم بنو عَفراء: مُعَاذ ومعوذ وعوف، بنو الحارث - ويقال: إن ثالثهم عبد الله بن رواحة، والثابت عندنا أنهم بنو عَفراء - فاستحى رسول الله ﷺ من ذلك، وكره أن يكون أول قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الأنصار، وأحب أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه، فأمرهم، فرجعوا إلى مصافهم، وقال لهم خيراً، ثم نادى منادي المشركين: يا محمد، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا بني هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفثوا نور الله»^(١). فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، فمشوا إليهم، فقال عتبة: تكلموا نعرفكم - وكان عليهم البيض، فأنكروهم - فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم^(٢).

وروى محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي» خلاف هذه الرواية، قال: إن بني عَفراء وعبد الله بن رواحة برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: ارجعوا فما لنا بكم من حاجة! ثم نادى مناديتهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان»^(٣).

قلت: وهذه الرواية أشهر من رواية الواقدي، وفي رواية الواقدي ما يؤكد صحة رواية محمد بن إسحاق، وهو قوله: إن منادي المشركين نادى: يا محمد، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا. فلو لم يكن قد كلمهم بنو عَفراء وكلموهم وردوهم، لما نادى مناديتهم بذلك. ويدل على ذلك قول بعض القرنيين بعض الأنصار في فخر فخر به عليه: أنا من قوم لم يرَضْ مشركوهم أن يقتلوا مؤمني قومك.

قال الواقدي: فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: كفاء كريم، وأنا أسد الحلفاء، من هذان معك؟ قال: علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب، فقال: كفآن كريمان.

قال الواقدي: قال ابن أبي الزناد: حدثني أبي، قال: لم أسمع لعُتبة كلمة قط أو هن من قوله: «أنا أسد الحلفاء» يعني بالحلفاء الأجمة.

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١٧/٢).

(٢) تاريخ الواقدي: أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٢٥٧/٣٨.

(٣) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٣٣٣/٣.

قلت: قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى: «وأنا أسد الحلفاء»، وروى: «أنا أسد الأخلاف».

قالوا في تفسيرهما: أراد أنا سيد أهل الحلف المطيعين، وكان الذين حضروه بني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزى وبني تيم وبني زهرة وبني الحارث بن فهر، خمس قبائل. ورد قوم هذا التأويل، فقالوا: إن المطيعين لم يكن يقال لهم: الحلفاء ولا الأخلاف، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم، وهم بنو عبد الدار، وبنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جُمَح، وبنو عدي بن كعب، خمس قبائل. وقال قوم في تفسيرهما: إنما عني حلف الفضول، وكان بعد حلف المطيعين بزمان، وشهد حلف الفضول رسول الله ﷺ وهو صغير في دار ابن جُدعان، وكان سببه أن رجلاً من اليمن قدم مكة بمتاع، فاشتراه العاص بن وائل السهمي ومطله بالثمن حتى أتعبه، فقام بالحجر وناشد قريشاً ظلامته، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة، وبنو تميم، في دار بن جُدعان، فتحالفوا، وغمّسوا أيديهم في ماء زمزم، بعد أن غسلوا به أركان البيت، أن ينصروا كل مظلوم بمكة، ويردّوا عليه ظلامته، ويأخذوا على يد الظالم، وينهّوا عن كل منكر، ما بلّ بحر صوفة، فسمّى حلف الفضول لفضله، وقد ذكره رسول الله ﷺ فقال: «شهدته وأما أحب أن لي به حُمْر النعم، ولا يزيد الإسلام إلا شدة»^(١)، وهذا التفسير أيضاً غير صحيح؛ لأن بني عبد الشمس لم يكونوا في حلف الفضول، فقد بان أن ما ذكره الواقدي أصح وأثبت.

قال الواقدي: ثم قال عتبة لابنه: قم يا وليد، فقام الوليد وقام إليه علي - وكان أصغر النفر - فاختلفا ضربتين، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم قام عتبة، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين، فقتله حمزة رضي الله عنه، ثم قام شيبة، وقام إليه عبيدة - وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله ﷺ - فضرب شيبة رجلاً عبيدة بذياب السيف، فأصاب عضلة ساقه، فقطعها وكرّ حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصف، ومخّ ساقه يسيل، فقال عبيدة: يا رسول الله، ألسْتُ شهيداً؟ قال: بلى، قال: أما والله لو كان أبو طالب حياً لعلم أنني أحق بما قال حين يقول:

كذبتُم وبيتِ الله تُخْلِي محمّداً ولَمّا نطاعنْ دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ونزلت فيهم هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ أَحْصَمُوا فِي رَيْبِهِمَا﴾^(٢).

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارز عبيدة بن الحارث، وأن شيبة بارز حمزة بن عبد

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠/ ٤).

(٢) سورة الحج، الآية: ١٩.

المطلب، فقتل حمزة شيبه، لم يمهل أن قتله، ولم يمهل عليّ الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعليّ عليه السلام على عتبة بأسياهما، حتى وقعا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف.

قلت: وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه، إذ يقول لمعاوية: وعندي السيف الذي أعضضت به أخاك وخالك وجدك يوم بدر. ويقول في موضع آخر: قد عرفت مواقع نصاليها في أخيك وخالك وجدك، وما هي من الظالمين ببعيد. واختار البلاذري رواية الواقدي: وقال: إن حمزة قتل عتبة، وإن علياً عليه السلام قتل الوليد، وشرك في قتل شيبه.

وهذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السنن؛ لأن شيبه أسن الثلاثة، فجعل بإزاء عبيدة وهو أسن الثلاثة، والوليد أصغر الثلاثة سنًا، فجعل بإزاء عليّ عليه السلام، وهو أصغر الثلاثة سنًا، وعتبة أوسطهم سنًا، فجعل بإزاء حمزة وهو أوسطهم سنًا. وأيضاً فإن عتبة كان أمثل الثلاثة، فمقتضى القياس أن يكون قرنه أمثل الثلاثة، وهو حمزة إذ ذاك؛ لأن علياً عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جداً، وإنما اشتهر الشهرة التامة بعد بدر. ولمن روي أن حمزة بارز شيبه - وهي رواية ابن إسحاق - أن يتصر بشعر هند بنت عتبة ترثي أباها:

أعينني جواداً بدمع سرب على خير خنذف لم ينقلب
تداعى له رهطه قُضرة بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حرّ أسياهم يعلمونه بعد ما قد عطب

فإذا كانت قد قالت إن عتبة أباها أذاقه بنو هاشم وبنو المطلب حرّ أسياهم، فقد ثبت أن المبارز لعتبة إنما هو عبيدة لأنه من بني المطلب جرح عتبة، فأثبتته ثم ذفّف عليه حمزة وعليّ عليه السلام. فاما الشيعة، فإنها تروي أن حمزة بادر عتبة فقتله، وأن اشتراك عليّ وحمزة إنما هو في دم شيبه بعد أن جرحه عبيدة بن الحارث، هكذا ذكر محمد بن النعمان في كتاب «الإرشاد»، وهو خلاف ما تنطق به كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية، والأمر عندي مشتبّه في هذا الموضع.

وروي محمد بن النعمان، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه كان يذكر يوم بدر ويقول: اختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتين، فأخطأني ضربته، وأضر به فاتقاني بيده اليسرى، فأبانها السيف، فكأنني أنظر إلى وميض خاتم في شماله، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته، فرأيت به الرذع من خلوق، فعلمت أنه قريب عهد بعرس^(١).

(١) أنظر مغازي الواقدي: ٦٤ - ٦٥.

قال الواقدي: وقد روي أن عتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز، قام إليه ابنه أبو حذيفة بن عتبة يبارزه، فقال له النبي ﷺ: «اجلس»، فلما قام إليه النفر أعان أبو حذيفة على أبيه عتبة بضربة.

قال الواقدي: وأخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: شيبة أكبر من عتبة بثلاث سنين، وحمزة أسن من النبي ﷺ بأربع سنين، والعباس أسن من النبي ﷺ بثلاث سنين.

قال الواقدي: واستفتح أبو جهل يوم بدر، فقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعلم، فأجبه الغداة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِخُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾^(١) الآية.

قال الواقدي: وروي عروة عن عائشة أن النبي ﷺ جعل شعار المهاجرين يوم بدر: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبد الله.

قال: ورؤي زيد بن علي بن الحسين ﷺ، أن شعار رسول الله ﷺ كان يوم بدر: يا منصور أمث.

قال الواقدي: ونهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري، وكان قد لبس السلاح بمكة يوماً قبل الهجرة في بعض ما كان ينال النبي ﷺ من الأذى، وقال: لا يعرض اليوم أحدٌ لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح. فشكر ذلك له النبي ﷺ. قال أبو داود المازني: فلحقته يوم بدر، فقلت له: إن رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلك إن أعطيت بيدك، قال: وما تريد إلي؟ إن كان قد نهى عن قتلي، فقد كنت أبلبته ذلك، فأما أن أعطي بيدي، فواللوات والعزى لقد علمت نسوة بمكة أنني لا أعطي بيدي، وقد عرفت أنك لا تدعني، فافعل الذي تريد. فرماه أبو داود بسهم، وقال: اللهم سهمك، وأبو البختري عبدك، فضعه في مقلته: وأبو البختري دارع، ففتق السهم الدرع فقتله.

قال الواقدي: ويقال إن المجذّر بن زياد قتل أبا البختري ولا يعرفه، وقال المجذّر في ذلك شعراً عُرِف منه أنه قاتله.

وفي رواية محمد بن إسحاق، أن رسول الله ﷺ نهى يوم بدر عن قتل أبي البختري، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى؛ لأنه كان أكف الناس عن رسول الله ﷺ بمكة، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم، فلقبه المجذّر بن زياد البلوي حليف الأنصار، فقال

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٩.

له: إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتلك، ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة يقال له جُنادة بن مُلَيْحة، فقال أبو البختري: وزميلي! قال المجذّر: والله ما نحن بتاركي زميلك، ما نهانا رسول الله ﷺ إلا عنك وحدك، قال: إذاً والله لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة، فنازله المجذّر. وارتجز أبو البختري فقال:

لن يُسَلِّم ابن حرة زميلُكَ حتى يموت أو يرى سبيْلَهُ

ثم اقتتلا، فقتله المجذّر، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، وقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيك به، فأبى إلا القتال فقاتلته فقتلته.

قال الواقدي: ونهى النبي ﷺ عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل، وقال: ائسروه ولا تقتلوه، وكان كارهاً للخروج إلى بدر، فلقبه خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه، فبلغ النبي ﷺ ذلك، فقال: لو وجدته قبل أن يقتل لتركته لنسائه. ونهى عن قتل زُمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع، ولا يعرفه.

قال الواقدي: وارتجز عدي بن أبي الزغباء يوم بدر، فقال:

أنا عديّ والسَّحْلُ أمشي بها مَشْيَ الْفَحْلِ

يعني درعه. فقال النبي ﷺ: «مَنْ عديّ؟» فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: وماذا؟ قال: ابن فلان، قال: لست أنت عديّاً، فقال عدي بن أبي الزغباء: أنا يا رسول الله عديّ، قال: وماذا؟ قال: «السَّحْلُ، أمشي بها مَشْيَ الْفَحْلِ»، قال النبي ﷺ: وما السَّحْلُ، قال: درعي، فقال ﷺ: «نعم العديّ، عدي بن أبي الزغباء»^(١).

قال الواقدي: وكان عقبة بن أبي مُعَيْط قال بمكة حين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة:

يا راكب الناقة القُضواءِ هاجِرنا عَمَّا قَلِيلٍ تراني راكِبَ الْفَرَسِ
اعِلْ رُمَحِي فيكم ثم أَنهْلُهُ وَالسَّيْفُ يأخذ منكم كلَّ ملْتَبِسِ

فبلغ قوله النبي ﷺ، فقال: «اللهم اكبه لمنخره واصرعه»^(٢)، فجمع به فرسه يوم بدر بعد أن ولّى الناس، فأخذه عبد الله بن سلمة العَجْلاني أسيراً، وأمر النبي ﷺ عاصم بن أبي الأقلح، فضرب عنقه صَبْرًا.

قال الواقدي: وكان عبد الرحمن يحدث يقول: إني لأجمع أدراعاً يوم بدر، بعد أن ولّى الناس، فإذا أمية بن خلف - وكان ليس صديقاً في الجاهلية، وكان اسمي عبد عمرو، فلما جاء الإسلام تسميت عبد الرحمن، فكان يلقاني بمكة فيقول: يا عبد عمرو، فلا أجيبه، فيقول: أن

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣٥/١٩.

لا أقول لك عبد الرحمن، إنّ مسيلمة باليمامة تسمى بالرحمن، فانا لا أدعوك إليه، فكان يدعوني عبد الإله، فلما كان يوم بدر رأيته وكأنه جمل يُساق، ومعه ابنه عليّ، فناداني: يا عبد عمرو، فأبيت أن أجيبه، فناداني: يا عبد الإله، فأجبت، فقال: أما لكم حاجة في اللبن؟ نحن خير لك من أدرعك هذه، فقلت: امضيا فجعلت أسوقهما أمامي، وقد رأى أمية أنه قد أمن بعض الأمن، فقال لي أمية: رأيت رجلاً فيكم اليوم معلماً في صدره بريشة نعامة، من هو؟ فقلت: حمزة بن عبد المطلب فقال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل! ثم قال: فمن رجلٌ دحداح قصير معلّم بعصابة حمراء؟ قلت: ذاك رجل من الأنصار، يقال له: سيماك بن خرشة، قال: وبذاك أيضاً يا عبد الإله صرنا اليوم جَزْراً لكم! قال: فينا هو معي أزجيه أمامي، ومعه ابنه، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجينة له، فترك العجين، وجعل يفتل يديه منه فتلاً ذريعاً، وهو ينادي: يا معشر الأنصار، أمية بن خلف رأس الكفر! لا نجوت إن نجوت - قال: لأنه كان يعذبه بمكة، فأقبلت الأنصار كأنهم عودٌ حنّت إلى أولادها، حتى طرحوا أمية على ظهره، واضطجعت عليه أحبيه منهم، فأقبل الخبّاب بن المنذر، فأدخل سيفه، فاقتطع أرنبة أنفه، فلما فقد أمية أنفه، قال لي: إيهأ عنك! أي خلّ بيني وبينهم، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان:

أَوْ عَنْ ذَلِكَ الْأَنْفِ جَادُغْ

قال: ويقبل إليه خبيب بن يساف، فضربه حتى قتله، وقد كان أمية ضرب خبيب بن يساف حتى قطع يده من المنكب، فأعادها النبي ﷺ فالتحمت واستوت، فتزوج خبيب بن يساف بعد ذلك ابنة أمية بن خلف، فرأت تلك الضربة، فقالت: لا يشلّ الله يد رجلٍ فعل هذا! فقال خبيب: وأنا والله قد أوردته شعوب، فكان خبيب يحدث يقول: فأضربه فوق العاتق، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتزره، وعليه الدرع، وأنا أقول: خذها وأنا ابن يساف! وأخذت سلاحه ودرعه، وأقبل عليّ ابن أمية فتعرض له الخبّاب، فقطع رجله، فصاح صيحة ما سمع مثلها قط، ولقيه عمار فضربه ضربة فقتله. ويقال: إن عماراً لاقاه قبل ضربة الخبّاب، فاختلفا ضربات، فقتله عمار. والأولى أثبت، أنه ضربه بعد أن قطعت رجله.

قال الواقدي: وقد سمعنا في قتل أمية غير ذلك، حدثني عبيد بن يحيى، عن معاذ بن رفاع، عن أبيه، قال: لما كان يوم بدر وأخذنا بأمية بن خلف، وكان له فيهم شأن، ومعي رمحي، ومعه رمحه، فتطاعنا حتى سقطت أزجتها، ثم صرنا إلى السيفين فتضاربنا بهما حتى انثلما، ثم بصرت بفتق في درعه تحت إبطه، فحششت السيف فيه حتى قتلت، وخرج السيف عليه الودك.

قال الواقدي: وقد سمعنا وجهاً آخر: حدثني محمد بن قدامة بن موسى، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة، قالت: قال صفوان بن أمية بن خلف يوماً: يا قدام - لقدامة بن مظعون -

أنت المشلي بأبي يوم بدر الناس! فقال قدامة: لا والله ما فعلت، ولو فعلت ما اعتذرت من قتل مشرك. قال صفوان: فمن يا قدام المشلي به يوم بدر؟ قال: رأيت فتية من الأنصار أقبلوا إليه، فيهم معمر بن خبيب بن عبيد الحارث، يرفع سيفه ويضعه فيه، فقال صفوان: أبو قردا! وكان معمر رجلاً دميماً، فسمع بذلك الحارث بن حاطب، فغضب له، فدخل على أم صفوان، فقال: ما يدعنا صفوان من الأذى في الجاهلية والإسلام! قالت: وما ذاك؟ فأخبرها بمقالة صفوان لمعمر حين قال: أبو قردا! فقالت أم صفوان: يا صفوان، أنتقص معمر بن خبيب من أهل بدر! والله لا أقبل لك كرامة سنة. قال صفوان: يا أمة، لا أعود والله أبداً، تكلمت بكلمة لم ألق لها بالاً.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن قدامة، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة، قالت: قيل لأم صفوان بن أمية - ونظرت إلى الخباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا عن ذكر من قُتل على الشرك، قد أهان الله علياً بضربة الخباب بن المنذر، وأكرم الله الخباب بضربته علياً، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك.

فأما محمد بن إسحاق، فإنه قال: قال عبد الرحمن بن عوف: أخذت بيد أمية بن خلف ويد ابنه علي بن أمية أسيرين يوم بدر، فبينما أنا أمشي بينهما، وأنا بلال - وكان أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة، يخرج به إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمره بالصخرة العظيمة فتوضع بحرارتها على صدره، ويقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد! فيقول بلال: أحدٌ أحد! لا يزيد علي ذلك - فلما رآه صاح: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجوت! قال عبد الرحمن: فقلت أي بلال، أسيري! فقال: لا نجوت إن نجا، فقلت: استمع يا ابن السوداء، قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، أمية بن خلف رأس الكفر، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المُسكة، وأنا أذب عنه، ويحذف عمار بن ياسر علياً ابنه بالسيف، فأصاب رجله، فوقع وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلاً قط، فخلّيت عنه، وقلت: انج بنفسك ولا نجاء به! فوالله ما أغني عنك شيئاً، قال: فهبروهما بأسيا فهم حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن بن عوف، يقول: رجم الله بلالاً! أذهب أدرعي، وفجعني بأسيري^(١)!

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣٦/١٩.

قال الواقدي: وكان الزبير بن العوام يحدث فيقول: لما كان يومئذ لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص على فرس، عليه لامة كاملة لا يرى منه إلا عيناه، وهو يقول - وكانت له صبية صغيرة، يحملها وكان لها بطين وكانت مقسمة: أنا أبو ذات الكرش، أنا أبو ذات الكرش. قال: وفي يدي عنزة^(١) فاطمن بها في عنيه ووقع، وأطوه برجلي على خذه، حتى أخرجت العنزة متعققة^(٢)، وأخرجت حدقته، وأخذ رسول الله ﷺ تلك العنزة، فكانت تجمل بين يديه، ثم صارت تحمل بين يدي أبي بكر وعمر وعثمان.

قال الواقدي: وأقبل عاصم بن أبي عوف بن صبيحة السهمي، لما جال الناس واختلطوا، وكأنه ذئب، وهو يقول: يا معشر قريش، عليكم بالقاطع مفرق الجماعة، الآتي بما لا يعرف، محمد، لانجوث إن نجا! ويعترضه أبو دجانة، فاختلفا ضربتين، ويضربه أبو دجانة فقتله، ووقف على سلبه يسلبه، فمر به عمر بن الخطاب، فقال: دع سلبه حتى يجهض العدو، وأنا أشهد لك به.

قال الواقدي: ويقبل معبد بن وهب، أحد بني عامر بن لؤي، فضرب أبا دجانة ضربة برك منها أبو دجانة كما يبرك الجمل، ثم انتهض، وأقبل على معبد، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئاً، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها، ونزل أبو دجانة عليه، فذبحه ذبحاً، وأخذ سلبه.

قال الواقدي: ولما كان يومئذ، ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل، قالت: أبو الحكم! لا يخلص إليه، فإن ابني ربيعة عاجلاً وبطراً: ولم تحام عنهما عشيرتهما. فاجتمعت بنو مخزوم، فأحدقوا به، فجعلوه في مثل الحرجة، وأجمعوا أن يلبسوا لامة أبي جهل رجلاً منهم، فالبسوها عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعه، فصمد له علي بن أبي طالب، فقتله وهو يراه أبا جهل، ومضى عنه وهو يقول: أنا ابن عبد المطلب! ثم البسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، فصمد له حمزة وهو يراه أبا جهل، فضربه فقتله وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب! ثم البسوها حرملة بن عمرو، فصمد له علي بن أبي طالب فقتله، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم، فأبى أن يلبسها، قال معاذ بن عمرو بن الجموح: فنظرت يومئذ إلى أبي جهل في مثل الحرجة، وهم يقولون: أبو الحكم! لا يخلص إليه، فعرفت أنه هو، فقلت: والله لأموتنّ دونه اليوم أو لأخلصنّ إليه، فصمدت له، حتى إذا أمكنتني منه غرة حملت عليه، فضربته ضربة طرحت رجله من الساق، فشبهتها النواة تنزو من تحت المراضخ، فأقبل ابنه عكرمة علي فضربني على عاتقي، فطرح يدي من العاتق، إلا أنه بقيت جلدة، فذهبت أسحب يدي بتلك الجلدة خلفي،

(١) العنزة: رُميح بين العصا والرمح، القاموس المحيط، مادة (عنز).

(٢) أي ملتوية، القاموس المحيط، مادة (عقف).

فلما آذنتني وضعت عليها رجلي، ثم تمطيت عليها فقطعتها، ثم لاقيت عكرمة وهو يلوذ كل ملاذ، ولو كانت يدي معي لرجوت يومئذ أن أصيبه. ومات معاذ في زمن عثمان.

قال الواقدي: فروي أن رسول الله ﷺ نقل معاذ بن عمرو بن الجموح سيف أبي جهل، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم وبه قل، بعد أن أرسل النبي ﷺ إلى عكرمة بن أبي جهل، يسأله: من قتل أباك؟ قال: الذي قطعت يده، فدفع رسول الله ﷺ سيفه إلى معاذ بن عمرو؛ لأن عكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر.

قال الواقدي: وما كان بنو المغيرة يشكون أن سيف أبي الحكم صار إلى معاذ بن عمرو بن الجموح، وأنه قاتله يوم بدر.

قال الواقدي: وقد سمعت في قتله وأخذ سلبه غير هذا، حدثني عبد الحميد بن جعفر، عن عمر بن الحكم بن ثوبان، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: عبأنا رسول الله ﷺ بليل، فأصبحنا ونحن على صُفوفنا، فإذا بغلامين، ليس منهما واحد إلا قد ربطت حمائل سيفه في عنقه لصغره، فالتفت إلي أحدهما، فقال: يا عم، أيهم أبو جهل؟ قال: قلت: وما تصنع به يا ابن أخي؟ قال: بلغني أنه سب رسول الله ﷺ، فحلفت: لئن رأيته لأقتله أو لأموتن دونه. فأشرت إليه، فالتفت إلي الآخر، وقال لي مثل ذلك، فأشرت له إليه، وقلت له: من أنتما؟ قالوا: ابنا الحارث، قال: فجعللا لا يطرفان عن أبي جهل، حتى إذا كان القتال خلصا إليه فقتلاه وقتلهما.

قال الواقدي: فحدثني محمد بن عوف، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت، قال: لما كان يومئذ، قال عبد الرحمن، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله: ليته كلالا إلى جنبي من هو أبدن من هذين الصبيين! فلم أنشب أن التفت إلى عوف، فقال: أيهم أبو جهل؟ فقلت: ذاك حيث ترى، فخرج يعدو إليه كأنه سبُع، ولحقه أخوه، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف، ثم نظرت إلى رسول الله ﷺ يمر بهم في القتلى، وهما إلى جانب أبي جهل.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن رفاعه بن ثعلبة، قال: سمعت أبي ينكر ما يقول الناس في ابني عَفْرَاء من صغرهما، ويقول: كانا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة، فهذا يربط حمائل سيفه! قال الواقدي: والقول الأول أثبت.

وروي محمد بن عمار بن ياسر، عن رُبَيْع بنت معوذ، قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء أم أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعطير من اليمن، فكانت تبيعه إلى الأعطية، فكنا نشترى منها، فلما جعلت لي في قواريري، ووزنت لي كما وزنت لصواحيبي، قال: اكتبن لي عليكن حقي، قلت: نعم، اكتب لها على الرُبَيْع بنت معوذ، فقالت: أسماء خلفي: وإنك لابنة قاتل سيده! فقلت: لا، ولكن ابنة قاتل

عبده، فقالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: أنا والله لا أشتري منك أبداً، فوالله ما هو بطيب ولا عَرَف، والله يا بني ما شممت عطراً قط كان أطيب منه، ولكني يا بني غضبت.

قال الواقدي: فلما وضعت الحرب أوزارها، أمر رسول الله ﷺ أن يلتبس أبو جهل، قال ابن مسعود: فوجدته في آخر رَمَق، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: الحمد لله الذي أخزأك! قال: إنما أخزى الله العبد ابن أم عبد! لقد ارتقيت يا رويي الغنم مرتقى صعباً! لمن الذبيرة^(١)؟ قلت: لله ولرسوله، قال ابن مسعود: فأقلع بيضته عن قفاه، وقلت: إني قاتلك، قال: لست بأول عبد قتل سيده، أما إن أشد ما لقيته اليوم لقتلك إيتاي، ألا يكون ولّي قتلي رجل من الأحلاف أو من المطيبين! قال: فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه، ثم سلبه، وأقبل بسلاحه ودرعه وبيضته، فوضعها بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: أبشِر يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل! فقال رسول الله: «أحقاً يا عبد الله! فوالذي نفسي بيده لهو أحب إلي من حُمُر النعم»^(٢)! أو كما قال. ثم قال: إنه أصابه جَحَش من دفع دفعته في مأدبة ابن جُدعان، فجعشت ركبته فالتمسوه؟ فوجدوا ذلك الأثر.

قال الواقدي: وروي أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي كان عند النبي ﷺ تلك الساعة، فوجد في نفسه، وأقبل على ابن مسعود، وقال: أنت قتله؟ قال: نعم، الله قتله! قال أبو سلمة: أنت ولّيت قتله؟ قال: نعم، قال: لو شاء لجعلك في كُفّه! فقال ابن مسعود: فقد والله قتله وجردته، فقال أبو سلمة: فما علامته؟ قال: شامة سوداء بطن فخذ اليمنى، فعرف أبو سلمة النّعت، فقال: أجردته، ولم يجرد قرشي غيره! فقال ابن مسعود: إنه والله لم يكن في قریش ولا في حلفائها أحد أعدى لله ولا لرسوله منه، وما أعذر من شيء صنعت به. فأمسك أبو سلمة.

قال الواقدي: سُمع أبو سلمة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه في أبي جهل، وقال: اللهم إنك قد أنجزت ما وعدتني، فتمم علي نعمتك. قال: وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود، يقول: سيف أبي جهل عندنا محلى بفضة، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذ.

قال الواقدي: اجتمع قول أصحابنا أن معاذ بن عمرو وابني عَفراء أثبتوه، وضرب بن مسعود عنقه في آخر رَمَق، فكل شرك في قتله.

قال الواقدي: وقد روي أن رسول الله ﷺ وقف على مصرع ابني عَفراء، فقال: «يرحم الله ابني عَفراء، فإنهما قد شركا في قتل فرعون هذه الأمة»^(٣)، ورأس أئمة الكفر، فقيل: يا

(١) الظفر والنصرة. اللسان، مادة (دبر).

(٢) أخرج أحمد قريباً منه، كتاب: المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٨٤٦).

(٣) لم أجده.

رسول الله ومن قتلته معهما؟ قال: الملائكة، وذُفِّفَ عليه ابن مسعود، فكان قد شرك في قتله.
قال الواقدي: وحدثني معمر، عن الزهري، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم اكفني نوفل بن العديّة» وهو نوفل بن خويلد، من بني أسد بن عبد العزى - وأقبل نوفل يومئذ يصيح وهو مرعوب، قد رأى قتل أصحابه، وكان في أول ما التقوا هم والمسلمون، يصيح بصوت له زجل، رافعاً عقيرته: يا معشر قريش، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة. فلما رأى قريشاً قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار: ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون من تقتلون؟ أما لكم في اللبن من حاجة! فأسره جبار بن صخر، فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار، ورأى علياً عليه السلام مقبلاً نحوه: يا أخا الأنصار، من هذا واللات والعزى! إني لأرى رجلاً، إنه ليريدني قال جبار: هذا علي بن أبي طالب، قال نوفل: تالله ما رأيتُ كالיום رجلاً أسرع في قومه! فصمد له علي عليه السلام فيضربه فينشب سيف علي في حَجَفَتِه ساعة، ثم ينزعه فيضرب به ساقه، ويدّزعه مشتمرة، فيقطعها، ثم أجهز عليه فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «من له علم بنوفل بن خويلد؟» قال علي عليه السلام: أنا قتلته، فكبر رسول الله ﷺ، وقال: «الحمد لله الذي أجاب دهوتي فيه»^(١).

قال الواقدي: وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال، فالتقى هو وعلي عليه السلام، وقتله علي، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص: مالي أراك معرضاً، تظن أني قتلت أباك! فقال سعيد: لو قتلته لكان على الباطل وكنت على الحق، قال: فقال عمر: إن قريشاً أعظم الناس أحلاماً، وأكثرها أمانة، لا يبغيهم أحدُ الغوائل إلا كَبِهَ اللهَ لفيه.
قال الواقدي: وروي أن عمر قال لسعيد بن العاص: مالي أراك معرضاً كأنني قتلت أباك يوم بدر، وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك، لقد قتلت خالي بيدي العاص بن هاشم بن المغيرة.

ونقلت من غير كتاب الواقدي أن عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيام خلافته، فجلس سعيد بن العاص حَجْرَةً فنظر إليه عمر، فقال: مالي أراك مُعْرِضاً كأنني قتلت أباك! إني لم أقتله، ولكنه قتله أبو حسن! وكان علي عليه السلام حاضراً، فقال: اللهم غُفْراً! ذهب الشُّرك بما فيه، ومحا الإسلام ما قبله، فلماذا تهاجُ القلوب! فسكت عمر، وقال سعيد: لقد قتله كفاء كريم، وهو أحب إلي من أن يقتله من ليس من بني عبد مناف.

قال الواقدي: وكان علي عليه السلام يحدث، فيقول: إني يومئذ بعد ما متع النهار، ونحن

(١) أخرج بمعناه أحمد عن عبد الله بن مسعود، مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٨٤٦).

والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم، خرجت في إثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كتيب رمل وسعد بن خيثمة، وهما يقتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة، والمشرك مقتنع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه، فعرفني وهو معلّم، فناداني: هلم يا ابن أبي طالب إلى البراز! فعطفت إلى البراز، فعطفت عليه، فانحط إليّ مقبلاً، وكنت رجلاً قصيراً، فانحطت واجعاً لكي يتزل إليّ، كرهت أن يعلنوني، فقال: يا ابن أبي طالب، فورت! فقلت: قريباً مفرّ ابن الشتراء. فلما استقرت قدماي وثبت أقبلي فأتقيت فلما دنا مني ضربني بالدرقة، فوقع سيفه، فلجج^(١) فأضربه على عاتقه وهو دارع، فارتعش، ولقد قط سيفي درعه، فظننت أن سيفي سيقتله، فإذا يريق سيف من ورائي، فطأطأت رأسي، ويقع السيف، فأطرت فخف رأسه بالبيضة، وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فالتفت من ورائي، فإذا هو حمزة عتي، والمقتول طعيمة بن عدي.

قلت: في رواية محمد بن إسحاق بن يسار أن طعيمة بن عدي قتل علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم قال: وقيل: قتل حمزة.

وفي رواية الشيعة قتل علي بن أبي طالب شجرة بالرمح، فقال له: والله لا نخاصمنا في الله بعد اليوم أبداً، وهكذا روى محمد بن إسحاق.

وروى محمد بن إسحاق قال: وخرج النبي ﷺ من العريش إلى الناس منظر القتال، فحرض المسلمين وقال: «كلّ امرئ بما أصاب»، وقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل في جملة، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»^(٢). فقال عُمير بن الحُمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ! فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، ما يُضحكُ الرَّب من عبده؟ غمسه يده في العدو حاسراً^(٣). فنزع عوف درعاً كانت عليه وقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

قال الواقدي وابن إسحاق: وأخذ رسول الله ﷺ كفاً من البطحاء، فرماهم بها، وقال: شاهت الوجوه! اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم^(٤). فانهزم المشركون لا يلوون على شيء، والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون.

(١) لحج: أي نثب فيه فلم يخرج. اللسان، عادة (لحج).

(٢) أخرجه ابن حبان في الثقات (١/١٦٨)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/١٢١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩٤٩٩).

(٤) أخرجه نحوه ابن سعد في «الطبقات» (٢/١٥١).

قال الواقدي: وكان هيرة بن أبي وهب المخزومي لما رأى الهزيمة انخزل ظهره فقفر، فلم يستطيع أن يقوم، فاتاه أبو أسامة الجشمي حليفه، ففتق درعه واحتمله - ويقال: ضربه أبو داود المازني بالسيف فقطع درعه، ووقع لوجهه، وأخلد إلى الأرض، وجاوزه أبو داود وبصر به ابنا زهير الجشميان مالك، وأبو أسامة، وهما حليفاه، فذبا عنه حتى نجوا به، واحتمله أبو أسامة ومالك يذب عنه، حتى خلاصاه. فقال رسول الله ﷺ: «حماء كلباء الحليفان»^(١).

قال الواقدي: وحدثني عمر بن عثمان عن عكاشة بن محصن، قال: انقطع سيفي يوم بدر، فأعطاني رسول الله ﷺ عوداً، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين، ولم يزل ذلك السيف عند عكاشة حتى هلك.

قال: وقد روى رجال من بني عبد الأشهل عذة، قالوا: انكسر سيف سلمة بن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده من عراجين ابن طالب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد.

قال الواقدي: وأصاب حارثة بن سراقة، وهو يكرع في الحوض سهم غرّب من المشركين فوق في نحره، فمات، فلقد شرب القوم آخر النهار من دمه، وبلغ أمه وأخته - وهما بالمدينة مقتله - فقالت أمه: والله لا أبكي عليه، حتى يقدم رسول الله ﷺ فأسأله، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإن كان في النار بكيته لأعمر الله فأعولته! فلما قدم رسول الله ﷺ من بدر جاءت أمه إليه، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت موضع حارثة في قلبي، فأردت أن أبكي عليه، ثم قلت: لا أفعل حتى أسأل رسول الله ﷺ عنه، فإن كان في الجنة لم أبكه، وإن كان في النار بكيته فأعولته! فقال النبي ﷺ: «هُبِلَتْ: أجنة واحدة! إنها جنان كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى»^(٢)، قالت: فلا أبكي عليه أبداً.

قال الواقدي: ودعا رسول الله ﷺ حيثذ بماء في إناء، فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أم حارثة بن سراقة، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت، ثم أمرهما فتوضعتا في جُيوبهما، ثم رجعتا من عند النبي ﷺ، وما بالمدينة امرأتان أقرّ عينا منهما ولا أسر.

قال الواقدي: وكان حكيم بن حزام يقول: انهزمتنا يوم بدر، فجعلت أسعى وأقول: قاتل الله ابن الحنظلية! يزعم أن النهار قد ذهب، والله إن النهار لكما هو، قال حكيم: وما ذا بي إلا

(١) أنظر مغازي الواقدي: ٨٩ بتفاوت.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٦٧)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين باب: باقي المسند السابق (١٣٣٧٦)، والترمذي قريباً منه، كتاب التفسير (٣١٧٤).

حباً أن يأتي الليل فيقصر عنا طلب القوم، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بني العوام على جمل لهما، فقال عبد الرحمن لأخيه: انزل فاحمل أبا خالد، وكان عبيد الله رجلاً أعرج، لا رُجْلة به، فقال عبيد الله: إنه لا رُجْلة بي كما ترى، وقال عبد الرحمن: والله أن منه لا بد. ألا نحمل رجلاً، إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا، وإن عشنا حملنا كلنا! فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج، فحملاه، فكانوا يتعاقبون الجمل، فلما دنا من مكة وكان بمر الظهران، قال: والله لقد رأيتُ ما هنا أمراً ما كان يخرج على مثله أحد له رأي، ولكنه شؤون ابن الحنظلية! إن جزورا نحررت ما هنا فلم يبق خباء إلا أصابه من دمها. فقالا: قد رأينا ذلك، ولكن رأيناك وقومك قد مضيتُم فمضينا معكم، ولم يكن لنا معكم أمر.

قال الواقدي: فحدثني عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف، عن أبيه، قال: كانت الدروع في قريش كثيرة يومئذ، فلما انهزموا جعلوا يلْقونها، وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقون ما طرحوا، ولقد رأيتُ يومئذ التقطت ثلاث أدرع جئت بها أهلي، فكانت عندنا بعد، فزعم لي رجل من قريش - ورأى دِزْعاً منها عندنا فعرفها - قال: هذه دِزْع الحارث بن هشام.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن حميد، عن عبد الله بن عمرو بن أمية، قال: أخبرني من انكشف من قريش يومئذ منهزماً، وإنه ليقول في نفسه، ما رأيتُ مثل هذا فرّ منه إلا النساء!

قال الواقدي: كان قَبَاث بن أَشِيم الكنانيّ يقول: شهدت مع المشركين بدرّاً، وإني لأنظر إلى قُلة أصحاب محمد في عيني، وكثرة مَنْ معنا من الخيل والرجل، فانهزمتُ فيمن انهزم، فلقد رأيتُ وإني لأنظر إلى المشركين في كل وجه، وإني لأقول في نفسي: ما رأيتُ مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء! وصاحبني رجل، فبينما هو يسير معي إذا لحقنا من خلفنا، فقلت لصاحبي: أباك نهوض؟ قال: لا والله ما بي! قال وعُفِر وترفعت، فلقد صَبَّحت غَيْقَةً - قال: وغَيْقَةُ عن يسار السّقيّا بينها وبين الفرع ليلة وبين الفرع والمدينة ثمانية بُرْد - قبل الشمس، كنت هادياً بالطريق، ولم أسلك المحاج، وخفت من الطَّلَب فتَنَكَّبت عنها، فلقيني رجل من قومي بغَيْقَةٍ، فقال: ما وراءك؟ قلت: لا شيء؟ قُتِلْنَا وأسرنا وانهزمتنا، فهل عندك من حُمْلان؟ قال: فحملني على بعير، وزودني زاداً، حتى لقيت الطريق بالجُحفة، ثم مضيت حتى دخلت مكة، وإني لأنظر إلى الحَيْسَمَان بن حابس الخُزاعي بالغَميم، فعرفت أنه تقدم ينغي قريشاً بمكة، فلو أردت أن أسبقه لسبقته، فتَنَكَّبت عنه حتى سبقني ببعض النهار، فقدمت وقد انتهى إلى مكة خبير قتلاهم، وهم يلعنون الخُزاعي، ويقولون: ما جاءنا بخير! فمكثت بمكة، فلما كان بعد الخندق، قلت: لو قدمت المدينة، فنظرت ما يقول محمد! وقد وقع في قلبي الإسلام، فقدمت المدينة، فسألت عن رسول الله ﷺ، فقالوا: هو ذاك في ظل المسجد مع ملا من أصحابه، فاتيته وأنا لا أعرفه من بينهم، فسَلَّمْتُ فقال: يا قَبَاث بن أَشِيم، أنت القاتل يوم بدر: «ما رأيت

مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء! قلت: أشهد أنك رسول الله، وأن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قط وما ترممت به، إلا شيئاً حدثت به نفسي، فلو لا أنك نبي ما أطلعك الله عليه، هلم حتى أبايحك فأسلمت^(١).

قال الواقدي: وقد روي أنه لما توجه المشركون إلى بدر كان فتیان ممن تخلف عنهم بمكة سماراً يسمرون بذي طوى في القمر حتى يذهب الليل، يتناشدون الأشعار ويتحدثون، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً قريباً منهم ولا يرون القائل، رافعاً صوته يتغنى:

أزاد الحنيفيون بدراً مصيبة سينقضّ منها ركنٌ كسرى وقبصراً
أرنت لها صمّ الجبال وأفزعت قبائل ما بين الوتير فخبيراً
أجازت جبال الأخشبين وجردت حرائر يضربن الثرائب حُسراً

قال الواقدي: أنشدني، ورواه لي عبد الله بن أبي عبيدة، عن محمد بن عمار بن ياسر، قال: فاستمعوا الصّوت، فلا يروّن أحداً، فخرجوا في طلبه، فلم يروا أحداً، فخرجوا فرعين، حتى جازوا الحجر، فوجدوا مشيخة منهم جلة سماراً، فأخبروهم الخبر، فقالوا لهم: إن كان ما تقولون، فإن محمداً وأصحابه يسمون الحنيفة. قال: فلم يبق أحد من الفتیان الذين كانوا بذي طوى إلا وعك، فما مكثوا إلا ليلتين أو ثلاثاً، حتى قدم الحيسمان الخزاعي بخبر أهل بدر، ومن قتل منهم، فجعل يخبرهم، فيقول: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وقيل ابنا الحجاج وأبو البختري، وزمعة بن الأسود - قال: وصفوان بن أمية في الحجر جالس يقول: لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلم به! سلوه عني، فقالوا: صفوان بن أمية لك به علم؟ قال: نعم، هو ذاك في الحجر، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين، ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين، رأيتهما مقروئين في الجبال.

قال الواقدي: وبلغ النجاشي مقتل قريش وما ظفر الله به رسوله، فخرج في ثوبين أبيضين، ثم جلس على الأرض، ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فقال: أيكم يعرف بدراً؟ فأخبروه، فقال: أنا عارف بها، قد رعيْتُ الغنم في جوانبها، هي من الساحل على بعض نهار، ولكنني أردت أن أثبت منكم، قد نصر الله رسوله ببدر، فاحمدوا الله على ذلك. فقال بطارقه: أصلح الله الملك! إن هذا شيء لم تكن تصنعه، يريدون لبس البياض والجلوس على الأرض، فقال: إن عيسى ابن مريم كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً.

قال الواقدي: فلما رجعت قريش إلى مكة، قام فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش، لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنخ عليهم نائحة، ولا يندبهم شاعر، وأظهروا الجلد

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٧/٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٢).

والعزاء، فإنكم إذا نُحْتَم عليهم وبكىتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلتكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه، مع أن محمداً إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم، فتكون أعظم المصيبتين، ولعلكم تدركون ثأركم، فالذهن والنساء عليّ حرام حتى أغزو محمداً. فمكثت قريش شهراً لا يبيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة.

قال الواقدي: وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره، وقد كُيّد على مَنْ قتل من ولده، وكان يحب أن يبكي عليهم فتأبى عليه قريش ذلك، فكان يقول لغلامه بين اليومين: ويلك! احمل معي خمرأ، واسلك لي الفجّ الذي سلكه أبو حَكِيمَة - يعني زُمعة ولده المقتول ببدر - فباتي به غلامه على الطريق عند ذلك الفجّ فيجلس، فيسقيه الخمر حتى ينتشي، ثم يبكي على أبي حَكِيمَة وإخوته، ثم يحثي التراب على رأسه، ويقول لغلامه: ويحك! اكتم عليّ، فإني أكره أن تعلم بي قريش، إني أراها لم تجمع البكاء على قتلاها.

قال الواقدي: حدثني مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: قالت قريش حين رجعوا إلى مكة: لا تبكوا على قتلاكُم، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكُم، فيأرب بكم القوم، ألا فامسكوا عن البكاء. قال: وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده: زُمعة وعُقَيْل والحارث بن زُمعة، فكان يحب أن يبكي على قتلاه فيبنا هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلامه - وقد ذهب بصره -: انظر، هل بكت قريش على قتلاها! لعلّي أبكي على أبي حَكِيمَة - يعني زُمعة - فإن جوفني قد احترق، فذهب الغلام ورجع إليه، فقال: إنما هي امرأة تبكي على بغيرها قد أضلته، فقال الأسود:

تبكي أن يضل لها بغير	ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكرٍ ولكن	على بكرٍ تصاغرت الخدود
فبكي إن بكيت على عقيل	وبكي حارثاً أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي جميعاً	فما لأبي حَكِيمَة من نديد
على بدر سراة بني مُصَيَّب	ومخزوم ورهط أبي الوليد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يومٌ بدري لم يسودوا

قال الواقدي: ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة، فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك! فقالت: خلّاني^(١) أن أبكيهم، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ونساء بني الخزرج، لا والله حتى أثار محمداً وأصحابه، والذهن عليّ حرام إن دخل رأسي

(١) حبسني ومنعني. اللسان، مادة (حلا).

حتى نغزو محمداً! والله لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبي لبكيت، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثاري بعيني من قتلة الأحبة، فمكثت على حالها لا تقرب الدهن، ولا قربت فراش أبي سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد.

قال الواقدي: وبلغ نوفل بن معاوية الديلمي وهو في أهله - وقد كان شهد معهم بدرًا - أن قريشاً بكث على قتلاها، فقدم مكة، فقال: يا معشر قريش، لقد خفت أحلامكم، وسفه رأيكم، وأطعتم نساءكم، أمثل قتلاكم يبكي عليهم! هم أجل من البكاء، مع أن ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم، إلا أن تدركوا ثارك من عدوكم. فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه، فقال يا أبا معاوية، غلبت، والله ما ناحت امرأة من بني عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم، ولا بكاهم شاعر إلا نهيته حتى ندرك ثارنا من محمد وأصحابه، وإني لأنا الموتور الثائر، قتل ابني حنظلة، وسادة أهل هذا الوادي، أصبح هذا الوادي مقشعراً لفقدهم!

قال الواقدي: وحدثني معاذ بن محمد الأنصاري، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: لما رجع المشركون إلى مكة، وقد قتل صناديدهم وأشرفهم، أقبل عمير بن وهب بن عمير الجمحي حتى جلس إلى صفوان بن أمية في الحجر، فقال صفوان بن أمية: قُبِحَ العيش بعد قتلى بدر! قال عمير بن وهب: أجل والله، ما في العيش بعدهم خير، ولولا دين علي لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع لهم شيئاً، لرحلت إلى محمد حتى أقتله إن ملأت عيني منه، فإنه بلغني أنه يطوف في الأسواق، فإن لي عندهم علة، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير. ففرح صفوان بقوله، وقال: يا أبا أمية، وهل نراك فاعلاً؟ قال: إي ورب هذه البنية! قال صفوان: فعلني دينك، وعيالك أسوة عيالي، فأنت تعلم أنه ليس بمكة رجل أشد توسعاً على عياله مني. قال عمير: قد عرفت ذلك يا أبا وهب، قال صفوان: فإن عيالك مع عيالي، لا يسعني شيء ونعجز عنهم، ودينك علي. فحملة صفوان على بعيره، وجهزه وأجرى على عياله مثل ما يجري على عيال نفسه، وأمر عمير بسيفه فشجذ وسم، ثم خرج إلى المدينة، وقال لصفوان: اكتم علي أياماً حتى أقدمها، وخرج فلم يذكره صفوان.

وقدم عمير، فنزل على باب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف فتقلده، ثم عمد نحو رسول الله ﷺ، وعمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون، ويذكرون نعمة الله عليهم في بدر، فرأى عميراً وعليه السيف، ففرع عمر منه، وقال لأصحابه: دونكم الكلب! هذا عمير بن وهب عدو الله الذي حَرَّشَ بيننا يوم بدر، وحزرننا للقوم، وصعد فينا وصوب، يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين. فقاموا إليه فأخذوه، فانطلق عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد ومعه السلاح، وهو الغادر الخبيث الذي

لا يؤمن على شيء، فقال النبي ﷺ: «ادخله علي»، فخرج عمر فأخذ بحمائل سيفه، فقبض بيده عليها، وأخذ بيده الأخرى قائم السيف، ثم أدخله على رسول الله ﷺ، فلما رآه، قال: يا عمر، تأخر عنه، فلما دنا عمير إلى النبي ﷺ قال: أنعم صباحاً، فقال له النبي ﷺ: «قد أكرمنا الله عن تحيتك، وجعل تحيتنا السلام، وهي تحية أهل الجنة».

قال عمير: إن عهدك بها لحديث، فقال النبي ﷺ: «قد أبدلنا الله خيراً، فما أقدمك يا عمير؟» قال: قدمت في أسيري عندكم تفادونه وتقاربوننا فيه، فإنكم العشيرة، والأصل! قال النبي ﷺ: «فما بال سيف؟» قال عمير: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت من شيء! إنما نسيت حين نزلت وهو في رقبتي، ولعمري إن لي لهما غيره، فقال رسول الله ﷺ: «اصدق يا عمير، ما الذي أقدمك؟» قال: ما قدمت إلا في أسيري، قال ﷺ: «فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟» ففزع عمير، وقال: ماذا شرطت له؟ قال: تحملت بقتلي، على أن يقضي دينك، ويعول عيالك، والله حائل بينك وبين ذلك! قال عمير: أشهد أنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، كنّا يا رسول الله نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان كما قلت، لم يطلع عليه غيره وغيري، وقد أمرته أن يكتبه ليالي، فأطلعك الله عليه، فأمنت بالله ورسوله، وشهدت أن ما جئت به حق. الحمد لله الذي ساقني هذا المساق!

وفرّح المسلمون حين هداه الله، وقال عمر بن الخطاب: لخيرير كان أحب إليّ منه حين طلع، وهو الساعة أحب إليّ من بعض ولدي. وقال النبي ﷺ: «علّموا أخاكم القرآن، وأطلقوا له أسيرَه»^(١)، فقال عمير: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، فله الحمد أن هداني، فأذن لي فألحق قريشاً فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، فلعل الله يهديهم ويستقذهم من الهلكة، فأذن له فخرج، فلحق بمكة. وكان صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة، يقول: هل حدث بالمدينة من حدث؟ ويقول لقريش: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، فقدم رجل من المدينة، فسأله صفوان عن عمير، فقال: أسلم، فلعله صفوان ولعله المشركون بمكة، وقالوا: صبا عمير، وحلف صفوان ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه، وطرح عياله. وقدم عمير، فنزل في أهله، ولم يأت صفوان، وأظهر الإسلام، فبلغ صفوان. فقال: قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله، وقد كان رجل أخبرني أنه ارتكس، لا أكلمه من رأسي أبداً، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة أبداً، فوقع عليه عمير وهو في الحجر فقال: يا أبا وهب. فأعرض صفوان عنه، فقال عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرايت الذي كنّا عليه من عبادة حجر، والذبح

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٧)، والأصبهاني في «دلائل النبوة» (١/١٤١).

له! أهذا دين! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فلم يجبه صفوان بكلمة، وأسلم مع عمير بشر كثير.

قال الواقدي: وكان فتيّة من قريش خمسة قد أسلموا، فاحتبسهم آباؤهم، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر، وهم على الشك والارتياب، لم يخلصوا إسلامهم، وهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، فلما قدموا بدرأ ورأوا قلة أصحاب النبي ﷺ، قالوا: غر هؤلاء دينهم، ففيهم أنزل: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ﴾ (١) ﴿وَيُنْهَوْنَ﴾ (٢)، ثم أنزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (٣) إلى تمام ثلاث آيات.

قال: فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلماً، فقال جندب بن ضمرة الخزاعي: لا عذر لي ولا حجة في مقامي بمكة - وكان مريضاً - فقال لأهله: أخرجوني، لعلي أجد روحاً! قالوا: أي وجه أحب إليك؟ قال: نعم التنعيم! فخرجوا به إلى التنعيم، وبين التنعيم ومكة أربعة أميال من طريق المدينة - فقال: اللهم إني خرجت إليك مهاجراً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْنِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٤) الآية، فلما رأى ذلك من كان بمكة ممن يطيق الخروج، خرجوا فطلبهم أبو سفيان في رجال من المشركين، فردوهم وسجنوهم، فافتن منهم ناس، وكان الذين افتتنوا إنما افتتنوا حين أصابهم البلاء فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَذَابٍ لِيٍّ﴾ (٥) الآية وما بعدها.

فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من كان بمكة مسلماً، فلما جاءهم الكتاب بما أنزل فيهم، قالوا: اللهم إن لك علينا إن أفلتنا ألا نعدل بك أحداً، فخرجوا الثانية، فطلبهم أبو سفيان والمشركون، فأعجزوهم هرباً في الجبال، حتى قدموا المدينة، واشتد البلاء على من ردوا من المسلمين، فضربوهم وآذوهم وأكروهم على ترك الإسلام، ورجع ابن أبي سرح مشركاً، فقال لقريش: ما كان يعلم محمداً إلا ابن قمطة، عبد نصراني، لقد كنت أكتب له فأحول ما أردت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (٥) الآية.

اختلف المسلمون في ذلك، فقال الجمهور منهم: نزلت الملائكة حقيقة، كما ينزل الحيوان والحجر من الموضع العالي إلى الموضع السافل.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

وقال قوم من أصحاب المعاني غير ذلك.

واختلف أرباب القول الأول، فقال الأكثرون: نزلت وحاربت، وقال قوم منهم: نزلت ولم تحارب، وروى كل قوم في نُصرة قولهم روايات.

فقال الواقدي في كتاب «المغازي»: حدثني عمر بن عُقبة، عن شعبة مولى ابن عباس، قال: سمعت ابن عباس يقول: لما توافف الناس أغمي على رسول الله ﷺ ساعة، ثم كشف عنه فبشر المؤمنين بجبرائيل في جُند من الملائكة في ميمنة الناس، وبمكائيل في جند آخر في ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر في ألف، وكان إبليس قد تصور للمشركين في صورة سراقه بن جعشم المدلجي، يذمر المشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾^(١)، فتشبَّه به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقه لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر، ورفع يديه قائلاً: يا رب موعدك الذي وعدتني! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضهم على القتال وقال: لا يغرّنكم خذلان سراقه بن جعشم إياكم، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه، سيعلم إذا رجعنا إلى قُديد ما نصنع بقومه! ولا يهولنكم مقتل عُتبة وشيبة والوليد، فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا، وإيّم الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمداً وأصحابه في الجبال، فلا ألفين أحداً منكم قتل منهم أحداً، ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم بالذي صنعوا، لمفارقتهم دينكم ورغبتهم عما كان يعبد آباؤهم.

قال الواقدي: وحدثني عُتبة بن يحيى، عن معاذ بن رفاع بن رافع، عن أبيه، قال: إن كنا لنسمع لإبليس يومئذ خواراً ودعاء بالشُّبور والويل، وتصور في صورة سراقه بن جعشم حتى هرب، فاقتحم البحر، ورفع يديه ماداً لهما، يقول: يا رب ما وعدتني! ولقد كانت قریش بعد ذلك تعير سراقه بما صنع يومئذ، فيقول: والله ما صنعت شيئاً!

قال الواقدي: فحدثني أبو إسحاق الأسلمي، عن الحسن بن عبيد الله، مولى بني العباس، عن عمارة الليثي، قال: حدثني شيخ صياد من الحي - وكان يومئذ على ساحل البحر - قال: سمعت صياحاً: يا ويلاه! يا ويلاه! قد ملأ الوادي: يا حرباه يا حرباه! فنظرت فإذا سراقه بن جعشم، فدنوت منه، فقلت: مالك فداك أبي وأمي! فلم يرجع إليّ شيئاً، ثم أراه اقتحم البحر، ورفع يديه ماداً، يقول: يا رب ما وعدتني! فقلت في نفسي: جُنّ وبيت الله سراقه! وذلك حين زاغت الشمس، وذلك عند انهزامهم يوم بدر.

قال الواقدي: قالوا: كانت سيماء الملائكة عمائم قد أرخوها بين أكتافهم، خضراء وصفراء وحمراء من نور، والصوف في نواصي خيلهم.

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «إن الملائكة قد سومت فسوموا»^(١)، فأعلم المسلمون بالصوف في مغافيرهم وقلانسهم.

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح قال: كان أربعة من أصحاب محمد ﷺ يعلمون في الزحوف: حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلماً بريشة نعام، وكان علي عليه السلام معلماً بصوفة بيضاء، وكان الزبير معلماً بعصابة صفراء، وكان أبو دجانة يعلم بعصابة حمراء، وكان الزبير يحدث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير.

قال الواقدي: فروي عن سهيل بن عمرو، قال: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقبلون ويأسرون.

قال الواقدي: وكان أبو أسد الساعدي يحدث بعد أن ذهب بصره، ويقول: لو كنت معكم الآن بيدرومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أمترى! قال: وكان أسيد يحدث عن رجل من بني غفار حدثه، قال: أقبلت أنا وابن عم لي يوم بدر، حتى صعدنا على جبل، ونحن يومئذ على الشرك ننظر الوقعة على من تكون الدبرة فنتهب مع من ينتهب إذ رأيت سحابة دنت منا، فسمعت منها همهمة الخيل، وقعقة الحديد، وسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم! فأما ابن عمي، فأنكشف قناع قلبه، فمات، وأما أنا فكدت أهلك، فتماسكت وأثبتت بصري حيث تذهب السحابة، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وأصحابه: ثم رجعت، وليس فيها شيء مما كنت أسمع.

قال الواقدي: وحدثني خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه، قال: سأل رسول الله ﷺ جبرائيل: «مَنْ القائل يوم بدر: أقبل حيزوم؟» فقال جبرائيل: يا محمد، ما كل أهل السماء أعرف^(٢).

قال الواقدي: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، عن جده، عبيدة بن أبي عبيدة، عن أبي رهم الغفاري عن ابن عم له، قال: بينا أنا وابن عم لي على ماء بدر، فلما رأينا قلة من

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٦/٢).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره: ١٩٣/٤ لم أجده، وقد أخرج مسلم بمعناه، كتاب: الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة (١٧٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٩٣).

مع محمد وكثرة قريش، قلنا: إذا التقت الفشتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه، فانطلقنا نحو المجنبه اليسرى من أصحاب محمد، ونحن نقول: هؤلاء ربيع قريش، فبينما نحن نمشي في الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا، فرفعنا أبصارنا لها، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح وسمعنا قائلاً يقول لفرسه: «أقدم حيزوم»، وسمعناهم يقولون: «رويداً تتألم أخراكم»، فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبي ﷺ، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذا هم على الضعف من قريش، فمات ابن عمي، وأما أنا فتماسكت، وأخبرت النبي ﷺ بذلك، وأسلمت.

قال الواقدي: وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغضب منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يوم بدر». قيل: وما رأى يا رسول الله يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل يوزع الملائكة»^(١). قال: وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال يومئذ: «هذا جبرائيل يسوق بريح، كأنه دخية الكلبى، إني نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(٢).

قال الواقدي: وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: رأيت يوم بدر رجلين، أحدهما عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر عن يساره، يقاتلان أشد القتال، ثم ثلثهما ثالث من خلفه، ثم رتبهما رابع أمامه.

قال: وقد روى سعد بن أبي وقاص مثل ذلك، قال: رأيت رجلين يوم بدر، يقاتلان عن النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وإني لأراه ينظر إلى ذا مرة، وإلى ذا مرة، سروراً بما فتحه الله تعالى.

قال الواقدي: وحدثني إسحاق بن يحيى، عن حمزة بن صهيب، عن أبيه، قال: ما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يذم كلّمها يوم بدر، قد رأيتها.

قال الواقدي: وروى أبو بريدة بن نيار، قال: جثت يوم بدر بثلاثة رؤوس فوضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فقتلتهم، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب: الحج، باب: جامع الحج (٩٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٦٩)، وابن عبد البر في «المهيد» (١/١١٥).

(٢) أخرجه الصالحى الشامي في سبل الهدى: ٤٠/٤، لم أجده، بجزئه الأول، أما جزءه الثاني: «نصرت بالصبا» أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة باب: قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا، ومسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: في ربح الصبا والدبور (٩٠٠).

أبيض ضربه فتدهده أمامه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك فلان من الملائكة»^(١).

قال الواقدي: وكان ابن عباس رحمه الله، يقول: لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر.

قال: وحديثي ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان الملك يتصور في صورة من يعرفه المسلمون من الناس ليثبتهم، فيقول: إني قد دنوت من المشركين، فسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا لهم، وليسوا بشيء، فاحملوا عليهم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢).

قال الواقدي: وحديثي موسى بن محمد، عن أبيه، قال: كان السائب بن أبي حبيش الأسدي يحدث في زمن عمر بن الخطاب، فيقول: والله ما أسرني يوم بدر أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها فيدركني رجل أبيض طويل، على فرس أبلق بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر: مَنْ أَسَرَ هَذَا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله ﷺ، فقال لي رسول الله: يا ابن أبي حبيش، مَنْ أَسَرَ؟ قلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله ﷺ: «أسره ملك من الملائكة كريم، اذهب يا ابن عوف بأسيرك»^(٣)، فذهب بي عبد الرحمن. قال السائب: وما زالت تلك الكلمة أحفظها، وتأخر إسلامي حتى كان من إسلامي ما كان.

قال الواقدي: وكان حكيم بن حزام، يقول: لقد رأيتنا يوم بدر، وقد وقع بوادي خلص بجاد من السماء قد سد الأفق - قال ووادي خلص ناحية الرؤيفة - قال: فإذا الوادي يسيل نملاً، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء أيده محمد، فما كانت إلا الهزيمة، وهي الملائكة.

قال الواقدي: وقد قالوا: إنه لما التحم القتال، ورسول الله ﷺ رافع يديه يسأل الله النصر وما وعده، ويقول: «اللهم إن ظهرت علي هذه العصاة، ظهر الشرك، ولا يقوم لك دين»، وأبو بكر يقول: والله لينصرتك الله وليبيضن وجهك، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، أبشِرْ، هذا جبرائيل معتكراً بعمامة صفراء، أخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض»^(٤)، ثم قال: إنه لما نزل الأرض تغيب عني ساعة، ثم طلع على ثيابه النقع، يقول: أتاكَ النصر من الله إذ دعوته.

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٣ / ٣٤٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٣) أخرجه أبو جعفر الطبري في «الرياض النضرة» (٢ / ٣٥).

(٤) أخرجه أبو جعفر الطبري في «الرياض النضرة» (٢ / ٣٥)، والطبراني نحوه في «الكبير» (٢٣٠).

قال الواقدي: وحديثي موسى بن يعقوب، عن عمه، قال: سمعتُ أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، يقول: سمعت مَرْوان بن الحَكَم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدر، فجعل الشيخ يكره ذلك، حتى ألح عليه، فقال حكيم: التقينا فاقتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة في الطُّسْت، وقبض النبي ﷺ القبضة، فرمى بها فانهزمتنا.

قال الواقدي: وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير، قال: سمعتُ نوفل بن معاوية الدُولي، يقول: انهزمتنا يوم بَدْر، ونحن نسمع كوقع الحصا في الطُّسَّاس بين أيدينا ومن خلفنا، فكان ذلك أشدَّ الرَّعب علينا.

فأما الذين قالوا: نزلت الملائكة ولم تقاتل، فذكر الزمخشري في كتابه في تفسير القرآن المعروف «بالكشاف» أن قوماً أنكروا قتال الملائكة يوم بَدْر، وقالوا: لو قاتل واحد من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولا ستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته، فإن جبرائيل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط - كما جاء في الخبر - على خافقة من جناحه، حتى بلغ بها إلى السماء، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، فما عسى أن يبلغ قوة ألف رجل من قريش ليجتاح في مقاومتها وحربها إلى ألف ملك من ملائكة السماء مضافين إلى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من بني آدم! وجعل هؤلاء قوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ﴾^(١) أمراً للمسلمين لا أمراً للملائكة.

وروا في نصرة قولهم روايات، قالوا: وإنما كان نزول الملائكة ليكثرُوا سواد المسلمين في أعين المشركين، فإنهم كانوا يروّونهم في مبدأ الحال قليلين في أعينهم، كما قال تعالى: ﴿يَقْلِلُكُمْ﴾^(٢)، ليطمع المشركون فيهم ويجترؤوا على حربهم، فلما نشبت الحرب كثّروهم الله تعالى بالملائكة في أعين المشركين ليفرّوا ولا يثبتوا. وأيضاً فإن الملائكة نزلت وتصوّرت بصُور البشر الذين يعرفهم المسلمون، وقالوا لهم ما جرت العادة أن يقال مثله من تثبيت القلوب يوم الحرب، نحو قولهم: ليس المشركون بشيء، لا قوة عندهم، لا قلوب لهم، لو حملتم عليهم لهزمتهم... وأمثال ذلك.

ولقائل أن يقول: إذا كان قادراً على أن يقلل ثلاثمائة إنسان في أعين قريش حتى يظنّوهم مائة، فهو قادر على أن يكثرهم في أعين قريش بعد التقاء حَلَقَتِي البطان، فيظنّوهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائكة.

فإن قلت: لعل في إنزالهم لطفاً للمكلفين.

قلت: ولعل في محاربتهم لطفاً للمكلفين، وأما أصحاب المعاني فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره، ولهم في تأويله قول ليس هذا موضع ذكره.

في الغنيمة والأسرى بعد انتصار المسلمين في بدر

قال الواقدي: لما تصافت المشركون والمسلمون، قال النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسْرَأَ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»^(١)، فلما انهزم المشركون كان الناس ثلاث فرق، فرقة قامت عند خيمة رسول الله ﷺ - وكان أبو بكر معه في الخيمة - وفرقة أغارت على النهب تنتهب، وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا، فتكلم سعد بن معاذ - وكان ممن أقام على خيمة رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب العدو زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، ولكننا خفنا أن نعري موضعك، فيميل عليك خيل من خيل المشركين ورجال من رجالهم، وقد أقام عند خيمتك وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، والناس كثير، ومتى تُعط هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء، والقتلى والأسرى كثير، والغنيمة قليلة، فاختلفوا فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢) الآية، فرجع المسلمون، وليس لهم من الغنيمة شيء ثم أنزل الله فيما بعد: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَالرَّسُولِ...﴾^(٣) فقسمه عليهم بينهم.

قال الواقدي: وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جده عبادة بن الصامت، قال: سلمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول، ولم يخمس رسول الله ﷺ بدرأ، ونزلت بعد: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ بالمسلمين الخمس فيما كان من أول غنيمة بعد بدر. قال الواقدي: وقد روي عن أبي أسيد الساعدي مثله.

وروى عكرمة، قال: اختلف الناس في الغنائم يوم بدر، فأمر رسول الله ﷺ بالغنائم أن ترد في المقسم، فلم يبق منها شيء إلا رد. وظن أهل الشجاعة أنه ﷺ يخصص بها دون غيرهم من أهل الضعف، ثم أمر رسول الله ﷺ أن تقسم بينهم على سواء، فقال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله تعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك! وهل تُنصرون إلا بضعفائكم!»^(٤).

قال الواقدي: فروى محمد بن سهل بن خيثمة، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ترد الأسرى والأسلاب، وما أخذوا من المغنم، ثم أقرع بينهم في الأسرى، وقسم أسلاب المقتولين الذين يُعرف قاتلوهم بين قاتليهم، وقسم ما وجدته في العسكر بين جميع المسلمين عن فراق.

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب في النفل (٢٧٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢٥٩٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٦٧٥).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١. (٣) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٤) أخرجه أحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص (١٤٩٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٤٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٦٩١).

قال الواقدي: وحديثني عبد الحميد بن جعفر، قال: سألت موسى بن سعد بن زيد بن ثابت: كيف فعل النبي ﷺ يوم بدر في الأسرى والأسلاب والأنفال؟ فقال: نادى مناديه يومئذ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ، وَمَنْ أَسْرَ أَسِيرًا فَهُوَ لَهُ، وَأَمْرٌ بَمَا وَجَدَ فِي الْعَسْكَرِ وَمَا أَخَذَ بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَقَسَمَهُ بَيْنَهُمْ عَنْ فِرَاقٍ. فَقُلْتُ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ: فَلِمَنْ أُعْطِيَ سَلْبُ أَبِي جَهْلٍ؟ فَقَالَ: قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ أُعْطَاهُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْجَمُوحِ، وَقِيلَ: أُعْطَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ. قَالَ: وَأَخَذَ عَلِيٌّ ﷺ دِرْعَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ وَبِيضَتَهُ وَمِقْفَرَهُ، وَأَخَذَ حَمْزَةُ سِلَاحَ عُثْبَةَ، وَأَخَذَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ سِلَاحَ شَيْبَةَ، ثُمَّ صَارَ إِلَى وَرَثَتِهِ.

قال الواقدي: فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهماً؛ لأن الرجال كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم فرسان لهما أربعة أسهم، وقسم أيضاً فوق ذلك لثمانية أسهم، لم يحضروا، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم، ثلاثة من المهاجرين لا خلاف فيهم، وهم: عثمان بن عفان خلفه رسول الله ﷺ على ابنته رقية وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبشارة إلى المدينة، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل، بعثهما رسول الله ﷺ يتجسسان خبر العير. وخمسة من الأنصار هم: أبو لبابة بن عبد المنذر، خلفه على المدينة وعاصم بن عدي، خلفه على قباء وأهل العالية، والحارث بن حاطب أمره بأمر في بني عمرو بن عوف، وخوات بن جبير كسر بالروحاء، والحارث بن الصمة مثله، فلا اختلاف في هؤلاء. واختلف في أربعة غيرهم، فروي أنه ضرب لسعد بن عباد بسهمه وأجره، وقال: لئن لم يشهدا لقد كان فيها راغباً، وذلك أنه كان يحض الناس على الخروج إلى بدر، فنهش فمنعه ذلك من الخروج.

وروي أنه ضرب لسعد بن مالك الساعدي بسهمه وأجره، وكان تجهز إلى بدر، فمرض بالمدينة، فمات خلاف رسول الله ﷺ، وأصى إليه عليه السلام.

وروي أنه ضرب لرجلين آخرين من الأنصار ولم يستهما الواقدي وقال: هؤلاء الأربعة غير مجمع عليهم كإجماعهم على الثمانية.

قال: وقد اختلف: هل ضرب بسهم في الغنيمة لقتلى بدر؟ فقال الأكثرون: لم يضرب لهم، وقال بعضهم: بل ضرب لهم، حديثني ابن أبي سبرة، عن يعقوب بن زيد، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلاً. قال: وقد قال عبد الله بن سعد بن خيثمة: أخذنا سهم أبي الذي ضرب له رسول الله ﷺ حين قسم الغنائم، وحمله إلينا عويمر بن ساعدة. قال: وقد روى السائب بن أبي لبابة، أن رسول الله ﷺ أسهم لمبشر بن عبد المنذر، قال: وقد قدم بسهمه علينا معن بن عدي.

قال الواقدي: وكانت الإبل التي أصابوا يومئذ مائة وخمسين بعيراً، وكان معه أدم كثير،

حملوه للتجارة، فمنعه المسلمون يومئذ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء، فقال بعضهم: مالنا لا نرى القطيفة! ما نرى رسول الله ﷺ إلا أخذها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾^(١). وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، إن فلاناً غلّ قطيفة، فسأل رسول الله ﷺ الرجل، فقال: لم أفعل، فقال الدال: يا رسول الله، احفروا هاهنا، فحفروا فاستخرجت القطيفة، فقال قائل: يا رسول الله، استغفر لفلان مرتين، أو مراراً، فقال عليه السلام: دعونا من أبي حر.

قال الواقدي: وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس، وكان جمل أبي جهل فيما غنموه، فأخذه النبي ﷺ، فلم يزل عنده يضرب في إبله ويغزو عليه حتى ساقه في هذي الحديبية، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمائة بعير، فقال: لولا أنا سميتاه في الهذي لفعلنا.

قال الواقدي: وكان لرسول الله ﷺ صفي من الغنيمة قبل القسمة، فتنفل سيفه ذا الفقار، يومئذ، كان لمنبه بن الحجاج. وكان رسول الله ﷺ قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العضب.

قال: وسمعت ابن أبي سبرة، يقول: سمعت صالح بن كيسان، يقول: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر، وما معه سيف، وكان أول سيف قلده سيف منبه بن الحجاج غنمه يوم بدر.

وقال البلاذري: كان ذو الفقار للعاص بن منبه بن الحجاج، ويقال: لمنبه، ويقال لشيبة، والثبت عندنا أنه كان للعاص بن منبه.

قال الواقدي: وكان أبو أسيد الساعدي إذا ذكر الأرقم بن أبي الأرقم، يقول: ما يومي منه بواحد، فيقال: ما هذا هو؟ فيقول: أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يردوا يوم بدر ما في أيديهم من المغنم، فرددت سيف أبي عائد المخزومي - واسم السيف المرزبان، وكان له قيمة وقدر - وأنا أطمع أن يرد إلي، فكلّم الأرقم رسول الله ﷺ فيه - وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله - فأعطاه السيف. وخرج بني له يفعة، فاحتمله الغول، فذهبت به متوركة ظهراً، فقيل لأبي أسيد: وكانت الغيلان في ذلك الزمان؟ فقال: نعم، ولكنها قد هلكت، فلقي بني الأرقم بن أبي الأرقم، فبهش إليه باكياً مستجيراً به، فقال: من أنت؟ فأخبره، فقالت الغول: أنا حاضنته، فلها عنه والصبي يكذبها، فلم يعرج عليه حتى الساعة، فخرج من داري فرس لي، فقطع راسه، فلقيه الأرقم بالغابة فركبه، حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إلي أنه أفلت مني، فلم أقدر عليه حتى الساعة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

قال: وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ يوم بدر سيف العاص بن منبه، فأعطاه، قال: وأخذ ﷺ ممالك حضروا بدرأ، ولم يسهم لهم وهم ثلاثة أعبد، غلام لحاطب بن أبي بلتعة، وغلام لعبد الرحمن بن عوف، وغلام لسعد بن معاذ، واستعمل ﷺ شقران غلامه على الأسرى، فأخذوا من كل أسير ما لو كان حراً ما أصابه في المقسم.

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: رميت سهيل بن عمرو يوم بدر فقطعت نساءه، فاتبعت أثر الدم حتى وجدته قد أخذه مالك بن الدخشم، وهو ممسك بناصيته، فقلت: أسيري رميته! فقال: أسيري أخذته! فأتينا رسول الله ﷺ فأخذه منا جميعاً، وأفلت سهل الروحاء، فصاح ﷺ بالناس، فخرجوا في طلبه، فقال ﷺ: مَنْ وجدته فليقتله، فوجده هو ﷺ فلم يقتله.

قال الواقدي: وأصاب أبو بردة بن نيار أسيراً من المشركين، يقال له معبد بن وهب، من بني سعد بن ليث فلقبه عمر بن الخطاب وكان عمر يحض على قتل الأسرى، لا يرى أحداً في يديه أسير إلا أمر بقتله، وذلك قبل أن يتفرق الناس، فلقبه معبد وهو أسير مع أبي بردة، فقال: أترون يا عمر أنكم قد غلبتم! كلاً واللات والعزى! فقال عمر: عباد الله المسلمين، أتتكلم وأنت أسير في أيدينا! ثم أخذه من أبي بردة فضرب عنقه - ويقال: إن أبا بردة قتله.

قال الواقدي: وروى أبو بكر بن أسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، قال: قال النبي ﷺ يومئذ: «لا تخبروا سعداً بقتل أخيه، فيقتل كل أسير في أيديكم»^(١).

قال الواقدي: ولما جيء بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ، فقال له رسول الله ﷺ: «كانه شق عليك أن يوسروا!»^(٢) قال: نعم يا رسول الله، كانت أول وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحييت أن يذلهم الله، وأن يشخن فيهم القتل.

قال الواقدي: وكان النضر بن الحارث أسره المقداد يومئذ، فلما خرج رسول الله ﷺ من بدر، فكان الأثيل عرض عليه الأسرى، فنظر إلى النضر بن الحارث فأبده البصر، فقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي! لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت! فقال الذي إلى جنبه: والله ما هذا منك إلا رعب، فقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب، أنت أقرب من هاهنا بي رحماً، كَلَمْ صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي، هو والله قاتلي إن لم تفعل. قال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا كذا، وتقول في نيته كذا وكذا، قال: يا مصعب، فليجعلني كأحد

(١) أخرجه الشيباني في السير الكبير: ١٠٢٨/٣.

(٢) لم أجده.

أصحابي . إن قتلوا قتلتي ، وإن من عليهم من علي . قال مصعب : إنك كنت تعذب أصحابه ، قال : أما والله لو أسرتك قريش ما قتلنا أبداً وأنا حي . قال مصعب : والله إني لأراك صادقاً ، ولكن لست مثلك قطع الإسلام اليهود .

قال الواقدي : وعرضت الأسرى على رسول الله ﷺ ، فرأى النضر بن الحارث ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال المقداد : أسيري يا رسول الله ! فقال اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه ، فقام علي فاضرب عنقه بالسيف صبراً ، وذلك بالأنيل ، فقالت أخته :

يا راكباً إن الأنيل مظنة
بلغ به ميتاً فإن تحية
مني إليه وعبرة مسفوحة
فليسمع النضر إن نأديه
فلت سيف بني أبيه تنوشه
صبراً يقاد إلى المدينة راغماً
أحمد ولأنك نجل نجيبة
ما كان ضررك لو مننت ورئماً
والنضر أقرب من قتلتي وسيلة
من صبح خامسة وأنت مؤفق
ما إن تزال بها الركائب تخفق
جاءت لمائحها ، وأخرى تخفق
إن كان يسمع ميت أو ينطق
لله أرحام هناك تمرق
رشف المقيّد وهو عان مؤفق
في قومها ، والفحل فحل معرق
من الفتى وهو المغيظ المخفق
وأحقهم إن كان عتق يُفثق

قال الواقدي : وروي أن النبي ﷺ لما وصل إليه شغلها رق له ، وقال : «لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلتها»^(١).

قال الواقدي : ولما أسير سهيل بن عمرو ، قال عمرو بن الخطاب : يا رسول الله ، انزع ثيابه يذلع لسانه ، فلا يقوم عليه خطيباً أبداً ، فقال رسول الله ﷺ : «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً ، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه»^(٢) . فقام سهيل بن عمرو بمكة حين جاءه وفاة النبي ﷺ بخطبة أبي بكر بالمدينة ، كأنه كان يسمعها ، فقال عمر حين بلغه كلام سهيل : أشهد أنك رسول الله - يريد قوله ﷺ : «لعله يقوم مقاماً لا تكرهه» .

قال الواقدي : وكان علي عليه السلام يحدث ، فيقول : أتى جبريل النبي ﷺ يوم بدر ، فخيرته في الأسرى أن يضرب أعناقهم ، أو يأخذ منهم الفداء ، ويستشهد من المسلمين في قابل عذتهم ، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه ، وقال : «هذا جبريل يخيركم في الأسرى ، بين أن

(١) أخرجه الأمدى في الأحكام (٢١٦/٤) ، وابن حجر في «الإصابة» (٨٠/٨) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٧٣٩) ، والطبري في «تاريخه» (٤١/٢) .

تضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد منكم قابلاً عدتهم. قالوا: بل نأخذ الفدية ونستعين بها، ويستشهد منا من يدخل الجنة، فقبل منهم الفداء، وقتل من المسلمين قابلاً عدتهم بأحد.

قلت: لو كان هذا الحديث صحيحاً لما عوتبوا، فقل لهم: ﴿مَا كَأَنَّ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْرِكَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(١)، ثم قال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)؛ لأنه إذا كان خيبرهم، فقد أباحهم أخذ الفداء، وأخبرهم أنه حسن، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره عليهم، ويقول إنه قبيح.

قال الواقدي: لما حبس الأسرى وجعل عليهم شُقران مولى رسول الله ﷺ طمعوا في الحياة، فقالوا: لو بعثنا إلى أبي بكر! فإنه أوصل قريش لأرحامنا! فبعثوا إلى أبي بكر، فاتاهم فقالوا: يا أبا بكر، إن فينا الآباء والأبناء والإخوان، والعمومة وبنو العم، وأبعدنا قريب، كلم صاحبك فليمن علينا ويفادنا، فقال: نعم إن شاء الله، لا ألوكم خيراً. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ. قالوا: وابعثوا إلى عمر بن الخطاب، فإنه من قد علمتم، ولا يؤمن أن يفيد عليكم لعله يكف عنكم! فأرسلوا إليه، فجاءهم فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر، فقال: لا ألوكم شراً! ثم انصرف إلى النبي ﷺ، فوجد أبا بكر عنده، والناس حوله، وأبو بكر يُلينه ويغشاه، ويقول: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم، وأبعدهم عنك قريب! فامن عليهم، من الله عليك، أو فادهم قوة للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك! ثم قام فتنحى ناحية، وسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر، فقال يا رسول الله، هم أعداء الله، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، فهم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطيء الله بهم الإسلام، ويذل بهم الشرك! فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه.

وعاد أبو بكر إلى مقعده الأول، فقال: بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم، وأبعدهم منك قريب! فامن عليهم أو فادهم. هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم، وأن يهديهم الله خيراً من أن يهلكهم. فسكت ﷺ عنه فلم يرد عليه شيئاً، وقام ناحية. فقام عمر فجلس مجلسه، فقال: يا رسول الله، ما تنتظر بهم! اضرب أعناقهم، يوطيء الله بهم الإسلام، ويذل أهل الشرك، هم أعداء الله، كذبوك وأخرجوك يا رسول الله، اشف صدور المؤمنين، لو قدرُوا منا على مثل هذا ما أقالونا أبداً. فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه، فقام ناحية، فجلس وعاد أبو بكر، فكلّمه مثل كلامه الأول فلم

يجبه، ثم تنحى، فجاء عمر فكلّمه بمثل كلامه الأول فلم يجبه، ثم قام رسول الله ﷺ، فدخل قُبَّتَه، فمكث فيها ساعة، ثم خرج، والناس يخوضون في شأنهم، يقول بعضهم: القول ما قال أبو بكر، وآخرون يقولون: القول ما قال عمر. فلما خرج قال للناس: ما تقولون في صاحبيكم هذين؟ دعوهما فإنّ لهما مثلاً، مثل أبي بكر في الملائكة كميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده، ومثله في الأنبياء كمثّل إبراهيم كان ألينَ على قومه من العسل، أوقد له قومه النار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١) وقال: ﴿فَمَنْ يَتَعَفَى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) وكعيسى إذا يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾^(٣). ومثّل عمر في الملائكة كمثّل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله، ومثله في الأنبياء كمثّل نوح، كان أشدّ على قومه من الحجارة، إذ يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَبَابًا﴾^(٤) فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعاً، ومثّل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا أَطِيسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدِّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٥) وإنّ بكم عيلة، فلا يفوتكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق. فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء.

قال الواقدي: هكذا روى ابن أبي حبيبة، وهذا وهم، سهيل بن بيضاء مسلم من مهاجرة الحبشة، وشهد بدرًا، وإنما هو أخ له. ويقال له سهيل. قال: قال عبد الله بن مسعود: فلأنّي رأيته يُظهر الإسلام بمكة - قال: فسكت النبي ﷺ، قال عبد الله: فما مرّت عليّ ساعة قطّ كانت أشدّ عليّ من تلك الساعة، جعلت أنظر إلى السماء أتخوّف أن تسقط عليّ الحجارة لتقدّمي بين يدي الله ورسوله بالكلام، فرفع رسول الله ﷺ رأسه، فقال: «إلا سهيل بن بيضاء»^(٦)، قال: فما مرّت عليّ ساعة أقرّ لعيني منها، إذ قالها رسول الله ﷺ. ثم قال: «إن الله عز وجل ليشدّد القلب حتى يكون أشدّ من الحجارة، وإنه ليُليّن القلب حتى يكون ألين من الرّيد»^(٧)، فقبل الفداء ثم قال بعد: «لو نزلّ عذاب يوم بدر لما نجا منه إلا عمر»^(٨)، كان يقول: اقتل ولا تأخذ الفداء. وكان سعد بن معاذ يقول: اقتل ولا تأخذ الفداء.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٤.

(٤) سورة نوح، الآية: ٢٦.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٥) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٦) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٦٢٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠).

(٧) أخرجه أحمد، كتاب: مسند المكثّرين من الصحابة، باب: مسند ابن مسعود (٦٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٥٨)، نحوه.

(٨) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١٥٨/١).

قلت: عندي في هذا كلام، أما في أصل الحديث فلأن فيه أن رسول الله ﷺ قال، ومثله كعيسى إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١)، وهذه الآية من المائدة، والمائدة أنزلت في آخر عمره، ولم ينزل بعدها إلا سورة براءة، وبدر كانت في السنة الثانية من الهجرة، فكيف هذا! اللهم إلا أن يكون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ﴾^(٢) الآيات، قد كانت أنزلت إما بمكة أو بالمدينة قبل بدر، فلما جمع عثمان القرآن ضمها إلى سورة المائدة، فلعله قد كان ذلك فينبغي أن ننظر في هذا، فهو مشكل!

وأما حديث سهيل بن بيضاء فإنه يؤهم مذهب موسى بن عمران في أن النبي ﷺ كان يحكم في الوقائع بما يشاء، لأنه قيل له: احكم بما تشاء، فإنك لا تحكم إلا بالحق، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال: لعله لما سكت ﷺ عندما قال ابن مسعود ذلك القول، نزل عليه في تلك السكته الوحي وقيل له: إلا سهيل بن بيضاء، فقال حينئذ: «إلا سهيل بن بيضاء»، كما أوحى إليه.

وأما الحديث الذي فيه: «لو نزل عذاب لما نجا منه إلا عمر»، فالواقدي وغيره من المحدثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ما قاله عمر، بل هو المبتدئ بذلك الرأي، ورسول الله ﷺ بعد في العريش، والمشركون لم ينفض جمعهم كل ذلك الانفضاض، فكيف خص عمر بالنجاة وحده دون سعدا ويمكن أن يقال: إنه كان شديد التآليب والتحريض عليهم، وكثير الإلحاح على رسول الله ﷺ في أمرهم، فنسب ذلك الرأي إليه لاشتهاره به، وإن شركه فيه غيره.

قال الواقدي: وحدثني معمر عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «لو كان مطعم بن عدي حياً لو هبْتُ له هؤلاء النتنى»^(٣). قال وكانت لمطعم بن عدي عند النبي ﷺ يد أجاره حين رجع من الطائف.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: أقر رسول الله ﷺ من الأسرى يوم بدر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عُمير الجُمَحِي - وكان

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: فرض الخمس باب من من النبي على الأسارى من غير أن يخمس (٣١٣٩)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في المن على الأسير (٢٦٨٩)، وأحمد، كتاب: أول مسند المدنيين، باب: حديث جبير بن مطعم (٢٧٥٤٦).

شاعراً - ، فأعتقه رسول الله ﷺ ، وقال له : إن لي خمس بنات ، ليس لهن شيء ، فتصدق بي عليهن يا محمد ، ففعل رسول الله ﷺ ذلك . وقال أبو عزة : أعطيك موثقاً ألا أقاتلك ، ولا أكثر عليك أبداً . فأرسله رسول الله ﷺ ، فلما خرجت قريش إلى أحد ، جاء صفوان بن أمية ، فقال : اخرج معنا ، قال : إني قد أعطيتُ محمداً موثقاً ألا أقاتله ، ولا أكثر عليه أبداً . وقد منّ عليّ ولم يمنّ عليّ غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء . فضمين له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل ، وإن عاش أعطاه مالا كثيراً لا يأكله عياله . فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها ، ثم خرج مع قريش يوم أحد ، فأسير ولم يؤسر غيره من قريش ، فقال : يا محمد ، إنما خرجت كرهاً ولي بنات ، فامننّ عليّ . فقال رسول الله ﷺ : «أين ما أعطيتني من العهد والميثاق! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : سخرتُ بمحمد مرتين»^(١) . فقتله .

قال : ورؤي سعيد بن المسيّب أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، يا عاصم بن ثابت ، قدّمه فاضرب عنقه»^(٢) ، فقدّمه عاصم فاضرب عنقه . قال الواقدي : وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقلب أن تغور ثم أمر بالقتلى ، فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسيناً انتفخ من يومه . فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه ، فقال النبي ﷺ : اتركوه .

وقال ابن إسحاق : انتفخ أمية بن خلف في دزعه حتى ملأها ، فلما ذهبوا يحركونه تزايل ، فأقروه وألقوا عليه التراب والحجارة ما غيّه .

قال الواقدي : ونظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة يجرّ إلى القلب - وكان رجلاً جسيماً ، وفي وجهه أثر الجذري - فتغيّر وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة ، فقال له : النبي ﷺ : «مالك! كأنك ساءك ما أصاب أباك»! قال : لا والله يا رسول الله ، ولكنني رأيتُ لأبي عقلاً وشرفاً ، كنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما أخطأ ذلك ، ورأيت ما أصابه غاظني . فقال أبو بكر : كان والله يا رسول الله أبقى في العشيرة من غيره ، ولقد كان كارهاً لوجهه ، ولكن الحين ومصارع السوء . فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذي جعل خدّ أبي جهل الأسفل وصرعه وشفاناً منه»^(٣) . فلما توافوا في القلب وقد كان رسول الله ﷺ يطوف عليهم وهم

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٨٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب : الأدب ، باب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٦١٣٣) ، ومسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٢٩٩٨) ، وأبو داود ، كتاب : الأدب ، باب : الحذر من الناس (٤٨٦٢) ، وابن ماجه ، كتاب : الفتن ، باب : العزلة (٣٩٨٢) وكلهم من غير قوله : «يا عاصم . . .» .

(٣) أنظر مغازي الواقدي : ١٠٦ ، وسيرة ابن هشام : ٢٨٢/٢ .

مصرعون، جعل أبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً، ورسول الله ﷺ يحمّد الله ويشكره ويقول: الحمد لله الذي أنجز لي ما وعدني! فقد وعدني إحدى الطائفتين، ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلاً رجلاً: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام! هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً! بشس القوم كنتم لنبيكم! كذبتُموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرتني الناس، فقالوا: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد ماتوا! فقال: «لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حق».

وقال ابن إسحاق في كتاب «المغازي»: إن عائشة كانت تروي هذا الخبر، وتقول: فالتأس يقولون: إنّ رسول الله ﷺ قال: «لقد سمعوا ما قلت لهم»، وليس كذلك، إنما قال: «لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حق»^(١).

قال محمد بن إسحاق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: لما ناداهم رسول الله ﷺ قال له المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد أمتوا! فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»^(٢).

قلت: لقائل أن يقول لعائشة: إذا جاز أن يعلموا وهم موتى، جاز أن يسمعوا وهم موتى، فإن قالت: ما أخبرت أن يعلموا وهم موتى، ولكن تعود الأرواح إلى أبدانهم، وهي في القلب، ويرون العذاب، فيعلمون أنّ ما وعدهم به الرسول حقاً! قيل لها: ولا مانع من أن تعود الأرواح إلى أبدانهم وهي في القلب، فيسمعوا صوت رسول الله ﷺ، فإذا لا وجه لإنكارها ما يقوله الناس!

ويمكن أن يُنتصر لقول عائشة على وجه حكمتي، وهو أنّ الأنفس بعد المفارقة تعلم ولا تسمع؛ لأنّ الإحساس إنما يكون بواسطة الآلة، وبعد الموت تفسد الآلة، فأما العلم فإنه لا يحتاج إلى الآلة، لأنّ النفس تعلم بجوهرها فقط.

قال الواقدي: وكان انهزام قريش وتوليها حين زالت الشمس، فأقام رسول الله ﷺ بيدر، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها وأمر نفرًا من أصحابه أن يعينوه، فصلّى العصر

(١) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: باقي المسند السابق (٢٥٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٠) عن ابن عمر، ومسلم،

كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٣)، والنسائي،

كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٧٤)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة

(١٨٣)، كلهم عن سيدنا عمر بن الخطاب.

ببدر ثم راح فمر بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به، وبات به وبأصحابه جراح، وليست بالكثيرة، وقال: مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة؟ فأسكت القوم، فقام رجل فقال: مَنْ أنت؟ قال: ذكوان بن عبد قيس، قال: اجلس، ثم أعاد القول الثانية، فقام رجل، فقال: مَنْ أنت؟ قال: ابن عبد القيس، فقال: اجلس، ثم مكث ساعة وأعاد القول، فقام رجل فقال: مَنْ أنت؟ قال: أبو سُبُع، فسكت ثم مكث ساعة، وقال: قوموا ثلاثكم. فقام ذكوان بن عبد قيس وحده، فقال له: وأين صاحبك؟ قال: يا رسول الله الذي كنت أجيبك الليلة، فقال رسول الله ﷺ: «فحفظك الله!» فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة، حتى كان آخر الليل فارتحل.

قال الواقدي: وروى أن رسول الله ﷺ صلى العصر بالأثيل، فلما صلى ركعة تبسم، فلما سلم سئل عن تبسمه فقال: مرّ بي ميكائيل وعلى جناحه النّفع، فتبسم إليّ، وقال: إني كنت في طلب القوم، وأتاني جبريل على فرس أنثى معقود الناصية، قد عمّ ثنيته الغبار فقال: يا محمد إن ربي بعثني إليك، وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى، فهل رضيت؟ فقلت: نعم.

قال الواقدي: وأقبل رسول الله ﷺ بالأسرى، حتى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أي يضرب عنق عُقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلاني، فجعل عقبة يقول: يا ويلي! علام أقتل يا معشر قريش من بين من هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «العداوتك لله ولرسوله»، فقال: يا محمد، منك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتي، وإن منّيت عليهم منّيت عليّ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يا محمد مَنْ للصبيّة؟ فقال: النار، قدّمه يا عاصم، فاضرب عنقه، فقدمه عاصم فضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «بش الرجل كنت والله ما علمتُ كافراً بالله وبرسوله، وبكتابه مؤذياً لنيه، فأحمد الله الذي قتلك وأقرّ عيني منك»^(١).

قال محمد بن إسحاق: وروى عكرمة مولى ابن عباس، عن أبي رافع، قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد فشا فينا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل زوجته، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، فكان يكتّم إسلامه، وكان ذا مالٍ كثير متفرّق في قومه، وكان عدوّ الله أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً، فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً.

قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل القِداح، أنحتها في حُجرة زمزم، فوالله إني لجالس أنحت قِداحي، وعندني أم الفضل جالسة، وقد سَرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٤٧/١٩.

لهب يجرّ رجله بشرّ، حتى جلس إلى طُنب^(١) الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فينا هو جالس إذ قال للناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قديم - وكان شهد مع المشركين بدرًا - فقال أبو لهب: هلمّ يابن أخى فعندك والله الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام حوله، فقال: يابن أخى، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء، والله إن هو إلا أن لقيناهم فممنحناهم أكتافنا، فقتلونا كيف شاؤوا، وأسرونا كيف شاؤوا، وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض. لا والله ما تبقي شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنب الحجرة، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بي الأرض ثم برك عليّ بضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمود الحجرة، فأخذته فضربت على رأسه، فشجته شجة منكراً، وقالت: استضعفته إذ غاب سيده، فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال، حتى رماه الله بالعدسة فقتله.

ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثاً وما يدفنا، حتى أنتن في بيته - وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها، كما يتقي الناس الطاعون - حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكم! ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تغيبانه! قال: إنا نخشى هذه القرحة، قال: فانطلقا وأنا معكما، فوالله ما غسلوه إلا قذفاً عليه بالماء من بعيد، ما يمسون، وأخرجوه فالفؤه بأعلى مكة إلى كنان هناك، وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروه.

قال محمد بن إسحاق: فحضر العباس بدرًا، فأسير فيمن أسير، وكان الذي أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بني سليمة، فلما أمسى القوم والأسارى محبوسون في الوثاق، وبات رسول الله ﷺ تلك الليلة ساهراً، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يا رسول الله؟ قال: «سمعت أنين العباس من وثاقه»^(٢)، فقاموا إليه فأطلقوه، فنام رسول الله ﷺ.

قال: وروى ابن عباس رحمه الله، كان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العباس طويلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا اليسر، كيف أسرّت العباس؟» قال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيته من قبل، من هيته كذا، قال ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم»^(٣).

قال محمد بن إسحاق: قد كان رسول الله ﷺ في أول الوقعة، فنهى أن يقتل أحد من بني

(١) الطنب: جبل طويل يشدّ به سرادق البيت، أو الوند. القاموس، مادة (طنب).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٩٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (١٣/٤)، وابن عبد البر نحوه في «الاستيعاب» (٨١٢/٢).

(٣) أخرجه أحمد، كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: باقي المسند السابق (٣٣٠٠)، والهيثم في «مجمع الزوائد» (٨٥/٦).

هاشم، قال: حدثني بذلك الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة حليف بني زهرة، قال: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس رحمه الله، قال: وقال النبي ﷺ لأصحابه: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لنا بقتلهم، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكراً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقُلُ آبائنا وإخواننا وعشائرتنا ونترك العباس! والله لئن لقيته لألحمته السيف، فسمعها رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص. يقول عمر: والله إنه لأول يوم كتاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص - أضرَبَ وجهَ عم رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، قال: فكان أبو حذيفة يقول: والله ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً أبداً إلا أن يكفرها الله عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ في أمر الأسارى، غلظ عمر عليهم غلظة شديدة، فقال: يا رسول الله أظنني فيما أشير به عليك، فإني لا آلوك نصحاً، قدّم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك، وقدّم عقيلاً إلى عليّ أخيه يضرب عنقه، وقدّم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله، قال: فكره رسول الله ﷺ ذلك ولم يعجبه.

قال محمد بن إسحاق: فلما قدم بالأسرى إلى المدينة قال رسول الله ﷺ: «أفد نفسك يا عباس وابني أخويك عقيلاً بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك ذو مال، فقال العباس: يا رسول الله، إني كنت مسلماً، ولكن القوم استكروهني، فقال ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما قلت حقاً فإن الله يعجزك به، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافتد نفسك»، وقد كان رسول الله ﷺ أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسير، فقال العباس: يا رسول الله، احسبها لي من فدائي، فقال ﷺ: «ذاك شيء أعطانا الله منك»^(١)، فقال: يا رسول الله، فإنه ليس لي مال، قال: فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث، وليس معكما أحد، ثم قلت: إن أصبْتُ في سفري هذا فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقُثم كذا وكذا! فقال العباس: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، ما علم بهذا أحدٌ غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، ثم فدى نفسه وابني أخويه، وحليفه.

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٦/٦).

قال الواقدي: قدم رسول الله ﷺ من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاء يوم الأحد في الضحى، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق، فجعل عبد الله ينادي عوالي المدينة: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وزمعة بن الأسود، وأمّية بن خلف، وأسير سهيل بن عمرو ذو الأنياب، في أسرى كثير. قال عاصم بن عدي: فقمّت إليه فنحوته، فقلت: أحقّ ما تقول يا بن رواحة؟ قال: إي والله، وغداً يقدم رسول الله إن شاء الله، ومعه الأسرى مقرّنين، ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم، داراً داراً، والصّبّيان يشتدونّ معه، ويقولون: قُتِل أبو جهل الفاسق، حتى انتهوا إلى دور بني أمّية بن زيد.

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القُضواء، يبشر أهل المدينة، فلما جاء المصلّى صاح على راحلته: قُتِل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج وأبو جهل، وأبو البختريّ وزمعة بن الأسود وأمّية بن خلف، وأسير سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة، فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة، ويقولون: ما جاء زيد إلا فلاّ حتى غاظ المسلمين ذلك، وخافوا، قال: وكان قدوم زيد حين سؤوا على رقية بنت رسول الله ﷺ التراب بالبيع، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد: قتل صاحبكم ومنّ معه، وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر: قد تفرّق أصحابكم تفرّقاً لا يجتمعون معه أبداً، وقد قتل عليه أصحابكم، وقتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب، وقد جاء فلاّ، فقال أبو لبابة: كذب الله قولك، وقالت يهود: ما جاء زيد إلا فلاّ. قال أسامة بن زيد: فجئت حتى خلوتُ بأبي، فقلت: يا أبت، أحقّ ما تقول؟ فقال إي والله حقاً يا بني، فقويّت نفسي، فرجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين! لنقدمنك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم، فليضربنّ عنقك، فقال: يا أبا محمد، إنّما هو شيء سمعت الناس يقولونه.

قال الواقدي: فقدم بالأسرى وعليهم شقران وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا، وهم سبعون في الأصل، مجمع عليه لا شك فيه، إلّا أنهم لم يحص سائرهم، ولقي الناس رسول الله ﷺ بالروحاء يهنّونه بفتح الله عليه، فلقيه وجوه الخزرج، فقال سلمة بن سلامة بن وقش: ما الذي تهنّونه؟ فوالله ما قتلنا إلّا عجائز ضلّعا! فتبسّم النبي ﷺ فقال: يا بن أخي، أولئك الملا، لو رأيتهم لهبتهم، ولو أمروك لأطعتهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها! وبش القوم كانوا على ذلك لنيّهم! فقال سلمة: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، إنك يا رسول الله لم تزل عني معرضاً منذ كنّا بالروحاء في بدأتنا، فقال ﷺ: أما ما قلت للأعرابي: وقعت على ناقتك فهي حبل منك، ففحشت وقلت ما لا علم لك به، وأما ما قلت في القوم،

فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهد بها، فقبل رسول الله ﷺ معذرتك، وكان من عليّة أصحابه.

قال الواقدي: فروى الزهري، قال: لقي أبو هند البياضي مولى فزوة بن عمرو رسول الله ﷺ ومعه حميت مملوء خيساً أهده له، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أبو هند رجل من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه»^(١).

قال الواقدي: ولقيه أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله، الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله، ما كان تخلفني عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدواً، ولكنني ظننت أنها العير، ولو ظننت أنه عدو لما تخلفت، فقال رسول الله: صدقت.

قال: ولقيه عبد الله بن قيس بثربان، فقال: يا رسول الله الحمد لله على سلامتك وظفرك، كنت يا رسول الله ليالي خرجت موروداً - أي محموراً - فلم تفارقني حتى كان بالأمس، فأقبلت إليك، فقال: أجرك الله.

قال الواقدي: وكان سهيل بن عمرو لما كان بتنوك بين السُّقيا ومَلَل، كان مع مالك بن الدخشم الذي أسره، فقال له: خلّ سبيلي للغائط، فقام معه، فقال سهيل: إني أحشم فاستأخر عني، فاستأخر عنه، فمضى سهيل على وجهه، انتزع يده من القرآن، ومضى، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم، أقبل فصاح في الناس، فخرجوا في طلبه، وخرج النبي ﷺ في طلبه بنفسه، وقال: مَنْ وجدته فليقتله، فوجده رسول الله ﷺ بنفسه أخفى نفسه بين شجرات، فأمر به فربط يده إلى عنقه، ثم قرنه إلى راحلته، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة.

قال الواقدي: فحدثني إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: لقي رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، ورسول الله ﷺ على ناقته القصوى، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو محبوب، ويده إلى عنقه، فلما نظر إلى سهيل قالوا: يا رسول الله، أبو يزيد! قال: نعم، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة.

وقال البلاذري: قال أسامة - وهو يومئذ غلام - يا رسول الله، هذا الذي كان يطعم الناس بمكة السريد - يعني الشريد.

قلت: هذه لشغة مقلوبة، لأن الألف بيدل السين ثاء، وهذا أبدل الثاء سيناً، ومن الناس من يرويها: «هذا الذي كان يطعم الناس بمكة الشريد» بالشين المعجمة.

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/١٧٧٢).

قال البلاذري: وحدثني مُصعب بن عبد الله الزُبيري، عن أشياخه أن أسامة رأى سهيلاً يومئذ، فقال: يا رسول الله هذا الذي كان يطعم السريد بمكة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أبو يزيد الذي يطعم الطعام، ولكنه سعى في إطفاء نور الله، فأمكن الله منه»^(١).

قال: وفيه يقول أمية بن أبي الصلت الثقفى:

يا أبا يزيد رأيت سيبك واسعاً وسماء جودك تستهل فتمطرُ

قال: وفيه يقول مالك بن الدخشم، وهو الذي أسره يوم بدر:

أسرتُ سهيلاً فلا أبتغي به غيره من جميع الأمم

وخندف تعلم أن الفتى سهيلاً فتاهما إذا ظلم

ضربت بذى الشفر حتى انثنى وأكرهت نفسي على ذى العلم

أي على ذى العلم بسكون اللام، ولكنه حرّكه للضرورة.

وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا، فكانت أنيابه، بادية، فلذلك قالوا: ذو الأنياب.

قال الواقدي: ولما قدم بالأسرى كانت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب، قالت سودة: فأتينا فقيل لنا: هؤلاء الأسرى قد أتى بهم، فخرجت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد مجموعة يده إلى عنقه في ناحية البيت، فوالله ما ملكت نفسي حين رأيته مجموعة يده إلى عنقه أن قلت: أبا يزيد، أعطيتكم بأيديكم! ألا متم كراماً فوالله ما راعني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله»^(٢)، فقلت: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق إني ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت.

قال الواقدي: وحدثني خالد بن إلياس، قال: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي جهم، قال: دخل يومئذ خالد بن هشام بن المغيرة وأمّية بن أبي حذيفة منزل أم سلمة وأمّ سلمة في مناحة آل عفراء، فقيل لها: أتى بالأسرى، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم حتى رجعت، فتجد رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فقالت: يا رسول الله، إن بني عمي طلبوا أن يدخل بهم

(١) أخرجه الصالحى الشامى في سبل الهدى: ٦٦/٤.

(٢) أخرجه البيهقى في «السنن الكبرى» (١٧٩٢٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٨٩)، والطبراني

عليّ فأضيفهم، وأدهن رؤوسهم وألثم من شعثهم، ولم أحب أن أفعل شيئاً من ذلك حتى استأمرَكَ، فقال ﷺ: «لست أكره شيئاً من ذلك، فافعلي من هذا ما بدا لك». قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، قال: قال أبو العاص بن الربيع: كنت مستأسيراً مع رَفْط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنّا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبر، وأكلوا التمر، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد. قال: وكانوا يحملوننا ويمشون.

وقال محمد بن إسحاق في كتابه: كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ختن رسول الله ﷺ زوج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان ابناً لثالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد، وكان الربيع بن عبد العزى، بعلم هذه فكانت خديجة خالته، فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه زينب، وكان رسول الله ﷺ لا يخالف خديجة، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، فزوجه إياها، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها، فلما أكرم الله رسوله بنبوته أمنت به خديجة وبناته كلهن وصدقته وشهدن أن ما جاء به حق ودين بدينه، وثبت أبو العاص على شركه، وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب إحدى ابنتيه رقية أو أم كلثوم، وذلك من قبل أن ينزل عليه، فلما أنزل عليه الوحي ونادى قومه بأمر الله باعدوه.

فقال بعضهم لبعض: إنكم قد فرغتم محمد من همه، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهن من عياله، فردوا عليه بناته، فاشغلوه بهن فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع، فقالوا: فارق صاحبك بنت محمد، ونحن نزوجك أي امرأة شئت من قريش، فقال: لاها الله! إني لا أفارق صاحبتني، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش! فكان رسول الله ﷺ إذا ذكره يثني عليه خيراً في صهره، ثم مشوا إلى الفاسق عتبة بن أبي لهب، فقالوا له: طلق بنت محمد، ونحن ننكحك أي امرأة شئت من قريش، فقال: إن أنتم زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص، فقارقتها ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهواناً له ثم خلف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكان رسول الله ﷺ مغلوباً على أمره بمكة لا يحل ولا يحرم، وكان الإسلام قد فرق بين زينب وأبي العاص، إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر وهو بمكة أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبقيت زينب بمكة مع أبي العاص، فلما سارت قريش إلى بدر سار أبو العاص معهم، فأصيب في الأسرى يوم بدر، فأتى به النبي ﷺ، فكان عنده مع الأساري، فلما بعث أهل مكة في فداء أساراهم، بعثت زينب في فداء أبي العاص بعلها بمال، وكان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمها

أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها عليه، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَا بَعَثَ بِهِ مِنَ الْفِدَاءِ فَافْعَلُوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، نفديك بأنفسنا وأموالنا، فردُّوا عليها ما بعثت به، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء^(١).

قلت: قرأت على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد البصري العلوي رحمه الله هذا الخبر، فقال: أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد! أما كان يقتضي التكريم والإحسان أن يطيب قلب فاطمة بفدك، ويستوهب لها من المسلمين، أتقصر منزلتها عند رسول الله ﷺ عن منزلة زينب أختها وهي سيِّدة نساء العالمين! هذا إذا لم يثبت لها حق، لا بالنحلة ولا بالإرث، فقلت له: فذلك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين فلم يَجْزْ له أن يأخذه منهم، فقال: وفداء أبي العاص بن الربيع قد صار حقاً من حقوق المسلمين، وقد أخذه رسول الله ﷺ منهم! فقلت: رسول الله ﷺ صاحبُ الشريعة، والحُكْمُ حكمه، وليس أبو بكر كذلك، فقال: ما قلتُ: هَلَّا أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة، وإنما قلت: هَلَّا استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله ﷺ المسلمين فداء أبي العاص! أترأه لو قال: هذه بنت نبيكم قد حضرت تطلب هذه النخلات، أفتطيون عنها نفساً؟ أكانوا منعوها ذلك! فقلت له: قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد نحو هذا، قال: إنهما لم يأتيا بحسن في شرع التكرم، وإن كان ما أتياه حسناً في الدين.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ لما أطلق سبيل أبي العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه في إطلاقه، أو أن أبا العاص وعد رسول الله ﷺ ابتداءً بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة، ولم يظهر ذلك من أبي العاص، ولا من رسول الله ﷺ إلا أنه لما خُلِّي سبيله، وخرج إلى مكة بعث رسول الله ﷺ بعده زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال لهما: كونا بمكان كذا حتى تمرَّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيا بي بها، فخرجا نحو مكة، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعه، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بابيها، فأخذت تتجهز.

قال محمد بن إسحاق: فحدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز للحق بأبي، لقيتني هند بنت عتبة، فقالت: ألم يبلغني يا بنت محمد أنك تريدان اللّحوق بأبيك! فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أي بنت عم لا تفعلين إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما يرفق بك في سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك، فلا تَضْطَني متي، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال، قالت: وإيم الله، إني لأظنها حينئذ صادقة، ما أظنها قالت حينئذ إلا لتفعل،

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢١٤/٩.

ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك. قالت: وتجهزْتُ حتى فرغت من جهازي، فحملني أخو بعلبي وهو كنانة بن الربيع.

قال محمد بن إسحاق: قدّم لها كنانة بن الربيع بغيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، وخرج بها نهاراً يقود بغيرها، وهي في هَوْدَج لها، وتحدث بذلك الرّجال من قريش والنساء، وتلاومت في ذلك، وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال، فخرجوا في طلبها سراعاً حتى أدركوها بذي طوى، فكان أول مَنْ سبق إليها هُبَار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، ونافع بن عبد القيس الفهري، فروّعها هُبَار بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً، فلما رجعت طرحت ما في بطنها، وقد كانت من خوفها رأت دماً وهي في الهودج، فلذلك أباح رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دم هُبَار بن الأسود.

قلت: وهذا الخبر أيضاً قرأته على النقيب أبي جعفر رحمه الله، فقال: إذا كان رسول الله ﷺ أباح دم هُبَار بن الأسود؛ لأنه رَوّع زينب فألقت ذا بطنها، فظهر الحال أنه لو كان حياً لأباح دم مَنْ رَوّع فاطمة حتى ألقت ذا بطنها. فقلت: أروي عنك ما يقوله قومٌ أن فاطمة رَوّعت فألقت المحسن، فقال: لا تروِه عني ولا تروِه عني بطلانه.

فإنّي متوقّف في هذا الموضع لتعارض الأخبار عندي فيه^(١).

قال الواقدي: فبرك حَمُوها كنانة بن الربيع، ونثّل كنانته بين يديه، ثم أخذ منها سهماً فوضعه في كبد قوسه، وقال: أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجلٌ إلّا وضعتُ فيه سهماً، فتكرّ الناس عنه.

قال: وجاء أبو سفيان بن حرب في جِلّة من قريش، فقال: أيّها الرّجل، اكفُف عنا نَبْلَكَ حتى نكلّمك، فكفت. فأقبل أبو سفيان حتّى وقف عليه، فقال: إنك لم تحسن ولم تُصِب، خرجتِ المرأة على رؤوس الناس علانية جهاراً، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد أبيها، فيظنّ الناس إذا أنت خرجت بابتته إليه جهاراً أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا، وأنّ ذلك منا وهن، ولعمري مالنا في حبسهما عن أيها من حاجة، وما فيها من ثار، ولكن ارجع بالمرأة حتّى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس بردها سلّها سلاً خفياً، فالحقها بأبيها. فردّها كنانة بن الربيع إلى مكة، فأقامت بها ليالي حتّى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بغيرها، وخرج بها ليلاً حتّى سلّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدمّا بها على رسول الله ﷺ.

(١) ممن روى سقوط المحسن ابن كثير في أسد الغابة: ٣٠٧/٤، والسيوطي في الحاوي للفتاوى:

٨١/٢، رسالة السلالة الزينية، والجزائري في الأنوار النعمانية: ٣٧١/١.

قال محمد بن إسحاق: فروى سليمان بن يسار، عن أبي إسحاق الدؤسي، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها إلى غير لقريش، فيها متاع لهم وناس منهم، فقال: إن ظفرتم بهتار بن الأسود وناقع بن عبد قيس، فحرقوهما بالنار، حتى إذا كان الغد بعث فقال لنا: «إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرجلين إن أخذتموها، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله تعالى، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما، ولا تحرقوهما»^(١).

قلت: لقائل من المجبرة أن يقول: أليس هذا نسخ الشيء قبل تقضي وقت فعله، وأهل العدل لا يجيزون ذلك! وهذا السؤال مشكل، ولا جواب عنه إلا بدفع الخبر إما بتضعيف أحد من رواه، أو إبطال الاحتجاج به لكونه خبر واحد، أو بوجه آخر، وهو أن نجيز للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما ينصب إليه كثير من شيوخنا، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإنفاذها مع أبي بكر، وبعث علي عليه السلام، فأخذها منه في الطريق، وقرأها على أهل مكة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم.

فأما البلاذري فإنه روى أن هتار بن الأسود كان ممن عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين حُمِلَتْ من مكة إلى المدينة، فكان رسول الله ﷺ يأمر سراياه إن ظفروا به أن يحرقوه بالنار، ثم قال: لا يعذب بالنار إلا رب النار، وأمرهم إن ظفروا به أن يقطعوا يديه ورجليه ويقتلوه، فلم يظفروا به، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هتار، ثم قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة - ويقال: أتاه بالجعرانة - حين فرغ من أمر حنين، فمَثَلَ بين يديه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقبل إسلامه وأمر ألا يُعرض له، وخرجت سلمى مولاة رسول الله ﷺ فقالت: لا أنعم الله بك عينا! فقال رسول الله ﷺ: «مهلا، فقد محا الإسلام ما قبله»!

قال البلاذري: فقال الزبير بن العوام: لقد رأيت رسول الله ﷺ بعد غلظته على هتار بن الأسود يطأ طيء رأسه استحياء منه وهتار يعتذر إليه، وهو يعتذر إلى هتار أيضاً.

قال محمد بن إسحاق: فأقام أبو العاص بمكة على شركه، وأقامت زينب عند أبيها ﷺ بالمدينة، قد فرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بمال له، وأموال لقريش أبضعوا بها معه، وكان رجلاً مأموناً، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً

(١) أخرجه البخاري كتاب: الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٦)، والترمذي، كتاب: السير، باب: ما جاء في النهي عن قتل النساء (١٥٧١)، وأحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٨٠٠٧).

لقيبته سرية لرسول الله ﷺ ، فأصابوا ما معه وأعجزهم هو هارباً ، فخرجت السرية بما أصابت من ماله ، حتى قدمت به على رسول الله ﷺ ، وخرج أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على زينب - ابنة رسول الله ﷺ - منزلها ، فاستجار بها فأجارته ، وإنما جاء في طلب ماله الذي أصابته تلك السرية ، فلما كبر رسول الله ﷺ في صلاة الصبح ، وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فصلّى رسول الله ﷺ بالناس الصبح ، فلما سلم من الصلاة ، أقبل عليهم فقال : «أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتم؟» قالوا : نعم ، قال : «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعتم ، إنه يجير على الناس أديانهم» .

ثم انصرف ودخل على ابنته زينب ، فقال : «أي بنتي ، أكرمي مثواه ، وأحسني قراه ، ولا يصلن إليك ، فإنك لا تجلين له»^(١) .

ثم بعث إلى تلك السرية الذين كانوا أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إن هذا الرجل منا بحيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذي له ، فإننا نحبت ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الذي أفاء عليكم ، وأنتم أحقّ به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نردّه عليه ، فردّوا عليه ماله ومتاعه ، حتى إن الرجل كان يأتي بالحبل ، ويأتي الآخر بالشنة ، ويأتي الآخر بالإداوة ، والآخر بالشظاظ ، حتى ردّوا ماله ومتاعه بأسره من عند آخره ولم يفقد منه شيئاً . ثم احتمل إلى مكة ، فلما قدمها أدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ممّن كان أبضع معه بشيء ، حتى إذا فرغ من ذلك ، قال لهم : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا : لا فجزاك الله خيراً ، لقد وجدناك وفيّاً كريماً ، قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله ما منعتني من الإسلام إلا تخوّف أن تظنّوا أنني أردت أن أكل أموالكم ، وأذهب بها فإذا سلّمها الله لكم ، وأداها إليكم ، فإني أشهدكم أنني قد أسلمت واتبعت دين محمد . ثم خرج سريعاً حتى قدم على رسول الله المدينة .

قال محمد بن إسحاق : فحدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ ردّ زينب بعد ست سنين على أبي العاص بالنكاح الأول لم يحدث شيئاً .

قال الواقدي : فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الأساري ، وفرّق الله عزّ وجلّ ببدر بين الكفر والإيمان ، أذلّ رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق إلا خضعت عنقه .

(١) أخرجه الحاكم في مستدرکه (٢/٢٦٣) ، والبيهقي في سننه الكبرى (٩/٩٥) .

وقال قوم من المنافقين: ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة. وقالت يهود فيما بينها: هو الذي نجد نفعه في كتبنا، والله لا تُرفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت.

وقال كعب بن الأشرف: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها، هؤلاء أشرف الناس وساداتهم، وملوك العرب وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا. وخرج إلى مكة، فنزل على أبي وداعة بن ضبيرة، وجعله يرسل هجاء المسلمين، ورثى قتلى بدر من المشركين، فقال:

طَحَنْتَ رَحَا بَدْرٍ لِمُتْهِلِكَ أَهْلِهِ وَلِمِثْلٍ بِذَرٍ يُسْتَهْلُ وَيُذْمَعُ
قُتِلَتْ سِرَاةُ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِ لَا تَبْعَدُوا إِنَّ الْمَلُوكَ تُصْرَعُ
وَيَقُولُ أَقْوَامٌ أَذِلَّ بِعِزِّهِمْ: إِنْ ابْنُ أَشْرَفٍ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الْأَرْضَ سَاعَةً قُتِلُوا ظَلَّتْ تَسِيخُ بِأَهْلِهَا وَتَصْدَعُ
نُبِئْتُ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ هُمْ فِي النَّاسِ بَنِي الصَّالِحَاتِ وَيَجْمَعُ
لِيَزُورَ يَشْرَبُ بِالْجُمُوعِ وَأَتَمَّا يَسْعَى عَلَى الْحَسْبِ الْقَدِيمِ الْأَزْوَغُ

قال الواقدي: أملاها عليّ عبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبي الزناد. فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه، وأظهروا المرائي - وقد كانوا حرّموها كيلا يشمت المسلمون بهم - وجعل الصبيان والجواري ينشدونها بمكة، فناحت بها قريش على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح - وجزّ النساء شعورهنّ، وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه، فتوقّف بين أظهرهم، فينوحون حولها، وخرجن إلى السّكك، وضربن الستور في الأزقة، وقطعن فخرجن إليها ينحنّ، وصدق أهل مكة رؤيا عاتكة وجهيم بن الصّلت.

قال الواقدي: وكان الذين قدموا من قريش في فداء الأسرى أربعة عشر رجلاً، وقيل خمسة عشر رجلاً، وكان أول من قدم المطلب بن أبي وداعة، ثم قدم الباقر بن عبد الله بن ثعلبة بن ليث.

قال: فحدثني إسحاق بن يحيى، قال: سألت نافع بن جبير: كيف كان الفداء؟ قال: أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاث آلاف إلى ألفين إلى ألف، إلا قوماً لا مال لهم من عليهم رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: وقال رسول الله ﷺ في أبي وداعة، إنّ له بمكة ابناً كيساً له مال، وهو مغلّ فداءه، فلما قدم افتداه بأربعة آلاف، وكان أول أسير افتدي، وذلك أنّ قريشاً قالت لابن المطلب بن أبي وداعة - ورأته يتجهّز، يخرج إليه - لا تعجل، فإنّا نخاف أن تفسد علينا في أسرارنا، ويرى محمد تهالكنا فيغلي علينا الفدية، فإن كنت تجد فإن كلّ قومك لا يجدون من السّعة ما تجد. فقال: لا أخرج حتى تخرجوا، فخادعهم حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته، فسار أربعة ليال إلى المدينة فافتدى أباه بأربعة آلاف، فلامه قريش في ذلك، فقال: ما كنت لأترك أبي أسيراً في أيدي القوم وأنتم مضجعون، فقال أبو سفيان بن حرب: إنّ هذا غلام

حَدَّث يَعْجِبُ بِنَفْسِهِ وَبِرَأْيِهِ، وَهُوَ مَفْسَدٌ عَلَيْكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ غَيْرُ مُفْتَدٍ عَمْرُو بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَلَوْ مَكَّتْ سَنَةٌ أَوْ يَرْسَلُهُ مُحَمَّدٌ: وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَعُوذْكُمْ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَدْخِلَ عَلَيْكُمْ مَا يَشُقُّ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ يَكُونُ عَمْرُو كَأَسْوَأَتِكُمْ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: فَأَمَّا أَسْمَاءُ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَدِمُوا فِي الْأَسْرِ، فَلَمَّا قَدِمَ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعَمْرُو بْنُ الرَّبِيعِ أَخُو أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ. وَمِنْ بَنِي نُوْفَلٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ جُبَيْرُ بْنُ مَطْعَمٍ: وَمِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ طَلْحَةُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَمِنْ بَنِي أَسَدٍ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ عَثْمَانُ بْنُ أَبِي حُبَيْشٍ. وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهَشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَفَرُوهُ بْنُ السَّائِبِ وَعَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ. وَمِنْ بَنِي جُمَحٍ أَبِي بْنُ خَلْفٍ وَغُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ. وَمِنْ بَنِي سَهْمِ الْمَطْلَبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ وَعَمْرُو بْنُ قَيْسٍ. وَمِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ جَسَلٍ مَكْرُزُ بْنُ حَفْصِ بْنِ الْأَحْنَفِ، كُلٌّ هَؤُلَاءِ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فِدَاءَ أَهْلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ. وَكَانَ جُبَيْرُ بْنُ مَطْعَمٍ يَقُولُ: دَخَلَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِي مِنْذُ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِي الْفِدَاءِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرَبِ: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ۝﴾^(١)، فَاسْتَمَعْتُ قِرَاءَتَهُ، فَدَخَلَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِي مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

فِي أَسْمَاءِ أُسَارَى بَدْرٍ وَأَسْمَاءِ مَنْ أُسِرَهُمْ

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: أُسِرَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، أُسِرَهُ أَبُو الْيَسْرِ كَعْبُ بْنُ عَمْرُو، وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أُسِرَهُ عَبِيدُ بْنُ أَوْسٍ الظَّفَرِيُّ، وَنُوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أُسِرَهُ جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ، وَأُسِرَ حَلِيفُ لَبْنِي هَاشِمٍ مِنْ بَنِي فَهْرٍ، اسْمُهُ عُتْبَةُ فَهْؤُلَاءِ أَرْبَعَةٌ.

وَمِنْ بَنِي الْمَطْلَبِ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ السَّائِبُ بْنُ عَبِيدٍ، وَعَبِيدُ بْنُ عَمْرُو بْنِ عِلْقَمَةَ، رَجُلَانِ أُسِرَهُمَا سَلْمَةُ بْنُ أَسْلَمٍ بْنُ حَرِيشٍ الْأَشْهَلِيِّ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي بِذَلِكَ ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ، قَالَ: وَلَمْ يَقْدَمْ لِهَاجِرَةٍ أَحَدٌ، وَكَانَا لَا مَالَ لِهَاجِرَةٍ، فَفَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمَا بَغِيرَ فَذِيَّةٍ.

وَمِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ الْمَقْتُولُ صَبْرًا، عَلَى يَدِ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، أُسِرَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلْمَةَ الْعَجْلَانِيُّ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَبِي وَخْرَةَ بْنُ أَبِي عَمْرُو بْنِ أُمِيَّةٍ، أُسِرَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَدِمَ فِي فِدَائِهِ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَافْتَدَاهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ.

(١) سُورَةُ الطُّورِ، الْآيَتَانِ: ١، ٢.

قال الواقدي: وقد كان الحارث هذا لما أمر النبي ﷺ بردة الأسارى، ثم أقرع بين أصحابه عليهم، وقع في سهم سعد بن أبي وقاص الذي كان أسره أول مرة - وعمرو بن أبي سفيان، أسره علي بن أبي طالب عليه السلام، وصار بالقرعة في سهم رسول الله ﷺ، فأطلقه بغير فدية، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بني معاوية، خرج معتمراً، فحبس بمكة، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول الله ﷺ عمرو بن أبي سفيان.

وروى محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»: أن عمرو بن أبي سفيان أسره علي عليه السلام يوم بدر، وكانت أمه ابنة عتبة بن أبي مُعَيْط، فمكث في يد رسول الله ﷺ، فقبل لأبي سفيان: ألا تفتدي ابنك عمراً؟ قال: أجمع علي دمي ومالي! قتلوا حنظلة وأفتدي عمراً! دعوه في أيديهم فليمسكوه ما بدا لهم. فبينما هو محبوس بالمدينة، خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف معتمراً، ومعه امرأة له، وكان شيخاً كبيراً لا يخشى ما صنع به أبو سفيان: وقد عهد قريشاً ألا يعرض لحاج ولا معتبر، فعدا عليه أبو سفيان، فحبسه بمكة بابه عمرو بن أبي سفيان، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر:

أرهمط ابن أكال أجيبوا دعاءه تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلأ

فإن بني عمرو لنام أذلأ لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلأ

فمشى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه بذلك، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به صاحبهم، فأعطاهم إياه، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد. وقال حسان بن ثابت يجيب أبا سفيان:

ولو كان سعد يوم مكة مطلقاً لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلى

بغضب حسام أو بصفراء نبعة تحن إذا ما أنبضت تحفر النبلأ

وأبو العاص بن الربيع، أسره خراش بن الصمة، فقدم في فدائه عمرو بن أبي الربيع أخوه، وحليف لهم، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضاً. وعمرو بن الأزرق افتكّه عمرو بن الربيع أيضاً، وكان قد صار في سهم تميم مولى خراش بن الصمة، وعُتْبَةُ بن الحارث الخضرمي أسره عمارة بن حزم، فصار في القرعة لأبي بن كعب، افتداه عمرو بن أبي سفيان بن أمية، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، أسره عمار بن ياسر قدم في فدائه بن عمه. فهؤلاء ثمانية.

ومن بني نوفل بن عبد مناف عدي بن الخيار، أسره خراش بن الصمة، وعثمان بن عبد شمس، ابن أخي عتبة بن غزوان حليفهم، أسره حارثة بن النعمان، وأبو ثور، أسره أبو مرثد الغنوي، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جبير بن مطعم.

ومن بني عبد الدار بن قصي أبو عزيز بن عمير، أسره أبو اليسر، ثم صار بالقرعة لمحرز بن نضلة - قال الواقدي: أبو عزيز هذا هو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، وقال مصعب

لمحرز بن نضلة: اشد يدتيك به، فإن له أمّا بمكة كثيرة المال، فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بي يا أخي! فقال مصعب: إنه أخي دونك، فبعثت فيه أمّه أربعة آلاف، وذلك بعد أن سألت: ما أغلى ما تُفادي به قریش؟ فقبل لها: أربعة آلاف - والأسود بن عامر بن الحارث بن السباق، أسره حمزة بن عبد المطلب، فهذان اثنان قدم في فدايتهما طلحة بن أبي طلحة.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي، السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، أسره عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن عبد العزى، أسره حاطب بن أبي بلتعة، وسالم بن شماس أسره سعد بن أبي وقاص، فهؤلاء ثلاثة قدم في فدايتهم عثمان بن أبي حبيش بأربعة آلاف لكل رجل منهم.

ومن بني تميم بن مرة، مالك بن عبد الله بن عثمان، أسره قطبة بن عامر بن حديدة، فمات في المدينة أسيراً.

ومن بني مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة، أسره سواد بن غزوة. وأمّية بن أبي حذيفة بن المغيرة، أسره بلال. وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وكان أفلت يوم نخلة، أسره واقد بن عبد الله التميمي يوم بدر، فقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك، فقد كنت أفلت يوم نخلة - وقدم في فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبي ربيعة، افتدى كل واحد منهم بأربعة آلاف - والوليد بن الوليد بن المغيرة، أسره عبد الله بن جحش، فقدم في فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى افتكاه بأربعة آلاف، فجعل هشام بن الوليد يريد ألا يبلغ ذلك - يريد ثلاثة آلاف فقال خالد لهشام: إنه ليس بابن أمك، والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلت، فلما افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة، فأفلت، فأتى النبي ﷺ فأسلم، فقيل: ألا أسلمت قبل أن تفتدي! قال: كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومي. - قال الواقدي: ويقال إن الذي أسر الوليد بن الوليد سليط بن قيس المازني - وقيس بن السائب، أسره عبدة بن الحبحاس، فحبسه عنده حيناً، وهو يظن أن له مالاً، ثم قدم في فدائه أخوه قزوة بن السائب، فأقام أيضاً حيناً، ثم افتداه بأربعة آلاف فيها غروض.

ومن بني أبي رفاعه صيفي بن أبي رفاعه بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، وكان لا مال له، أسره رجل من المسلمين، فمكث عندهم، ثم أرسله. وأبو المنذر بن أبي رفاعه بن عائذ افتدي بألفين - ولم يذكر الواقدي من أسره - وعبد الله، وهو أبو عطاء بن السائب بن عائذ بن عبد الله، افتدي بألف درهم، أسره سعد بن أبي وقاص، والمطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم، أسره أبو أيوب الأنصاري - ولم يكن له مال فأرسله بعد حين - وخالد بن الأعمى العقيلي، حليف لبني مخزوم، وهو الذي يقول:

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدُّمَاءُ

وقال محمد بن إسحاق: روي أنه كان أول المنهزمين، أسره الخبّاب بن المنذر بن الجُمُوج، وقدم في فدائه عكرمة بن أبي جهل، فهؤلاء عشرة.

ومن بني جُمح عبد الله بن أبي بن خلف، أسره قُرُوة بن أبي عمرو البياضي، قدم في فدائه أبوه أبي بن خَلَف فتمتّع به فروة حيناً. وأبو عَزّة عمرو بن عبد الله بن وهب، أطلقه رسول الله ﷺ بغير فدية، وكان شاعراً خبيث اللسان، ثم قتله يوم أُحُد، بعد أن أسره - ولم يذكر الواقدي الذي أسره يوم بدر - وهب بن عمير بن وهب، أسره رفاعه بن رافع الزرقي، وقدم أبوه عمير بن وهب في فدائه، فأسلم فأرسل النبي ﷺ له ابنه بغير فداء، وربيعه بن درّاج بن العنيس بن وهبان بن وهب بن حُذافة بن جُمح، وكان لا مال له، فأخذ منه بشيء يسير، وأرسل به - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - والفاكه مولى أمية بن خلف، أسره سعد بن أبي وقاص، فهؤلاء خمسة.

ومن بني سَهْم بن عمرو أبو وَدَاعَة بن صُبَيْرَة وكان أول أسير افتدي، قدم في فدائه ابنه المطلب، فافتداه بأربعة آلاف - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - وقُرُوة بن قَيْس بن عديّ بن حُذافة بن سعيد بن سهم، أسره ثابت بن أقرم، وقدم في فدائه عمرو بن قيس، افتداه بأربعة آلاف، وحنظلة بن قبيصة بن حُذافة بن سعد، أسره عثمان بن مظعون. والحجاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سَهْم، أسره عبد الرحمن بن عوف، فأفلت، فأخذه أبو داود المازني. فهؤلاء أربعة.

ومن بني مالك بن حِشَل سُهَيْل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وَدَة بن نصر بن مالك، أسره مالك بن الدّخشم، وقدم في فدائه مكرز بن خَفْص بن الأحنف، وانتهى في فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف، فقالوا: هات المال، فقال: نعم، اجعلوا رجلاً مكان رجل، وقوم يروونها: «رجلاً مكان رجل»، فخلّوا سبيل سُهَيْل، وحبسوا مكرز بن حفص عندهم، حتى بعث سُهَيْل بالمال من مكّة. وعبد الله بن زُمعة بن قيس بن نصر بن مالك، أسره عمير بن عوف، مولى سُهَيْل بن عمرو. وعبد العزّي بن مشنوء بن وقدان بن قيس بن عبد شمس بن عبد وَدَة سمّاه رسول الله ﷺ بعد إسلامه عبد الرحمن، أسره النعمان بن مالك. فهؤلاء ثلاثة.

ومن بني فُهر الظفيل بن أبي قُنيع، فهؤلاء ستة وأربعون أسيراً.

وفي كتاب الواقدي أنه كان الأسارى الذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين، ولم نجد التفصيل يلحق هذه الجملة.

وروى الواقدي عن سعيد بن المسيّب، قال: كانت الأسارى سبعين، وإنّ القتلى كانت زيادة على سبعين إلا أنّ المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم، والباقيون لم يذكر المؤرخون أسماءهم.

في ذكر أسماء المطعمين في بدر من المشركين

قال الواقدي: المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة، فمن بني عبد مناف الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس.

ومن بني أسد بن عبد العزى، زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، ونوفل بن خويلد المعروف بابن العدوية.

ومن بني مخزوم، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة.

ومن بني جُمح، أمية بن خلف.

ومن بني سَهْم نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

فهؤلاء تسعة.

قال الواقدي: وكان سعيد بن المسيّب يقول: ما أطعم أحد بيدراً إلا قُتل.

قال الواقدي: قد ذكروا عدة من المطعمين، اختلف فيهم، كسهيل بن عمرو وأبي البختري وغيرهما.

قال: حدثني إسماعيل بن إبراهيم، عن موسى بن عتبة، قال: أول مَنْ نحر لهم أبو جهل بمر الظهران عشراً، ثم أمية بن خلف بعُشْفَان تسعاً، ثم سهيل بن عمرو بقُدَيْد عشراً، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلّوا الطريق، فأقاموا بها يوماً، فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر له قيس الجمحي تسعاً، ثم نحر عتبة عشراً، ونحر لهم الحارث بن عمرو تسعاً، ثم نحر لهم أبو البختري على ماء بدر عشراً، ونحر لهم مقيس بن ضبابة على ماء بدر تسعاً، ثم شغلهم الحرب.

قال الواقدي: وقد كان ابن أبي الزناد يقول: والله ما أظنّ مقيساً كان يقدر على قُلُوص واحدة.

قال الواقدي: وأما أنا فلا أعرف قيساً الجمحي. قال: وقد روت أم بكر، عن المسور بن مخرمة ابنها، قال: كان التفر يشتركون في الإطعام، فينسب إلى الرجل الواحد ويسكت عن سائرهم.

وروى محمد بن إسحاق أنّ العباس بن عبد المطلب كان من المطعمين في بدر، وكذلك طُعَيْمة بن عدي بن نوفل، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل، وكان أبو البختري يعتقب هو وحكيم بن حزام في الإطعام، وكان التضر بن والحارث بن كَلْدَه بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار من المطعمين. قال: وكان النبي عليه السلام يكره قتل الحارث بن

عامر، قال يوم بدر: «مَنْ ظَفَر به منكم فليتركه لأيتام بني نوفل»^(١)، فقتل في المعركة.

أسماء المستشهدين من المسلمين ببدر

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر، قال: سألت الزهري: كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال: أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

قال: فمن بني المطلب بن عبد مناف عبيدة بن الحارث، قتله شيبة بن ربيعة.

وفي رواية الواقدي قتله عتبة، فدفته النبي ﷺ بالصفراء.

ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص، قتله عمرو بن عبد ود، فارس الأحزاب، وعمير بن عبد ود ذو الشمالين، حليف لبني زهرة بن خُزاعة، قتله أبو أسامة الجشمي.

ومن بني عدي بن كعب عاقل بن أبي البكير، حليف لهم من بني سعد بن بكر، قتله مالك بن زهير الجشمي، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، قتله عامر بن الحضرمي، ويقال: إن مهجعاً أول من قتل من المهاجرين.

ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء، قتله طعيمة بن عدي.

وهؤلاء الستة من المهاجرين.

ومن الأنصار، ثم من بني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر، قتله أبو ثور. وسعد بن خيشمة، قتله عمرو بن عبدود - ويقال طعيمة بن عدي - ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته، فقتله.

ومن بني مالك بن النجار، عوف ومعوذ ابنا عفراء، قتلها أبو جهل.

ومن بني سلمة بن حرام عمير بن الحمام بن الجموح، قتله خالد بن الأعلم العقيلي - ويقال إن عمير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار، وقد روي أن أول قتيل منهم حارث بن سراقة.

ومن بني زريق، رافع بن المَعْلِي، قتله عكرمة بن أبي جهل.

ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسح، قتله نوفل بن معاوية الديلي.

فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

قال الواقدي: وقد روي عن عكرمة، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبي ﷺ قتل ببدر.

وروي أن معاذ بن ماعص جرح ببدر، فمات من جراحته بالمدينة، وأن عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه، فمات منه حين قدم.

(١) ذكره ابن هشام في السيرة: ٣١١/٢.

أسماء المشركين المقتولين ببدر وأسماء قاتليهم

قال الواقدي: فمن بني عبد شمس بن عبد مناف حنظلة بن أبي سفيان بن حرب، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، والحارث بن الحضرمي قتله عمار بن ياسر، وعامر بن الحضرمي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وعمير بن أبي عمير وابنه، موليان لهم، قتل سالم مولى أبي حذيفة منهم عمير بن أبي عمير - ولم يذكر الواقدي من قتل ابنه - وعبيدة بن سعيد بن العاص، قتله الزبير بن العوام، والعاص بن سعيد بن العاص، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وعقبة بن أبي معيط، قتله عاصم بن ثابت صبراً بالسيف بأمر رسول الله ﷺ. وروى البلاذري أن رسول الله ﷺ صلبه بعد قتله، فكان أول مصلوب في الإسلام. قال: وفيه يقول ضرار بن الخطاب:

عين بكّي لعُقْبَة بن أبانٍ فرع فهِر وفارس الفرساني

وعُثْبة بن ربيعة، قتله حمزة بن عبد المطلب. وشيبة بن ربيعة، قتله عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي، الثلاثة اشتركوا في قتله. والوليد بن عُثْبة بن ربيعة، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وعامر بن عبد الله حليف لهم من أنمار، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله سعد بن معاذ، فهؤلاء اثنا عشر.

ومن بني نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل، قتله خبيص بن يساف، وطعيمة بن عدي، ويكنى أبا الريان، قتله حمزة بن عبد المطلب في رواية الواقدي، وقتله علي بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن إسحاق. وروى البلاذري رواية غريبة، أن طعيمة بن عدي أسر يوم بدر، فقتله النبي ﷺ صبراً على يد حمزة، فهؤلاء اثنان.

ومن بني أسد بن عبد العزى زمنة بن الأسود، قتله أبو دجانة، وقيل: قتله ثابت بن الجذع، والحارث بن زمنة بن الأسود، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وعقيل بن الأسود بن المطلب، قتله علي وحمزة، شركا في قتله.

قال الواقدي: وحدثني أبو معشر، قال: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام وحده، وقيل: قتله أبو داود المازني وحده. وأبو البختري، وهو العاص بن هشام، قتله المجذّر بن زياد، وقيل: قتله أبو اليسر. ونوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن العذوة، قتله علي عليه السلام، فهؤلاء خمسة.

ومن بين عبد الدار بن قصي، النضر بن الحارث بن كلدة، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام صبراً بالسيف بأمر رسول الله ﷺ، وكان الذي أسره المقداد بن عمرو، فوعد المقداد - إن استنقذه - بفداء جليل، فلما قدم ليقتل، قال المقداد: يا رسول الله، إني ذو عيال، وأحب الدين، فقال: اللهم أغن المقداد من فضلك! يا علي، قم فاضرب عنقه. وزيد بن مليص مولى

عمرو بن هاشم بن عبد مناف، من عبد الدار، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله بلال. فهؤلاء اثنان.

ومن بني تميم بن مرة عُمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان، قتله ضُهير، فهؤلاء اثنان - ولم يذكر البلاذري عثمان بن مالك.

ومن بني مخزوم بن يَظْظَة ثم من بني المُغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ وعوف ابنا عفراء، وذُفْء عليه عبد الله بن مسعود. والعاص بن هاشم بن المغيرة، خال عمر بن الخطاب، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمي، حليف لهم، قتله عمار بن ياسر، وقيل: قتله علي عليه السلام.

ومن بني الوليد بن المُغيرة، أبو قيس بن الوليد بن الوليد، أخو خالد بن الوليد، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن بني الفاكه بن المغيرة أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، قتله حمزة بن عبد المطلب، وقيل: قتله الحُباب بن المنذر.

ومن بني أمية بن المغيرة بن أبي أمية، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن بني عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بني رفاعه، أمية بن عائذ بن رفاعه بن أبي رفاعه. قتله سعد بن الربيع. وأبو المنذر بن أبي رفاعه، قتله معن بن عدي العجلاني. وعبد الله بن أبي رفاعه، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وزُهَيْر بن أبي رفاعه، قتله أبو أسيد الساعدي. والسائب بن أبي رفاعه، قتله عبد الرحمن بن عوف.

ومن بني أبي السائب المخزومي - وهو صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - السائب بن السائب، قتله الزبير بن العوام. والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله حمزة بن عبد المطلب. وحليف لهم من طيء، وهو عمرو بن شيان، قتله يزيد بن قيس. وحليف آخر، وهو جبار بن سفيان، أخو عمرو بن سفيان المقدم ذكره، قتله أبو بَرْدَة بن نيار.

ومن بني عمران بن مخزوم حاجز بن السائب بن عُويم بن عائذ، قتله علي عليه السلام.

وروى البلاذري أن حاجزاً هذا وأخاه عُويم بن السائب بن عُويم، قتلها علي بن أبي طالب عليه السلام وعُويم بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، قتله النعمان بن أبي مالك، فهؤلاء تسعة عشر.

ومن بني جُمَح بن عمرو بن هصيص، أمية بن خلف قتله خبيب بن يساف وبلال، شركا فيه.

قال الواقدي: وكان معاذ بن رفاعه بن رافع يقول: بل قتله أبو رفاعه بن رافع وعلي بن

أمية بن خلف، قتله عمار بن ياسر. وأوس بن المغيرة بن لوزان، قتله علي عليه السلام، وعثمان بن مظعون، شركا فيه، فهؤلاء ثلاثة.

ومن بني سَهْم، منبه بن الحجاج، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله أبو أسيد الساعدي. ونبيه بن الحجاج قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. والعاص بن منبه بن الحجاج، قتله علي عليه السلام. وأبو العاص بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، قتله أبو دُجَّانة - قال الواقدي: وحدثني أبو معشر عن أصحابه، قالوا: قتله علي عليه السلام - وعاص بن أبي عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد، قتله أبو دُجَّانة، فهؤلاء خمسة.

ومن بني عامر بن لؤي، ثم من بني مالك بن حسل، معاوية بن عبد قيس حليف لهم، قتله عكاشة بن محصن. ومعبد بن وهب، حليف لهم من كلب، قتله أبو دُجَّانة فهؤلاء اثنان.

فجميع من قتل ببدر في رواية الواقدي من المشركين في الحرب صبراً، اثنان وخمسون رجلاً، قتل علي عليه السلام منهم مع الذين شرك في قتلهم أربعة وعشرين رجلاً. وقد كثرت الرواية أن المقتولين ببدر كانوا سبعين، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماءهم من ذكرناه، وفي رواية الشيعة أن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب قتله علي، والأشهر في الرواية أنه قتله الحارث بن زَمْعَةَ، وأن زَمْعَةَ قتله أبو دُجَّانة.

أسماء المسلمين ممن شهدوا بدرًا

قال الواقدي: كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وهم غائبون وعدتهم ثمانية. قال: وهذا هو الأغلب في الرواية، قال: ولم يشهد بدرًا من المسلمين إلا قرشي أو حليف لقرشي أو أنصاري أو حليف لأنصاري أو مولى واحد منهما، وهكذا من جانب المشركين، فإنه لم يشهدا إلا قرشي أو حليف لقرشي أو مولى لهم.

قال: فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلاً، وكانت الأنصار ومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلاً.

فأما تفصيل أسماء من شهدا من المسلمين فله موضع في كتب المحدثين أملك به من هذا الموضع.

الفصل الرابع: في شرح قصة غزاة أحد. ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقدي رحمه الله على عادتنا في ذكر غزاة بدر، ونضيف إليه من الزيادات التي ذكرها بن إسحاق والبلاذري ما يقتضي الحال ذكره.

قال الواقدي: لما رجع مَنْ حضر بدرًا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغيبة أهل العير، ومشت أشراف قريش إلى أبي سفيان: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، وجبير بن مطعم، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب بن عبد العزى، فقالوا: يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبسناها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيّبوا الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد، فقد ترى مَنْ من قُتل آبائنا وأبنائنا وعشائرنَا. فقال أبو سفيان: وقد طابت أنفس قريش بذلك؟

قالوا: قال: فإنا أول من أجاب إلى ذلك وينو عبد مناف معي، فإنا والله الموتور^(١) والثائر، وقد قُتل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي. فلم تزل العير موقوفة حتى تجهّزوا للخروج، فباعوها فصارت ذهباً عيناً، ويقال: إنما قالوا: يا أبا سفيان، بع العير ثم اعزل أرباحها، فكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً، وكان متجرهم من الشام غزّة، لا يعدونها إلى غيرها، وكان أبو سفيان، قد حبس عير بني زهرة؛ لأنهم رجعوا من طريق بدر، وسلّم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبني أبيه وبني عبد مناف بن زهرة، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بني زهرة جميعاً، وتكلم الأخنس، فقال: وما لعير بني زهرة من بين عيرات قريش! قال أبو سفيان: لأنهم رجعوا عن قريش، قال الأخنس: أنت أرسلت إلى قريش أن أرجعوا فقد أحرزنا العير، لا تخرجوا في غير شيء، فرجعنا، فأخذت بنو زهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة، كلّ ما كان لهم في العير.

قال الواقدي: وهذا يبين أنه إنما أخرج القوم أرباح العير. قال: وفيهم أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) الآية.

قال: فلما أجمعوا على المسير، قالوا: نسير في العرب فنستنصرهم، فإن عبد مناة غير متخلفين عنا، هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسرون في العرب، يدعونهم إلى نصرهم، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وابن الزبير وأبا عزة الجمحي، فأبى أبو عزة أن يسير وقال: مَنْ عليّ محمد يوم بدر، وحلفت ألا أظاهر عليه عدواً أبداً. فمشى إليه صفوان بن أمية فقال: اخرج فأبى، وقال:

(١) الموتور: من قتل له قتيلاً فلم يدرك بدمه، القاموس، مادة (وتر).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

عاهدتُ محمداً يوم بدر ألا أظاهر عليه عدواً أبداً، وأنا أفي له بما عاهدته عليه، مَنْ عليّ ولم يَمُنْ عليّ غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء. فقال صفوان: اخرج معنا، فإن تسلّم أعطك من المال ما شئت، وابن تُقَتِّل تَكُنْ عيالك مع عيالي. فأبى أبو عزة، حتى كان الغد، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيساً منه، فلما كان الغد جاء صفوان وجبير بن مطعم، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى، فقال جبير: ما كنتُ أظنّ أني أعيش حتى يمشي إليك أبو وهب في أمر تأبى عليه! فأحفظه، فقال: أنا أخرج، قال: فخرج إلى العرب يجمعها، ويقول:

إيه بني عبد مناة الرزّام أنتم حماة وأبوكم حام
لا تُسلموني لا يحلّ إسلام لا يعدّونني نصرُكم بعد العام

وخرج النفر مع أبي عزة فألبوا العرب وجمعوا، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا. فلما أجمعوا المسير وتألّب مَنْ كان معهم من العرب وحضروا، واختلفت قريش في إخراج الظعن معهم، قال صفوان بن أمية: اخرجوا بالظعن فانا أول من فعل، فإنه أقمن أن يحفظنكم ويدّخرنكم قتلى بدر، فإن العهد حديث، ونحن قوم موتورون مستميتون، لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثارنا أو نموت دونه. فقال عكرمة بن أبي جهل: أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك، فمشى في ذلك نوفل بن معاوية الديلي، فقال: يا معشر قريش، هذا ليس برأي، أن تعرّضوا حُرْمَكُم لعدوكم، ولا آمن أن تكون الدّبرة لهم فتفتضحوا في نساتكم. فقال صفوان: لا كان غير هذا أبداً فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب، فقال له تلك المقالة، فصاحت هند بنت عتبة: إنك والله سلّمت يوم بدر، فرجعت إلى نساتك، نعم نخرج فنشهد القتال، فقد رُدّت القيان من الجحفة في سفرهم إلى بدر، فقتلت الأحبة يومئذ. فقال أبو سفيان: لستُ أخالف قريشاً، أنا رجلٌ منها، ما فعلتُ فعلت. فخرجوا بالظعن، فخرج أبو سفيان بن حرب بامراتين: هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة.

وخرج صفوان بن أمية بامراتين: برزة بنت مسعود الثقفي وهي أم عبد الله الأكبر والبغوم بنت المعذل من كنانة، وهي أم عبد الله الأصغر، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامراته سُلَافَة بنت سعد بن شهيد، وهي من الأوس، وهي أم بني: مسافع، والحرث، وكلاب والجلال بني طلحة بن أبي طلحة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامراته أم حكيم بنت الحرث بن هشام، وخرج الحرث بن هشام بامراته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج عمرو بن العاص بامراته هند بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص - وقال محمد بن إسحاق: اسمها ربيعة -.

وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير، أخي مُضْعَب بن عمير من بني عبد الدار، وخرج الحرث بن سفيان بن عبد

الأسد بامراته رَمْلَة بنت طارق بن علقمة الكنانية، وخرج كنانة بن علي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بامراته أم حكيم بنت طارق، وخرج سفيان بن عوف بامراته قتيبة بنت عمرو بن هلال، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه، بأمهما الدغينة، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بامراته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها، وفيها يقول حسان:

ولولا لواء الحارثية أصبَحُوا يباعون في الأسواق بالشَّمْنِ البَحْسِ

قالوا: وخرج سفيان بن عوف بعشرة من ولده، وحشدت بنو كنانة. وكانت الألوية يوم خرجوا من مكة ثلاثة عقدوها في دار الندوة، لواء يحمله سفيان بن عوف لبني كنانة، ولواء الأحابيش يحمله رجل منهم، ولواء لقريش يحمله طلحة بن أبي طلحة.

قال الواقدي: ويقال خرجت قريش ولقيها كلهم، من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحد، يحمله طلحة بن أبي طلحة. وهو الأثبت عندنا.

قال: وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى إليها، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل، وخرجوا بعدة وسلاح كثير، وقادوا مائتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دراع وثلاثة آلاف بعير. فلما أجمعوا على المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، وأستأجر رجلاً من بني غفار، وشرط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يخبره أن قريشاً قد اجتمعت للمسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حللوا بك فاصنعه. وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتي فرس، وفيهم سبعمائة دراع، وثلاثة آلاف بعير، وقد أوعبوا من السلاح. فقدم الغفاري فلم يجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وجده بقباء، فخرج حتى وجد رسول الله ﷺ على باب مسجد قباء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبي بن كعب، واستكتم أبيًا ما فيه، ودخل منزل سعد بن الربيع، فقال: أفي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فجعل سعد يقول: يا رسول الله، والله إنني لأرجو أن يكون في ذلك خير، وأرجعت يهود المدينة والمنافقون.

وقالوا: ما جاء محمداً شيء يحبه، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد استكتم سعد بن الربيع الخبر. فلما خرج رسول الله ﷺ من منزله، خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه، فقالت: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قال: مالك ولذاك، لا أم لك! قالت: كنت أستمع عليكم، وأخبرت سعد الخبر، فاسترجع سعد، وقال: لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله ﷺ: تكلم بحاجتك! ثم أخذ يجمع لمتيها، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله ﷺ بالجسر، وقد بلّحت^(١)، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي سألتني عما قلت

(١) أعيت. القاموس المحيط، مادة (بلح).

فكتمتها، فقالت: قد سمعتُ قولَ رسول الله ﷺ، ثم جاءت بالحديث كله - فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتظن أنني أفشيت سرَّك، فقال ﷺ: «خَلَّ سَبِيلَهَا»^(١). وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش. وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفرٍ من خُزاعة، ساروا من مكة أربعاً، فوافوا قريشاً وقد عسكروا بذي طوى، فأخبروا رسول الله ﷺ الخبر، ثم انصرفوا ولقوا قريشاً ببطن رابغ، وهو أربع ليالٍ من المدينة، فنگبوا عن قريش.

قال الواقدي: فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس مُفسين إلى مكة، قال أبو سفيان: أحلف بالله أنهم جاؤوا محمداً فخبروه بمسيرنا وعددنا، وحذروه منا، فهم الآن يلزمون صياصيتهم^(٢)، فما أرانا نصيب منهم شيء في وجهنا. فقال صفوان بن أمية: إن لم يُصَحِّروا لنا عمَدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم، فلا يختارونها أبداً، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وثر عندهم ولا وثر لهم عندنا.

قال الواقدي: وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلاً من الأوس، حتى قديم بهم مكة حين قدم النبي ﷺ يحرضها ويُعلمها أنها على الحق. وما جاء به محمد باطل، فسارت قريش إلى بدر، ولم يسر معها، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها، وكان يقول لقريش: إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان، وهؤلاء معي نفرٌ منهم خمسون رجلاً. فصَدَّقوه بمال قال، وطمَعوا في نصره.

قال الواقدي: وخرج النساء معهن الذفوف يحرضن الرجال ويذكرنهم قتلى بدر في كل منزل، وجعلت قريش تنزل كل منهل، ينحرون ما نحروا من الجُزُر مما كانوا جمعوا من العين، ويتقوون به في مسيرهم، ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال.

قال الواقدي: وكانت قريش لما مرت بالأبواء، قالت: إنكم قد خرجتم بالظعن معكم، ونحن نخاف على نساتنا، فتعالوا نبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة، فإن يصب من نساكنكم أحداً قلتم هذه رمة أمك، فإن كان برأ بأمه - كما يزعم - فلعمري لنفادينكم برمة أمه، وإن لم يظفر بأحد من نساكنكم فلعمري ليفدين رمة أمه بمال كثير إن كان بها برأ. فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك، فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخُزاعة موتانا.

قال الواقدي: وكانت قريش بذي الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة،

(١) أخرجه اليوسفي في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢٥٧/٢.

(٢) الصياصي: الحصون، القاموس المحيط، مادة (صيص).

وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، فلما أصبحوا بذى الحليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء، وبعث النبي ﷺ عيين له، أنساً ومؤنساً ابني فضالة ليلة الخميس، فاعترضا لقريش بالعقيق، فسارا معهم، حتى نزلوا الوطاء، وأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه، وكان المسلمون قد ازدرعوا العِرض - والعرض ما بين الوطاء بأحد إلى الجُرف إلى العِرض، عِرضة البقل اليوم، وكان أهله بنو سليمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يرمم سابق الناضح مجلساً واحداً ينقتل الجمل في ساعته، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التي حفرها معاوية بن أبي سفيان، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة، فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إيلهم وخبولهم، وكان لأسيد بن خضير في العرض عشرون ناضحاً تسقي شعيراً، وكان المسلمون قد حذروا على جمالهم وعمالهم وآلة حرثهم، وكان المشركون يرعون يوم الخميس، فلما أمسوا جمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل وقصلوا على خبولهم ليلة الجمعة، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلوا ظهرهم في الزرع وخبيلهم، حتى تركوا العرض ليس به خضراء.

قال الواقدي: فلما نزلوا وحلوا العُقْد، واطمأنوا بعث رسول الله ﷺ الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم وخزر ونظر إلى جميع ما يريد، وكان قد بعثه سراً، وقال له: إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلة، فرجع إليه فأخبره خالياً، وقال له: رأيت عدداً حزرتهم ثلاث آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخييل مائتا فرس، ورأيت دُرُوعاً ظاهرة حزرتها سبعمئة درع. قال: هل رأيت طُعناً؟ قال: نعم رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار - وهي الطبول - فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل! اللهم بك أحول، وبك أصول»^(١).

قال الواقدي: وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة، حتى إذا كان بأدنى العرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا في أثره، فوقف لهم على نَشْر من الحرة، فرشقهم بالنبل مرة، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه، فلما ولّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض، فاستخرج سيفاً كان له، ودرع حديد كان له، دفنا في ناحية المزرعة، وخرج بهما يعدو، حتى أتى بني عبد الأشهل، فخبر قومه بما لقي.

قال الواقدي: وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال، وكانت الوقعة يوم

(١) أخرج نحوه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: ما يدعى عند اللقاء (٢٢٣٢)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث صهيب (٢٣٤١٠)، وأبي شيبة في «المصنف» (٣٣٤٢٤).

السبت لسبع خلون من شوال، وباتت وجوه الأوس والخزرج: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وسعد بن عباد، في عدة منهم ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد يباب النبي عليه السلام خوفاً من تبييت المشركين، وحُرست المدينة تلك الليلة، حتى أصبحوا، ورأى رسول الله عليه السلام رؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح واجتمع المسلمون خطبهم.

قال الواقدي: فحدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: ظهر النبي عليه السلام المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا، رأيت كأنني في درع حصينة، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انفصم من عند طَبَّته، ورأيت بقرأ تذبج، ورأيت كأنني مردف كبشاً، فقال الناس: يا رسول الله، فما أولُتها؟ قال: «أما الدرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انفصام سيفي عند طَبَّته فمصبية في نفسي، وأما البقر المذبج فقتلى في أصحابي، وأما أني مردف كبشاً فكبش الكنية نقتله إن شاء الله»^(١).

قال الواقدي: وروى عن ابن عباس، أن رسول الله عليه السلام قال: «أما انفصام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي»^(٢).

قال الواقدي: وروي المسور بن مخرمة، قال: قال النبي عليه السلام: «ورأيت في سيفي فلا فكرهته»^(٣)، هو الذي أصاب وجهه عليه السلام.

قال الواقدي: وقال النبي عليه السلام: «أشيروا عليّ، ورأى عليه السلام ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، ورسول الله عليه السلام يحب أن يوافق على مثل ما رأى، وعلى ما عبّر عليه الرؤيا، فقام عبد الله بن أبي، فقال: يا رسول الله، كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة، ونجعل النساء والذراري في هذه الضيافي، ونجعل معهم الحجارة، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة، إعداداً لعدونا، ونشبت المدينة بالبيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الضيافي والآطام»^(٤)، ونقاتل بأسيا في السكك. يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فُضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدوّ قط منها إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خاسرين.

(١) أخرجه أحمد، كتاب: مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس (٢٤٤١)، والحاكم في «المستدرک» (٢٥٨٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٠٦١)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/٣٨)، واللفظ له.

(٢) هو عند ابن سعد في «الطبقات» (٢/٣٨): «فمصبية في نفسي».

(٣) أخرجه أحمد، كتاب: مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس (٢٤٤١). والحاكم في «المستدرک» (٢٥٨٨)، دون قوله: «فكرهته».

(٤) الآطام: الحصون المبنية بحجارة، والبيوت المربعة المسطحة. القاموس المحيط، مادة (أطم).

مغلوبين، لم ينالوا خيراً. يا رسول الله، أظعني في هذا الأمر، واعلم أنني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة.

قال الواقدي: فكان رأي رسول الله ﷺ مع رأي ابن أبي، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فقال رسول الله ﷺ: «امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دُخل علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، ورُموا من فوق الصياصي والآطام»^(١) - وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن - فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرأ، وطلبوا من رسول الله الخروج إلى عدوهم، ورجبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو، وقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، وقال رجال من أهل النبه وأهل السن، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عباد، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج: إنا نخشى يا رسول الله، أن يظن أننا كرهنا الخروج إليهم جُبناً عن لقائهم، فيكون هذا جراً منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل، فظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، وكنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه - ورسول الله ﷺ لما رأى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم، يتساومون كأنهم الفحول. وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحُسَيْنَيْن، إما يظفّرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله، ما نبالي أيهما كان، إن كلاً لفيه الخير. فلم يبلغنا أن النبي ﷺ رجع إليه قولاً، وسكت. وقال حمزة بن عبد المطلب: والذي أنزل عليه الكتاب، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة، وكان يقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت، فلا قاهم وهو صائم.

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم: يا رسول الله، أنا أشهد أن البقر المذبّح قتلى من أصحابك، وأني منهم، فلم تحرمنا الجنة! فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخّلنها. قال رسول الله: بيم؟ قال: إني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف. فقال: صدقت، فاستشهد يومئذ.

وقال إياس بن أوس بن عتيك: يا رسول الله، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبّح، نرجو يا رسول الله أن نذبح في القوم، ويذبح فينا، فنصير إلى الجنة، ويصيرون إلى النار، مع أنني يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها، فتقول: حصرنا محمداً في صياصي يشرب وآطامها، فتكون هذه جرأة لقريش، وقد وطئوا سَعَفنا، فإذا لم نذب عن عرضنا، فلم ندرع؟

(١) أخرج ابن سعد في «الطبقات» (٢/٢٨) نحوه.

وقد كُنَّا يا رسول في جاهليتنا، والعرب يأتوننا، فلا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيا فنادبهم عنا، فنحن اليوم أحق إذ آمدنا الله بك، وعرفنا مصيرنا، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا.

وقام خَيْثمة، أبو سعد بن خَيْثمة فقال: يا رسول الله، إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من أحايشها ثم جاؤونا قد قادوا الخيل، واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا، فيحصرونا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا، فيجرئونهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجترى علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذبهم عن حريمنا، وعسى الله أن يُظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى، فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعة بدر، وقد كنت عليها حريصاً، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمي، فرزق الشهادة وقد كنت حريصاً على الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول الحق بنا تراقبنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ودق عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة، فدعا له رسول الله بذلك، فقتل بأحد شهيداً.

قال أنس بن قنادة: يا رسول الله، هي إحدى الحسينين، إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر بقتلهم. فقال رسول الله ﷺ: «إني أخاف عليكم الهزيمة»^(١).

فلما أبوا إلا الخروج والجهاد، صلى رسول الله يوم الجمعة بالناس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم الصبر ما صبروا، وفرح الناس حيث أعلمهم رسول الله ﷺ بالشخص إلى عدوهم، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ثم صلى العصر بالناس، وقد حشد الناس، وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء إلى الآطام، فحضرت بنو عمر بن عوف يلقها، والنبيت ولقها، وتلبسوا السلاح، فدخل رسول الله ﷺ بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه ولبساء وصفت الناس له ما بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن معاذ، وأسيود بن خضير، فقالا لهم: قلتم لرسول الله ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج. والأمر ينزل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم فيه له هوى أو أدباً فاطيعوه.

فبينما القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخص، وبعضهم للخروج كاره، إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته، وقد

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار بما معناه: ١٢٥/٢٠.

لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من آدم كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، واعتم، وتقلد السيف. فلما خرج رسول الله ﷺ ندّموا جميعاً على ما صنعوا، وقال الذين يلحّون على رسول الله ﷺ: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك، فقال: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه - قال: وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه - ثم قال لهم: انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم.

قلت: فمن تأمل أحوال المسلمين في هذه الغزاة، من فشلهم وخورهم واختلافهم في الخروج من المدينة والمقام بها، وكراهة النبي ﷺ للخروج، ثم خروجه على مضض، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج، ثم انخزال طائفة كثيرة من الجيش عن الحرب، ورجوعهم إلى المدينة، علم أنه لا انتصار لهم على العدو أصلاً، فإن النصر معروف بالعزم والجد والبصيرة في الحرب، واتفاق الكلمة. ومن تأمل أيضاً هذه الأحوال، علم أنها ضد الأحوال التي كانت في غزاة بدر، وأن أحوال قريش لما خرجت إلى بدر كانت مماثلة لأحوال المسلمين لما خرجوا إلى أحد، ولذلك كانت الدبرة في بدر على قريش.

قال الواقدي: وكان مالك بن عمرو النجاري مات يوم الجمعة، فلما دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز، صلى عليه، ثم دعا بدابته، فركب إلى أحد.

قال الواقدي: وجاء جُعَيْل بن سُراقَة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى أحد، فقال: يا رسول الله، قيل لي: إنك تُقتل غداً - وهو يتنفس مكروباً - فضرب النبي ﷺ بيده إلى صدره، وقال: «أليس الدهر كله غداً»^(١)! قال: ثم دعا بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن خضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح - ويقال إلى سعد بن عباد - ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب عليه السلام - ويقال إلى مصعب بن عمير - ثم دعا بفرسه، فركبه، وتقلد القوس وأخذ بيده قناة - زج الرمح يومئذ من شبه - والمسلمون متلبسون السلاح، قد أظهروا الدروع، فهم مائة دارع، فلما ركب ﷺ

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/٢٤٥).

خرج السَّعْدَانِ أَمَامَهُ يَعْذُوَانِ: سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دَارِعٌ، وَالنَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ حَتَّى سَلَكَ عَلَى الْبِدَائِعِ، ثُمَّ زَقَّاقَ الْحُسَى، حَتَّى أَتَى الشَّيْخِينَ - وَهُمَا أَطْلَمَانِ كَانَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِيهِمَا شَيْخٌ أَعْمَى وَعَجُوزٌ عَمِيَاءُ يَتَحَدَّثَانِ، فَسَمِيَ الْأَطْلَمَانِ الشَّيْخِينَ - فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَأْسِ الثَّنِيَّةِ، التَفَتَ فَنَظَرَ إِلَى كَتِيبَةٍ خَشَنَاءَ لَهَا زَجَلٌ خَلْفَهُ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: هَذِهِ حُلَفَاءُ بَنِ أَبِي مِنَ الْيَهُودِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا نَسْتَنْصِرُ بِأَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ». وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَرَضَ عَسْكَرَهُ بِالشَّيْخِينَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ غُلَمَانِ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَالتَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَأَسِيدُ بْنُ ظَهِيرٍ، وَعَرَابَةُ بْنُ أَوْسٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ، وَسَمُرَةُ بْنُ جَنْدَبٍ، وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: فَرَدَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ: فَقَالَ ظَهِيرُ بْنُ رَافِعٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَامَ يَمِينِي. قَالَ: وَجَعَلْتُ أَتَطَاوُلُ، وَعَلَيَّ خُفَّانِ لِي، فَأَجَازَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَجَازَنِي قَالَ سَمُرَةُ بْنُ جَنْدَبٍ لِمَرِيٍّ بِنِ سَنَانِ الْحَارِثِيِّ - وَهُوَ زَوْجُ أُمِّهِ: يَا أَبِيَّ، أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ، وَرَدَّنِي وَأَنَا أَصْرَعُ رَافِعًا فَقَالَ مَرِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَدَدْتَ ابْنِي، وَأَجَزْتَ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ وَابْنِي بِصَرْعِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَصَارَعَا»، فَصَرَعَ سَمُرَةُ رَافِعًا، فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ، وَأَقْبَلَ ابْنُ أَبِي، فَتَزَلَّ نَاحِيَةَ الْعَسْكَرِ، فَجَعَلَ حُلَفَاؤُهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَ لِبَنِ أَبِي: أَشْرْتَ عَلَيْهِ بِالرَّأْيِ، وَنَصَحْتَهُ وَأَخْبَرْتَهُ أَنَّ هَذَا رَأْيُ مَنْ مَضَى مِنْ أَبَائِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ رَأْيَهُ مَعَ رَأْيِكَ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ، وَأَطَاعَ هَؤُلَاءِ الْغُلَمَانِ الَّذِينَ مَعَهُ. قَالَ: فَصَادَفُوا مِنْ ابْنِ أَبِي نِفَاقًا وَغُشًّا، فَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالشَّيْخِينَ، وَبَاتَ ابْنُ أَبِي فِي أَصْحَابِهِ، وَفَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَرَضِ مَنْ عَرَضَ، وَغَابَتِ الشَّمْسُ، فَأَذَّنَ بِلَالٌ بِالْمَغْرَبِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، ثُمَّ أَذَّنَ بِالْعِشَاءِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَازِلٌ فِي بَنِي النَّجَّارِ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْحَرَسِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فِي خَمْسِينَ رَجُلًا يُطِيفُونَ بِالْعَسْكَرِ، حَتَّى ادَّلَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ ادَّلَجَ، وَنَزَلَ بِالشَّيْخِينَ، فَجَمَعُوا خَيْلَهُمْ وَظَهَرَهُمْ، وَاسْتَعْمَلُوا عَلَى حَرَسِهِمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَبَاتَتْ صَاهِلَةُ خَيْلِهِمْ لَا تَهْدَأُ، تَدْنُو طَلَانِعَهُمْ، حَتَّى تَلْصُقَ بِالْحَرَّةِ، فَلَا تَصْعَدُ فِيهَا حَتَّى تَرْجِعَ خَيْلَهُمْ، وَيَهَابُونَ مَوْضِعَ الْحَرَّةِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ صَلَّى الْعِشَاءَ: «مَنْ يَحْفَظُنَا اللَّيْلَةَ؟» قَالَ رَجُلٌ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ؟» قَالَ: ذَكَوَانُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ: «اجْلِسْ»، ثُمَّ قَالَ ثَانِيَةً: مَنْ رَجُلٌ يَحْفَظُنَا اللَّيْلَةَ؟ فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ؟» قَالَ: أَبُو سَبْعٍ، قَالَ: «اجْلِسْ»،

ثم قال ثالثة مثل ذلك، فقام رجل، فقال: «مَنْ أَنْتَ؟» فقال: أنا ابن عبد قيس، فمكث رسول الله ﷺ ساعة، ثم قال: قوموا ثلاثكم، فقام ذكوان بن عبد قيس، فقال رسول الله: «وَأَيْنَ صَاحِبَاكَ؟» فقال ذكوان: أنا الَّذِي كُنْتَ أَجِيئُكَ اللَّيْلَةَ! قال: «فَاذْهَبْ حَفِظَكَ اللَّهُ».

قلت: قد تقدّم هذا الحديث بذاته في غزوة بدر، وظاهر الحال أنه مكرّر، وأنه إنما كان في غزاة واحدة، ويجوز أن يكون قد وقع في الغزاتين، ولكن على بعد.

قال الواقدي: فليس ذكوان دُرْعَةً، وأخذ دَرَقَتَهُ، فكان يطوف على العسكر تلك الليلة، ويقال: كان يحرس رسول الله ﷺ لم يفارقه.

قال: ونام رسول الله ﷺ حتى ادّج، فلمّا كان في السَّحَرِ، قال رسول الله: «أَيْنَ الْأَدْلَاءُ؟» مَنْ رَجُلٌ يَدُلُّنَا عَلَى الطَّرِيقِ، وخرجنا على القوم من كَثَبٍ؟ فقام أبو خثيمة الحارثي، فقال: أنا يا رسول الله، ويقال: أوس بن قِظِيٍّ ويقال: مَحْبِصَةٌ.

قال الواقدي: وأثبت ذلك عندنا أبو خثيمة خرج برسول الله ﷺ، وركب فرسه، فسلّك به في بني حارثة، ثم أخذ في الأموال حتى مرّ بحائط مِرْبَعِ بْنِ قِظِيٍّ، وكان أعمى البصر منافقاً، فلمّا دخل رسول الله ﷺ حائطه، قام يحثي التراب في وجوه المسلمين، ويقول: إِنْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَلَا تَدْخُلْ حَائِطِي، فَلَا أَجَلَهُ لَكَ.

قال محمد بن إسحاق: وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب، وقال: والله لو أعلم أنني لا أصيب غيرك يا محمد لضربت بها وجهك.

قال الواقدي: فضربه سعد بن زيد الأشهلي بقوس في يده فشجّه في رأسه، فنزل الدّم، فغضب له بعض بني حارثة ممّن هو على مثل رأيه، فقال: هي على عداوتكم يا بني عبد الأشهل، لا تدعونها أبداً لنا! فقال أسيد بن خُصِيرٍ: لا والله، ولكن نفاقكم، والله لولا أنني لا أدري ما يوافق النبي ﷺ لضربت عنقه وعنق مَنْ هو على مثل رأيه.

قال: ونهاهم النبي ﷺ عن الكلام فأسكتوا.

وقال محمد بن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ، فَإِنَّهُ أَعْمَى الْبَصَرِ، أَعْمَى الْقَلْبِ».

يعني مِرْبَعِ بْنِ قِظِيٍّ.

قال الواقدي: ومضى رسول الله ﷺ، فبينما هو في مسيرة إذ ذبّ فرس أبي بردة بن نيار بذنبه فأصاب كُلابَ سيفه، فسَلَّ سيفه، فقال رسول الله ﷺ: «يَا صَاحِبَ السَّيْفِ، شِمَّ سَيْفَكَ، فَإِنِّي أَخَالَ السَّيُوفَ سَتَسَلُّ الْيَوْمَ فَيَكْثُرُ سَلُّهَا».

قال: وكان رسول الله ﷺ يحبّ

الفال، ويكره الظيرة^(١)، قال: ولبس رسول الله ﷺ من الشَّيْخِينَ درعاً واحدة، حتى انتهى إلى أحد، فلبس درعاً أخرى ومغفرأ، وبيضة فوق المغفر، فلما نهض رسول الله ﷺ من الشَّيْخِينَ، زحف المشركون على تعبية حتى انتهوا إلى موضع أرض ابن عامر اليوم، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى موضع القنطرة اليوم جاءه وقد حانت الصلاة، وهو يرى المشركين، فأمر بلااً فأذن، وأقام وصلى بأصحابه الصُّبح صفوفاً.

وانخزل عبدُ الله بن أبي من ذلك المكان في كتيبه، كأنه هَيْقَه^(٢) تقدّمهم، فاتّبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: أذكركم الله ودينكم ونيّكم، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم! فقال ابنُ أبي: ما أرى أنه يكون بينهم قتال، وإن أطعني يا أبا جابر لترجعن، فإنَّ أهلَ الرأي والحجّى قد رجعوا، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالفنا، وأشرتُ عليه بالرأي فأبى إلا طواعية الغلمان. فلما أبى على عبد الله بن عمرو أن يرجع، ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة، قال لهم أبو جابر: أبعذكُم الله! إنَّ الله سيُغني النبي والمؤمنين عن نصركم. فانصرف ابنُ أبي وهو يقول: أيعصيني ويطيع الولدان! وانصرف عبدُ الله بن عمرو يعدو حتى لحق رسولَ الله وهو يسوي الصفوف، فلما أصيب أصحاب رسول الله ﷺ سرَّ ابنُ أبي، وأظهر الشماتة، وقال: عصاني وأطاع مَنْ لا رأي له!

قال الواقدي: وجعل رسول الله ﷺ يصف أصحابه، وجعل الرماة خمسين رجلاً على عَيْنين، عليهم عبد الله بن جُبَيْر - ويقال: سعد بن أبي وقاص، والثَّبت أنه عبد الله بن جُبَيْر - قال: وجعل أحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة وجعل عَيْنين عن يساره، وأقبل المشركون، واستدبروا المدينة في الوادي، واستقبلوا أحداً، ويقال: جعل عَيْنين خلف ظهره، واستدبر الشمس، واستقبلها المشركون.

قال: والقول الأول أثبت عندنا، أن أحداً كان خلف ظهره، وهو ﷺ مستقبل المدينة.

قال: ونهى أن يقاتل أحدٌ حتى يأمرهم بالقتال، فقال عُمارة بن يزيد بن السَّكَن: أني نُغير على زرع بني قَيْلَة ولما نضارب! وأقبل المشركون قد صفوا صفوفهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ولهم مجنبتان، مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية - ويقال عمرو بن العاص - وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام، ودفعوا اللّواء إلى طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي - وصاح أبو سفيان يومئذ: يا بني عبد الدار، نحن نعرف أنكم

(١) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: المسند السابق (٨١٩٢).

(٢) الهيق: ذكر النعام، يريد سرعة ذهابه. اللسان، مادة (هيق).

أحقّ باللواء منا، وأنا إنما أتينا يوم بدر من اللواء، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم، فالزموا لواءكم، وحافظوا عليه، وخلّوا بيننا وبينه، فإنّا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثأراً حديث العهد. وجعل يقول: إذا زالت الألوية، فما قوام الناس ويقاؤهم بعدها! فغضبت بنو عبد الدار، وقالوا: نحن نسلّم لواءنا! لا كان هذا أبداً! وأمّا المحافظة عليه فستري. ثم أسندوا الرّماح إليه، وأحدثت به بنو عبد الدار، وأغلظوا لأبي سفيان بعض الإغلاظ، فقال أبو سفيان: فنجعل لواء آخر؟ قالوا: نعم، ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار، لا كان غير ذلك أبداً.

قال الواقدي: وجعل رسول الله ﷺ يمشي على رجله، يسوي تلك الصفوف، ويتوي أصحابه مقاعد للقتال، يقول: تقدّم يا فلان، وتأخّر يا فلان، حتّى إنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخّره، فهو يقومهم كأنما يقوم القِداح، حتّى إذا استوت الصفوف، سأل: مَنْ يحمل لواء المشركين؟ قيل: عبد الدار، قال: نحن أحقّ بالوفاء منهم، أين مُصعب بن عمير؟ قال: ها أنذا. قال: خذ اللواء، فأخذه مصعب فتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ.

قال البلاذري: أخذه من عليّ عليه السلام، فدفعه إلى مصعب بن عمير؛ لأنه من بني عبد الدار.

قال الواقدي: ثم قام عليه السلام، فخطب الناس، فقال ﷺ: «أيّها الناس، أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخّر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجِدّ والنشاط، فإنّ جهاد العدو شديد كربه، قليل مَنْ يصبر عليه، إلّا مَنْ عزم له على رشده. إنّ الله مع مَنْ أطاعه، وإن الشيطان مع مَنْ عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به، فإنّي حريص على رشدكم. إنّ الاختلاف والتنازع والتشيط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحبّه الله، ولا يعطي عليه النصر والظفر. أيّها الناس إنه قدّيف في قلبي أنّ مَنْ كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه، ومَنْ صلى على محمد صلى الله عليه وملائكته عشراً، ومَنْ أحسن، من مسلم أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو في أجل آخرته، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة، إلّا صبيّاً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومَنْ استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنيّ حميد. ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلّا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلّا وقد نهيتكم عنه، وإنّه قد نفّث الروح الأمين في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتّقوا الله ربّكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربّكم، فإنه لا يُقدر على ما عنده إلا بطاعته، قد بين لكم الحلال والحرام، غير أنّ بينهما شُبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلّا مَنْ عصم، فمن تركها حفظ عِرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالرّاعي إلى جنب الحمى أو شك أن يقع فيه

وفعله، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده. والسلام عليكم^(١).

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سبرة، عن خالد بن رباح، عن المطلب بن عبد الله، قال: أول من أنشب الحرب بينهم أبو عامر، طلع في خمسين من قومه، معه عبيد قريش فنادى أبو عامر - واسمه عبد عمرو - يا للأوس! أنا أبو عامر، قالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً، يا فاسق! قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. قال: ومعه عبيد أهل مكة، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون، حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولى أبو عامر وأصحابه، ويقال: إن العبيد لم يقاتلوا، وإنهم أمروهم بحفظ عسكرهم.

قال الواقدي: وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقي الجمعان أمام صفوف المشركين يضربن بالأكبار والدِّفَاف والغرابيل، ثم يرجعن فيكنّ إلى مؤخر الصف، حتى إذا دنوا من المسلمين تأخر النساء، فقمّن خلف الصفوف، وجعل كلما ولى رجل حرّضته، وذكرته قتلى بدر.

وقال الواقدي: وكان قُزَمان من المنافقين، وكان قد تخلف عن أحد، فلما أصبح غيره نساء بني ظُفَر، فقلن: يا قُزَمان، قد خرج الرجال وبقيت استحي يا قُزَمان، ألا تستحيي مما صنعت! ما أنت إلا امرأة، خرج قومك وبقيت في الدار! فأحفظته، فدخل بيته، فأخرج قوسه وجعبته وسيفه - وكان يعرف بالشجاعة - وخرج يعدو، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يسوي صفوف المسلمين، فجاء من خلف الصف، حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان فيه، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين، جعل يرسل نبلًا كأنها الرماح، وإنه ليكنّ كتيبت الجمل ثم صار إلى السيف، ففعل الأفاعيل، حتى إذا كان آخر ذلك قتل نفسه. وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال: من أهل النار. قال: فلما انكشف المسلمون، كسر جفن سيفه وجعل يقول: الموت أحسن من الفرار. يا للأوس! قاتلوا على الأحساب، واصنعوا مثل ما أصنع. قال: فدخل بالسيف وسط المشركين، حتى يقال: قد قتل، ثم يطلق فيقول: أنا الغلام الظفري، حتى قتل منهم سبعة، وأصابته الجراحة، وكثرت فيه، فوقع فمرّ به قتادة بن النعمان، فقال له: أبا الغيداق، قال قزمان: لبيك، قال: هنيئاً لك الشهادة! قال قزمان: إني والله ما قاتلتُ يا أبا عمرو على دين ما قاتلت إلا على الحفظ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سَعَفنا، قال: فأذته الجراحة فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في سننه رقم: ١٢٢١.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٣٠٦٢) ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١١)، وأحمد في مسنده (٨٠٢٩) والدارمي في السير، باب إن شاء الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٢٥١٧).

قال الواقدي: وتقدم رسول الله ﷺ إلى الرماة، فقال: «احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن نوثى من ورائنا، والزموا مكانكم، لا تبرخوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنا. اللهم إني أشهدك عليهم، ارشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل»^(١)، وكان للمشركين مجنبتان: ميمنة عليها خالد بن الوليد، وميسرة عليها عكرمة بن أبي جهل.

قال الواقدي: وعمل رسول الله ﷺ لنفسه ميمنة وميسرة، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن خضير، ولواء الخزرج إلى سعد بن عباد - وقيل: إلى الحباب بن المنذر - فجعلت الرماة تحمي ظهور المسلمين، وترشق خيل المشركين بالنبل، فولت هاربه، قال بعض المسلمين: والله لقد رمقت نبلنا يومئذ، ما رأيت سهماً واحداً مما يرمى به خيلهم يقع في الأرض، إما في فرس أو في رجل، ودنا القوم بعضهم من بعض، وقدموا طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم، وصفوا صفوفهم، وأقاموا النساء خلف الرجال يضربن بين أكتافهم بالأكبار والدفوف، وهند وصواحبها يحرضن ويذمرن الرجال، ويذكرن من أصيب ببدر، ويقلن:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تُقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

قال الواقدي: وبرز طلحة، فصاح: من يبارز؟ فقال عليّ عليه السلام له: هل لك في مبارزتي؟ قال: نعم، فبرزوا بين الصّفيين ورسول الله ﷺ جالس تحت الراية، عليه درعان ومغفر وبيضته، فالتقيا، فبدره عليّ عليه السلام بضربة على رأسه، فمضى السيف حتى فلق هامته إلى أن انتهى إلى لحيته فوق، وانصرف عليّ عليه السلام، فقيل له: هلا ذقت عليه؟ قال: إنه لما صرع استقبلني بعورته، فعطفني عليه الرّحم، وقد علمت أن الله سيقته، هو كبش الكتبية.

قال الواقدي، وروي أن طلحة حمل على عليّ عليه السلام، فضربه بالسيف، فاتقاء بالدرقة، فلم يصنع شيئاً، وحمل عليّ عليه السلام وعلى طلحة درع ومغفر، فضربه بالسيف، فقطع ساقه، ثم أراد أن يذّقف عليه، فسأله طلحة بالرّحم ألا يفعل، فتركه ولم يذّقف عليه.

قال الواقدي: ويقال: إن علياً عليه السلام ذّقف عليه، ويقال: إن بعض المسلمين مرّ به في المعركة فذّقف عليه. قال: فلما قتل طلحة سرّ رسول الله ﷺ وكبر تكبيراً عالياً وكبر

(١) أخرج أحمد، نحوه في «المسند»، كتاب: مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس (٢٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (١٠٧٣١) دون قوله: «اللهم إني أشهدك... إلخ».

المسلمون، ثم شد أصحاب رسول الله ﷺ على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون وجوههم، حتى انتقضت صفوفهم، ولم يقتل إلا طلحة بن أبي طلحة وحده.
قال الواقدي: ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبي طلحة، وهو أبو شيبة، فارتجز وقال:

إِنَّ عَلَيَّ رَبَّ اللِّوَاءِ حَقًّا أَنْ تُخَضَّبَ الصُّغْدَةُ أَوْ تَنْدَقَا

فتقدم باللواء والنسوة خلفه، يحترضن ويضربن بالدفوف، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله، فضربه بالسيف على كاهله، فقطع يده وكتفه، حتى انتهى إلى مؤترزه فبدا سخره، ورجع، فقال: أنا ابن ساقى الحجيج، ثم حمل اللواء أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرتة - وكان دراعاً، وعليه مغفر لا رفرف عليه، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه إدلاع الكلب.

قال الواقدي: وقد روي أن أبا سعد لما حمل اللواء، قام النساء خلفه يقلن:

ضَرْباً بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ضَرْباً حُمَاةَ الْأَذْيَارِ
ضَرْباً بِكُلِّ بَنِي الدَّارِ

قال سعد بن أبي وقاص: فأحبل عليه فأقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء باليد اليسرى، فأضربه على يده اليسرى، فقطعتها، فأخذ اللواء بذراعيه جميعاً وضمه إلى صدره، وحنى عليه ظهره. قال سعد: فأدخل سيّة القوس بين الدرع والمغفر، فأقلع المغفر، فأرمي به وراء ظهره، ثم ضربته حتى قتلتة، وأخذت أسلبه درعه، فنهض إليّ سبيع بن عبد عوف ونفر معه فمنعوني سلبه، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين. درع فضفاضة، ومغفر وسيف جيّد، ولكن حيل بيني وبينه.

قال الواقدي: وهذا أثبت القولين.

قلت: شتان بين عليّ وسعد! هذا يجاحش على السلب ويتأسف على فواته، وذلك يقتل عمرو بن عبد ود يوم الخندق، وهو فارس قریش وصنديدها ومبارزه، فيعرض عن سلبه، فيقال له: كيف تركت سلبه وهو أنفـس سلب! فيقول: كرهت أن أبز السبي ثيابه، فكان حبيباً عنه بقوله:
إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدُ الْغَابِ هَمُّهَا يَوْمَ الْكَرْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

قال الواقدي: ثم حمل لواء المشركين بعد أبي سعد بن أبي طلحة مسافع بن أبي طلحة،

فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله، فحمل إلى أمه سلافة بنت سعد بن الشهيد، وهي مع النساء بأحد، فقالت: من أصابك؟ قال: لا أدري، سمعته يقول: خذها وأنا ابن الأقلح، فقالت: أفلحني والله! أي هو من رمطي - وكانت من الأوس.

قال الواقدي: وروي أن عاصماً لما رماه، قال له: خذها وأنا ابن كسرة، وكانوا يقال لهم في الجاهلية: بنو كسر الذهب، فقال لأمه: لا أدري، إلا أنني سمعته يقول: خذها وأنا ابن كسرة، فقالت سلافة: أوسني والله كسري، أي أنه متا، فيومئذ نذرت سلافة أن تشرب في قحف رأس عاصم بن ثابت الخمر، وجعلت لمن جاءها به مائة من الإبل.

قلت: فلما قتله المشركون في يوم الرجيع أرادوا أن يأخذوا رأسه، فيحملوه إلى سلافة فحتمته الذئب يومه ذلك، فلما جاء اليل فظنوا أن الذئب لا تحميه ليلاً، جاء الوادي بسيل عظيم، فذهب برأسه وبدنه. اتفق المؤرخون على ذلك.

قال الواقدي: ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله الزبير بن العوام، ثم حملة أخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله، ثم حملة أوطاة بن عبد شرجيل، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم حملة شريح بن قانط، فقتل لا يُدرى من قتله، ثم حملة صواب، غلام بني عبد الدار، فاختلف في قتله فقيل: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل سعد بن أبي وقاص. وقيل: قُزَمان، وهو أثبت الأقوال.

قال الواقدي: انتهى قُزَمان إلى صواب، فحمل عليه، فقطع يده اليمنى، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى، فاحتضن اللواء بذراعيه وعُضُدَيْهِ، وَخَنَى عليه ظهره، وقال: يا بني عبد الدار، هل اغدرت؟ فحمل عليه قُزَمان فقتله.

قال الواقدي: وقالوا: ما ظفر الله تعالى نبيّه في موطن قط ما ظفّره وأصحابه يوم أحد، حتى عصوا الرسول ﷺ، وتنازعوا في الأمر، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهم لا يلوون، ونساؤهم، يدعون بالويل بعد ضرب الدّفاف والفرح.

قال الواقدي: وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحداً، قال كل واحد منهم: والله إنني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمت، ما دون أخذهن شيء لمن أراده، ولكن لا مردّ لقضاء الله. قالوا: وكان خالد بن الوليد كلما أتى من قبل ميسرة النبي ﷺ ليجوز حتى يأتيهم من قبل السّفح، ترده الرّماة، حتى فعل وفعلوا ذلك مراراً، ولكن المسلمين أوتوا من قبل الرّماة، أن رسول الله ﷺ أوعز إليهم فقال: «قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا». فلما انهزم المشركون، تبعهم المسلمون

يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا حتى أجهزوهم عن المعسكر، ووقعوا ينتهبونه. قال بعض الرماة لبعض: لم تقيمون هاهنا في غير شيء! قد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين، فاغنموا مع إخوانكم، فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم: «احموا ظهورنا، وإن غنمنا فلا تشركونا»، فقال الآخرون: لم يرد رسول الله ﷺ هذا، وقد أذل الله المشركين وهزمهم، فادخلوا المعسكر، فانتهبوا مع إخوانكم. فلما اختلفوا خطبتهم أميرهم عبد الله بن جبير، وكان يومئذ معلماً بشاب بيض، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله، وألا يخالف أمره، فعصوه، وانطلقوا فلم يبق معه إلا نفرٌ ما يبلغون العشرة، منهم الحارث بن أنس بن رافع، يقول: يا قوم، اذكروا عهد نبيكم إليكم، وأطيعوا أميركم. فأبوا، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلوا الجبل، وانتقضت صفوف المشركين، واستدارت رحالهم، ودارت الريح - وكانت إلى أن انتقض صفوفهم صبا، فصارت دُبورا - فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكر بالخيـل، وتبعه عكرمة بالخيـل، فانطلقا إلى موضع الرماة، فحملوا عليهم، فرماهم القوم حتى أصيبوا، ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيث نبله، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه، فقاتل حتى قتل، وأفلت جعيل بن سراقة وأبو بردة بن نيار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جبير، وكان آخر من انصرف من الخيل، فلحقا بالمسلمين.

قال الواقدي: فروى رافع بن خديج، قال: لما قتل خالد الرماة أقبل بالخيـل وعكرمة بن أبي جهل يتلوه، فخالطنا وقد انتقضت صفوفنا، ونادى إبليس - وتصور في صورة جعيل بن سراقة: إن محمداً قد قتل! ثلاث صرخات، فابتلي يومئذ جعيل بن سراقة ببليّة عظيمة حين تصور إبليس في صورته، وإن جعيلاً ليقاتل مع المسلمين أشد القتال، وإنه إلى جنب أبي بردة بن نيار وخوات بن جبير. قال رافع بن خديج: فوالله ما رأينا دولة كانت أسرع من دولة المشركين علينا، وأقبل المسلمون على جعيل بن سراقة يريدون قتله، يقولون: هذا الذي صاح أن محمداً قد قتل، فشهد له خوات بن جبير وأبو بردة، أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح، وأن الصائح غيره.

قال الواقدي: فروى رافع، قال: أتينا من قبل أنفسنا، ومعصية نبيّنا، واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون بما يصنعون من الدّهش والعجل، وقد جرح يومئذ أسيد بن خضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار، وما يدري، يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاري، وكر أبو زعنة في حومة القتال، فضرب أبا بردة ضربتين، ما يشعر أنه هو، يقول: خذها وأنا أبو زعنة، حتى عرفه بعد، فكان إذا لقيه، قال: انظر ما صنعت بي، فيقول أبو زعنة: وأنت فقد ضربت أسيد بن خضير ولا تشعر! ولكن هذا الجرح في سبيل الله،

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «هو في سبيل الله يا أبا بريدة، لك أجره، حتى كأنك ضربك أحد المشركين، ومن قُتل فهو شهيد».

قال الواقدي: وكان الشيخان: حُسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين، قد رفعوا في الآطام مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه: لا أبالك! ما نستقي من أنفسنا! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أو غد، وما بقي من أجلنا قدر ظمء دابة، فلو أخذنا أسياقنا فلاحقنا برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة! قال: فلاحقنا برسول الله ﷺ، فأما رفاعة فقتله المشركون، وأما حُسيل بن جابر فالتقت عليه سيوف المسلمين، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا، وابنه حذيفة يقول: أبي أبي! حتى قُتل، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، ما صنعتم! فزاد به عند رسول الله ﷺ خيراً، وأمر رسول الله ﷺ بديته أن تخرج، ويقال: إن الذي أصابه عتبة بن مسعود، فتصدق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين.

قال الواقدي: وأقبل يومئذ الحُباب بن المنذر بن الجموح بصيح: يا آل سلمة! فأقبلوا عُقُقا واحداً: لبيك داعي الله، لبيك داعي الله! فيضرب يومئذ جبار بن صخر ضربة في رأسه مثقلة وما يدري، حتى أظهروا الشعار بينهم، فجعلوا يصيحون: أمث أمث! فكف بعضهم عن بعض.

قال الواقدي: وكان نسطاس مولى ضرار بن أمية ممن حضر أهدأ مع المشركين، ثم أسلم بعد، وحسن إسلامه، فكان يحدث، قال: قد كنت ممن خلف في العسكر يومئذ، ولم يقاتل معهم عبد إلا وحشي وضواب غلام بني عبد الدار، فكان أبو سفيان صاح فيهم: يا معشر قريش، خلّوا غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكُم، فجمعنا بعضها إلى بعض، وعَقَلْنَا الإبل، وانطلق القوم على تعبيتهم، ميمنة وميسرة وألبسنا الرحال الأنطاع^(١)، ودنا القوم بعضهم من بعض، فاقتتلوا ساعة، وإذا أصحابنا منهزمون، فدخل المسلمون معسكرنا، ونحن في الرحال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أسروا، وانتهبوا المعسكر أقبح انتهاب، حتى إن رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن أمية؟ فقلت: ما حمل إلا نفقة في الرُحْل، فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة^(٢) خمسين ومائة مثقال ذهباً، وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم، وانحاش النساء، فهن في حُجرهن سلّم لمن أرادهن، فصار النهب في أيدي المسلمين.

قال نسطاس: فإننا لعلّنا ما نحن عليه من الاستسلام، ونظرتُ إلى الجبل، فإذا خيل مقبلة تركض، فدخلوا العسكر، فلم يكن أحد يردّهم، قد ضيّعت الثغور التي كان بها الرّماة وجاؤوا

(١) الأنطاع: جمع نطع: وهو بساط من الأديم. القاموس المحيط، مادة (نطع).

(٢) العيبة: وعاء من آدم، يكون فيها المتاع. اللسان، مادة (عيب).

إلى النهب والرماة يتهبون، وأنا أنظر إليهم متأبطين قسيهم وجعابهم، كل واحد منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارين آمنين، فوضعوا فيهم السيوف، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا، وأجلوا عن عسكرنا، فارتجعنا بعد، لم ن فقد منه شيئاً، وخلوا أسراناً، ووجدنا الذهب في المعركة، ولقد رأيت يومئذ رجلاً من المسلمين ضم صفوان بن أمية إليه ضمة ظننت أنه سيموت، حتى أدركته وبه رمق، فوجأت ذلك المسلم بخنجر معي، فوقع، فسألت عنه، فقيل: رجل من بني ساعدة. ثم هداني الله بعد للإسلام.

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سبرة، عن إسحاق بن عبد الله، عن عمر بن الحكم، قال: ما علمنا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أغاروا على النهب فأخذوا ما أخذوا من الذهب بقي معه من ذلك شيء يرجع به حيث غشينّا المشركون، واختلفوا إلا رجلين: أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، جاء بمنطقة وجدها في العسكر، فيها خمسون ديناراً فشدها على حقويه من تحت ثيابه، وجاء عباد بن بشر بصرّة فيها ثلاثة عشر مثقالاً ألقاها في جيب قميصه، وفوقها الدرع وقد حزم وسطه، فأتيا بذلك رسول الله ﷺ فلم يخمسه ونقلهما إياه.

قال الواقدي: وروى يعقوب بن أبي صعصعة، عن موسى بن ضمرة، عن أبيه، قال: لما صاح الشيطان أرب العقبة، أن محمداً قد قتل لما أراد الله عز وجل من ذلك، سقط في أيدي المسلمين، وتفرقوا في كل وجه، وأصعدوا في الجبل، فكان أول من بشرهم بكون رسول الله ﷺ سالماً كعب بن مالك. قال كعب: عرفته، فجعلت أصيح: هذا رسول الله! وهو يشير إليّ بإصبعه على فيه: أن أسكت.

قال الواقدي: وروت عميرة بنت عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيها، قالت: قال أبي لما انكشف الناس: كنت أول من عرف رسول الله ﷺ وبشرت به المسلمين حياً سوياً، عرفت عينيه من تحت المغفر، فناديت: يا معشر الأنصار! أبشروا، فهذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ رسول الله ﷺ أن أصمت: قال: ودعا رسول الله ﷺ بكعب، فلبس لامته، وألبس كعباً لامة نفسه، وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً، جرح سبعة عشر جرحاً.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة عن خالد بن رباح، عن الأعرج، قال: لما صاح الشيطان إن محمداً قد قُتل، قال أبو سفيان بن حرب: يا معشر قريش، أياكم قتل محمداً؟ قال ابن قميئة: أنا قتلته. قال: نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها. وجعل أبو سفيان يطوف بأبي عامر الفاسق في المعركة، هل يرى محمداً بين القتلى! فمرّ بخارجة بن زيد بن أبي زهير، فقال: يا أبا سفيان، هل تدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا خارجة بن زيد، هذا أسيد بني الحارث بن الخزرج، ومرّ بعباس بن عباد بن نضلة إلى جنبه، قال: أتعرفه؟ قال: لا، قال:

هذا ابن قوئل، هذا الشريف في بيت الشرف، ثم مرّ بذكوان بن عبد قيس، فقال: وهذا من ساداتهم، ثم مرّ بابنه حنظلة بن أبي عامر، فوقف عليه، فقال أبو سفيان: من هذا؟ قال: هذا أعزّ من هاهنا عليّ، هذا ابني حنظلة. قال أبو سفيان: ما نرى مصرع محمد، ولو كان قُتل لرأيناه، كذب ابن قميئة. ولقي خالد بن الوليد، فقال: هل تبين عندك قتل محمد؟ قال: لا، رأيته أقبل في نفر من أصحابه مصعدين في الجبل، فقال أبو سفيان: هذا حق، كذب ابن قميئة، زعم أنه قتله!

قلت: قرأت على النقيب أبي يزيد رحمه الله هذه الغزاة من كتاب الواقدي، وقلت له: كيف جرى لهؤلاء في هذه الواقعة؟ فإني أستعظم ما جرى! فقال: وما في ذلك مما تستعظمه! حمل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قلب المشركين، فكسره فلو ثبتت مجنبتا رسول الله اللّتان فيهما أسيد بن خضير والحباب بن المنذر بإزاء مجنبتَي المشركين، لم ينكسر عسكر الإسلام، ولكن مجنبتا المسلمين أطبقت إطباقاً واحداً على قلب المشركين، مضافاً إلى قلب المسلمين، فصار عسكر رسول الله ﷺ قلباً واحداً، وكتيبة واحدة، فحطمه قلب قريش حطمة شديدة. فلما رأت مجنبتا قريش أنه ليس بإزائها أحد، استدارت المجنبتان من وراء عسكر المسلمين، وصمد كثير منهم للرّماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين، فقتلوه عن آخرهم؛ لأنهم لم يكونوا ممن يقومون لخالد وعكرمة، وهما في ألفي رجل، وإنما كانوا خمسين رجلاً، لاسيما وقد ترك كثير منهم مركزه وشره إلى الغنيمة، فأكب على النهب.

قال رحمه الله: والذي كسر المسلمين يومئذ، ونال كلّ منال خالد بن الوليد، وكان فارساً شجاعاً، ومعه خيل كثيرة، ورجال أبطال موتورون، واستدار خلف الجبل، فدخل من الثغرة التي كان الرّماة عليها، فأتاه من وراء المسلمين، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة، فصار المسلمون بينهم في مثل الحلقة المستديرة، واختلط الناس، فلم يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسيف وهو لا يعرفه لشدة النّقع والغبار، ولما اعتراهم من الدّهش والعجلة والخوف، فكانت الدّبرة عليهم، بعد أن كانت لهم، ومثل هذا يجري دائماً في الحرب.

فقلت له رحمه الله: فلما انكشف المسلمون، وفرّ منهم من قرّ، ما كانت حال رسول الله ﷺ؟ فقال: ثبت في نفر يسير من أصحابه يحامون عنه.

فقلت: ثم ماذا، قال: ثم ثابت إليه الأنصار، وردّت إليه عُقُفاً واحداً بعد فرارهم وتفرّقهم، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية، ثم التحمت الحرب، واصطدم الفيلقان.

قلت: ثم ماذا؟ قال: لم يزل المسلمون يحامون عن رسول الله ﷺ، والمشركون يتكاثرون عليهم، ويقتلون فيهم حتى لم يبق من النهار إلا القليل والدّولة للمشركين.

قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم علم الذين بقوا من المسلمين أنه لا طاقة لهم بالمشركين، فاصعدوا في الجبل فاعتصموا به.

فقلت له: فرسول الله ﷺ ما الذي صنع؟ فقال: صعد في الجبال.

قلت له: أفيجوز أن يقال: إنه فر؟ فقال: إنما يكون الفرار ممن أمعن في الهرب في الصحراء والبيداء، فأما من الجبل مطلق عليه وهو في سفحه، فلما رأى ما لا يعجبه أصدع في الجبل، فإنه لا يسمى فاراً. ثم سكت رحمه الله ساعة، ثم قال: هكذا وقعت الحال، فإن شئت أن تسمي ذلك فراراً فسمه، فقد خرج من مكة يوم الهجرة فاراً من المشركين، ولا وضمة عليه في ذلك.

فقلت له: قد روى الواقدي عن بعض الصحابة، قال: لم يبرخ رسول الله ﷺ ذلك اليوم شبراً واحداً، حتى تحاجزت الفتان! فقال: دغ صاحب هذه الرواية فليقل ما شاء، فالصحيح ما ذكرته لك، ثم قال: كيف يقال: لم يزل واقفاً حتى تحاجزت الفتان! وإنما تحاجزا بعد أن ناداه أبو سفيان، وهو في أعلى الجبل بما ناداه، فلما عرف أنه حي وأنه في أعلى الجبل، وأن الخيل لا تستطيع الصعود إليه، وأن القوم إن صعدوا إليه رجالة لم يثقوا بالظفر به؛ لأن معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعد القوم إليهم، وأنهم لا يقتلون منهم واحداً حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة؛ لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرب، لكونهم محصورين في ذرو واحد، فالرجل منهم يحامي عن خيط رقبته - كفوا عن الصعود وقنعوا بما وصلوا إليه من قتل من قتلوه في الحرب، وأملوا يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظفر الكلي بالنبي ﷺ، فرجعوا عنهم وطلبوا مكة.

وروى الواقدي عن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أبي الحويرث، عن نافع بن جبير، قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ في وسطها كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاد الزهري يقول يومئذ: دُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ، فلا نجوت إن نجا! وإن رسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية، فقال له صفوان: تَرِحْتَ! هلا ضربت محمداً، فقطعت هذه الشافة، فقد أمكنك الله منه! قال ابن شهاب: وهل رأيته؟ قال: نعم أنت إلى جنبه، قال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا لممنوع، خرجنا أربعة تعاهدنا ونعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

قال الواقدي: فروى نملة - واسم أبي نملة عبد الله بن معاذ، وكان أبوه معاذ أخا البراء بن معرور لأمه - قال: لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله ﷺ وما معه أحد إلا نُفِيرَ قد أحذقوا به من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فانطلقوا به إلى الشعب وما للمسلمين لواء قائم ولا فئنة ولا جمع، وإن كتائب المشركين لتحوشهم مقبلة ومذبذبة في الوادي، يلتقون ويفترقون ما يرون أحداً يردهم.

قال الواقدي: وحدثني إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري، عن أبيه، قال: حمل مصعب اللواء، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب قبل ابن قميلة، وهو فارس، فضرب يد مصعب فقطعها، فقال مصعب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(١) وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنى عليه فضربه فقطع اليسرى، فضمته بعضديه إلى صدره، وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندق الرمح، ووقع مضطرب وسقط اللواء، وابتدره رجلان من بني عبد الدار، سويبط بن خزيمة وأبو الروم، فأخذه أبو الروم، فلم يزل بيده حتى دخل به المدينة، حين انصرف المسلمون.

قال الواقدي: وقالوا: إن رسول الله لما لحمه القتال، وخلص إليه وذبت عنه مصعب بن عمير وأبو دجانة، حتى كثرت به الجراحة، جعل رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَجُلٌ بَشَرِي نَفْسُهُ؟» فوثب فئة من الأنصار خمسة، منهم عُمارة بن زياد بن السكن، فقاتل حتى أثبت، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله، فقال رسول الله ﷺ لعُمارة بن زياد: «إِذْنُ مَنِي»، حتى وسده رسول الله ﷺ قدمه، وإن به لأربعة عشر جرحاً حتى مات، وجعل رسول الله ﷺ يذمر الناس ويحضهم على القتال، وكان رجالاً من المشركين قد أذلُّوا المسلمين بالرمي: منهم حَيَّان بن العرقة وأبو أسامة الجُشَمي، فجعل النبي ﷺ يقول لسعد: «ارم فداك أبي وأمي!»، فرمى حَيَّان بن العرقة بسهم فأصاب ذئب أم أيمن، وكانت جاءت يومئذ تسقي الجرحى، فقلبها، وانكشف ذئبها عنها، فاستغرب حَيَّان بن العرقة ضحكاً، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له، وقال: ارم به، فرمى فوضع السهم في ثغرة نحر حَيَّان، فوقع مستلقياً، وبدت عورته. قال سعد: فرأيت النبي ﷺ ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه، وقال استفاد لها سعد، أجاب الله دعوتك، وسدد رميتك، ورمى يومئذ مالك بن زهير الجُشَمي أخو أبي أسامة الجُشَمي المسلمين رمياً شديداً، وكان هو وريان بن العرقة قد أسرعا في أصحاب رسول الله ﷺ، وأكثر فيهم القتل يستتران بالصخر. ويرميان، فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير يرمي من وراء صخرة قد رمى، وأطلع رأسه، فيرميه سعد، فأصاب السهم عينه، حتى خرج من قفاه، فترى في السماء قامة، ثم رجع فسقط، فقتله الله عز وجل.

قال الواقدي: ورمى رسول الله ﷺ عن قوسه يومئذ حتى صارت شظايا، فأخذها قتادة بن النعمان، وكانت عنده، وأصيبت يومئذ عن قتادة حتى وقعت على وجنته. قال قتادة: فجئت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن تحتي امرأة شابة جميلة، أحبها وتحبني،

وأنا أخشى أن تقذر مكان عيني، فأخذها رسول الله ﷺ فردّها وانصرف بها، وعادت كما كانت، فلم تضرب عليه ساعة من ليل ونهار، وكان يقول بعد أن أسنّ: هي أقوى عيني - وكانت أحسنهما.

قال الواقدي: وياشر رسول الله ﷺ القتال بنفسه، فرمي بالنبل حتى فنيّت نبله، وانكسرت سيّة قوسه، وقبل ذلك انقطع وتره، وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سيّة القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن يوتره له، فقال: يا رسول الله، لا يبلغ الوتر، فقال مده يبلغ، قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لمدته حتى بلغ، وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سيّة القوس، ثم أخذه رسول الله ﷺ، فما زال يرامي القوم، وأبو طلحة أمامه يستره مثنساً عنه، حتى نظرت إلى سيّة قوسه قد تحطّمت، فأخذها قتادة بن النعمان.

قال الواقدي: وكان أبو طلحة يوم أُحُد قد نثّل كِنَانته بين يدي النبي ﷺ، وكان رامياً، وكان صبيّاً فقال رسول الله ﷺ: «الصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من أربعين رجلاً»، وكان في كِنَانته خمسون سهماً نثّلها بين يدي رسول الله ﷺ، وجعل يصيح: نفسي دون نفسك يا رسول الله! فلم يزل يرمي بها سهماً سهماً، وكان رسول الله ﷺ يطلع رأسه من خلف أبي طلحة بين أذنه ومنكبه، ينظر إلى مواقع النبل حتى فنيّت نبله، وهو يقول: نحري دون نحرِكَ! جعلني الله فداك! قالوا: إنه كان رسول الله ﷺ، ليأخذُ العود من الأرض فيقول: «ارم يا أبا طلحة»، فيرمي به سهماً جيّداً.

قال الواقدي: وكان الرُّمّة المذكورون من أصحاب رسول الله ﷺ جماعة: منهم سعد بن أبي وقاص، وأبو طلحة، وعاصم بن ثابت، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمقداد بن عمرو، وزيد بن حارثة، وحاطب بن أبي بلتعة، وعُثبة بن غزوَان، وخراش بن الصّمة، وقطبة بن عامر بن حديدة، وبشر بن البراء بن معرور، وأبو نائلة ملكان بن سلامة، وقتادة بن النعمان.

قال الواقدي: ورمي أبو رَهم الغِفاريّ بسهم فأصاب نحره، فجاء إلى رسول الله ﷺ فبصق عليه، فبرأ، فكان أبو رَهم بعد ذلك يسمى المنحور^(١).

وروى أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغوي، غلام ثعلب، ورواه أيضاً محمد بن حبيب في أماليه، أن رسول الله ﷺ لما فرّ معظمُ أصحابه عنه يوم أُحُد، كثرت عليه كتائب المشركين، وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة، فيها بنو سفيان بن عُويّف، وهم: خالد بن سفيان، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان، وغراب بن سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «يا عليّ اكفني هذه الكتيبة»، فحمل عليها وإنها لتقارب خمسين

(١) أخرجه الصالحى الشامى في سبل الهدى: ٢٤٢/٤.

فارساً، وهو عليه السلام راجل، فما زال يضربها بالسيف حتى تفرّق عنه ثم تجتمع عليه، هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عوف الأربعة، وتمام العشرة منها، ممن لا يُعرف بأسمائهم، فقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله ﷺ : يا محمد، إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى! فقال رسول الله ﷺ : وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبرائيل عليه السلام : وأنا منكما. قال: وسمع ذلك اليوم صوت من قِيل السماء، لا يرى شخص الصارخ به، ينادي مراراً: لا سيف إلا ذو الفقار رولا فتّى إلا علي

فستل رسول الله ﷺ عنه، فقال: «هذا جبرائيل»^(١).

قلت: وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين وهو من الأخبار المشهورة، ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق، ورأيت بعضها خالياً عنه، وسألت شيخي عبد الوهاب بن سكيّنة رحمه الله عن هذا الخبر، فقال: خبر صحيح، فقلت: فما بال الصحاح لم تشتمل عليه؟ قال: أو كلما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة!

قال الواقدي: وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يُحضّر فرساً له أبلق، يريد رسول الله ﷺ، عليه لأمة كاملة، ورسول الله ﷺ متوجّه إلى الشعب وهو يصيح: لا نجوئ إن نجوئ! فيقف رسول الله ﷺ، ويثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر التي حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين، فيقع الفرس لوجهه، وسقط عثمان عنه، وخرج الفرس غائراً، فياخذه بعض أصحاب رسول الله ﷺ، ويمشي إليه الحارث بن الصمة، فاضطربا ساعة بالسيفين، ثم يضرب الحارث رجله، وكانت درعه مشقّة فبرك، وذقّف عليه، وأخذ الحارث يومئذ سلبه: درعاً جيّداً، ومغفراً، وسيفاً جيّداً، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذ غيره، ورسول الله ﷺ ينظر إلى قتالهما، فسأل عن الرجل، قيل: عثمان بن عبد الله بن المغيرة، قال: الحمد لله الذي أحانه، وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل بيطن نخلة، حتى قدم به على رسول الله ﷺ، فافتدى ورجع إلى قريش، وغزا معهم أحداً، فقتل هناك، ويرى مصرع عثمان عبيد بن حازم العامري أحد بني عامر بن لؤي، فأقبل يعدو كأنه سبع، فيضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه، فوقع الحارث جريحاً حتى احتمله أصحابه، ويقبل أبو دجانة على عبيد بن حازم، فتناوشا ساعة من نهار، وكل واحد منهما يتقي بالدرقة سيف صاحبه، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه، ثم جلد به الأرض، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة، ثم انصرف، فلاحق برسول الله ﷺ.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٢٨/٢٠.

قال الواقدي: وروى أن سهل بن حنيف، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله ﷺ، فقال: نبلوا سهلاً فإنه سهل، ونظر رسول الله ﷺ إلى أبي الدرداء، والناس منهزمون في كل وجه، فقال: نعم الفارس عويمر، غير أنه لم يشهد أحداً!

قال الواقدي: وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك، قال: حدثني من نظر إلى أبي سبرة بن الحارث بن علقمة، ولقي أحد المشركين، فاختلفا ضربات، كل ذلك يرؤغ أحدهما عن الآخر، قال: فنظر الناس إليهما كأنهما شبعان ضاريان يقفان مرة ويقتلان أخرى، ثم تعانقا، فوقعا إلى الأرض جميعاً، فعلاه أبو سبرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل، يجر قناة طويلة، فطعن أبا سبرة من خلفه، فنظرت إلى سنان الرمح خرج من صدره، ووقع أبو سبرة ميتاً، وانصرف خالد بن الوليد، يقول: أنا أبو سليمان!

قال الواقدي: وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبي ﷺ قتالاً شديداً، وكان طلحة يقول: لقد رأيت رسول الله ﷺ حيث انهزم أصحابه، وكثر المشركون، فأحدقوا بالنبي ﷺ من كل ناحية، فما أدري أقوم من بين يديه أو من ورائه؟ أم عن يمينه أم شماله؟ فأذب بالسيف عنه هاهنا وهاهنا حتى انكشفوا، فجعل رسول الله ﷺ يومئذ يقول لطلحة: «لقد أوجب» وروي: «لقد أنحب» أي قضى نذره.

قال الواقدي: وروي أن سعد بن أبي وقاص ذكر طلحة فقال: يرحمه الله! إنه كان أعظمنا غناء عن رسول الله ﷺ يوم أحد، قيل: كيف يا أبا إسحاق؟ قال: لزم النبي ﷺ وكنا نتفرق عنه، ثم نثوب إليه، لقد رأيت يدير حول النبي ﷺ يترس بنفسه.

قال الواقدي: وسئل طلحة: يا أبا محمد، ما أصاب إصبعك؟ قال: رمى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله ﷺ - وكان لا تخطي رميته - فأتقيت بيدي عن وجه رسول الله ﷺ، فأصاب خنصري فسل.

قال الواقدي وقالوا: إن طلحة قال لما رمي: حس، فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: بسم الله لدخل الجنة، والناس ينظرون إليه، من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله، طلحة ممن قضى نجه».

قال الواقدي: وكان طلحة يحدث يقول: لما جال المسلمون تلك الجولة، ثم تراجعوا أقبل رجل من بني عامر بن لؤي يدعى شيبه بن مالك بن المضرب، يجر رمحه، وهو على فرس أغر كُفيت مدججاً في الحديد، يصيح: أنا أبو ذات الودع، دلوني على محمد، فأضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت به، ثم أتناول رمحه، فوالله ما أخطأت به عن حذقه، فخار كما يخور الثور، فما برحت به واضعاً رجلي على حذّه حتى أزرته شعوب.

قال الواقدي: وكان طلحة قد أصابته في رأسه المصلبة ضربه رجل من المشركين، ضربتين، ضربة وهو مقبل، وضربه وهو معرض عنه، وكان نَزَف منها الدم، قال أبو بكر: جئت النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فقال: عليك بابن عمك، فأتى طلحة بن عبيد الله، وقد نَزَف الدم، فجعلت أنضح في وجهه الماء وهو مغشي عليه، ثم أفاق، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقلت: خيراً، هو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جَلَل.

قال الواقدي: وكان ضرار بن الخطاب الفهري يقول: نظرتُ إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة في عُمره، فنظرت إلى المصلبة في رأسه، فكان ضرار يقول: أنا والله ضربته، هو استقبلني فضربته، ثم أكرّ عليه، وقد أعرض، فأضربه ضربة أخرى.

قال الواقدي: ولما كان يوم الجمل، وقتل عليّ عليه السلام مَنْ قتل من الناس، ودخل البصرة، جاءه رجل من العرب، فتكلّم بين يديه، ونال من طلحة، فزبره^(١) عليّ عليه السلام، وقال: إنك لم تشهد يوم أحد، وعِظَم غناؤه عن الإسلام، مع مكانه من رسول الله ﷺ، فانكسر الرجل وسكت، فقال له قاتل من القوم: وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أحد؟ فقال عليّ عليه السلام: نعم، يرحمه الله، لقد رأيته وإنه ليترس بنفسه دون رسول الله ﷺ وإن السيوف لتغشاها، والنبل من كل ناحية، وما هو إلا جنة لرسول الله ﷺ، يقيه بنفسه، فقال رجل: لقد كان يوم أحد يوماً قتل فيه أصحاب رسول الله ﷺ، وأصاب رسول الله ﷺ فيه الجراحة، فقال عليّ عليه السلام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليت أني غودرت مع أصحابي بنُخص الجبل»، ثم قال عليّ عليه السلام: لقد رأيته يومئذٍ وإنني لأذُبهم في ناحية، وإن أبا دُجّانة لفي ناحية يذب طائفة منهم، حتى فرج الله ذلك كله، ولقد رأيته وانفردت منهم يومئذٍ فرقة خُشناء، فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخلت وسطهم بالسيف، فضربت به، واشتملوا عليّ حتى أفضيت إلى آخرهم، ثم كررت فيهم الثانية، حتى رجعت من حيث جئت، ولكن الأجل استأخر، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً.

قال الواقدي: وحدثني جابر بن سليم عن عثمان بن صفوان، عن عُمارة بن خزيمة، قال: حدثني مَنْ نظر إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح، وإنه ليخوشهم يومئذٍ كما تحاش الغنم، ولقد اشتملوا عليه حتى قيل: قد قتل، ثم برز والسيف في يده، وافترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم، وإنه ليهربون منه إلى جَمْع منهم، وصار الحُباب إلى النبي ﷺ، وكان الحُباب يومئذٍ معلماً بعصابة خضراء في مَغْفَره.

قال الواقدي: وطلع يومئذٍ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس مدججاً لا يرى منه إلا

(١) زجره ونهره، اللسان، مادة (زبر).

عيناه، فقال: مَنْ يبارز؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق! فنهض إليه أبو بكر، وقال: أنا أبارزه، وجرد سيفه فقال له رسول الله ﷺ: «سِمَ سَيْفُكَ، وارجع إلى مكانك، ومتعنا بنفسك».

قال الواقدي: وقال رسول الله ﷺ: «ما وجدت لشماس بن عثمان شياً إلا الجنة»، يعني مما يقاتل عن رسول الله يومئذ، وكان رسول الله ﷺ لا يأخذ يميناً ولا شمالاً إلا رأى شماس بن عثمان في ذلك الوجه، يذب بسيفه عنه، حتى غشى رسول الله ﷺ، فترس بنفسه دونه، حتى قتل، فذلك قول رسول الله ﷺ: «ما وجدت لشماس شياً إلا الجنة».

قال الواقدي: ولما ولي المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد من خلفهم، كان أول من أقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرز مع طائفة من الأنصار، وقد كانوا بلغوا بني حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين في كثرتهم، فدخلوا في حوزتهم، فما أفلت منهم رجل حتى قتلوا كلهم، ولقد ضاربهم قيس بن محرز، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفرأ، فما قتلوه إلا بالرماح، نظموه، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائرة وعشر ضربات بالسيف.

قال الواقدي: وكان عباس بن عباد بن نضلة المعروف بابن قوئل، وخارجة بن زيد بن أبي زهير، وأوس بن أرقم بن زيد، وعباس رافع صوته يقول: ما معشر المسلمين، الله ونيبكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم، وعدكم النصر فما صبرتم. ثم نزع مغفره عن رأسه، وخلع دزعه وقال لخارجة بن زيد: هل لك في دزعي ومغفري؟ قال خارجة: لا، أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعاً، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب نبينا ومنا عين تطرف! قال: فيقول خارجة: لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حجة، فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السلمي، ولقد ضربه عباس ضربتين، فجرحه جرحين عظيمين، فارتث^(١) يومئذ جريحاً، فمكث جريحاً سنة، ثم استبل وأخذت خارجة بن زيد الرماح، فجرح بضعة عشر جرحاً، فمرب به صفوان بن أمية، فعرفه فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد، وبه رمق، فأجهز عليه. وقتل أوس بن أرقم، وقال صفوان: مَنْ رأى خبيب بن يساف؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه. ومثل يومئذ بخارجة، وقال: هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر - يعني أمية بن خلف - وقال: الآن شفيث نفسي حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد، قتلت ابن قوئل، وقتلت ابن أبي زهير، وقتلت أوس بن أرقم.

قال الواقدي: وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه؟» قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: يضرب به العدو، فقال عمر: أنا يا رسول الله، فأعرض عنه، ثم عرض رسول الله ﷺ بذلك الشرط، فقام الزبير، فقال: أنا، فأعرض عنه، حتى وجد عمر والزبير

(١) ارتث: حُبل من المعركة جريحاً وبه رمق، القاموس المحيط، مادة (رث).

في أنفسهما، ثم عرضه الثالثة، فقام أبو دُجَّانة، وقال: أنا يا رسول الله آخذه بحقه، فدفعه إليه. فصدق حين لقي به العدو، وأعطى السيف حقه، فقال أحد الرجلين - إما عمر بن الخطاب أو الزبير: والله لأجعلن هذا الرجل الذي أعطاه السيف ومنعني من شأني، قال: فاتبعته، فوالله ما رأيت أحداً قاتل أفضل من قتاله، لقد رأيته يضرب به حتى إذا كلَّ عليه وخاف ألا يُحيك عمداً به إلى الحجارة، فشحذه، ثم يضرب به العدو، حتى يردّه كأنه منجل، وكان حين أعطاه رسول الله ﷺ السيف مشى بين الصّفتين، واختال في مشيته، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يمشي تلك المشية: «إِنَّ هَذِهِ لَمْشِيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ»، قال: وكان أربعة من أصحاب النبي ﷺ يعلمون في الزُّحُوف، أحدهم أبو دُجَّانة، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء، وكان قومه يعلمون أنه إذا اعتصب بها أحسن القتال، وكان عليّ عليه السلام يعلم بصوفة بيضاء، وكان الزبير يعلم بعصابة صفراء، وكان حمزة يعلم بربيش نعام.

قال الواقدي: وكان أبو دُجَّانة يحدث يقول: إنني لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذف الناس وتحوشهم خوفاً منكراً، فرفعت عليها السيف، وما أحسبها إلا رجلاً، حتى علمت أنها امرأة، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة - والمرأة عمرة بنت الحارث.

قال الواقدي: وكان كعب بن مالك يقول: أصابني الجراح يوم أحد، فلما رأيت المشركين يمثلون بالمسلمين أشدَّ المثل وأقبحها، فمَثُ فتنّيت عن القتلى، فإني لفي موضعي أقبل خالد بن الأعمى العقيليّ جامع الأمة يحوش المسلمين، يقول استوسقوا كما يستوسق جُرب الغنم، وهو مدجج في الحديد، يصيح: يا معشر قريش، لا تقتلوا محمداً، انسروه أسراً حتى نعرفه ما صنع، ويصمد له قُزْمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه رأيت منها سخره، ثم أخذ سيفه وانصرف، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلا عينيه، فحمل عليه قُزْمان، فضربه ضربة جزأه اثنين، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومي، ثم يقول كعب: إنني لأنظر يومئذ وأقول: ما رأيْتُ مثل هذا الرجل أشجع بالسيف، ثم ختم له به! فيقال له: فما ختم له به؟ فيقول: من أهل النار، قتل نفسه يومئذ.

قال الواقدي: وروى أبو التمر الكناني، قال: أقبلت يوم أحد وأنا من المشركين، وقد انكشف المسلمون، وقد حضرت في عشرة من إخواني، فقتل منهم أربعة، وكان الريح للمسلمين أول ما التقينا، فلقد رأيْتُ وانكشفنا مولين، وأقبل أصحاب النبي ﷺ على نهب العسكر، حتى بلغت الجماء، ثم كرت خيلنا، فقلت: والله ما كرت الخيل إلا عن أمر رآته، فكررنا على أقدامنا كأننا الخيل، فنجد القوم قد أخذ بعضهم بعضاً، يقاتلون على غير صفوف، ما يدري بعضهم مَنْ يضرب، وما للمسلمين لواء قائم، ومع رجل من بني عبد الدار لواء المشركين، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم: «أَيْتُ أَيْتُ»، فأقول في نفسي: ما «أمت»؟

وإني لأنظر إلى رسول الله ﷺ وإن أصحابه محدقون به، وإن النبل ليمر عن يمينه ويساره، ويقع بين يديه، ويخرج من ورائه، ولقد رميت يومئذ بخمسين مرمية، فأصبت منها بأسمهم بعض أصحابه، ثم هداني الله إلى الإسلام.

قال الواقدي: وكان عمرو بن ثابت بن وقش شاكاً في الإسلام، وكان قومه يكلمونه في الإسلام، فيقول: لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه، حتى إذا كان يوم أحد بدا له الإسلام ورسول الله ﷺ بأحد، وأخذ سيفه وأسلم، وخرج حتى دخل في القوم، فقاتل حتى أثبت، فوجد في القتلى جريحاً ميتاً، فدنوا منه وهو بأخر رمق، فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ قال: الإسلام، آمنت بالله وبرسوله، وأخذت سيفي وحضرت فرزقني الله الشهادة، ومات في أيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لمن أهل الجنة».

قال الواقدي: فكان أبو هريرة يقول، والناس حوله: أخبروني برجل يدخل الجنة لم يصل لله تعالى سجدة؟ فيسكت الناس، فيقول أبو هريرة: هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش.

قال الواقدي: وكان مخيرق اليهودي من أحبار يهود، فقال يوم السبت ورسول الله ﷺ بأحد: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي، وأن نصره عليكم حق. فقالوا: ويحك! اليوم يوم السبت، فقال: لا سبت، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي ﷺ، فأصيب، فقال رسول الله ﷺ: «مخيرق خير يهود».

قال الواقدي: وكان مخيرق قال حين خرج إلى أحد: أن أصيب فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله فيه، فهي عامة صدقات النبي ﷺ.

قال الواقدي: وكان حاطب بن أمية منافقاً، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجل صدق، شهد أحداً مع النبي ﷺ فارتث جريحاً، فرجع به قومه إلى منزله، قال: يقول أبوه وهو يرى أهل الدار يبكون عنده: أنتم والله صنعتم هذا به، قالوا: كيف؟ قال: أغررتموه من نفسه حتى خرج فقتل، ثم صرتم معه إلى شيء آخر تعدونه جنة، يدخل فيها حبة من حرمل، قالوا: قاتلك الله! قال هو ذاك، ولم يقر بالإسلام.

قال الواقدي: وكان قزمان عسيفاً من بني ظفر، لا يدري ممن هو، وكان لهم محباً، وكان مقللاً ولا ولد له ولا زوجة، وكان شجاعاً يُعرف بذلك في حروبهم التي كانت تكون بينهم، فشهد أحداً، وقاتل قتالاً شديداً، فقتل ستة أو سبعة، فأصابته الجراح فقبل للنبي ﷺ: إن قزمان قد أصابته الجراح، فهو شهيد، فقال: بل من أهل النار، فجأؤوا إلى قزمان، فقالوا: هنيئاً لك أبا الغيداق الشهادة! فقال: بم تبشرونني! والله ما قاتلنا إلا على الأحساب، قالوا: بشرنك بالجنة، قال حبة والله من حرمل، إنا والله ما قاتلنا على جنة ولا على نار، إنما قاتلنا

على أحسابنا، ثم أخرج سهماً من كنانته. فجعل يتوجأ به نفسه، فلما أبطأ عليه المشقص، أخذ السيف، فأتكا عليه، حتى خرج من ظهره، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «هو من أهل النار».

قال الواقدي: وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج، فلما كان يوم أحد، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد أمثال الأسد، أراد قومه أن يحبسوه، وقالوا: أنت رجل أعرج، ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبي ﷺ قال: بخ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته: كآتي أنظر إليه مولياً قد أخذ ذرقتي، وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي، فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه في القعود، فأبى وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إنني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له: أما أنت فقد عذر الله ولا جهاد عليك، فأبى، فقال النبي ﷺ لقومه وبنيه: «لا عليكم أن تمنعوه، لعل الله يرزقه الشهادة، فخلوا عنه». فقتل يومئذ شهيداً. وكان أبو طلحة يحدث، يقول: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون، ثم تابوا وهو في الرعيل الأول. لكأني أنظر إلى ضلعه وهو يعرج في مشيته، وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة، ثم أنظر إلى ابنه يعدو في أثره، حتى قُتِل جميعاً.

قال الواقدي: وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يكن قد ضرب الحجاب يومئذ، حتى كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي، لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام، تسوق بعيراً لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر بن عبد الله، فقالت لها عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خير، أمّا رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جَلَل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(١).

قلت: هكذا وردت الرواية، وعندي أنها لم تقل كل ذلك، ولعلها قالت: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾، لا غير، وإلا فكيف يواطىء كلامها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أحد! هذا من البعيد جداً.

قال: فقالت لها عائشة: فمن هؤلاء؟ قالت: أخي وابني وزوجي قَتَلِي، قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم بها «حل حل»، تزجر بعيرها، فبرك البعير، فقالت عائشة: لثقل ما حمل، قالت هند: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكنني أراه لغير ذلك، فزجرته

فقام، فلما وجهت به إلى المدينة برك، فوجهته، راجعة إلى أحد، فأسرع، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فقال: إنَّ الجمل لأمور، هل قال عمرو شيئاً؟ قالت: نعم، إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة، ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي، وارزقني الشهادة، فقال ﷺ: فلذلك الجمل لا يمضي، إنَّ منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، يا هند، ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة، ينظرون أين يدفن! ثم مكث رسول الله ﷺ في قبرهم، ثم قال: يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً، عمرو بن الجموح بعلك، وخلاد ابنك، وعبد الله أخوك. فقالت هند: يا رسول الله، فادع الله لي عسى أن يجعلني معهم!

قال الواقدي: وكان جابر بن عبد الله، يقول: اصطبح ناسٌ يوم أحد الخمر، منهم أبي، فقتلوا شهداء.

قال الواقدي: وكان جابرٌ يقول: أول قتيل من المسلمين يوم أحد أبي، قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، فصلى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة.

قال الواقدي: وكان جابر يحدث، ويقول: استشهد أبي، وجعلت عمّي تبكي، فقال النبي ﷺ: ما يبكيها! ما زالت الملائكة تظلّ عليه بأجنحتها حتى دُفن.

قال الواقدي: وقال عبيد الله بن عمرو بن حزام: رأيتُ في النوم قبل يوم أحد بأيام مبشّر بن عبد المنذر، أحد الشهداء بيدري، يقول لي: أنت قادم علينا في أيام! فقلت: فأين أنت؟ قال: في الجنة نسرح منها حيث نشاء، فقلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى، ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال: «هذه الشهادة يا جابر».

قال الواقدي: وقال رسول الله ﷺ يوم أحد: ادفنوا عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ويقال: إنهما وجدا وقد مثل بهما كل مثلة قطعت آرابهما عضواً عضواً، فلا تعرف أبدانهما. فقال النبي ﷺ: «ادفنوهما في قبر واحد»، ويقال: إنما أمر بدفنهما في قبر واحد، لما كان بينهما من الصفاء، فقال: ادفنوا هذين المتحايين في الدنيا في قبر واحد.

وكان عبد الله بن عمرو بن حزام رجلاً أحمر أصلع، ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح طويلاً، فغُرِّفا ودخل السَّيل بعد عليهما، وكان قبرهما ممّا يلي السَّيل، فحفر عنهما، وعليهما نمرتان وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيده على وجهه، فأميظت يده عن جرحه، فثعب الدم، فردت إلى مكانها فسكن الدم.

قال الواقدي: وكان جابر بن عبد الله يقول: رأيت أبي في حفرة، وكأنه نائم، وما تغير من

حاله قليل ولا كثير، فقبل له: أفرأيت أكفانه؟ قال: إنما كُفّن في نَمرة خُمّر بها وجهه، وعلى رجله الحرمل فوجدنا النَمرة كما هي، والحرمل على رجله كهيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة، فشاورهم جابر في أن يطيبه بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي ﷺ وقالوا: لا تحدّثوا فيهم شيئاً.

قال: ويقال إن معاوية لما أراد أن يُجريّ العين التي أحدثها بالمدينة، وهي كظامه نادى مناديه بالمدينة: من كان له قتيل بأحد فليشهد. فخرج الناس إلى قتلهم فوجدوهم رطاباً يتشّون، فأصابَت المسحاة رجل رجلٍ منهم، فتعبت دماً، فقال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً.

قال: ووُجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ووُجد خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحد، فأما قبر عبد الله وعمرو فحول، وذلك أن القناة كانت تمرّ على قبرهما، وأما قبر خارجة وسعد فترك، وذلك لأن مكانه كان معتزلاً، وسوّيَ عليهما التراب، ولقد كانوا يحفرون التراب، فكلّما حفروا قُترة من تراب، فاح عليهم المسك.

قال: وقالوا: إن رسول الله ﷺ قال لجابر: «يا جابر، ألا أبشرك؟» فقال: بلى، بأبي وأمي! قال: «فإن الله أحيا أباك، ثم كَلّمه كلاماً، فقال له: تمنّ على ربّك ما شئت!» فقال: أتمنى أن أرجع فأقتل مع نبيّك، ثم أحيا فأقتل مع نبيّك، فقال: إني قد قضيت أنهم لا يرجعون.

قال الواقدي: وكانت نسيبه بنت كعب أمّ عمارة بن غزيرة بن عمرو قد شهدت أحداً، وزوجها غزيرة وابناها عمارة بن غزيرة وعبد الله بن زيد، وخرجت ومعهما شئ لها في أول النهار تريد تسقي الجرّحى، فقاتلت يومئذ وأبلى بلاءً حسناً، فجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف، فكانت أمّ سعد بنت سعد بن الربيع تحدّث، فتقول: دخلتُ عليها، فقالت لها: يا خالة، حديثي خبرك، فقالت: خرجت أول النهار إلى أحد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيْتُ إلى رسول الله ﷺ وهو في الصحابة والدّولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحزّت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشِر القتال، وأذّب عن رسول الله ﷺ بالسيف، وأرمي بالقوس، حتى خلصت إلى الجراح، فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: يا أمّ عمارة، مَنْ أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابن قميّة، وقد ولّى الناس عن رسول الله ﷺ يصيح: دلّوني على محمد، لا نجوئُ إن نجا! فاعترض له مُصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم، فضرّبتني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنّ عدو الله كان عليه دِرْعان. فقالت لها: يدك ما أصابها؟ قالت: أصيبت يوم اليمامة، لما جعلت الأعراب تنهزم بالناس، نادى الأنصار، أخلصونا. فأخلصت الأنصار،

فكنت معهم، حتى انتهينا إلى حديقة الموت، فاقتلنا عليها ساعة، حتى قُتل أبو دُجانة على باب الحديقة، ودخلتها وأنا أريد عدو الله مُسلِمة، فيعرض لي رجل، فضرب يدي فقطعها، فوالله ما كانت ناهية، ولا عرجت عليها، حتى وقفت على الخيث مقتولاً، وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه بشيابه، فقلت: أقتلته؟ قال: نعم، فسجدتُ شكراً لله عز وجل وانصرفت.

قال الواقدي: وكان ضَمْرَة بن سعيد يحدث عن جَدِّته، وكانت قد شهدت أخذاً تسقي الماء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يومئذٍ: «لَمَقَام نَسِيبَة بنت كعب اليوم خيرٌ من مُقام فلان وفلان». وكان يراها يومئذٍ تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً.

قلت: ليت الراوي لم يكن هذه الكناية، وكان يذكرهما باسمهما حتى لا تتراعى الظنون إلى أمور مشبهة! ومن أمانة المحدث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتُم منه شيئاً، فما به كتم اسم هذين الرجلين!

قال: فلما حضرت نَسِيبَة الوفاة، كنت فيمن غسلها فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قمينة وهو يضربها على عاتقها - وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنة - ثم نادى منادي النبي ﷺ بعد انقضاء أخذ: إلى حمراء الأسد! فشَدَّت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزع الدَّم، ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح، حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله من حمراء الأسد، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه فأخبره بسلامتها، فسر بذلك.

قال الواقدي: وحدثني عبد الجبار بن عُمارة بن غزوة، قال: قالت أم عُمارة لقد رأيته وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقي إلا نُفَيْر ما يتمون عشرة، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يمرُّون عنه منهزمين، فرأيتي ولا تُرْس معي، ورأى رجلاً مولياً معه تُرْس، فقال: يا صاحب التُّرْس، الق ترسك إلى مَنْ يقاتل. فألقى ترسه فأخذه، فجعلت أترس به على النبي ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم، فيقبل رجل على فرس، فضربي وترست له، فلم يصنع سيفه شيئاً، وولَّى وأضرب عُرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح: يابن عُمارة، أمك أمك! قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شُعُوب.

قال الواقدي: وحدثني ابنُ أبي سبرة، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن عبد الله بن زيد

المازني، قال: جرحت يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرّقل ولم يعرج عليّ، ومضى عني، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: «اعصب جرحك»، فتقبل أمي إليّ، ومعها عصائب في حقونها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبى ﷺ واقف ينظر، ثم قالت: انهض يا بني، فضارب القوم، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «ومن يطبق ما تطبقين يا أم عُمارة!» قالت: وأقبل الرجل الذي ضربني، فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك»، فاعترضت أمي له، فضربت ساقه، فبرك، فرأيت النبى ﷺ تبسم حتى بدت نواجذه، ثم قال: «استقدت يا أم عُمارة». ثم أقبلنا نعلوه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، قال النبى ﷺ: «الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك، وأراك تارك بعينك!»

قال الواقدي: وروى موسى بن ضمرة بن سعد، عن أبيه، قال: أتى عمر بن الخطاب في أيام خلافته بمروط كان فيها مرط واسع جيد، فقال بعضهم: إن هذا المرط بثمن كذا، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن صفية بنت أبي عبيد، وذلك جذّان ما دخلت على ابن عمر، فقال: بل أبعث به إلى من هو أحقّ منها، أم عُمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول: «ما التفتُ يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني».

قال الواقدي: وروى مروان بن سعيد بن المعلى، قال: قيل لأم عُمارة: يا أم عُمارة، هل كنّ نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهنّ؟ فقالت: أعوذ بالله، لا والله ما رأيت امرأة منهنّ رمّت بسهم ولا حَجَرَ، ولكن رأيت معهنّ الذّفاف والأكبار يضربن ويذكّرن القوم قتلى بدر، ومعهنّ مكأحل ومراود، فكلما ولّى رجل أو تكعكع ناولته إحداهنّ مروداً ومكحلة، يقلن: إنّما أنت امرأة، ولقد رأيتهنّ ولّين منهزمات مشتمرات، ولها عنهنّ الرّجال أصحاب الخيل، ونجوا على متون خيلهم، وجعلنّ يتبعنّ الرّجال على أقدامهنّ، فجعلنّ يسقطن في الطريق، ولقد رأيت هنداً بنت عتبة، وكانت امرأة ثقيلة، ولها خلق، قاعدة خاشية من الخيل، ما بها مشي، ومعها امرأة أخرى، حتى كثر القوم علينا، فأصابوا منا ما أصابوا، فعند الله نحسب ما أصابنا يومئذ من قبل الرّماة ومعصيتهم لرسول الله ﷺ.

قال الواقدي: وحدثني ابنُ أبي سبرة، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة، عن الحارث بن عبد الله، قال: سمعتُ عبد الله بن زيد بن عاصم، يقول: شهدتُ أحداً مع رسول الله ﷺ، فلما تفرّق الناس عنه، دنوت منه، وأمّي تذبّ عنه، فقال: يا ابن عُمارة، قلت: نعم، قال: ارم، فرميّ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر، وهو على فرس، فأصابت عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة، حتى نضدت عليه منها وقرأ، والنبى ﷺ ينظر إليّ ويتبسم، فنظر إلى جرح بأمّي على عاتقها، فقال: «أمك أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت! لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان،

ومقام ربيبك - يعني زوج أمه - خير من مقام فلان، رحمكم الله من أهل بيت! فقالت أمي: ادع لنا الله يا رسول الله أن ترافقك في الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»، قالت: فما أبالي ما أصابني من الدنيا.

قال الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبيحتها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها، فأذن، فلما صلى الصبح غدا يريد النبي ﷺ، فلزمته جميلة، فعاد فكان معها، فأجنب منها، ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقبل لها بعد: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرِجَتْ، فدخل فيها ثم أطبقت. فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بي، فعلفت منه بعبد الله بن حنظلة. ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد، فولدت له محمد بن ثابت بن قيس: وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله ﷺ بأحد، وهو يسوي الصفوف، فلما انكشف المشركون، اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب، فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت^(١) الفرس، ويقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان بن حرب! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمع الصوت رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة، حتى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح. فأنفذه، ومشى حنظلة إليه في الرمح فضربه ثانية فقتله، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه، فلحق ببعض قريش، فنزل عن صدر فرسه، وردف وراءه أبا سفيان، فذلك قول أبي سفيان يذكر صبره ووقوفه وأنه لم يفر، وذكره محمد بن إسحاق:

ولو شئتُ نجَّيتُ كميثَ طِمْرَةٍ	ولم أحمل النعماء لابن شعوب
وما زال مُهري مزجرَ الكلب فيهم	لذن غُدوةً حتى دنت لُغروب
أقاتلهم وأدعي يالَ غالبٍ	وأدفعهم عنِّي بركن صليبٍ
فبُكِّي ولا ترعي مقالة عاذلٍ	ولا تسامي من عبيرة ونحيبٍ
أياك وإخواناً لنا قد تتابعوا	وحق لهم من حسرة بنصيبٍ
وسلي الذي قد كان في النفس إنني	قتلتُ من التجار كل نجيبٍ
ومن هاشم قَرماً كريماً ومُصعباً	وكان لَدَي الهيجاء غير هيبٍ
ولو أنني لم أشف نفسي منهم	لكانت شجاً في الصُدر ذات ندوبٍ
فآبوا وقد أودى الجلابيبُ منهم	بهم كمد من واجم وكثيبٍ
أصابهم من لم يكن لدمائهم	كفاء ولا في سنخهم بضريبٍ

(١) سقطت من ناحية مؤخرها ورمت به، اللسان، مادة (كسع).

قال الواقدي: مرّ أبو عامر الراهب على حنظلة ابنه وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، فقال: إن كنت لأحذرك هذا الرجل - يعني رسول الله ﷺ - من قبل هذا المصرع، والله إن كنت لبراً بالوالد، شريف الخلق في حياتك، وإن مماتك لمع سراة أصحابك وأشرفهم، إن جزي الله هذا القتيل - يعني حمزة - خيراً، أو جزي أحداً من أصحاب محمد خيراً، فليجزك، ثم نادى: يا معشر قريش، حنظلة لا يمثل به، وإن كان خالفني وخالفكم، فلم يأل لنفسه فيما يرى خيراً، فمثل بالناس وترك حنظلة فلم يمثل به.

وكانت هند بنت عتبة أول من مثل بأصحاب النبي ﷺ، وأمرت النساء بالمثل، وبجذع الأنوف والآذان، فلم تبق امرأة إلا عليها مغضدان ومسكتان وخدمتان إلا حنظلة لم يمثل به، وقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضّة»^(١).

قال أبو أسيد الساعدي: فذهبنا فنظرنا إليه، فإذا رأسه يقطر ماء، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنه خرج وهو جنب.

قال الواقدي: وأقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عتبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزيّنة، فوجد المدينة خلواً، فسألا: أين الناس؟ قالوا: بأحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقال: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد، فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغاروا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلف الناس، فقاتلا أشد القتال، فانفرت فرقة من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا، ثم رجع فانفرت فرقة أخرى، فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبتها بالسيف حتى ولّت، ثم رجع فطلعت كتيبة أخرى، فقال النبي ﷺ: «من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله فقال: «قم وأبشر بالجنة». فقام المزني مسووراً يقول: والله لا أقبل ولا أستقبل، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون، حتى خرج من أقصى الكتيبة، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم ارحمه، ثم يرجع فيهم»، فما زال كذلك وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسياقهم ورماحهم، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة بالرماح، كلّها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المثل يومئذ. ثم قام ابن أخيه، فقاتل كنهو قتاله، حتى قُتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب مئة أموت عليها لما مات عليها المزني.

(١) أخرجه السيوطي في جامعه رقم: ٢٦٤٦.

قال الواقدي: وكان بلال بن الحارث المزني يحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا، وقسمت بيننا غنائمنا، أسقط فتى من آل قابوس من مزيعة، فجثت سعداً حين فزع من نومه، فقال: بلال! قلت: بلال، قال: مرحباً بك، مَنْ هذا معك؟ قلت: رجل من قومي، قال: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أحد! قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً وأهلاً، أنعم الله بك عينا! لقد شهدت من ذلك الرجل يوم أحد مشهداً ما شهدت من أحد قط، لقد رأيتنا وقد أحرق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ يرمي ببصره في الناس يتوسمهم، ويقول: «مَنْ لهذه الكتيبة؟» كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله، كل ذلك يرذ الكتيبة، فما أنسى آخر مرة قالها، فقال له رسول الله ﷺ: «قم وأبشر بالجنة»، فقام وقمت على أثره، يعلم الله أنني أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخفضنا خزماتهم، حتى رجعنا فيهم الثانية، فأصابوه رحمه الله، ووددت والله أنني كنتُ أصبت يومئذ معه، ولكن أجل استأخر، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجع.

قال الواقدي: وقال سعد بن أبي وقاص: أشهدُ لرأي رسول الله ﷺ واقفاً على المزني، وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك، فإني عنك راضٍ»، ثم رأي رسول الله ﷺ قام على قدميه، وقد ناله عليه السلام من ألم الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام يشق عليه على قبره، حتى وُضع في لحده وعليه بُردة، لها أعلام حُمْر، فمد رسول الله ﷺ البردة على رأسه، فخمره وأدرجه فيها طويلاً، فبلغت نصف ساقه، فأمرنا فجمعنا الحرمل، فجعلنا على رجله وهو في لحده، ثم انصرف فما حال أحب إلي من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المزني.

قال الواقدي: وكان رسول الله ﷺ يوم أحد قد خاصم إليه يتيم من الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر في عذق بينهما، ففضى رسول الله ﷺ لأبي لبابة، فجزع اليتيم على العذق، فطلب رسول الله ﷺ العذق إلى أبي لبابة لليتيم، فأبى أن يدفعه إليه، فجعل رسول الله ﷺ يقول لأبي لبابة: «ادفعه إليه ولك عذق في الجنة»، فأبى أبو لبابة، وقال ثابت بن أبي الدحداحة: يا رسول الله أرأيت إن أعطيت اليتيم عذقه من مالي! قال: «لك به عذق في الجنة»، فذهب ثابت بن الدحداحة، فاشترى من أبي لبابة ذلك العذق بحديقة نخل، ثم رد العذق إلى الغلام، فقال رسول الله ﷺ: «رب عذق مثل لابن الدحداحة في الجنة»، فكانت ترجى له الشهادة بذلك القول، فقتل يوم أحد.

قال الواقدي: ويقبل ضرار بن الخطاب فارساً يجرّ قناةً له طويلة، فيطعن عمرو بن معاذ،

فأنفذه، ويمشي عمرو إليه حتى غلب، فوقع لوجهه، قال: يقول ضرار: لا تعدمن رجلاً زوجك من الحور العين، وكان يقول: زوجت يوم أحد عشرة من أصحاب محمد الحور العين.

قال الواقدي: فسألت شيوخ الحديث: هل قتل عشرة؟ قالوا: ما بلغنا أنه قتل إلا ثلاثة، ولقد ضرب يومئذ عمر بن الخطاب حين جال المسلمون تلك الجولة بالقناة، وقال: يا بن الخطاب، إنها نعمة مشكورة، ما كنت لأقتلك.

قال الواقدي: وكان ضرار يحدث بعد، ويذكر وقعة أحد، ويذكر الأنصار فيترحم عليهم، ويذكر غنائهم في الإسلام، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت، ثم يقول: «لقد قتل أشرف قومي ببدر»، فأقول: مَنْ قتل أبا الحكم؟ فيقال: ابن عفرأ. من قتل أمية بن خلف؟ فيقال: حبيب بن يساف. من قتل عُقبة بن أبي معيط؟ فيقال: عاصم بن ثابت. من قتل فلان بن فلان؟ فيسمى لي من الأنصار، مَنْ أسر سهيل بن عمرو؟ فيقال: مالك بن الدخشم. فلما خرجنا إلى أحد، وأنا أقول: إن قاموا في صياصيتهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياماً ثم ننصرف، وإن خرجوا إلينا من صياصيتهم أصبنا منهم، فإن معنا عدداً أكثر من عددهم، ونحن قوم موتورون، خرجنا بالظعن يذكّرنا قتلى بدر، ومعنا كُراع ولا كُراع معهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ففُضي لهم أن يخرجوا، فالتقينا، فوالله ما قمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولين، فقلت في نفسي: هذه أشد من وقعة بدر، وجعلت أقول لخالد بن الوليد: كُّر على القوم، فيقول: وتري وجهاً نكر فيه! حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرّماة خالياً، فقلت: يا أبا سليمان، انظر وراءك، فعطف عنان فرسه، وكررنا معه، فأنتهينا إلى الجبل، فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نُفيراً فأصبناهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارون ينتهبون عسكرنا، فأقحمنا الخيل عليهم، فتطايروا في كل وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة، فلا أرى أحداً، هربوا فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان، فصبرنا لهم، وصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي، وترجلت فقتلت منهم عشرة ولقيت من رجل منهم الموت الناقع، حتى وجدت ريح الدم، وهو معانقي ما يفارقني، حتى أخذته الرماح من كل ناحية، فوقع. فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي، ولم يهني بأيديهم.

قال الواقدي: وقال رسول الله ﷺ يوم أحد: مَنْ له علم بذكوان بن عبد قيس؟ فقال عليّ عليه السلام: أنا رأيت يا رسول الله فارساً يركض في أثره حتى لحقه، وهو يقول: لانجوت إن نجوت! فحمل عليه فرسه وذكوان راجل، فضربه وهو يقول: خذها وأنا ابن علاج! فاهويت إلى الفارس، فضربت رجله بالسيف، حتى قطعتها من نصف الفخذ، ثم طرحته عن فرسه فذفت عليه، وإذا هو أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي.

قال الواقدي: وقال علي عليه السلام: لما كان يوم أحد وجال الناس تلك الجولة أقبل أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهو دارع مقنّع في الحديد ما يرى منه إلا عيناه، وهو يقول: يوم بيوم بدر! فيعرض له رجل من المسلمين، فقتله أمية، قال علي عليه السلام: وأصمّد له، فأضربه بالسيف على هامته، وعليه بيضة، وتحت البيضة مغفر، فبنا سيفي، وكنت رجلاً قصيراً ويضربني بسيفه، فأتقي بالدرقة، فلحج سيفه، فأضربه، وكانت درعه مشتمرة، فأقطع رجله، فوقع وجعل يعالج سيفه، حتى خلّصه من الدرقة، وجعل يناوشني وهو بارك حتى نظرت إلى فتق تحت إبطه فأحشّ فيه بالسيف، فمال فمات، وانصرفت.

قال الواقدي: وفي يوم أحد انتمى رسول الله ﷺ، فقال: «أنا ابن العواتك»، وقال أيضاً:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قال الواقدي: بينا عمر بن الخطاب يومئذ في رهط من المسلمين قعود، مرّ بهم أنس بن النضر بن ضمضم عمّ أنس بن مالك، فقال: ما بقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم قام، فجالد بسيفه حتى قتل، فقال عمر بن الخطاب: إني لأرجو أن يبعثه الله أمّة وحده يوم القيامة، ووجد به سبعون ضربة في وجهه ما عُرِفَ حتى عرفته أخته.

قال الواقدي: وقالوا: إن مالك بن الدخشم مرّ على خارجة بن زيد بن زهير يومئذ وهو قاعد، وفي حشوته ثلاثة عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل، فقال له مالك: أما علمت أنّ محمداً قد قتل! قال خارجة: فإن كان محمداً قد قتل، فإن الله حيّ لا يُقتل ولا يموت، وإنّ محمداً قد بلغ رسالة ربه، فاذهب أنت فقاتل عن دينك.

قال: ومرّ مالك بن الدخشم أيضاً على سعد بن الربيع، وبه اثنا عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل، فقال: أعلمت أنّ محمداً قد قتل! فقال سعد: أشهد أنّ محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتل أنت عن دينك، فإنّ الله حيّ لا يموت.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صغصعة المازني، أخو بني النّجار، قال: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، أَفِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟»، فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً في القتلى، وبه رَمَقٌ، فقال له: إنّ رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات، قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله خيراً عنا ما جرى نبياً عن أمته وأبلغ قومك السلام

عني، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف، قال: فلم أبرح عنده حتى مات، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهم ارض عن سعد بن الربيع».

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن عمار، عن الحارث بن الفضيل الخطمي، قال: أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع، قد سقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشر الأنصار، إليّ إليّ أنا ثابت بن الدحداحة! إن كان محمد قد قُتل، فإن الله حي لا يموت! قاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم، وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء فيها رؤساؤهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح قطعته، فأنفذه فوق ميتاً، وقتل من كان معه من الأنصار، فيقال: إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين في ذلك اليوم.

وقال عبد الله بن الزبيري يذكر يوم أحد:

ألا ذرفت من ثقلتيك دموع
وشط بمن تهوى المزار وقرقت
وليس لما ولي على ذي صباية
فدغ ذا ولكن هل أتى أم مالك
ومجنبنا جرداً إلى أهل يثرب
عشبة سرتنا من كداء يقودها
يشد علينا كل زحف كأنها
فلما رأونا خالطتهم مهابة
فودوا لو أن الأرض ينشق ظهرها
وقد عريت بيض كأن وميضها
بأيماننا نعلوبها كل هامة
فغادرن قتلى الأوس عاصبة بهم
ومر بنو الشجار في كل تلعة
ولولا علو الشعب غاذرن أحمداً
كما غاذرت في الكر حمزة ثاوباً

وقد بان في جبل الشبَاب قطوع
نوى الحي دار بالحبيب فجوع
وإن طال تذراف الدموع رجوع
أحاديث قومي والحديث يشيع
عناجيج فيها ضامر وبديع
ضرور الأعداء للصديق نفوع
غدير نضوح الجانبين نقيع
وخامرهم رعب هتاك فظيع
بهم، وصبور القوم ثم جزوع
حريق وشيك في الأباء سريع
وفيها سمام للعدو ذريع
ضباع وطير فوقهن وقوع
بأثوابهم من وقعهن نجيع
ولكن علا والسهرى شرع
وفي صدره ماضي الشباة وقيع

وقال ابن الزبيري أيضاً من قصيدة مشهورة، وهي:

يا غرابَ البين أسمعك فقل
إنَّ للخير وللشرِّ مدى
كلَّ خيرٍ ونعيمٍ زائلٍ
أبلغنا حسانَ عني آيةً
كم ترى بالجسر من جُمجمة
وسراييلَ حسانٍ شَقَقَتْ
كُم قتلنا من كريمٍ سيد
صادق النُّجدة قُرْمٍ بارِع
فسلِّ المِهْراسَ مَنْ ساكنه؟
ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا
حين حطت بِقُبَاءٍ بَرَكْهَها
ثم خَفَوْا عِنْدَ ذَاكُم رُقْصاً
فَقَتَلْنَا النِّصْفَ مِنْ سَادَاتِهِمْ
لا ألوم النُّفْسَ إلَّا أَننا
بسيوفِ الهند تَغْلُو هامَهُمْ
إنما تَنْدُبُ أمراً قد فَعِلَ
وسواء قَبْرِ مَثَرٍ ومُقِلٍ
وينات الذَّهْرُ يلعبُ بِكُلِّ
فقريض الشعر يشفي ذا الغُللِ
وأَكْفُفاً قد اتَّسَرَتْ وِرْجُلُ
عَنْ كُفْمَاةٍ عُودِرُوا فِي الْمَنْتَزَلِ
ماجد الجدِّين مَقْدَامَ بَطْلٍ
غير ملطَّاطٍ لَدَى وَقْعِ الْأَسْلِ
من كراديس وهامٍ كالْحَجَلِ
جَزَعِ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ
واستعَرَ القتل في عبدِ الْأَسْلِ
رَقَصَ الْحَفَّانِ تَعْدُو فِي الْجَبَلِ
وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَاغْتَدَلْ
لَوْ كَرَزْنَا لَفَعَلْنَا الْمُفْتَعَلْ
تبرد الغَيْظُ وَيَشْفِيَنَّ الْغُلْلُ

قلت: كثير من الناس يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية، وهو وقوله: «ليت أشياخي»، وقال مَنْ أكره التصريح باسمه: هذا البيت ليزيد، فقلت له: إنما قاله يزيدُ متمثلاً لما حُمِلَ إليه رأس الحسين عليه السلام، وهو لابن الزُّبَيْرِ، فلم تسكن نفسه إلى ذلك، حتى أوضحت له، فقلت ألا تراه يقول: «جزع الخزرج من وقع الأسل»^(١)، والحسين عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج، وكان يليق أن يقول: «جزع بني هاشم من وقع الأسل»، فقال بعض من كان حاضراً: لعله قاله في يوم الحرة! فقلت: المنقول أنه أنشده لما حمل إليه رأس الحسين عليه السلام، والمنقول أنه شعر ابن الزُّبَيْرِ، ولا يجوز أن يترك المنقول إلى ما ليس بمنقول.

وعلى ذكر هذا الشعر فلاني حضرت وأنا غلام بالنظامية ببغداد في بيت عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بالمحب، خازن دار الكتب بها وعنده في البيت باتكين الرومي الذي ولى إربل أخيراً وعنده أيضاً جعفر بن مكي الحاجب، فجرى ذكر يوم أخذ وشعر ابن الزُّبَيْرِ هذا وغيره، وأن المسلمين اعتصموا بالجبل، فأضعدوا فيه، وإن الليل حال أيضاً بين المشركين وبينهم، فأنشد ابن مكي بيتين لأبي تمام متمثلاً.

(١) أخرجه البيهقي في سننه: ٦٤/٦، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور: ٣١٢/١.

لولا الظلام وَقَلَّةُ عَلَقُوا بِهَا باتت رقابهم بغير قلال
فليشكروا جُنَحَ الظلام وذرّوذاً فهم لذرّوذاً والظلام موالِي
فقال باتكين: لا تقل هذا، ولكن قل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾
حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَفَقْتُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ^(١) وكان باتكين مسلماً، وكان جعفر سامحه الله مغموصاً عليه في دينه.

تم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد ويليهِ الجزء الخامس عشر

الفهرس

الموضوع

الصفحة

الجزء الثالث عشر

- ٢٢٤ - ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة ٥
- ٢٢٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الوصية بالتقوى ٥
- ٢٢٦ - ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدي في كتاب «الجمال» ٨
- ٢٢٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة، وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام ٩
- ٢٢٨ - ومن كلام له عليه السلام في أحجام اللسان عن الكلام ١٠
- ٢٢٩ - ومن كلام له عليه السلام عند اختلاف الناس ١٣
- ٢٣٠ - ومن كلام له عليه السلام قاله وهو يلي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه ١٦
- لمع من سيرة الرسول ﷺ عند موته ١٨
- ٢٣١ - ومن خطبة له عليه السلام في صفة خلق بعض الحيوانات ٣٠
- في ميزات وصفات الذرة والنملة ٣٩
- غرائب الجراد ٤٦
- ٢٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام : في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة غيرها ٤٧
- ٢٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام تختص بذكر الملاحم ٦٣
- ٢٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الوصية بالتقوى ٦٥
- ٢٣٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الإيمان ووجوب الهجرة ٦٦
- قصة واعظ مشهور ببغداد ٧٠
- ٢٣٦ - ومن خطبة له عليه السلام في الأمر بالتقوى ٧٢
- ٢٣٧ - ومن خطبة له عليه السلام في وصيته بالزهد ٧٥
- ٢٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام في ذم الكبر ٨٤
- أسباب وأد البنات ١١٤
- القول في إمامة أبي بكر والرد عليه ١٢١
- صلة علي برسول الله ﷺ في صغره ١٣٠
- حياة الرسول ﷺ في بدء نشأته ١٣٢

١٤١ في إسلام أبي بكر وعلي عليهما السلام
 ٢٣٩ - ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن عباس، وقد جاءه برسالة من عثمان، وهو محصور
 يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع، ليقبض الناس باسمه للخلافة، بعد أن كان سأل
 ١٩٦ مثل ذلك من قبل
 ١٩٧ وصية العباس لعلي عليه السلام قبل موته
 ٢٠١ ٢٤٠ - ومن كلام له عليه السلام اقتصر فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به
 ٢٠٣ ٢٤١ - ومن خطبة له عليه السلام في المسارعة إلى العمل
 ٢٠٤ ٢٤٢ - ومن خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام
 ٢٠٧ نسب أبي موسى الأشعري
 ٢٠٩ ٢٤٣ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله

الجزء الرابع عشر

باب الكتب والرسائل/ ١ -	من كتاب له <small>عليه السلام</small> إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة	٢١٣
.....	الإمام علي <small>عليه السلام</small> في طريقه إلى البصرة	٢١٤
.....	نبذة من حياة عائشة ونسبها	٢٢٤
٢ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> إليهم بعد فتح البصرة	٢٢٦
٣ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> كتبه لشريع بن الحارث قاضيه	٢٢٧
٤ -	ومن كتاب له كتبه <small>عليه السلام</small> إلى بعض أمراء جيشه	٢٣٠
٥ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> إلى الأشعث بن قيس، وهو عامل أذربيجان	٢٣٠
٦ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> إلى معاوية	٢٣١
.....	إرسال علي <small>عليه السلام</small> جريراً إلى معاوية	٢٣٣
٧ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> إليه أيضاً	٢٣٥
٨ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية	٢٣٧
٩ -	ومن كتاب له <small>عليه السلام</small> إلى معاوية	٢٣٨
.....	قريش وبنو هاشم	٢٤١
.....	في غزوة بدر	٢٦٤
.....	في الغنيمة والأسرى بعد انتصار المسلمين في بدر	٣١٧
.....	في أسماء أسارى بدر وأسماء من أسرهم	٣٣٩
.....	في ذكر أسماء المطعمين في بدر من المشركين	٣٤٣
.....	أسماء المستشهدين من المسلمين ببدر	٣٤٤
.....	أسماء المشركين المقتولين ببدر وأسماء قاتليهم	٣٤٥
.....	أسماء المسلمين ممن شهدوا بدرأ	٣٤٧